

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا (قسم الأدب والنقد)



فن السخرية في أدب الجاحظ
إشراف
الدكتور / محمد نور محمد

عليه رحمته الم

√ 70



٢٧٥١

الرسالة التي تقدم بها للحصول على الدكتوراه
السيد نشأت محمود العناني
عام ١٩٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة .

أحمدك اللهم على جعل إنصافك ، وأشركك شكر المحترف بحنتك وأفضالك ، وأستلمك
للحون والرشاد ، والتوفيق والسداد ، سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم
الحكيم . . وأصلي وأسلم على صفة خلقك ، وأكرم أنبيائك محمد عليه الصلاة والسلام ،
ما خط قلم في قرطاس ، وما ظهرت الفصاحة والبلاغة بين الناس ، وما بقي من يتحدث بلسنة
القرآن ويحمل على سمعها

أما بعد

فقد حفل أدبنا العربي بالموضوعات الجادة في شتى نواحيه ، وسخلف اتجاهاته
وكانت له القدم الراسخة ، والهدى الطولى ، والمقل الرصين ، الذي جلى النواصير
وكشف المعاني ، ولم يترك أمراً من الأمور إلا وقد ضمه بضياة ، فهدى ظلما ، وأبرز
مخباته .

وقد عبرت المكتبة العربية ، وخاصة المكتبات الجامعية بالعديد من الرسائل العلمية
والأدبية والفنية ، التي ألفت الضوء على الجوانب المظلمة في العلم ، وأزاحت النقاب
عن النواحي المجهولة في الأدب والفن ، فأثرت اللفظة العربية ، والفكر الإنساني ، بها
أضواء جديدة الأفكار ، ورضين الآراء ، وجاء الموضوعات .

ولكن صرامة الجهد ، وثقل الدرس ، وصق الموضوعات ، وبعد أفوارها ، وسعت الأدب
العربي بالجديّة والوقار ، مما جعل كثيرا من دارسيه وثقاده يخلعون عليه بأجمعه
صفات الخشونة والجفاف ، والثقل والإرهاق ، والجمود والتصلب ، ويصفونه بالصبر
والتقطيب .

فأحييت أن أثبت أن أدبنا العربي باسم الفخره باشبالوجهه وضاح الجبينه وتزيد
مباشته وهماشته وسماته ، في كثير من الحالات ، وفي العديد من الموضوعات فتتحول
إلى ضحكات وقهقهات ، تملأ أصواتنا ، وترتفع نبراتنا . . . فمعدت العزم على أن أجعل
ذلك موضوع بحثي ، ومحمور دراستي .

وأصبح بأن هذا الموضوع صادف هوى في قلبي ، وأقبالا من نفسي لما عرفته مسن
اصطحابا لظرفا الضاحكين ، والأدباء الهازلين ، وطعما فينا عندهم ، وطربسا
واصجابا بما يكون فيهم من الهاجية ، وحضور بدوية ، وسرعة جواب ، وحسن تخلص ، في
أضيق المآزق ، وأدلك المسالك ، مما يضي على نفسي بهجة ، وعلى روعي تألقا ، ثم
أعكس ذلك على نفوس قرائي سرورا وانشراحا .

وقد وقع اختيارى على أرقى العصور علما وأدبا ، وترجمة ونقله ، وفكرا وثقافة ،
وتألقا ، وإنتاجا ، وثقنا وابتكارا ، وهو العصر العباسي ، الذي تدين له الأمة العربية
والمجتمعات الإنسانية ، في شتى بقاع الأرض بالفضل والأستاذية ، حتى يومنا هذا . . .
لأنه أن النهضة والتقدم ، والرقى العلمى والأدبى والفنى في دولة قدست العلم
ومجدت الأدب والفن ، لم ينعمها من المرح والخير ، والفكاهة والضحك ، وأن انعمها سها
في بناء الأمة ، ورفع صح حضارتها ، والإفراق في العلم والفنون والآداب ، لم يصرفها
عن الفكاهة والمهزل والسخرية رغبة في إذهاب الملل ، وطرد السأم ، والتخفف من
عنا . . . الدرس ، ونقل الجده . بل إن العباسيين اعتبروها فنونا أدبية راقية ، فيها
الراحة والمتعة ، وفيها التعليم والتثقيف ، والنقد والترجيح ، كالفنون الجادة تماما ،
بل تفوقها بالإمتاع والترجيح . . . وإذا استطاع المرء أن يعلم وهو يضحك ويمرح ، وأن

يعلم وهو ليس وحيث ، فقد بلغ التعليم قوته ، وحقق أسمى ما يطلبه علماء النفس
والفلسفة والاجتماع ، وتلك غاية بعيدة العال ، لا يصل إليها غير الأقداد من الرجال .
كما أردت أن أبين أن الضحك في أدبنا موجود ، وفريد منذ عصوره البعيدة وقبل
أن يعرفه الناس في آدابهم ، بل قبل أن يرجعوا عن اعتقادهم القاسد أنه عيب ونقص
وفاق وقته ، وسقوط للهيبة ، وأسقاط للعزوة .

وعلى أن هذا العصر العباسي كان أقدر من غيره على امتلاك عنوان الكلمة الضاحكة
والقبيح على زمام السخرية اللاذعة ، بما حباها الله من العيش الرخي ، والتباين الطبقي
والشدود الاجتماعى ، والتفوق الأدبي .
وكل هذا جذبني إلى العصر العباسي ، فسمعت وحيي شطرنجه العذب ، وورده
الناره ورجعت إلى الروايات اثني عشر قرناً من الزمان ، لأرى ذلك المجتمع الحافل بالمرح
والدهابة ، ولاجلس إلى الأدباء الكلابيين في الضحك ، التابعين في الفكاهة
والظرف والسلمج ، فجلست مع أروع دلائمة ، وأبين الميناء ، وأبين الصبر ، وأبين نواس ،
وشامة بن الأشرس ، والنظام ، وشار بن برد ، وابن الرومي وغيرهم من الفكاهيين
المرحيين ، فسمعت بفكاهاتهم ، وطربت لحضور بدعيتهم ، وحدة أذهانهم ، ولكن جلست
طالت ، وصحبتى امتدت مع شيخ الفكاهيين ، وزعيم الضاحكين الضاحكين أبي عثمان عمرو
ابن بحر الجاحظ ، إذ كان يحلمني وأنا أضحك ، ويضحكني وأنا أتعلم ، وكانت لأمالجحه
وأفكاهيه طعم خاص ، ونكبات محببة ، وإنبعاثات تطرد كل هم ، وتديب ما يجثم على
الصدر من كرب وهم ، ورأيته الرائد في هذا الفن ، والسابق في تلك الحلبة ، والقدم
في هذا الباب ، فأعجبت به ، وأفرقت بحديثه واتخذته الهدف ، ومحرك اليأس
وهو لذلك أهل ، وصاحب جدارة وسبق .

ومن كأي عثمان ، أديب العربية الصفاق ، وشيخ المحترمين ، وزعيم الطائفة
الجاحظية التي تسمت باسمه ، وكونت مدرسة ، وحلبس الوزراء والخلفاء ، وخير المجتمع

الذي سبر غوره ، وكشف دخائله ، وقاص في أفراده ، ورائد فن الضحك والسخر ، ومؤلف
كتاب الخلاء ، ورسالة التريخ والتوير ، ومفاخرة لمرجان والبرصان والقردان ، ومفاخرة
الحول والموره ومفاخرة السودان والبيضان ، والذي تمنى كل من أتى بعده أن يكونه ، فلما
مز عليه ذلك وتأي ، ألقى نفسه به ، ونسب عقليته إليه ، وتسمى بالجاحظ الثاني
وأستطعن أن أقول دون تحيز ، أنه يندر أن تجد موصفا من الموضوعات لم يطرقه ابن بحر
ولم يخض بحره ، فيصيد الدرر ويقتن اللؤلؤ ، وتكون طريقته أحسن الطرق ، وفكره أرقى
الفكر ، حتى الصناعات اليدوية كان له بها خبرة وحذق ، ويكفي ما روى أن مؤلفاته قاربت
الأصمالة كتاب ، لمعرفة سهولة قلمه ، وفيض قريحته ، وفزارة إنتاجه ، ويكفي ما وصل إلينا
من أخبار كتبه التي تعدع الشيء ثم تدمه ، وتصفه وصفا محبيا ، يجعل النفس تشر له ، وتقبل
عليه ، وتتمنى حيا زته ، ثم يصفه وصفا ضفرا ، ومحددا مساوته ، مقبحا ما فيه ، وما يجعل المرء
يزور عنه ، ولوى جيد نفورا منه ، وهريا من بشاعته ، لمعرفة كيفية إنتاجه ، واستيلائه على
المقول ، وامتلاكه نواصي القلوب .

ولكني لم أنشأ أن أجعل الفكاكة موصفا لرسالتي ، لأنني أحب أن أبحث في دائرة
أضيق ، وأعتقد أن الرسائل الجامعية يحسن فيها أن تتناول نقطة صغيرة ، وفكاسة
ضئيلة ، ثم لا تزال توسعها وتتميمها ، وتنظمها وتقسيمها ، مستمينة بالأدلة وضرب الأمثلة ،
حتى تجعلها موصفا تام الخلق ، وبسوط الأجزاء ، وكلما ضل موضوع البحث ، وصفرت فكرته
كان البحث فيه مفيدا مجديا ، وبخاصة في عصرنا الحلي ، وعصر التخصص والتدقيق ،
وبذلك يخلق الباحث موصفا ، ويسوي من الذرة خلقا جديدا شامخا ، فيه بحالم الحياة ،
وصفات الأحياء ، كما ينظر العالم في مجهره ، فيرى قطرة الماء عالما شاسعا ، وبحرا لجيا ،
ملونا بالأحياء والصراع ، فيخبرنا بما يراه ويشعر به ، ويطلعنا على عالم لا ندرك تفاصيله ،

ولا يعجز بدقا فقه ، ومن هنا تكون الفائدة ، ويكون الابتكار والاكتشاف ، والإحاطة بكل ما يتطلبه البحث والدرس .

فلما تفرست أدب الجاحظ الضاحك وفتشته ، أعجبنى منه لون جذبني بريقه ، وبهرني ضياؤه
وراعني تفننه وتأنقه ، وبراعة صوفه ، ودقا ضمعه ، ذلك اللون هو السخرة ، فرأيت حريصا
بالبحث ، خليقا بالدرس ، محتاجا إلى تجلية قيمته ، وإبراز قوته ، وتوضيح اعتقائه وروحه ،
وأنت من نفس القدرة على إيفائه حقه ، وإبرازه في صورة تروقني وتمجبنى ، فحصرت بحثي
فيه ، وقصرته عليه ، وأخذت على عاتقي إبرازه في إطار يرفع قيمته ، ويخلط عليه أهميته وفنيته
وينقب قلبه ليخرج كوزه ودقائقه ، وأنا مقتنع بما أفضل ، وأثق من دقة المدخل ، ووعورة

المسلك ، والتعرض لمباحث علم الاجتماع ، ومناهج علم النفس ، ونظريات الفلاسفة المعقدة ،
فاستخرت الله تعالى في كتابة هذا البحث ، وشهدت ذهني ، وجمعت شتات فكري ، وبدأت
مرحلة شاقة من البحث والدرس ، والخصوص وراء المعاني التي قصدتها أبو عثمان ، والفكرات التي
كأنت تصدر عنه ، في نعومة وملاسة ، ودقة ورقة ، لا ينتبه لها إلا الفطن اللقن ، والنقسي
البحس ، وصرت أتفكر كلما تم ، وأستبطن تلميحاته وإشارات ، وأتعمق مراهبه ، وهو رجل بعيد
النور ، خفي اللذع ، يحتاج في فهم مقاصده ووخزاته إلى مقدرة خاصة ، وتعمق بأدبسه ،
ومحرفة بوجوه كلامه على أن من تحدثوا عن سخره لم يتجاوزوا عدة صفحات ، لا تشفى
الخليل ، بل لا تهل اللهاة ، فلم يقسموا وينظموا ، ولم يفصلوا ويبينوا ، بل كان حديثهم

عارضا ، وكلامهم مقتضبا ، مما ألقى على الصب كأملا ، وجمل المراجع لا تشفى إلا بقدر ضئيل
أما اعتمادى الكامل فكان على المصادر نفسها ، والقدرة على الاستنباط منها ، والاستدلال
بها فيها ، ولقد بحثت ونقبت ، واستبطلت واستدللت ، وأرجو أن أكون قد وفقت ، وأعطيت
الموضوع حقه ووفيت .

تم عرضت لكلمة فن ، وأوضحت مبادئها ، ومدى ارتباط الرسالة بها ، كما بينت ما أعنيه بأدب الجاحظ ، وهذا هو الفصل الأول الذى سلطت فيه الضوء على عنوان الرسالة ، وأظهرت اتجاهي فيما سأتناوله من كلمة فن وكلمة السخرية وكلمة أدب الجاحظ ، التى تكون العنوان وتحتوى المضمون .

الفصل الثانى ، وفيه تأملت فى مقومات السخرية ومكونات بنيانها ، والمواد التى يتأزرها وتمازدها يتحقق السخر ، ويوجد الطنز ، كما بينت الأهداف التى تنصب إليها ، والغايات التى تحققها ، وأنها نبيلة هادفة ، وجادة باسمة .

الفصل الثالث ، وقد أوضحت فيه الدوافع التى تثير النفس ، وتنبج الوجدان ، وحتى يظهر السخر على لسان الساخر ، ويبدو فى حركاته وسكناته ، كما عدت العناصر اللازمة لنجاح السخرية حتى تحقق أهدافها ، وتصل إلى غاياتها .
والسخرية ذلك الفن الأدبى الراقى لها مكانتها الرفيعة بين سائر الألوان الأدبية ، ليس أرقى الألوان الفكرية البازلة ، وهى فى الوقت نفسه فيها الجد والحزم ، وليست بمهجوحة ولا تافهة إن قصد بها الإصلاح والتعمير وللقضاء فى ذلك أسانيد وللمفسرين والمتصوفين والأدباء حجج وبراهين وذلك مبحث الفصل الرابع .

الباب الثانى ، الجاحظ الأدبى الساخر ،

الفصل الأول ، يتناول حياة الجاحظ فى مجالته يربطه بصيغته من الضوء على أدبه الراقى وإنتاجه الفريد .

الفصل الثانى ، يبحث عن العوامل الجديدة التى كانت وراء سخره والتى دفعته إلى هذا النوع من التأليف ، والتى ارتقت بهذا اللون من أدبه حتى وصل به إلى الصدارة والرياسة بين معاصريه ، والتقدم والتفوق على من سبقه ومن لحقه ، حتى عد أبو هذا الفن النقدي الضاحك .

الفصل الثالث : وكان حديثي فيه عن علاقات الجاحظ الاجتماعية وأثرها في سخرته كثره
وصفا وتوما وإتقانا .

الفصل الرابع : بينت فيه وضع الجاحظ لثقافتني والأدبي بين معاصره من علماء وأدباء
وزعماء مخطئا . وكيف كان لهذا الوضع أثر في الصلات بسخرته ونوعها ورقبها وطرقها ،
واقترانه فيها .

الباب الثالث : الجوانب الفنية في سخرات الجاحظ :

وفيه تظهر عبقرية الجاحظ الساخرة ، ومقدرته الأدبية والفنية ، وطاقاته المتعددة ، وتنوع
ثقافته وكثرة مما رفته ، وتفننه وإبداعه ، مما يشهد له بالحدق والابتكار .

الفصل الأول : تحدثت فيه عن التصوير المنزلي " الكاريكاتور " وكيف ارتقى به ، وولد منه ،
وأبداع فيه ، وكيف سما وأرتقى عن المصور والرسام والنحات والنال ، وكيف وصلت براعته
في السخ والتشويه حدافنيا لا يتأل ، أساسه إظهار شعور الساخر ، وشعور القارئ به ،
وكشف باطنه ، وإبراز ما استكن في حناياه من عيوب ، مشوها مجسما مضخما .

الفصل الثاني : عدت فيقال السخرا الذي استعدته المواقف ، واستوحجه المقام ، ودفعته
إليه الأمور المارضة ، والمناظر التي جذبت به بسرعة لشذوذها وشوهدا .

الفصل الثالث : سخرة التضاد ، وهي أسا لسخر ، ومبعت الهزء ، لوجود التناقض ،

وحدث عكس المؤلف المصنوع ، فيسارع أبو عثمان إلى عدسة سخره ، يلقط بها المناظر

ثم يخرج جسمها محرفة ، متحرجة الخطوط ، متوهجة الملامح ، مشوهة القسما .

الفصل الرابع : سخرة الحركة ، وللحركات المستمرة ، والتقلبات المتكررة شذوذها ، وللنصب

والجمود شذوذ وانحراف ، يثير السخر ، ويبعث على الهزء ، والجاحظ يتخذ من الحركة

أداة للسخر من هؤلاء وأولئك ، في عبارة خلاصة ، وصورة مقلوبة رجحاجة .

الكتاب الأول

السيرة في المجال الأدبي



مفهوم السخرية وخصائصها

مفهوم السخرية :
يختلف مفهوم السخرية باختلاف الباحث اللغوية ، والبلاغة والأدبية ،

أ- عند اللغويين :

السخرية : معناها الاستهزاء ، يقال سخرته وهو سخرية أي هزأه ، منه
هزواً ، وفي الحديث : " أتسخر مني وأنا الملك " أي أتستهزئني (١) والسخرية
يقع الخاء كهزة من يسخر من الناس (٢) ويسكون الخاء من يسخره (٣) .
وفي اللغة الفاظ تحمل في طياتها معنى السخرية منها :

هزى هزواً يسكون الزاى وضماً ، ورجل هزأه بالتسكين هزأ به ، وهزأه بالتحريك
هزأاً بالناس (٤)

ويقال زى عليه فعله عابه ، والزأى على الإنسان الذي لا يعده شيئاً
ويكثر عليه فعله (٥) وأزريت به قصوت به وحقرته ، وزريت عليه فعله عهته وغفرتة (٦)
والتهكم : الزاوية والعبث والاستهزاء (٧) وتهكم به تهزأ به وقال ذلك على سبيل
سهول العهكم (٨) .

الطز : السخرية فهو طزاً (٩) ولان يطز بالناس يسخر منهم وطازوا
وطزازوا (١٠) .

:

:

:

- (١) لسان العرب ج ٦ ص ١٧٠ ابن منظور .
- (٢) القاموس المحيط ج ٢ ص ٤٦ ، المعجم الوسيط ج ١ ص ٤٢٢ ، لسان العرب ج ٦ ص ١٧٠
المشجد ص ٣٢٥ .
- (٣) المنجد ص ٣٢٥ .
- (٤) مختار الصحاح للرازي ط ٧ المطبعة الأميرية ص ٦١٥ .
- (٥) مختار الصحاح ص ٢٧١ .
- (٦) أساس البلاغة للزمخشري ص ١٩١ تحقيق عبد الرحمن محمود طبعه دار ابن خلدون .
- (٧) لسان العرب ج ١٦ ص ١٠٠ .
- (٨) أساس البلاغة ص ٤٨٦ .
- (٩) مختار الصحاح ص ٣٩٨ .
- (١٠) أساس البلاغة ص ٢٨٥ .

للمتأخرين مصطلحات تستعمل في السخرية ، وتعدل عليها ، وتحويل في حياها المعنى

والاستخفاف منها

(١) التهمك ، (وهو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء ، فعناء الزواجة والتعب) (١) كالإتيان بلطف البشارة في موضع الإنذار ، والوعد في مكان الوعد والمدح في معرض الاستهزاء قال ابن الرومي

فيا لله من كمثل حال المسيح يروعه الله إلى أسفل (٢)

قال تعالى ، (فبشرهم بعذاب أليم) (٣) وقال المصاحف للمكي بعد أن نسيب من جهله وقد كان يدعى الهجر بالبراهين (قد كنت أشك في بصرك بالدواب فأما بعد هذا فليست أشك فيه) (٤)

وقرب من السخرية وإن لم يكن من صميمها

(٢) المنزل المراد به الجد ، (وهو أن يتعد التهمك طبع إيمان أو تهمه ليخرج من ذلك التعمد مخرج المنزل والسجون لللاقي بالحال ، كما فعل أصحاب النوادر مثل أشعب وأبي ذؤابة وأبي العيثاء ...

حكى عن أشعب أنه حضر وليمة لبعض ولاة المدينة وكان رجلاً يخيلاً فدعا الناس ثلاثة أيام ، وهو يجتمع على ما تده فهبأ جسدي مشوي ، فبشرهم الناس حوله ولا يسد أحد منهم لعلهم يهظه ، وأشعب كان يحضر مع الناس

وهي الجدي ، فقال في اليوم الثالث ، زوجت طالق إن لم يكن عمره هذا الجدي بعد أن نوح وشوى أطول من عمره قبل ذلك (٥)

وهذا اللون ظاهر المنزل وهاظه الجد بخلاف التهمك فإن ظاهره الجسد وهاظه الاستهزاء .

- (١) لسان العرب لابن منظور ج ١٦ ص ١٠٠ .
- (٢) خزنة الأدب لابن حجة الحموي ص ١٢٢ .
- (٣) سورة آل عمران الآية ٢١ .
- (٤) الحيوان ج ٣ ص ٢٢٦ .
- (٥) خزنة الأدب ص ٦٦ .

(٣) الهجوني معرض المدح ، (أن يقصد المتكلم هجاء إنسان فإني بالفاظ موجبة
ظاهراً المدح واطناً القبح فهو مدح أنه مدحه وهو يهجووه كقول الحماسي ،
يجزون عن ظلم أهل الظلم مغفرة ون إمام أهل السوء إحصانا
كان ربك لم يخلق لنفسه سواهم من جمع الناس إنسانا
تظاهر هذا الكلام المدح بالحلم والعفة ، والخشية والظفر ، واطنه المقصود
ألم في غاية الذل وهدم المنعة .

ومنه قول بعضهم في الشريف ابن الشجري ،

ياسيدي والذي يعينك من نظم قريش يصدى به الفكسر

ما نيك من جدك النبي مسوى أنك لا ينهض لك الشعسر

والفرق بين الهجاء في معرض المدح وبين التكم ، أن التكم لا تخلو ألفاظه
من اللفظ الدال على نوع من أنواع الذم ، أو لفظة توهم من نحوها الهجسوء
والفاظ (الهجوني معرض المدح^(١)) لا يقن فيها شيء من ذلك ولا تزال تدل على
ظاهر المدح حتى يقن بها ما يحرقها منه^(٢) .

والهجاء في معرض المدح ، والمدح في معرض الهجاء ، لولان من السوان
الصخر اللاذع ، والتهم المرير ، يقول العلامة " إيجيه " (٣) " إن إهالوس الهابوس
كان حرمها في ابتداعه للمدائح والأهاجي غير المباشرة وهما صوتان مسنون
الصخرة التي تقوم على الهجاء الذي يشبه أن يكون مديحاً ، والمدح السذي
يشبه أن يكون هجاء " وهذا يعني هو ما يمكن أن توصف به بعض أساليب
الجاحظ الساخرة كالذي نراه في رسالة الترهين والتدوير مثلاً^(٤) .

(١) التعبير في الخزانة (المدح في معرض الذم) والصواب ما ذكرت لأنه المناسب
للصحة ولفكرة المؤلف .

(٢) خزانة الأدب : للحموي ص ١٤٦ ، ١٤٧

(٣) الهجلاء للجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، ط دار المعارف ، مقدمة طبعه

الحاجري ص ٢٤ .

(١) العوجية : (وهو يراد الكلام محققا لوجهين متضادين كالمذبح والذم ، كقول
 بشار بن برد : لأحور يحيى معور ، وقد أعطاه فيها ليخيطه ، فأراد معسرو
 السخرة منه ، فقال لبشار : لأخطيته بحيث لا يعلم أنها هوام غيره . قال
 بشار : لكن قلت ذلك لأقول من فيه شعرا لا يدري أهجاء أم غيره . فلما
 غاطه قال فيه :

غاط لي معور قباة لست عينه سواء
 فاسأل الناس جميعا أذبح أم هجساء (١)

(٢) تجاهل الحارف : (وهو عبارة عن سؤال المتكلم عما يعلم سؤال من لا يعلم
 ليهم أن يندد بالتعريف الواقع بين المتكلمين أحدث عند التهام المشبه
 بالمشبه به) (٢).

ومنه قول زهير في التحسير :

وما أدري ولست إخال أدري أقم آل حصن أم نساء

وقوله تعالى في التعويض : **وَإِنَّا أَوْأَيُّكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣)**

(٦) التعويض : وهو أن تذكر شيئا يدل على شيء لم تذكره ، وأصله التلويح من
 عرض الشيء . أي جاءه كقول طيب للسلام (السلام من علم المسلمون من
 لسانه ويده) فهو تعويض يفتى صفة الإحلام عن من لم يعلم الصلحون من
 لسانه ويده) (٤)

(وكان بالرقبة رجل يحدث الناس عن بني إسرائيل ، وكان يفتي أنها فوسله
 قال له الحجاج بن حنيفة : ما كان اسم يفتي إسرائيل ؟ قال : حنيفة ، فقال له

(١) شرح المختصر ، ص ١٨٤ سعد الدين التتازاني ، تعليق عبد المتعال الصوري عام

١٩٥٦

(٢) خزائن الأدب ، للحموي ، ص ١١٥٣ .

(٣) سورة سبأ الآية ٢٤ .

(٤) البيان العربي ، بدوي طهانه ط ٢ سنة ١٩٥٨ ، ص ٣٥٢ مكتبة الانجلو .

موضوعات السخرية

إن الأوضاع العادة ، والسلوك المعوج ، والفهم السقيم ، والمناظر البسطة
تجاني الأشكال المألوفة ، والحدود الموسومة ، والذوق العام ،
تكون موضوعا يستلقت النظر ، وينحو إلى الاستغراب والدهشة ، ويهتف الرغبة
في التكم والاستهزاء ، ويستثير لينا السخرى والاستهجان ، لغراب ما تتسلسل
الألسنة على كل مخالف ، عابثة هازلة ، وتتحرك العيون والأصابع ، ساخرة لا مودة
لأنها عرفت على موضوع للسخرية ، وجدت فيه مادة تدفعها إلى الاستنكار وموتحتها
على الطعز والازدراء ، فتندفع النفس بما جوت عليه من لمحية ومفارقة للسخرية
الكافة فيها ، وحب النقد الراشح في أقوارها ، إلى وضع الأصابع على أماكن
للخطف ، ولقد النظر لمواضع السخرية ، بلا نزح التعليقات ، وتارة الكليات وهمازي
الإشارات .

فالنصر تها من كل ما ينفذ عن الإلقاء وحتى على خلاف العرف .
تهدأ من الذي يجهل قدره ، ويعمدى طوره ، ويدهى ما ليس فيه .
تستند من الأحق للمفجور ، والجاهل المتعالم ، والعمى المضامح ، والمتمرد
المتندق .

وتسخر بالهخيل النجاج ، والهمم المتطاي ، والرجل الممخت والبرأة المنزلة
وتضحك من الجبان الذي يتكلف الشجاعة ، والتطفل الذي يهوى القناسة
والمعالج الذي يظهر في سم العلق ، والمغفل الذي يريد أن يخادع الناس
فإذا نسوا واقع في حبالهم .

وتسخر من اللبج الشكل ، المتناثر الأضواء ، الذي يدل برجاحته ، ويهيبه
بهاء طلسمه ، ومن الآسى المتصلب والتعجب المتطلب .

إن من يتجاوز قدره ، ويعمدى طوره ، وليس غير إهائه ، ويخفق حدود الإنسان

الهادى في موقفه ، أو كلامه أو تصرفه ، أو شكله ، يكون موضوعاً للسخرية ، ويعرفها للمزء ، ورجالا للضحك .

يقول الأستاذ العقاد ، (المزء إنما يضحك من كل شئ " يوضع في غير موضعه ويظهر بخير المظهر الواجب له ، وفي غير الصورة اللائقة به .

يضحك من الشيخ المتعالي ، ومن المعزى المتداهى ، ومن الرهوى الجلف ، والذي يتخامل في زى أهل الحضرة ، والوضيع المدين ، الذي يولج بصمت الأعراف من أصحاب الشأن والخطرة .

يضحك من يصول صولة الشجاع المقتم ، حتى إذا لاحت له بارة مسنن للوم هرب هروب الجبان المنعور .

ومن يقفنى بالسماحة والجود ، حتى إذا دعى إلى الهدل ظهر منه البخل وثار كيف يتخلص من مأزقه ، وهلك من الشرك الذي وقع فيه بحوزة رأيه .

ومن يتصدى لقتل الناس ، فإذا هو مختول من أهون سهل ، أو يتقدم للمعصية بمن يظن فيه المنفعة والحوى ، فإذا هو مزاة لذلك الغائل الأحمق في يظن (١)

ويوضح السخرية يجب ألا يكون مبنياً على انفراد النفس هوذا ، لأن ذلك يشقها مسنن السخرية التي هي جرثومة الانهياط والتمج النفس ، إلى الرثاء والاشفاق . لذلك فإننا لا نستخدم بخالفون القانون وإنما تضمن الشريعة ، لأن القانون يتولسسى بأديهم ، والشريعة عكس بحالهم ، والسخرية بأسلحتها الطين ، وطبعها الهادى لا تكون هنا على الردع ، ولا تتلخص بحماسة العقوبة .

ولا يصغر من الإصابات اليائفة ، والحوادث الفاجعة ، والكوارث الفادحة لأنها تظهر فيها الشفقة والرحمة ، وتبعث في خيالنا الألم والعزن ، وتثير معنوسا

(١) مقالات في الكذب والحياة ، عباس محمود العقاد ، ص ١٦ ط ٢ مطبعة الامتانة .

الفصل الثاني

مقومات السخرية وأهدافها

مقومات السخرية :

السخرية في المجال الأدبي فن ، له مقومات ، التي تتجمع وتتآزر وتتضاد وتتمازج ،
التي لها هذا الفن حيكته ، وتحقيق له لادع وهيمته . ومقومات فن السخرية :
مادته ، التي يجمع منها أساسه ، وترتفع بها عده ، ويتكون منها سقفه .
وقائمه ، الذي يراعى صيغ وجهه ، وتهدية وحقله ، ويلحظ التناسب بين أجزاءه ، والتلائم
في ظلاله وألوانه .

وأصوله : الذي يختلف في تركيبته عن سائر فنون الأدب في تناول والأداء ، والمذاق والروا .
وجائزه : الذي يحرك ذلك الفنان ، ويثير عاطفته ، ويهيج شعوره ويدعنه الى أن يسخر
بهنا ، وشبهكم وطتره .

وهدفه : الذي يسمى له الساخر ، وهي الى تحقيقه ، ويحشم نفسه العنا من أجله ، ويكوب
بالوعر للوصول إليه .

الإدراكات توافرت هذه المقومات : المادة والفنان والأسلوب والطائر والهدف ، ولكن كسل
منها جيدا في نفسه ، جيدا في اتصاله بالعناصر الأخرى ، واتحاده بها ، تولد عن ذلك
حركة وتفاعل ، وتنبج شرارة السخرية التي تبهج العين ، وتحرق الخشوع ، وتضحك العكس
وتخلد على مر الدهور .

أ- المادة : وهي موضوع السخرية الذي تتصبل عليه ، وتدور حوله ، ويجب أن يكون مخالفا
لما ألفه الناس في حياتهم ، عجائبا لتنظيمه وتقاليدهم ، بعيدا عن زهرهم وسنتهم ، وأفكارهم
وبهائمهم ، وإن دعا إلى إصلاح ، ونعى على إفساد (فالمجتمع يضحك على عيسى
الملاحين الذين يحاولون الثورة على تقاليدهم ، فيصور ما يدعون إليه عن إصلاح

تصويرا ساخرا حتى يلزمهم حدوده ، كما يضحك على المعتوهين والسفهاء سواء بمسألة
لأن الأيا من في العالمين واحدا . هو عدم اعتراف مجموع الناس بما يشذ عن سلوكهم
دون انتعاج أو ايمان أو موافقة (١)

يجب ألا يحرك موضوع للسخرية لنا رحمة أو شفقة (ولست أريد بهذا
أنا لا تضحك كون امرئ يضحك فيها الشفقة مثلا ، أو يثير فيها المحبة ، ولكنا حينذاك
ننسى هذه المحبة ، ونسكت تلك الشفقة بضع لحظات) (٢)

ولما كان عماد السخرية هدوء العاطفة ، والميل إلى الضحك والابتسام والضحك
بالتفوق والارتقاء ، اشتراطا في موضوع السخرية ألا يثير فيها نزعا ولا خوفا ،
لأنهما يحولانها من تهيج واضطراب ، ويميل إلى الصراخ والاستجداد ، وشعور بالضعف
والهزال .

كما يجب أن تكون العيوب التي تتخذها موضوعا لسخرياتنا مما يقتصر ضميرنا
على علاجها ، وأن يكون ضرا مهينا ، لأن أصاب فيه فليكن مسارقتها غير مباشرة .

٢- الفطن : مقومات الفطن الساخر تتمركز في : خفة روحه ، وبعيد نفسه ، ولطافته
وسهولة القاطم لتأخذ في مجتمعه ، يتخذ منه موضوعا لسخرياته ، وعادة يتمسح
منها تهكم ، مستهينا بما فطر عليه من حب للكفاة ، مستهديا بخبرته بأحوال
الناس ، وفيه العميق لنفساتهم وأهوائهم ، وقدرته اللقوية والذهنوسسة
والمطوية ، التي بها يستطيع اللعب بالألفاظ والعقول ، معتادا على ما فطر
عليه من استهانة بما يأخذ الناس به أنفسهم ، واستخفاف بما يتواضعسون

(١) سيكولوجية الضحك : أحمد عطية الله ص ٧٩ ط ٢ سنة ١٩٦٤ : الطبعة العالمية .

(٢) الضحك : هنرى برجينون : ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم ط دمشق

وقد يحد في الصورة ، وسط في أطوالها ، ويوحد بين أطرافها ، ويوحد ما شاء
له القارئ ، وما أسعفه يوان حتى يجعلها رسالة قائمة بذاتها ، أو موضوعا مستقلا
ببعضه .

وقد يخرج خطوطها ، ويغير أجزاءها ، ما ، ويقلب مدتها ، ويغير أعضائها ليصبح
بها للمحى المبرزى " الكاركاتور " .

وقد تكون الصورة الجامدة المتعلمة ، أو الكثرة الحركة المتقلبة ، أو التي تتصرف
كالآلة هي أسلوبه المأخر .

إلى غير ذلك من أساليب يفن فيها ويودع ، ما شاءت له عقيدته ، وما واتته
فريحته ، وما اتسمت مجالات أدبه .

وهو لا يفتقد عدد أسلوب معين ، وإنما يتقل بينها حسب مقتضيات الأحوال
لتتخذ لكل موقف ما يناسبه ، ولكل سخرية ما يلائمها ، وقد يمزجها مزجا خاصا ، فائسا
على أسس تدور من إنتاج من ذلك المزج عبارة مرة ، وتقيما مؤلما ، وميما ناقما بجزءه
السخرية فيقله كما يكون فويلسور : إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله ^{٥٥} شراة .

والحائز وهو الذي يذوق الأديب إلى أن يسخر ، ويحرك كوا من نفسه إلى أن
يثر ، أو يصلح وضعا قاسدا ، وخالقا معوجا ، أو يهوب به أن يفرج عن نفسه
عنا العمل ، وأوزا الحياة ، أو يخفف آلام نفسه ، ويحد قلبه ، ويثريه فلسفي
للناس والأهلام ، أو يحافظ على كيان جماعته والاندماج فيها ، أو يحرره نحو
النال والجهاد ليكتسب الفنى والشهرة .

ويذوق الأديب إلى السخرية : اعتدائهم ، واستعلاؤ على فين ، وإحسانه
بالتفوق ، أو رؤيته لظواهر متناقضة ، ومواقف شاذة ، خارجة على التقاليد ، مجافية
للمعادة والعرف ، فلا يستطيع الوقوف تجاه هذه الحواجز ساكنا ، كابتا لانفعالاته
التأججة في صدور ، فتذوق إلى السخرية يرى من قوسها ، ويرى بسهامها
حتى تبدأ فآثره ، وهذا انفعال .

المصدر
كرر ص ١١

وقد يلجأ إليهما لخصمه ، واستهزأ به ، واحتقارا لعظه ، فكسسون
سلاحا بطمته به ، وأداة تزيى بهيته وتفكيره ، وتجعله أضحوكة الناس ، يتسوارى
خجلا ، وهذوب ألما مما يهوت السخرية وما افتن فيها قائلها .

وكثيرا ما يقصد بها الإصلاح ، وإقناع المصوح ، والإرشاد السل السلوك السوى ، بإطلاع
المخطئ على خطئه ، وتجسيم هذا الخطأ ، وتبويره ، وتمثيله أمامه ، ليراه بعينه رأسه
في مرآة نفسه ، أو يجسده في غيره ، ويبرزه في معرض غير معرضه ، ليرى السخرية قباحه
في سواه ، فيعييه بها ، ثم يعود إلى نفسه فيعيها بها ، فإن المرء إذا رأى ما
في غيره من عيوب فقدها ، وأدرك مدى قبحها ، فإذا عرف أنها فيه أسرع يتداركها ،
ويتخفف من أضرارها .

وأحيانا يريد بسخرياته الضحك ، والفرح النفسى ، وإذهاب الملل ، وتحييط
الهم ، لتقبل النفس على عملها ، وتتمكن من أداء واجبها ، وهو في سبيل ذلك لا يزال
أن تنصب السخرية عليه فيكون محورها ومركزها ، أو يكون فيه الهدف الذى يتالسسه
شواظها وهو في هذا وذاك يضحك ويهتفه ، ومع كل ضحكة يذهب ألم وتوقل تعب ،
ويبقى للنفس بعد ذلك صفائها وإشراقها ، وللجرح سورهه وبهاؤهم .

وقد تهدف السخرية إلى المحافظة على كيان الجماعة ، وصون تماسكها وتمديد
سلوكها ، وجعلها تسير في خط واحد ، دون اضطراب أو انحراف وتغريب بمسجون
أفرادها إن تباعدوا كوتلف وحدتهم القوية التى تعمل على بقائها وقيامتها بتبويبهم
إلى أخطائهم إن شدوا ، والأخذ بهم إلى ملتقى الجماعة إن تفردوا أو انحرفوا
لهطلوا مجموعة متحدة في خلقها وسلوكها ، وعاداتها ونظمها .

ومن الأهداف الهامة التى يهدف إليها الساخرون بسخرياتهم : كاستنب
الطال والجاه ، ومن أجل ذلك اهتموا بالسخرية ودرسوها ، وجعلوها فنا أدبيا
له مقوماته وقوانينه ، واستعداداته ومؤهلاته ، وخصصوا لها أماكن بالصحف والصحف
ويوجدت لها مجالا في الإذاعة والمسرح ، رغبة في الكسب المادى والأدبى ، فتمس

قدر الإجابة والإلتزام يكون العطاء والسخط ، وتلقى الجمهور كل ذلك برحابة صدر
وضى نفس ، وتقدير وإعجاب ، ويدل في سبيله بسطق الأموال ، وفتح الألقاب .

∴

∴

∴

١- تخفيف آلم النفس :

كثيرا ما تتلقى النفس بالغميظ للسعد ، والحقد الأسود ، وآلم الحزن ولا يستطيع
الإيمان لأسباب دينية أو لأوضاع اجتماعية ، أو لعوامل سياسية ، أو لتقاليد موروثة
أن يظهر غمظه ، ويصيح بحقد ، ويصيح عن ذنوب آلم ، وهو مع ذلك غير فاسد
على حبس آلم ، ولا يستطيع كبح لسانه ، ولا تهدئة وجدانه ، فيقع بين عاملين :
عامل يدفعه إلى الثورة والانتقام ، وإصاها للحق ، وثارا للكرامة ، وإراحة للنفسين
وعامل يمنعه من ذلك ، مراعاة للتقاليد والعرف ، أو الدين والخلق ، أو الحكمة والرشد ،
فيعتدل الصراع النفس ، وتشتأ الحيرة ويضم الكتاب ، ولكن العقل العدير ، والفكر
الراجح ، يفرد إلى تنهيس ما يحتج به النفس من حقد أو غل ، أو غضب أو حساس
يعتبه في شقاء حزازات القلوب ، وانفصاح ضيق الصدور ، دون تحمل عبء التصريح
وجهرته ، ودون تعرض لعقاب أوعلام ، وذلك عن طريق السخوية التي تكون حلا وسطا
يخفف آلم ، ويهدد وجدانه ، ويستطيع به أن يشغل من اللوم والتمنيح ، بادعاء
أنه أراد حقيقة كلامه ، وظاهر معناه .

وهذا السلوك في طبيعة الإنسان وجبلة ، من طفولته إلى كهولته ، فالنفس
تري الطفل الذي لا يستطيع النهل من بكرة ، يمد إلى تظله في جلسته أو حركته ،
وفي النفاذه أو عبارته ، تظلهيا مضحكا ، فيه عبت ، وفيه خبت ، فيعط شفته ، أو يوسع
حذفتيه أو يتوس ظهين ، أو يلوى شدة ، ويغمر في النفاذه ، كذلك يحسض
لوايح صدره ، ومنفسا عن ميوت حقد ، وكوره ، ما احتجا في زوايا نفسه ، وينسى
لها بيرة فساد ، وهو آمن ألا يخال يضر ، أو يهجم بفساد خلق ، وهو أدب .

فالسخرية منهج الأنبياء في الحياة ، يتخذونها وسيلة للتفويض عن نفوسهم ، حتى لا تضعف أمام شرور الناس وخطاياتهم ، فعلى كراهيتهم والحقد عليهم ، نسمي فعلى كراهية الحياة ، والرغبة في الخلاص منها . يقول أنا قول فرانسوا لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازدادت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن تجعل شهود هسهسه المساء لوقفتها التبرك والشقاء ، فالتبرك بالتمسك بهيب وإلما الحياة ، والشقاء بها موهبا قدس هذه الحياة ، والتبرك الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة لأنه لا يستهزى بالحب والجمال ، فهو رقيق ، وفيه عطف ، وهذا التبرك هسهسو الذي يحملنا أن نسكر من الأشرار والحقد ، ولولا الأذى بنا الضعف إلى كراهيتهم (١)

فإذا دبرنا أنفسنا على السخرية من كل شر ، وعن كل أحق عهد لا من أن نعبأ بهذا الشرير ، وذاك الأحق ، فنناصبه العداء ، ونقف في وجهه موقف المراك ، أو نحترق ذلك العداء ، والقضب في نفوسنا ، أمكننا التخفيف من أعباء هذه الحياة ، وتقبل قلبها في كثير من الراحة والاسترخاء ، واستطعنا أن نبعد عن أنفسنا بعضاً من هذه الآلام التي تخلق الضيق ويحصد بالنفس ، كما يمكننا أن نحول نظرتنا الحادة ، ونفسيتنا الهائجة ، إلى حال من الأمن والاتزان ، يرضعها في مكسبان وسط بين الحقد والكراهية من ناحية ، وبين الشقة والربا من ناحية أخرى ، فتكون صغرياتنا أداة تطهيرية ، تبدد هو أجهى نفوسنا المغيظة ، وتطرده عنها أشباح الشغل والحقد والحربان ، كما تكون وسيلة لإعادة التكيف مع الناس والحياة حتى تتلام مع الموضع الجديد .

فالسخرية إذن أداة وقائية ، تواجه بها ما في الحياة من شدة واكتئاب ، ونظام أمان تلجأ إليه لتخفيف الضغط الهائل على عمومتنا ورواطفتنا حتى لا تصاب بالتحطم والانفجار ، ووسيلة للهروب من جماعات الحياة ، ومع النفس الهدوء والراحة (فاجهزتنا العصبية تحتاج إلى قدر معين من الهروب ، كما تحتاج نحن إلى السهسو

(١) الجاحظ معلم العقل والأدب : ص ٢٠ شفق جبري ، النشر الفتي ، وأثر الجاحظ له : عهد الحكم بفتح ص ٢١٢

أجزاء منية - تخرج فيها أجسادنا من النسيب والمسئوليات القديمة (٢) .
 وطائفتنا الانفعالية المكتومة في حاجة إلى عملية انطلاق للتنفيس عنها ، والتخلص
 من العناصر الضارة التي تسبب القلق العصبي والاضطراب النفسي .



٢- النكابة بالخضم :

وقد يلجأ الأديب إلى السخرية رغبة في النكابة بخمسه ، والتعريض من شامسة ،
 وتحقير بين الناس ، وإطلاعهم على عوار ، ومخبات نفسه ، في زكاته ، ودهاء ، وتخابث ،
 مستخدما البراعة الكلاسيكية ، بدل استخدام القوة الجسدية ، والاعتماد على القسوة
 العضوية ، فتكون السخرية أكرم إلهام وأعنف فتك ، لذلك اتخذها الفلاسفة والكاتب
 أداة فعالة ، وسلاحا يتأرا بصبرونها إلى قلوب خصومهم فتصمها ، وإلى شخصياتهم
 فتكده تزهبها وتردها ، وهي ذلك يقول فولتير: إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله
هزأة .

سهرى
ص ٤

(والواقع أن الضحك هو السيف المصلت الذي تسلطه الجماعة على رقاب
 الخارجين على معاييرها الجماعية ، وأدائها الطامة ، وكل من تحدث نفسه بالخرق
 على قوانين الجماعة ، وأساليب سلوكها ، فلا بد له أن يستهدف لسخريتها اللاذعة
 وضحكها الموجع) (٢) فالسخرية من المعارك الدافعة الهجومية التي لا تسبسل
 الدماء ، ولا تطيح بالرقاب ، ولا تدمر السخرة جسما ، وإن كانت تقتله وتفتك به
 معنويا ونفسيا وأديبا ، معركة أدواتها الكلمات والإشارات والتلويحات ، معركة خريسة
 ولكنها " حرب نفسية " هي أشد فتكا من الهجاء ، وأدق منه في إصابة الهدف .

(٢) الضحك وفن الاغصاك : الحسيني على فرعون ص ١٠ مطبعة الدار المصرية للطباعة
 والنشر لتوزيع .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك : زكريا إبراهيم : دار مصر للطباعة ص ٦٨ ، ٦٩ .

إن الهاجي قد يتهم بالكذب والتزوير ، والبغض والتحليل ، ووجع الطبع ، وفحش القول ، لأن اللفظة في السب سرحة ، وأهدافه من نيل الخصم بوجه لا شدة ، وذلك يقلل قيمة هجاء ، ويخفف أثره على النفس ، بل ربما أحدث أثرا عكسيا في نفوس سامعيه ، فأرجسوا المصيب إليه ، ونسبوا النقص له ، واتهموا بمسوخ الخلق ، وجفاف الأدب ، وتعاطفوا معج السخرة ، وكانوا عوننا له ، ودرعا يقفه الهجمات .

لكن السخر لفظه زهيق ، وأسلمه لين رشوق ، وكلامه يلبس إهلب الفصيح والإرهاد ، يحمل ظلم الإخلاص والسداد ، فلا يتهم بمصيب ، ولا ينسب إليه التحامل أو الغلظة ، وإن كان خلف كلامه الإذلال ، ودخل حلوة لفظه السم النقيع ، وأما بعد ذلك الفرصة سائحة للفكاك من تبعه ما أراد ، إذ لوحي في كلامه نفس صريح طوه .

ومن هنا كانت السخرة أشد نكبة من الهجاء ، رغم أنه نص صريح فلسفي الشعم ، وسب واضح بالهجر ، يقول " سلى " (ولكن الضحك هو النار الملغى العادل لجماعة الضمعا من أطفال ونساء وعيال ، لأنه في أيديهم كأرضي سلاح) (١)

∴ ∴ ∴

٣- القوم والتهديب :

إن إبهاز الخطأ ، وتفخيم المصيب في الشخص ، قصدا إلى تهذيبه وإصلاحه من طريق السخرة منه . ليخاف ذلك المصيب إن لم يكن فيه ، ولو يبرأ منه كله أو بعضه إن وجد فيه - نوع من الزجر والردع ، شبه بالعقوبة ، ولكنه أخف منها ولها ، وإن اتفق معها في النهاية ، وهي إصلاح المجتمع ، وهداية الضال ، فالسخرة من الأشرار والحطس ، والمطموعين والموجين ، هي التي تنبههم إلى عيوبهم ، وتظهر لهم حكم المجتمع عليهم ، وتذودهم عنه ، فتدفعهم إلى الاعتدال ، والسلوك القويم .

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك : زكريا إبراهيم : دار مصر للطباعة ون ٧٠

وقد استخدمت السخرية استنادا بمجرد الأثر في تصفه الآراء الهائلة ، ومناهضة العقائد الهائلة ، وإبراز العيوب الاجتماعية ، والخلقية المتنافية للمبادئ العامة ، والمجاهلة للذوق العام ، كما استخدمها المجتمع في تأديب المارقين من أفرادها ، واستخدامها المصلحون للأفراد سلاحا ضد المجتمع لتقويمه إن شذ ، وتهذيبه إن جاد ، واستخدامها المصلحون ضد الرأي العام الفاسد ، وضد الثائرين على الشئ العليا ، والقهم الفضلى .

وهناك ألوان من العيوب ، وأنماط من السلوك لا يشرع بمقاومتها ، ولا يرددها ، ويردها إلا السخرية فإن (من أنواع السلوك الإنساني ما يفرطه الضمير والعقل والذوق ، ومع ذلك فهو يبرهن وسيلة لمحاكمته والقضاء عليه مع هذا الإجماع كله ، فسلا القانون الوضعي ، ولا الدين ، ولا العرف ، بقادر على استئصال هذا العيوب فالسارق قد يردعه وهظ أو إرشاد أو عقاب محكم ، ولكن ماذا يفعل المجتمع في تأديب الهلوسيد أو الثرثار ؟ إذ الإبادة والثرثرة ليست جرائم يعاقب عليها القانون ، وليست مسجون الذنوب التي خصتها الشرائع السماوية بالذكر ، وليست من العيوب التي تلحق الضرر بأحد حتى يحاول الانتقام لنفسه ، فيرد على الفعل بمثله ، إذ ليس من المعقول أن استمدى القانون على ثرثار ، ولا من الجائر أن استخدم العنف في منعه ، وليس من الطبول أن أكل له الصاع صلحين فأنا فسه في ثرثته) (٥)

ولمناهضة هذا النوع من السلوك تستخدم السخرية لتحقيق التقييم والتهديب الذي لا تطيق وسائل النقد والتأديب الأخرى ، أو الذي لا تمدده داخل في اختصاصاتها وإنما تحده سيطرتها ، فتقيم السخرية بأداء واجبها ، وشرع أفعالها ، ترد المارقين وتبهرهم إلى الخلق الفاضل ، والعقائد المألوفة ، وتبهر شفرتها كل منج وشذب بكسسل منل واحراف .

(٥) مذكورة الضحك . أحمد عطية الله ص ١٧٢ ط ٢ أكتوبر سنة ١٩٦٤ الطبعة العالمية .

إن (كل من تسول له نفسه الخرج عن أطراف التقاليد ، يكون عرضة لسخرية المجتمع ، وهذه الظاهرة لها أهمية كبرى في المحافظة على كيان المجتمع ، لأنه بهذا التصريح التقاليد والمرف المناه من العبث به أو الثورة عليها) (٦)

ولقد كان التوهم من حيلة أماليه سقراط في تقرير فلسفته مع السوفسطائيين ، فكل من تهكم برعى إلى مناقضة خصمه ، فقرأه يتطلف في سؤاله ، ويقتل به مسن سؤال إلى سؤال ، حتى يفضى به إلى التناقض في قوله ، والتضارب في آرائه ، فيقع في ورطة ، فجعله يسخر من نفسه كما وسلم قياده ، ويطلب إيضاح الحقيقة ، فيأخذ سقراط بيده ، ليصلح معوجه ، ويصوب خطأه .

(إننا نضحك من غفلة بعض الناس ، أو شدة تساهلهم كشرة أذهانهم فسسى أمور أخرى ، وإننا لنفعل ذلك بغية أن يتدارك هذا الناقل عيبه فيقلع عنه) (٧) .

فالسخرية فن من فنون النقد ، تقصد إلى إبراز الخطأ ، ووضع اليد عليه ، وتجسوسه وتشخيصه ، وتدعو بأهلها الخاص إلى تركه وتجنبه بما لا يشير المسخط ، أو يجرع المشاعر أو يثير مسخط يحقه هدوء وراحة ، ويخرج المشاعر التي سرعان ما تتبدل بعد أن يتظفرت لهما ، ويوزل ضررها .

والأديب حين يسخر يربط بين الأمور الواقعة وبين ما يجب أن تكون عليه من كمال أي أنه يقابل الواقع على ما فيه من تظف أو نقص أو فساد بالكسفال الذي يراه الهدف والغاية فأصدا بذلك النقد البناء ، الذي يقوم السلوك ، ويهذب الطباع ، (ولقد كان لوسيان وأرسطو أنايروز يتعمقان سقراط بالنكات القاسية ، ولسم يكن فرضهما أن يمزجا فحسب ، بل كانا يريدان أن ينتقما للحقيقة من السفسطائية في رأيهما ، وأن يبرزنا إلى المكان الأول ما يلقى به الناس رواة ظهورهم من النشل الملها) (٨) يقول العقاد : (إن أجمل ما نحن كاسبو من تسلووظ الضحك على سسى الطباع هو أن تنهبها إلى النقص تنبيه عطف ورعاية ، وأن ننظر منها الجسد

(٧) سيكولوجية الضحك . أحمد عطية الله ص ٧٩ .

(٨) سيكولوجية الضحك : أحمد عطية الله ص ١٧٣ .

(٨) حصا بالشهر : إبراهيم عبد القادر المازني ص ٣٠٦ مطبعة دار الشعب الطبعة الثالثة .

في معالجتها بما يقع في الطاقة ويرجع منه التحسن في ناحية أخرى من النفس،
ولن لم يكن ذلك ممهوراً في الناحية المضحوك منها ، فقلما طلب الكمال إنسان ويرجع
منه بشير لشفة مرضية في الباب الذي ظهره أو في باب سواه (٩)

••

••

••

٤- الفكاهة والمرح :

تتلى الحياة بالأعمال الجادة التي تشغل الإنسان ، وتستهلك وقته ونشاطه ،
وللعقل طاقة في الاحتفال ، وللنفس البشرية ضيق بالجد ، وجرم بالك .
والحياة العالمة ، المقطبة الجهن ، التي يلتزم فيها الإنسان بالجد والصرامة
والوقار والتزم ، لا تحتل ، ولا يمكن أن تستمر ، ومن عاش في هذه الحياة فترة ،
مقلا بتلك القيود ، فلا بد أن يهرب منها إلى أوعاء وروث ، أو إلى أحلام المهيضة
من طريق التخيل والتأمل ، أو إلى عقد نفسية نتيجة للصراع وكبت الرغبات ، والضغط
النهائى على الطاقة الكامنة في النفس التي تبحث لها عن متنفس فلا تجده ، وتتفلسفها
الضحك الذي يعمد للجسم نشاطه ، وللنفس بهيجتها ، وينقل الإنسان من جحيم الواقع
إلى لحظات يهنا فيها ، ويحقق راحتهم وأمنه ••

ذاك رأى علماء النفس ، وعلم الطب يؤيد ذلك ، ويقر أن كثيرا من الأمراض
تتولد نتيجة الهموم والأحزان ، وأن الضحك يزيل الكثير منها ، وأن الشرابين والمعضلات
تلقبض وتتقلص عند الحزن والاكئاب ، وتتهبط وتتشط عند الفرح والسرور ، وقد جعلوا
شعارهم : اضحك •• اضحك •• اضحك ، واضحك حتى تضحك •

ولما كان الضحك غريزة في الإنسان ، ودلهلا عليه ، وتحريرا به عن زواله فبنته
وتأثيره في النفس والجسم والمرح والمجتمع ، فأنشأوا المجالات الساخرة الضحكة وأقاموا
المسارح الهزلية ، وأصطفى الخلطاء والملوك من يعيهم أفرادا امتازوا بالسخر والظرف ،

(٩) ساطع بين الكتب : عباس محمود العقاد صفحة : ٣٦٨

للحور إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه - قال أبو شعر : إذا كان
لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه
يحتاج إليه (١١)

وقد يكون العج والضحك فرضين أصليين من الأهراض الجادة للسخرية ، وهما فرضان
من أهدافها لإراحة النفس من أثقالها - كما قدمت - وهو ما يعبر عنه حديثاً : " الضحك
للضحك " .

∴

∴

∴

ب- المحافظة على كيان الجماعة :

ومن الأهداف التي تسعى السخرية إلى تحقيقها : المحافظة على كيان الجماعة
وحماية طوائفها وتعالودها ، ومعاينة الخارج على قوانينها ، وخلق جو من الألفة والتفاهم
بسيودها ، وبالألفة والمحبة يتنازل السائر عن شيء من وقاوه ، وتطرح الحشمة ، ويظل
للجميع لون من الود ، تتقارب فيه الألبام ، وتسد البرج الجماعية ، فإذا ضحك الناس
على نادرة ، أو سراً من فكاهة ، أو احتبطوا لسخرية ، فإن ذلك دليل تقاربهم في الميول
واتفاقهم في المبادئ ، والقيم ، والمشاعر ، عندما يستحسنون ما يستهجنون . . يقول الدكتور
زكريا إبراهيم : (إنه حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات باعتبارها جماعة
مفارقة لها ، فإنها تحافظ بهذه السخرية نفسها على صميم كيانها الاجتماعي) (١٢)

وكما أن في السخرية إعلالاً للسائر ، وإحساساً منه بالخطوق ، ففيها أخذ بيد السخرية ،
وإعلالاً له عما هو فيه ، وإيمانه عن التناقض التي يسخر منه من أجلها ، ورفع إلسن
مصاف الإنسان الكامل ، محافظاً على كيانه الاجتماعي ، واحتراماً لجسمه الإنساني (والواقع
أن الجماعة حينما تسخر من الشخص الذي يده ويظهر الآلة الميكانيكية ، أو الجهبان
المتكلم ، أو الشيء الجاد ، فإنها إنما تتخذ من الضحك سلاحاً تسعى به إلى
المحافظة على العتبة التي وصلت إليها الإنسانية فوق الجراد والحيوان) (١٣)

(١٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك : الدكتور زكريا إبراهيم من ٦٩ : دار مصر للطباعة .

(١٣) سيكولوجية الفكاهة والضحك : الدكتور زكريا إبراهيم من ٧١ : دار مصر للطباعة .

وإذا وجدت مجموعة من الحيوانات تتبادل السخيات ويظهر لها الساخر الملمر
 لتتجد الباقي مقتنعا منفلا ، يستجد البرج الجماعية التي تطلق السخرية يرتضخ لها ،
 وستأخذ الألفة والنودة التي سادت الجماعة ، وصلت على قاربها وأرتباطها •
 فالسخرية تتقارب الجماعة ، هيئتها اللامعجزة ، كما تحافظ على تقالدها وعاداتها
 وتطاعتها ، والسخرية يرتدع الشاذ المخالف ، فيعود مرة أخرى إلى حظيرة الجماعة ، وهي
 ترمي الهادي ، والمقيم التي تعجزها الجماعة فلا عدل ولا تفرد ، ويتقوى لها وحدتها
 وتربطها •

∴ ∴ ∴

٣- كسب المال والجاه :

وقد تكون السخرية وسيلة لكسب لقمة العيش ، ووصلة لبقا "أسباب الحياة" ، وتقايد
 المال ، ويحقق الجاه ، وصناعة وحرمة ، يفتنها عاجبها ، هفتن في إبداعها ، ويروج نس
 أشكالها وضربها حتى تشيع وتروج ، وتصير بضاعة يقبل الناس على شرائها ، ويرفع الساخر
 قدرها ويغلى ثمنها ، بمقدار ما بذله فيها من جهد ، وعلى قدر ما تزاحم المشترون عليها •
 وقد كان ذلك مدفا لها منذ القدم حين اتخذ الخلفاء والأمراء والحكام ، ووجها
 الدولة وسرايتها المضحكين والمساخرين والظرفاء ، فحظت بهم مجالسهم التي تخلف الأمراء
 وتشريح الصدور ، وتعمش اللغوس ، وأصطخروهم معهم في حلهم وتجالسهم ، ويهدم وحبيهم
 يهدمون لهم غدا النفس : من ضحك وسخر ، وبالتالي عليه غدا البدن : من ماكسمل
 ويخس وبال •

وفي عصرنا الحديث تعددت مجالات السخرية ، وهدفت في جل ما هدفت إلى السسى
 لول المال ، والوصول إلى الجاه ، فكثرت المجلات الهزلية ، والصحف الساخرة ، والمقالات
 اللاذمة ، وشاعت المسارح التي تتخذ السخر مادة لها ، للتقهم والإصلاح حيناً ، وللتكسبه
 والضحك أحياناً ، وهي في هذا وذاك لا تستهدف إلا البرج ، ولا تفتح أبوابها إلا لتحصيل
 المال ، كل كان للذبايح نصيب كبير في برامج التعددة التي يلقى فيها الأديب •

كثيراً ما يهتمون فيها المشايخ وروايتهم اللادعة ، وكلهم يفتي للمسيح ، ويطلب المسائل
وانتشار الذكر ، قبل أن يطلب هدفاً آخر .

وللصحف في ذلك نصيب كبير بما ينشر فيها يوماً من سخريات أعدت لها ، وخصصت
مساحات من أوراقها للشهيم الذي اتخذ مكاناً معيناً من الصحيفة يعرفه القراء ، ويقبلون
المنفحات للوصول إليه كل صباح ، على أنه لا تخلو اليوم صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية
أو شهرية من صور كاريكاتورية علق عليها أصحابها عبارات ساخرة ، علاوة على كسب
تعدد المسخرفة وحدها ويكثر عملها بين قرائنا .

وليس الهدف من كل ما يكتبه الساخرون في هذه الصحف أو ينشرونه فمسمى
تلك الكتب إلا الحصول على المال أجزاً لها يكتبون وفي ذلك الدليل الحاسم على
أن المسخرفة عشاقها ، من أروفت مشاعرهم ، وضجت عقولهم ، ورفقت أحاسيسهم ، وارتقى
ذوقهم الأدبي ، إذ المسخرفة تحتاج فني فهمها والفتح بها إلى كل هذه المواهب
والإعدادات .

وبما كان للمسخرية اليوم صولة وهيبة تعادل صولة الهجاء في العصر الجاهلي
وهيبة ، وتحاكى فرق الناس منه كما كانوا يفتنون من الهجاء وتحاشون سموم ، وهديون
سوطه بكل ما في أقدارهم ، وهذا ما حدا بكثير من الكتاب والوالمثقفين والمثقفين والمثقفين
إلى التخصص في هذا اللون الذي صارت له في المجتمع هيبة وشأن ، طلبها للرياح
وطعما في المجد .

فالمرححات الساخرة ، والأطاني المتبكرة ، والكتابات المهازلة الناقدة : ماذا يهدف
بها أصحابها غير الكسب المادي وتحقيق الجاه والشهرة من وراء تقديمهم هذه الفنون
التقديمية الساخرة ، التي يحجب بها الجمهور ، ويغنى إليها ، ويغيب عنها ؟
أما ما ينفذه المجتمع من علاج أو درء فساد لها في العربة الثانية .

∴ ∴ ∴

بسم الله

(١٤)

وتتصحا للحك عرض آراء الفلاسفة ولما النفس ويظن أنهم في الأهداف التي
يرى إليها الضحك ، وفي عرض أهداف الضحك عرض لأهداف السخرية ، إذ السخرية
لون من ألوان الضحك ، ولحق منه .

١ - نظرية سلامة العقل : يرى الفيلسوف الألماني " فريدريك هيجل " أن الإنسان قد
اخترع الضحك كي يحافظ على سلامة عقله ، ويهتفي خطر الجنون لأنه أكثر الحيوانات
عرضة للإلام والأوجاع ، فلو لم يخترع الضحك لحطمت الآلة ، وقضت عليه ، ولكنه
بضحك بعيد إلى يوحه العرج الذي به يحفظ توازن عقله ، ويمسكه إلى شاطئ نسبي
الآمان .

٢ - نظرية التنبيه لصاحبها " سيجوند فرويد " يقول : إنك إذا نجحت في حياض
أحد الأشخاص على الضحك لأنك في الواقع تتخذ وسيلة لإطارة الضحك عندك ، حتى
تجلب إلى نفسك السرور ، وتفرضها بداخلك من آلام .

٣ - نظرية الطاقة الفائضة : يقول " هيرت سينسر " صاحب هذه النظرية : إن الضحك
ما هو إلا مظهر للطاقة حرة فائضة ، فهو ناتج من ألوان اللهب كالتصفيق ، وهز السوطان
والقز ، فإذا اكتشف الإنسان أن ما حمله خطر أنه قد نفسه له ، ليس إلا مجرد وهم
سخر من نفسه لهذا الخطأ ، كما أنه يسخر من نفسه إذا اكتشف أن المجهد
الذي يبذله في تحقيق أمل من آماله لا يمتحق هذا البذل لتفاهته .

(١٤) استقرت هذه الآراء من كتاب :

- أ) سيكولوجية الضحك : أحمد عطية الله .
- ب) سيكولوجية الفكاهة والضحك : د . زكريا إبراهيم .
- ج) للضحك وفن الإضحاك : الحسن بن علي فرعون .
- د) فن علم النفس : حامد عبد القادر وآخرين .
- هـ) الضحك : هنري بيرسون ، ترجمة سامي الدريبي .

٤ - النظرية الدفاعية : وهي لعالم هندي يدعى " جوالاسوامي " : يرى أن الضاحك يحاول الدفاع عن نفسه ضد عزيمة ^{عزيمة} بهذه الأصوات التي يحدثها ليدخل في راحة أنه كما له ، وقادر على موازاة ، والتغلب عليه . فالضحك في نظر والتحكم مستمر يحتوي بها ، وتدرج يواجه به خصمه ، ونوع من الدفاع السلبي الذي قد يضطر المهاجم في بعض الحالات إلى الانسحاب من المعركة .

٥ - نظرية المحافظ : ويرجع الفضل فيها إلى العالم الأمريكي " وليام كوجل " الذي لاحظ استعداد الإنسان للمشاركة الوجدانية ، وأنه لو استرعى هذه المشاركة لفضت عليه الآلام ، وقد هيأت له الطبيعة سبيلا للتخلص من هذا الضيق بإحداث الضحك الذي هو محاولة للتخلص من مشاركة الغير متعجبهم إذا كانت غرذات خاطئة شديدة ، فتمثل الفرد مصائب ومشكلات الغير التافهة مصادر لضحكهم وسخراتهم .

٦ - النظرية الاجتماعية : وعالجها الفيلسوف الفرنسي " هنري برجسون " القائل : إن وظيفة الضحك اجتماعية بحتة ، فالمجتمع يحاول حماية تقاليد ، ونظمه بالسخرية من من يناهضون هذه النظم ، حتى يتم الإصلاح والتجديد .

على أن هذه النظريات على تنوعها ، وتعدد وجهاتها ، لا تكفي واحدة منها لتفسير الضحك والسخرية ، لأن كل واحدة منها تتناول مظهرا هذفا ، ولا تتناول جميع المظاهر والأهداف ، والصواب أن تتم هذه النظريات بعضها ، لتصل منها إلى السخرية كالفنسة صورها ، ومشتى أهدافها ، وتجنب القصور الناجم عن تفسير الضحك بوحدة من هيسسده النظريات .

يقول أحمد عطية الله في كتابه سيكولوجية الضحك :

(إن تعدد نظريات الضحك ترجع إلى أن كل نظرية من هذه النظريات تفسر ناحية من هذه الظاهرة النفسية - وتضيق عن تفسير أنواع الأخرى) (١٥)

(١٥) سيكولوجية الضحك - أحمد عطية الله ص ٢٤٧ .

دوافع السخرية وعناصر نجاحها

دافع السخرية :

لكي ينتج الأدب أديه عملاقا قويا ، يجب أن يكون صادرا من أعماق ، وله مسد خيرة ونجدة ، وثورة نفسية ، وانفعال بالموضوع الذي يعالجه ، والأسلوب السعدي يقتلوه ، والدافع الذي يقوده إلى الكتابة ، واختيار لون معين ومضمون معين على سبيل تعبير .

هذا الدافع هو المحرك الأول والأخير لكن عمل ، والشراية التي تهت الحسرة في النفس ، والرؤية في الميّن ، والانفاظ في اللسان ، والقوة في الأعضاء ، فتنتج للمؤلف حماسة وطاقته ، وتحوله من رغبة كائنة في الوجدان ، إلى حقيقة بارزة للمعيّن . والدوافع كثيرة متعددة ، تختلف قوة وضعفا ، وسطحية وعمقا ، وباختلافها يختلف الأثر الناتج عنها ، وحينما تكرر الدوافع إلى الهدف الواحد يأتي فيها ضخا ، وتبين البنهان وطيد الأركان .

وللسخرية - ذلك اللون الأدبي النقدي - دوافعها التي تعمري الساخر ليخوض عمارها ، وممارستها ومعاناتها ، والتطلف في أدائها ، والتفتن في صوغها وإبداعها بجزءها على غيرها ، وبراها أعون في أدائها غرضه ، وتحقيق هدفه .

قد يشعر الإنسان بنقائصه وعيوبه ، ونواحي ضعفه ، فيحاول إخفاها والتغلب عليها ، سواء أكانت هذه العيوب جسدية أم عقلية ، اقتصادية أم اجتماعية ، محقة أم وهمية وهذا ما يسمى علماء النفس "التحويض" وأساسه شعور المرء بالنقص أو العجز أو الخسوف من الإخفاق فيحاول إخفاها . وقد يدفعه ذلك إلى السخرية يتخذها أداة منقذة ، ودواء مهدئا ، وشاغلا يصرفه عن التفكير المولم في عيوبه إلى التفكير المرح لنفسه .

هوية غير ، وتناهي عيوبه ، فيكون التمزج من دوافع ظهور فن السخرية ومثيراتها .

وقد (تعجب ما في نفسك من صفات غير معقولة إلى فيرك من الناس ، بمسند أن تجسمها ، وتضاعف من شأنها ، وبذلك تبدو تصرفاتك منطقية معقولة) (١) وهذا ما يدعو علم النفس " الإسقاط " فتعزى إلى العالم الخارجى العمليات النفسية المكبوتة في داخلك تهربا من الاعتراف بها ، وتخفيفا لما تشعر به ، وهذه (ظاهرة طبيعية نفسية من شأنها أن يلقى الإنسان ما يكتمه في نفسه الباطنية من عيوب علمسي الهيئة الخارجية ، غير صورتها معكوسة على مرآة غير) (٢) . فالعمليات النفسية المكبوتة

تتحرك داخل النفس ، وتتهلج ، وتفور ، ولا يستطيع صاحبها مداومة حبسها ، فتخرج إلى الوجود في لون من الألوان ، والسخرية إحدى هذه الألوان التي يلقى فيها الصاغر هويته على غير ، ويتهبته بها ، ويلبسها إياها ، كما ترى في سخرية اليخوسل من غير واتهام إيلك بالشح والتقتير وفي سخرية الجبان من غير حين يدعى حينهم وذلك ينعف التوتر النفسى ، والتلق والانعزال ، لأن الطاقة قد انفجرت شحنتها ، وعرفت ما احتجرت في داخلها ، وكان يهيجها ، حين دفعت بالسخرية إلى تنفيس الامهتها وتهدئة انفعالاتها .

والمفارقات ، والأوضاع الشاذة ، وغريبة المعاداة والتقاليد ، ووجود الشيء على خلاف الإلف ، كشذوذ السلوك ، وشذوذ الخلق ، وشذوذ الخلقة ، مما يثير النفس ، ويحرك فيها ملكة النقد اللاذع ، ويجعلها تسخر ، تطعنها بذلك تصلح المعوج ، وتردع الشاذ ، وتدخل المارق إلى حيز الجماعة وتقاليدها .

ومصائب الغير إذا كانت عابثة ، لا تحرك الشفقة والرحمة ولا تهت علمسي الرثاء والاكتئاب ، أكبر دافع للسخرى بحيث تكون مادته وموضوعه وسداه ولحتمته ،

(١) الصفة النفسية : د . مصطفى فهمى ص ٢١٨ مطبعة التقدم .
(٢) معجم مصطلحات علم النفس ، مؤرودة الهيئة الخازن ص ١٠٩ - دار النشر للجامعيين .
مطابعها : بيروت .

وذلك الذي تنذبه وتتمه ، وتواتر التي يدور في فكها ويحوم حولها ، ويستند عليها
وذلك ياتونها .

وتعوملكه النقد في الساخر يجعله يلقط الأشياء منها ذلك ويلاحظ الفرق وإن ضوئك
تعد القارات بين الناس وإن تأت بعدد من طرق حاسة النقد هذه إلى المغرسة
من الأشياء والأشخاص لتمدل سلوكهم بتلك الآلة الذهبية التي لها فعل السحسر
في النفوس ، وفوة التأثير في امتلاك القلوب " آية السخر " .

وقد يشمر المرء أنه أمام شجر تام ، يحقق علوه ، ويريد عقابه وتأييده وتحفير
شأنه ، دون أن يرتفع إلى مرتبة التدبير من طريق العراك واستخدام القوة العضوية
أو الخضم ، أو الهجاء ، والسب المباشر ، لأنه لا يستأهل في نظره الخصومة المباشرة
ولأن الخصومة المباشرة مع أمثاله من الثاقبين ترفعهم ، وتعلو أقدارهم لاقتنائهم بشخصية
الساخر المعروفة ، وفي ذلك دلالة المساواة التي لا يرتضيها ، فيدفع إلى السخرية عقابا
لنفسه وتحفيراً له ، واستهانة بشخصه .

وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيكون المتكلم به يرفع الشأن خطير القدر ، ويريد
الساخر أن يحط من كرامته ، ويرغم أنه ، لعداوة يهبط ، ولكنه لا يمكنه المجاهرة بعداوته
لعلومته ، وخوف غضبه ، واحتراساً من طريقه ، فيلجأ إلى استخدام الحيلة ، فيسعى
ليعدار كونه وكسر شوكة ، وإذلال هيئته ، والسخرية أروع حيلة ، لما فيها من نزاهة ،
وعز خفي ، وتعرض وتلويح ، مع البعد عن خطر الإلتصاح ^{واقعية} بوضحة التصريح .

وهو المرء بنفسه ، ويعتد بخبره (ما يمان من أبواب السخر مهمل هنا جاع أبواب السخر
كأنه ، وكل ما أضحك من أعمال الناس قائما هولون من ألوان الضحور ، أو ضرب من ضروب
الضحك ، وكثيرا ما يلتقيان ، فإن الضحور هو تجاوز الإنسان قدره ، والضحك هو المعنى في غير
جده ، ولا يكون هذا في أكثر الأحيان إلا عن اقتدار المرء بنفسه ، وقد عدت ^(٢) لظهور) فيدفع
الضحور والضحك صاحبهما إلى السخرية من الناس ، والتكلم بهم .

[٢] جحا الضاحك الضحك : ما من محمود العقاد ص ٢٩ طبعة مؤسسة دار الهلال .
وفي كتاب ظالمات في الكتب والحياة : ما من محمود العقاد ص ٨٩ طبعة ٢ طبعة الاستقامة .

خاصر نجاحها

إن السخرية لا تحدث أثرها المرجو ، من تخفيف لواجب الإيمان ،
وتفيس ما يكبت في صدره من حفيظة وموجدة ، وما يفعل به قلبه
من حقد وكراهية .

ولا تحقق غايتها المنشودة ، من إصلاح المسج بالتبينة عليه ، وإظهار
كبرياءه وتعبه في صورة ضخمة هائلة ، تسرع وتثقل فتكون أداة للزجر ، وسوطا
للروح

ولا تحمل عملها الفتاك ، في النكابة بالخصم ، والحط من قدره ،
وتحقيره وإذلاله ، وجملة صورة مشوهة ، وخلقا مقبها ، وسخا مقفرا .

ولا تترك في نفوس سامعيها طربا وهتافا ، ورجا ونشوة ، وارتياحا
وسعادة ، تجديدا للنشاط ، ودعما للسلم والكلال .

ولا تترك الجماعة المتفرقة ، وتأخذ على يد العايب بوجدتها ، وتخلق
جوا من العداوة والإخاء بينها ، وتشتج في أرجائها الوحدة والتماجد .

ولا تدر المال في يد الساخر ، وتحم عليه بالجاء والشهرة ، وتسهل
له سهل الحياة الرفدة ، والحيثة الراضية ، والترف والصولة .

إن السخرية لا تحقق هذه الأهداف كلها أو بعضها ، ما لم يتح لها
كثير من العوامل التي تؤدي إلى إنجازها ، وتسير بها نحو تحقيق غايتها
وقدر ما تجتمع هذه العوامل وتتآزر وتتعاون وتتساند ، يكون حظ السخرية
من الإجابة والإثقان ، أو الخمول والخذلان .

ومن عناصر تيجاج السخرية ، وهائل فوقها وسوقها ،

أ- أن يكن الساخر ذا طبيعة تمشق السخرية وتولج بالنقد وتجرى السخرية
 في عروقه ، وتشتج بدماثة فهو سرخ التفاعل مع المواقف والحوادث ، يجعل
 من عقله حكما في كل ما يراه أو يسمعه أو يحس به ، فنبه عليه إن جاز
 الحد تنبها لطيفا حذرا ، محتفلا على التعريض والتلميح ، فلا يفوته منظر دون
 أن يمزقه ولا تندخه شاردة دون أن تجتذب انتباهه ، وتشر تفكره فتمسوا
 من المواقف دائما بميزان دقيق حساس تطلق منه الإشارات وتودود الأعمال
 لكل ما يحدث أمامه ، أو يجسرى في مجتمعه ، مهما كان دقيقا خفيا ،
 فيتناول في براءة ، ووضوح في عبارة ، فأذا هو شيء يمد أن لم يكن
 نيتا وإذا به يرينا درة غالية أخرجها من صدفة اجتنبها من الأعماق ، فيهرنا
 ويهزها ، وسحرنا رواها .

∴ ∴ ∴

ب- أن يكون منطلق النفس ، خفيف الريح ، بعيدا عن التحقيد والترمت مرحبا
 هاشا ، مبتسما دائما ، مستحقا بالحياة وأعبائها (نفسه هادئة تلم الهدوء
 منهسطة كل الانهساطه لعدم المبالاة وسطه الطبيعي ، والحد أمدائه الانفعال^(١))
 وأن يكون لديه مقدار غير قليل من الشفافية واللامحية تنديك سرهما إلى
 الملاقات وإن بمدت ، والملاط والرهن وإن قلت وأت .

∴ ∴ ∴

٢- أن يكون رفيق الإحساس ، قوي الشعور بالواجب ، فإن (الطبع الساخر
 هو الطبع العارف بواجبه ، المحتفظ بكرامته)^(٢) يعرف الحدود والوسم ،

(١) الضحك . هنري برجمون ص ٧ ترجمة سامي النورين وهدالله عبد الدائم

(٢) مطالعات في الكتب والحياة . عباس محمود العقاد ص ١٦ .

ويؤذي نفسه أن تحمل أو تحقره يميل إلى الإنصاف ويضيق ويضيق كل شئ في مكانه
ينفر من الإخلال بالنظام ، والآداب العامة ، والذوق السائد (ومن هنا يخلب أن تكون
السخرية باعثة قويا على فعل الواجب ، ومراعاة اللباقة ، والوقوف على حد الكرامة) (٣)
عـ أن يكون بارها في التصوير ، متقنا للأدب ، بالكلمة والعروة والإشارة واللحمة ، والتصوير
الكلبي الذي يتنازل الجسم فيشوهه ويمسحه حتى لتكاد تراه أمامك ، وتلمسه بيدك ،
فإن الحركات والإشارات وتشكيل معاني الكلمات لها من الأثر في إبراز السخرية وتحقيق
أهدافها فضل لا يجحد ، من تأكيد المعنى ، وتوجيهه إلى الأماكن في صورة مدسوسة
وتجسيمه ، وتشخيصه أمام العينين .
هـ أن يجيد الساخر المقارنات والموازنات ، وقد الصلات والروابط بين أشياء قد تبدو
متباعدة ، فيكون لعنصر المفاجأة أثره ، وللخاطرة ليمتد في الأذهان ، من توقع فضلهما
وويرثها ، وذلك تحدثا ليزه والنشوة إذا حل ما لم يكن متوقفا ، وحدث ما ليس متوقفا
العسبان ، وظهر تبولع الساخر ، وحسن تأنيده ، وفق تملكه وإدراكه (تالفصيح على
هذا مقارنة سريعة مفاجئة بين حالة ترواحا ، وحالة تخمليها ، حالة كاتبة ، وأخرى واجبة
ولا يقوى على هذه المقارنة في سرعة وقطنة غير الأذهان السطحيين على تصور الأشياء في
صورها الحقيقية العلى) (٤)

هـ أن يطلع كل من الساخر والسامع على أحوال السخرية ، ويعرف صفاته وأخلاقه
وطرفا من ماضي حياته ، ومكانته بين أهله ورفاقه ، وكلما كثرت المعلومات عنه ، والمعرفة
به ، أدت السخرية دورها ، وانفج مجالها ، فقد يكون موضوع السخرية اسمه أو كنيته

(٣) المرجع المذكور صفحة ٩٥ .

(٤) المرجع السابق صفحة ٩٥ .

أداس أبيه أو أ نوره ، أو صله ، ودينه ، أو سمه وهيبته أو حوادث كانت له في ماضيه
أيامه ، والسخرية لن تحقق فرضها إلا بمعرفة هذه الأشياء ، بل إنما لا تكون سخرية
إلا إذا لوحظت ، وأدخلت في الاعتبار لأنها الصاد والسحر .

يقول الجاحظ (وليس يتوافقأ بدا حسنها ، إلا بأن تعرف أهلها ، وحتى تفصل بمسئقها
ومعادنها ، واللائقين بها ، وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها ، سقوط نصف اللحمة
وذهاب شطر النادرة) (٥)

∴

∴

∴

٧- أن يكون الساخر خيرا ، بل ليجتمع ، عالما ، بواطن الناس ، مطلقا على ما يخال جسم
ويحلمهم في حيا تنم ، وما يثير نفوسهم ، ويهزمها عزم ، ومارسا لألوان الحياة ممارسة
تجعلهم أدنى إلى فحسها ، والوقوف على دخالها ، وأبعد من الاقتان بتلك الظواهر
التي تتبرج للناس ، فتصرف هؤلاء الذين يهيمون الحياة ، دون أن يستبطنوها وتمسقوها
من أن ينفذوا إلى ما وراءها .

∴

∴

∴

٨- أن تحتاج السخرية في فهمها إلى تأمل وتدقيق ، وتلطف وإعمال فكره ثم تلمسح
في الفكره وتنض في جنبات النفس ، فان السخرية إذا كانت واضحة صارخة سمح معها
وسخف معها ، وضعف تأثيرها ، ودلت على سطحية قائلها ، والنفس تكلف بالدقيق ،
والعقل يتمتمش بالفكرة لاحت له بعد طول احتجاب ، والقلب يطرب للنادرة هيبت له
من حائق .

٩- أن تجرى مع الطبع ، وتقرب من الواقع ، فلا تكون نجة ، ولا متكلفة ولا مبالغا فيها
فإنها إن بدأ فيها التكلف والفلوخرجت من طبيعتها وسقطت قيمتها ، وفاتورتها ، وربما
انقلبت إلى ضدها ، فمادت فائره بعد أن كانت حارة .

(٥) كتاب الخلا ، الجاحظ : تصحيح وشرح أحمد الحوامي على الجامع الجزء الأول من ٣

وقد رويت قصة الجاحظ ذكر فيها أن رجلا مات فاستولى ابنه على ماله وداره ثم سأل (ما
 كان آدم أين • فان أكثر الفساد إنما يكون في الإدام • قالوا • كان يأتيهم بجبنة
 كانت حده • قال • أرويتنا • فإذا فيها جز كالجدول من أن يوسع اللقمة • قال • ما هذه
 العذرة قالوا • كان لا يقطع الجبن وإنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى • قال • فهذا
 أهلكني • وبهذا أقعدني هذا القعد • لو علمت ذلك ما علمت عليه • قالوا • فأظنه كيف تريد
 أن تصنع • قال • أظنهما من بعيد فأثير إليها باللقمة^(٦) • ويعقب الجاحظ على هذه القصة
 التي تهدر فيها المبالغة والظفر بقوله: (ولا يمجون هذا الحرف الأخير لأن الإنباط لا غاية
 له وإنما تحكى ما كان في الناس وما يجوز أن يكون فيهم مثله أو حجة أو طريقة • فأما مثل
 هذا الحرف فليس ما نذكره) (٧)

• إن يعلو فيها صوت العقل ثم ويخبر صوت الماطقة • فلا شفقة ولا رحمة ولا مشاركة في
 آلام الغير (فلكي يحدث المضيق ما يحدثه من تأثير يجب أن يتوقف القلب برهة عسى
 الشعور) (٨) وأن تعرض علينا السيوب عرضا ينم عواطفنا • ويحفظ عقولنا • لأن عواطفنا
 إن لم تكن مستريحة أحسننا بالأم الناس • وتأثرنا لهم • وحزنا وكفنا من أجلمهم • وذلك
 ما يخدم السخر ويثده • لأنه وليد الضحك والنس • وعدو الحزن والاكتئاب •

الاسلامتنا للبيئة التي تقال فيها • والمجتمع الذي تلقى إليه • فللمامة سخرياتهم
 وللخاصة سخرياتهم • وللأدياء سخريات لا يستيفها غيرهم • وللملأمة سخريات تعتمد
 على المصطلحات والإشارات وألوان من المعلومات • ما يجعل غيرهم يكرها • ولا يقدس

(٦) كتاب البخلاء للجاحظ ضبط وشرح أحمد العوامي وفي الجان ج ٢ ص ٨٠ طبعة دار
 الكتب سنة ١٩٤٠ وفي كتاب البخلاء للجاحظ تحقيق طه الحاجري ص ١٢٢ طبعة دار
 طيبة دار المعارف • ذخائر العرب •

(٧) المصدر السابق • نفس الصفحات •
 (٨) الضحك • هنري برجسون ص ٨ ترجمة سامي الدرين وزميله •

بالتصحيح
 في نسخة
 من

هو لها . وما يكون من تملك وسخرية في مجتمعات المجتمعات أو بيئة من البيئات
 قد يفقد الكثير من لذة ، وإيلا له إذا استعمل في غير بيئته ، وأطلق في غير مجتمعه
 ذلك بأن السخرية تعتمد على الدقة ، وهم ما وراء العنان ، ولن يتحقق ذلك على أكمل
 وجه إلا إذا كان السامع يشاغل السخرية عليه وأد به ، أو في محيطه ومذايقه ،
 لسخرية العالم لا يفهمها الجاهل ، وسخرية الجاهل لا يفهمها العالم ، يسأل
 براحا نجة تأنبه ، لا تثير ضحكه ، ولا تمزوجه .



١٢- ألا تثير السخرية الصغيرة نفور الحاضرين وسخطهم ، فلا يلحق أن يسخر ساخر من
 رجل الدين أمام رجال الدين ، وليس منهم ، أو يتعدرتن القضاة عددا هائلا
 أمام قاض وليس القضاة مهنته .

قد يسخر أحد القضاة برفيقه في مجلس قضاء ، فنزعت السخرية ثمرتها ، وجرى نفس
 الطباع مجرى مقبولا ، إذ ليس فيها تعريض بالعضو جميعهم ، وإنما بواحد منهم محدد ،
 وقد يسخر أحد الجناة مع رفيقه من قاض يمينه ، فتحقق السخرية ما أريد بها من تخفيف
 الغيظ النكوت ، والحدق الدفين ، أما التعريض بالعضو ، وإنما السخرية بحيث
 يمكن أن تصمم وتشلطيم ، فإن ذلك يضر من أثمر السخرية ، لأنه يجعل النفس
 تنفر ، والطباع تجفل ، ويقل المعنى النفس ، وهو أهم عامل في نجاح السخرية .



١٣) أن تكون أمام جماعة إذ السخرية لون من ألوان النقد اللاذع ، ينه السخرية
 الخطأ ، ويجسه ، قصد إلى تحذيل السلوك ، أو رضية في الفكاهة والإضحاك ،
 أو للتخفيف من الغيظ والمرجدة ، أو لتبوير ذلك من الأهداف التي ذكرتها آنفا .

ولن يتم للمساخر ما أراد على أكمل وجه إلا إذا كانت السخرية في جماعة تضمنه
 فزيد بضحكها الضحك ، وتكون هذه الضحكات لكثرة الهازجة مما يما يرضى
 تخزاً لتكم به وتوجهه ، فتحقق هدفها ، وتصل إلى غايتها على أن كثرة
 الضاحكين المستهزئين ، وتوالي ضحكاتهم ملاوة على ما حققه من الأفاضل التي
 أرادها الماخر بسخره ، تدل على براعة السخرية ، ودقتها ، وروعة أدائها
 والضحك مدد بالتأوب فالتأوب يجلب لتأوب ويحقق النصر ، والضحك يجلب الضحك
 ويحقق الانسراج ، وكثرة الضاحكين الساخرين في قوة تكرار السخرية وشاهجة القائمين بها .
 ورجسون الفيلسوف الفرنسي يقول : (إن الضحك يخاطب العقل المعصم ، وينهض
 لهذا العقل أن يكون على صلة بعقول أخرى فمن لا تذوق الضحك فسي
 حال شعورنا بالجزلة ، إن الضحك في حاجة إلى صدى) (١) وهذا الرأي مطابق لما
 انتهى إليه إيماننا الجاهظ قبل فيلسوف فرنسي بنحو ألف عام فقد قرر أن الضحك لا بد له
 من جماعة تشترك في انفعال واحد ، وأن قيمته تعظم إذا كان جماعة ، فقد روي في
 قصة له من محفوظ النقائش في ليلة أكل فيها كورا من اللبأ والنسر (فما ضحكت
 قط كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً ، فما ضحك - إلا الضحك والنشاط والسرور
 فيها أظن - ولو كان مني من يفهم طيب ما تكلم به
 لأتسى على الضحك ، أو لقضى على عيسى ، ولكن

(١) الضحك - هنري برجسون - ترجمة سامي الكروبي ومهد الله عهد الدائري

ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب (١٠)

∴ ∴ ∴

١٤ - أن يختار الساخر مكان السخرية ، ووثقها ، وقدرها ، والجمهور المستمع لها ، وأسلوبها السخري منها ، وأن يرأس التناوب في كل ذلك فلا يتأخر بها قليلا أو يتقدم ، ولا تقدر أهميتها ، وضاعت ميزتها ، ولا يتخسر في موقف يعه الأسم للبهتان ، والحنن الكيبكولا يعجز بها مقدارها فيطيلها أو يقصرها ، أو يلقبها في كل وقت ، فإن للجد والوقار مواضع ، وللسخريسة والذل أوقات (ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال ، والجد في كل حال وشركوا التسميح والتسهيل ، وقدروا أخطائهم في كل دقيق وجليل ، وكان السفه صراحا خيرا لهم ، والباطل معصيا أربا عليهم ، ولكن لكل شيء قدره ، ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه ، كاللهاج في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه) (١١)

والجاحظ يرأس ذلك بشرطه فيقول : وللضحك موضع وقدر ، وللعن موضع وله مقدار ، متى جازهما أحد أو قصر منهما أحد ، صار الفاضل خطا ، والتقصير نقصا فالتناس لم يحسبوا الضحك إلا بقدره ، ولم يحسبوا العن إلا بقدره ، متى أريد بالضحك المنع ، والضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المنع جدا ، والضحك قارن (١٢) ، ولعل سخرية جمهورها الذي يسمونها وتتلذذها حتى يقال : إن الضاحكين من سخرية بعضهم مشتركون غالبا في عقلية واحدة أو مشتمون إلى لصيلة نفسية واحدة .

١٤ - البهلاء ، الجاحظ تحقيق طه العاجري ص ١٢٤ وما ذكر القصة في الفصل الأول من الباب الرابع . الجاحظ ضبطه من أحد الموماري وطن الجامع ص ٤٦ ج ٢ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠ .

(١١) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ١٠٦ طبعة دار النهضة الحديثة بيروت عام ١٩٧٢

(١٢) البهلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه العاجري ص ٧ .
 وكتاب البهلاء ، الجاحظ ، شرح وتوضيح أحد الموماري وطن الجابون ص ٢٩ ، ٢٠

١٥ - أن تكون السخرية جديدة مبتكرة ، فليس هناك آدمى للطل من الحديث
 المعادة وأولى بالنادرة والظرفة ، والظافة والسخرية ، أن يكون بنت وقتها ،
 ووليدة ساعتها ، لم ينطق بها نم ، ولا وثق قبل في سمع ، ولا انشئ لها
 قلب ، لأنها إن كبرت وأعيدت فقدت عنصر الإثارة ، وهامل المفاجأة ، ومميزات
 السرور والإضحاك ، ويحدث عن دورها في إيلاء المتكلم به وإيجاله ، وتحقيق
 هدفها من إضحاك الناس ملوه ، وهزئهم به ، إن الجدة والظرفة عنصر
 رئيس في نجاحهما ، فإن لم يستطع الساخر تحقيق هذا العنصر فلا أمل
 من أن يتصرف تصرفا مائرا خادقا ، يحيل به القديم جديدا ، يصنع به
 جديد ، وصبه في قالب بكر ، وإعادة فزله وتعبه ، وتظهيره وتسيفه ، حتى
 لتسنى الأذن أنوا . سمته من قبل ، وتكر الالمن أن له به إلقاء .
 وتكر من سخريات الجاحظ ومضكات قد سبقه بها رجال في عصره ، ومن قبل
 عصره ، ولكن دقته في عنقه ، وتفنته في سخرياته جعلت سيد هذا الباب ، والقدم
 في هذا الفن .



١٦ - أن تروى السخرية بما فيها من لكمة ، وتعني طحونة معرفة كما قبلت ، إذا كان
 مهمتها اللكمة ، ومنهجا التحريف ، وسر الإضحاك ، وللذخ فيها اللحن ، فاللكمة
 والتحريف والتصنيف ، والقلب المكان ، واختلاف الإعراب ألوان من الكاريكاتير
 بحيث فيها المتكلم بأجزاء الكلمة ، وتزيتها ووهيكلها . العام ، أو قولها
 المتكلم براهها مستقيمة البنيان ، سليمة الأجزاء ، ولكن الساخر براهها
 على حقيقتها من تشويه وتناثره ، وجعلها لونا من ألوان السخرية ، فيشكل
 متناثر الأجزاء ، وقد آلت الكلمة إلى هذا المنح ، وانتهى ذلك
 التشويه كما يتناسب المكان الذي شوهت حاله من طريق القصد سخرية به

أو أن هذا التشويه لخلقته قد مورى إلى السخر والسخرية والناظر يبحث الميسرة
في الكلمة ويحاملها بحاملة الإنسان فيسخره من طبعه .

وقد انتبه أديبنا السابق لأحداث اللحن والتعريف ولجنب الإعراب في القادرة
والسخرية ، وأنه جزء من جمالها ، وسطر من إبداعها يقول : بن غنيمة في كتابه صيون الأخبار ،
(وكذلك اللحن إذا مر بك في حديث من التوليد فلا يدهم قلبه منا فمدناه وأرهنا
فك أن ~~تستعمله~~ لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر
القادرة حلاوتها) (١٣) ، يقول : بوعلى المباحث في كتابه الحيوان ، (وإذا كان يوضح
الحدث على أنه مضحك وله داخل في باب العزق والطيب فاستعملت نفسه
الإعراب انقلب من جوده ، وإن كان في لفظه سخف ، وأبدت السخافة بالجزالة
غار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس بكرها ، وأخذ بأظامها) (١٤) .

وقول في كتابه الحيوان رابعا بعض كلام النظم الشعرية وتكرار أبيه في اللحن ،
(فكان آخر كلامه أن قال : إن كنت سبج ، فالذهب مع السباع ، وطليق بالبراري والغياض
وإن كنت بلهجة فاستعنا سكوت البهائم ، ولا تتكرفولي وحكايتي عنه يقول ملحن من
قولني إن كنت سبج ولم أقل إن كنت سبعا . وأنا أقول إن الإعراب يفسد نواذر العلويسين
كأن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سماع هذا الكلام إنما أعجبهم تلك الصورة ، وذلك
الخروج ، وتلك اللفظة وتلك المادة فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أعجبك بمخفه

بعض كلام النجعة التي فيه وحرف الإعراب والتحقق والتقبل ، وحولته إلى صورة
ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل العروة والعجاجة ، انقلب السخر من انقلاب نطقه ،
وتبدلت صورته) (١٥) . ويقول في كتابه البيان والتميز ، (إذا سمعت بتأديرة من نواذر

(١٣) صيون الأخبار ، ابن قتيبة ، الجزء الأول ، ص ٢٠٠ .

(١٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٩ تحقيق عبد السلام حارون ، وطلبه

في رسائل الجاحظ الجزء الثاني صفحة ٩١ تحقيق حارون ط ١٩٦٥ .

(١٥) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٢٨٢ .

المواضع ووجه من طبع العشوة والطفام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لنا
قظا حسنا أو تجعل لنا من فيك مخرجا سرا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ومخرجها
من صورتها ، ومن الذي أهدت له ، وهذا استظهارهم إياها ما ، واستصلاحهم لها (١٦)

يقول في كتابه البهلاء : ^{دراة وجرهم} لا يخرج جدهم في هذا الكتاب لنا ، أو كلانا فمرحبا
ولفظ معد ولا من ^{والعرايا أيضا} جدهم فلهذا ، كما ذلك ، لأن الإعراب يفسد هذا السبب
ويخرجه من حده (١٧)

وإذا كان سميت السخرية والفتاحة في الكلام التضر والتشويق أو الفصاحة والإعراب
كان ذلك شرطا في نجاح السخرية وجودها بل إن ذلك شرط أساس فيها ، به
تكون السخرية ، وبدونها لا تكون ، يقول الجاحظ إمام السخرين ، (وتى سمعت حفظك
اللبث نادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، وخارج ألفاظها ، فإنه
إن غيرتنا بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام الولدين والبلدين ، وخرجت
من تلك الحكاية وملك فضل كبير) (١٨)

لا أن نقولها ويرويها من شهرها لسخره حرف بالإعجاب ، أو ينسبها إلى غيره من
لح اسم من السخرية ، وشاعت عندهم ، فإن السامع حين يظن أنه في أول
الحدث اسم السخرية تتشط نفسه وتشرق وتتفتح للضحك والانشراح ، وليس
سميت النادرة ورددت السخرية ، وأبهرضان يحلم ذلك حتى العلم فيروي لنا
في كتاب البهلاء (ولو أن رجلا ألق نادرة بأبي الحارث جيون ، والنهم بين
مظفر ، ومزيد ، وابن الأحرار ، ثم كانت باردة ، لجوت على أحسن ما يكون

(١٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ١٤٦ تحقيق هارون ك ٢

(١٧) كتاب البهلاء ، الجاحظ ، ضبط المواضع والجارو صفحة ٢٨ الجزء الأول

(١٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ١٤٥ ، ١٤٦

ولو ولدتا بيرة حارة في نفسنا و ملوحة في معناها و ثم اذانبها إلى صالح بن حسين
 و إلى ابن النسيان و إلى بعض النخلاء و لعادت باردة و لصارت فائرة و فسان
 القاتر من البارز (١٩)

(١٩) لعنتك في الجاهل : حقيق طه الخاخر صفة ٧

الفصل الرابع

مكانة السخرية بين الألوان الأدبية

للأدب أنماط كثيرة ، وفنون متعددة يلجأ إليها الأدباء ، ويتخذونها أداة يعبرون بها عن أفكارهم ، ويفصحون بواسطتها عن أحاسيسهم ، ولعلنا علمنا من قبل يتخذ الطريقة التي تروق ، والفن الذي يراه ألق بموضوعه ، وأدخل في النفوس والصدق بالقلب .

قد يكون هذا الفن في صورة قصيدة أو رسالة أو خطبة أو مقالة أو قصة أو مسرحية ، متخذاً لونا من ألوان الأدب الجاد ، أو ^{متعباً} ~~أحياناً~~ الناحية التزلية ، فاصداً إلى السخرية والتمك ، أو الفكاهة والدعابة .
وأدبنا العربي يعقل بالفكاهة والضحك ، ويحل إلى فن السخرية ، ويمسك في هذه الفنون أهميتها في النفوس ، وثمة نوعان من للقلوب ، ولا يدعى ~~بها~~ إذا لم تجاوز حدودها - عيباً ولا حرجاً .

وكذا أن للأدب الجاد عشاقاً ومريدين ، فإن للأدب البازل أخصاره وشاهديه وأرقى الفنون الأدبية البازلة " السخرية " ، وأصبحتنا وشانها بين الفنون الأدبية تامة من أنها جد إن أريد بها الجده ، وهزل إن قصد بها الهزل وهو ليس الوقت نفسه جد لأنها تحقق الهدف الذي أركده البازل يمزله ، فإنه (صنعتي أريد بالهن النفع ، وبالضحك الشئ السدى له جعل الضحك صار العلاج جداً

والضحك وقال (١) يقول الجاحظ في كتابه الحيوان .

(ولم تدر أن المزاج جد إذا اجتلب ليكون علة للجدة ، وأن الهطالة وقصار
وزيادة إذا تكلفت لتلك الحاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم

الحيوان إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه . قال أبو شمر : إذا كان

لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه (٢)

ويقول في رسالة الترميز والتدوير :

(وإن كان الفن قبيحا لأنه يورث الجدة فأصبح من الفن ما صور الفن قبيحا ،

وإذا صار الفن قبيحا لأن الذي يكون بعده الجدة ولم يصر الجدة قبيحا لأن الذي بعده

الفن كان الجدة في هذا الوزن أتبع من الفن وكان الفن على هذا التقدير أحسن

من الجدة لأن ما جعل الشيء قبيحا أتبع من الشيء كما أن ما جعل الشيء حسنا أحسن

من الشيء (٣) كتحقيقه السخرية جادة ، وصورتها هازلة ، وتستطيع بها أن تحقق

ما تحقق بالأدب الجاد ، والأدب الهازل مما فيها ميزة الأديبين وفضيلة

الفن ، بطريقة تخلق الإقبال عليها ، وتخفف النفوس بها .

وليست السخرية بمصيبة إن نبل هدفها ، وسمت فابتدا ، ومن أهدافها

التهيلة - كما قدمنا في الفصل الثاني - تخفيف الآم النفس - وتأديب الخصم ، وإقصاء

منه ، والتسلية والمرح ، والحفاظ على كيان الجماعة ، وكسب المال والرزق . وليست

هذه الأهداف بمسجوبة ، ولا ثقافية ، لأنها توجهات سديدة ، وقويات راسخة

وإسهام مع الطبقة الحاكمة في تدهور المجتمع ، والحفاظ على وحدته ، وسلامته وأمنه

(وتقبل السخرية ساحة ، ولكن الإعجاب بها يوجب السخرية عجزا وإسلافيا) (٤)

(١) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط الحوامري والجبارم ، الجزء الأول صفحة ٣٠ ط ١٩٣٨ .

(٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٢٢ ، ٢٨ .

(٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، طبعة بيروت صفحة ١١٦ ط ١٩٧٢ .

(٤) مقالات بين الكتب ، عباس محمود العقاد ، صفحة ١٤٩ .

في القرآن انكريم آيات فيها السخرة الصريحة وقر الصريحة ، قاله سبحانه

وقماني يقول : (واذا اكفوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا

إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في غياتهم يمدون) (٥)

قال القرطبي : (الله يستهزئ بهم في الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من جهة الجنسة

ثم يقول لهم : تعالوا ، فيقبلون يسبحون في النار والمؤمنون على الأراك - وهي السرير

في الحجال ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سد عنهم ، فوضعت المؤمنون منهم) (٦)

ألمس ما فعله الله معهم هو المعنى اللغوي والبلاغي والصرفي للسخرة ، وقال الأوس

في تفسير الآية : (الله يستهزئ بهم ، جعل أهل الحديث ، وطائفتين أهل الكتاب

الاستهزاء منه تعالى على حقيقته ، وأن لم يكن المستهزئ من أسائه سبحانه ، وقالوا

إنه للتحقير على وجه من شأنه أن من أطلع عليه يتعجب منه ، وضحك ، ولا استحالة

في وقوع ذلك منه عز وجل) (٧) . وسخر نوح عليه السلام من قومه ، قال تعالى فسي

قصه (وصلى الفلك ، وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منسفاً

فإننا نسخركم كما تسخرون) (٨) . فقد رد نوح الرسول سخريتهم بسخرة مثله لها ،

ولا قضاة في ذلك ، ونسب الأوس في الكلام عن السخرة في الآية بأنها

لمست قبيحة ، وأنها على معناها الأصلي ونكر على المفسرين تأويلها ، ويقول :

(فعل إنها منه عليه السلام لما كانت لجزائهم من جنس ضياعهم لم تهب

فلا حاجة لارتكاب خلاف الظاهر) (٩)

(٥) سورة البقرة الآية ١٤ ، ١٥ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج ١ ص ٢٠٨ ط ٢ سنة ١٩٦٦ .

(٧) روح المعاني ، الأوس ، ج ١ ص ١٤٧ الطبعة النورية .

(٨) سورة هود الآية ٢٨ .

(٩) روح المعاني ، الأوس الجزء الثاني عشر صفحة ٤٦ الطبعة النورية .

ورى الإمام أبو حامد الغزالي أن السخرية ليست بمحصنة نفسي
بعض الروايات فيقول : (فأما من جعل نفسه مسخرة فربما فرج من أن يسخره
كالت السخرية في حقه من جملة المزاح) (١٠)

وهو رأى أستاذنا الجاحظ حيث كان لا يصر بأسماء من يفتكّر عليهم،
ويسخر منهم ، ولئن كانوا متمكنين ، ولا يرى فضاضة في السخرية والمزاح مع من
يمازح ويتظرف . يقول : (ولما من تسمية الأصحاب المتمكنين ، ولا غيرهم ممن
الستورين في شيء ، أما المصاحب فإنما لا تسمية لصرفته ويوجب حقه ، والأخرى لانسيبة
ليستر الله عليهم ولما يجب لمن كل في مثل حاله ، وإنما يخص من خرج عن هاتين
الحدالين ، ولربما سمينا المصاحب إذا كان من يمازح بهذا ، وراينا يتظرف ، ويجعل
الظرف سلباً إلى منع شئسك) (١١) بل إن سخرته من بعض أصدقائه تكون سبباً في
قوة الصداقة ورائع المحبة ، وتعد خدمة جليلة أدامها الجاحظ لهذا الصديق ،
ويستحق عليها الشكر والعترة . يقول الجاحظ بعد سخره من أحمد بن خلف
فيخطبها باسميه ، وقارئ سخره : (ولا تقولوا الآن ، قد والله - أسماء أبو عثمان إلى
صديقة ، بل ما تبارك بالسور حتى بدأ بنفسه . ومن كانت هذه ^{صفته} حفة ، وهستلنا
مذهبة ، فقير مأمون على جليلة ، وأي الرجال للهدب هذا والله الشروع
والتبوع ، والبذاء ، وقلة الوفاء .

اعلموا أني لم ألتبس بهذا الأحاديث منه إلا موافقة ، وطلب رضا
وصحته ، ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسماً من قبله ، وكينا صن
كفائه ، وذلك أن أحب الأصحاب إليه أبلغهم قولا في إيمان الناس ما قبله ،
وأجودهم حسناً لأسباب الطبع في ماله . على أني إن أحسنت بجيدى ، فسيجعل

(١٠) إحياء علوم الدين : الغزالي صفحة ٩٣ الطبعة الميمنية .

(١١) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط الصوامري والجزء الأول صفحة ١٥٧ .

شكري حوقفا ، وإن جاز كتابي هذا حدود العراق شكره ولا أمسك ، لأن بشرته
 بالقبح عند نفسه في هذا الإقليم قد أغنته عن التوبة والتب عليه ، وكيف وهو يرى
 أن نوح بن هارون ، وإسماعيل ابن غزوان ، كانا من السرفين ، وأن التورى والقدى
 يحتويان الحجر (١٢)

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي صرح فيها بلفظة السخرية قوله تعالى :
 (سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) (١٣) . وقوله : (أخذناهم سخرها أم زانت ففسم
 الأبطار) (١٤) وقوله : (ويل عجبت ممن ينسبون) (١٥) . وقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر
 قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) (١٦)

فالسخرية المنوعة شرطا ، والعمية خلقا هي التي يكون الفرض منها الإحباط ،
 ولرافة الكرامة ، والكذب وتسويه الحقيقة ، وعدم المنزعة ، ما يؤدي إلى التفاضل والتأخر
 والمداداة الساخرة ، أما السخرية اليرادة إلى إصلاح الفساد ، وتعميم المنوب ، والقصاص
 والاستعلاء بها من القتل وسفك الدماء ، ^{والتعسف} فخصن الديار فرأين - تهذه الآراء السابقة
 أنها خير ولا عيب فيها ، لأنها تعود إلى صلاح .

فالسخرية إذن فن أدبي راق له أساليبه وطرقه ، ويستعمل نفسي
 الصبح ككلم قال تعالى يسخر من الكفار (ففسمهم بعذاب أليم) (١٧) ^{الموضح}
 البهارة مكان الإنذار سخرية بهم وقال : (إن الذين تدعون من دون الله مواد أمثالكم
 لا يدعونهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . أليم أرجل يشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون

(١٢) المصدر السابق صفحة ٨٢

(١٣) سورة التوبة الآية ٢٩

(١٤) سورة ص الآية ٦٣

(١٥) سورة الصفات الآية ١٢

(١٦) سورة الحجرات الآية ١١

(١٧) سورة آل عمران الآية ٢١

بما ءلم لهم آصين يصرون بما ءلم لهم آذان يستمنون بما ءلم لهم آصرا ولا ءلم
ثم كيدون فلا تتظرون (١٨).

وقال ، (إن الذين تشعرون من دون الله إن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ،

وإن يصلبهم الذباب شيئا لا يستقدروا منه ، ضعف الطالب والمطلوب) (١٩) فقد سخر

الله من هؤلاء الكفار لعبادتهم من لا يستطيع الخلق والإيجاد ولا المحض ولا الدفاع

عن نفسه وحقه السلوب فضلا عن جهالة تفكيره . وقال حكاية عن القارح إبراهيم ،

(قالوا أنت فعلت هذا بالمتنا يا إبراهيم . قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم

إن كانوا ينطقون) (٢٠) . فقول إبراهيم سخريه من الكافرين ، وتشمك بهم ، وطيب قلبهم ،

لعبادتهم من لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم .

وفيه المجال للاعتذار ، والحمد عن طائفة العقاب ، واستدامة المداقمة

والصحة وإلى هذا المعنى يشير الجاحظ في رسالة : التبريح والتدوير (من المزاج

جعلت فداك - باب مكره وحسن خدع ، يتكل المرء في إساءته إلى ^{جلبته} ~~جلبته~~ وأبسطه

لمدبقة ، على أن يقول ، مزجت ، وعلى أن يقول عند المسألة ، لعبت ، وعلى أن

يقول ، من يخضب من المزاج إلا كره الخلق ، ومن يرغب عن الفكاهة إلا ضيق العطن) (٢١)

يحللهم من طريق اللعب والمزاح ويرشدهم بالفكاهة والضحك وذلك أسنى السوان

التعلم . وإلى ذلك المعنى يشير الشاعر بقوله ،

لسانه من جراحسى

لن صاحب ليس يخلصر

على طريق المزاج

بجهد تمزيق عرضسى

(١٨) سورة الأعراف الآية ١٩٤ و ١٩٥ .

(١٩) سورة الحج ، الآية ٧٢ .

(٢٠) سورة الأنبياء ، الآية ٦٢ و ٦٣ .

(٢١) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٠٧ طبعة بيروت عام ١٩٧٢ .

لقد رأينا القرآن الكريم يخبر من الكافرين ويدخل باسم مؤمنينا رسول
 الله إبراهيم عليه السلام يتخذ الشجرة من الكافرين أسلوبا له لينبئهم إلى
 أخطائهم بالدليل القاطع ، والحجة القارعة ، كما رأينا من قبل الشجرة الصريحة
 على لسان نبي الله ورسوله نوح عليه السلام .

وإذا كانت هذه نظرة الدين والخلق والأدب إلى الشجرة فلا غرابة أن يبتدأ
 من أدبي رواق مع ما عرف عن الأدب من بساطة وانفتاح وتطامع يقرب من التحلل
 هو فن الشجرة ، ويحتفل به الأدباء ، ويحتفى له الشعراء لما يحتاج من ترفيق
 وحيلة ومن تطف (إن الشجرة أرق أنواع الفكاكة لما تحتاج من مذاق وخفاء وكسر
 ومن لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتاب الذين يدؤون بالمقائيد
 والخرافات ، وتستخدمها الساسة للكتابة بخصوصهم وهي حينئذ تكون لذات خالصا (٢١)
 (وكتاب الأوصاف المضحكة يعتمدون في كتابتهم على طرائف كثيرة قد يناقشها
 بعضها بعضا ، وقد لا يجتمع منها ملكتان لكتاب واحد ، فبعضهم من يعتمد على ملكة
 السخره وهو يحتاج إلى الذكاء وإدراك الفروق ، وقد يصحبه شدة من الجد والبراعة ،
 وبعضهم من يعتمد على العناية وهو يحتاج إلى مزج في الطهينة مرجعه في الغالب
 إلى المزاج ، لا إلى الدرس والتعليم ، وبعضهم من يعتمد على المنزلة وهو يسر
 خلق يبتدأ من جدل يتقدير عظم الأشياء ، وقد يستعمل الضحك في جلائل
 الخطوب ، وبعضهم من يعتمد على العطف ، وهو يرضى الإنسان من تقاليم الناس
 ويضحك كما يرضى الوالد الشفيق من جدل ولبده الصغير ، وخير هذه الطرائف
 وأعلامها ملكة السخره بما زجها العطف ، وهي عبقرية لا تقل في اقتدارها على
 تجميل العبارة ، وتثيف النفوس والأذواق من عبقرية الفلسفة ، وعبقرية

(٢٢) الفكاكة في مصر ، شرق صيف صفحة ١٣ كتاب الللال .

الشعر والتخلصين) (٢٣)

إن الأدب الجاد يسهل عليه أن يسهو ويرتق لأن موضوعه ليس له
وقايه مؤزومة لدى الناس، وأساليبه واضحة معبدة، ولكن الأدب الفكه في حاجة إلى
مجاناة وممارسة، وقدرات خاصة، ونفسية وحسية وذهنية وروحية، لا يوفوها
حقها أولاً يحصل عليها إلا القلة القليلة من الأعباء (وأنت حين تجد قد لا يشق
عليك أن تحلق، ولكنك حين تنجح إلى الفكاكة لا يعود من السهل أن تحافظ
على الاستواء الواجب، وأن تنسى الهيرطيد وتجنب الإحاجه وتكبح مواطنك،
وترخي العنان لمقلتك، وأن تشيح الجبال في موضوعك، لتسد نفضه، وتسلأ
فراقه، وتحوض نفسه، ومن هنا قالوا، إن غاية الفكاكة هي أقصى ما هو
مقدور للإنسان، يعنون بذلك التحرر من تأثير المواطن العنيفة، والقدرة على
التأمل في سكون واطمئنان والنظر إلى ما يقع ولا إلى القدر أو العظ أو
الاتقان، وضع الحماقات والسخافات والتناقضات ابتسامة رضية، لا كبيرة منحدره
تكبح جماح الغضب عند شهوه لثم الإنسان أو معاناته) (٢٤)

(٢٣) ساعات بين الكتب : العقاد : صفحة ١٥٢ ، ١٥٣ الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٨
طبع مكتبة النهضة المصرية .

(٢٤) حصاد الشعر : إبراهيم عبد القادر المازني : ص ٦٤٣٠٥ - ٢٠٦ طبعة دار الشعر

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩ .

الكتاب الثاني

الكتاب الأول

أبوه عاش في الحياطة لم يذكر ذلك
أبوه مات في الحياطة لم يذكر ذلك
(مولده ووفاته بالهجرة)

الفصل الأول

حياته وأدبه

أصله عمرو بن بحر بن محبوب الكافي - ولقبه الجاحظ والبدوي (١) بيزنطية ه
وتيمته أبو عثمان (٢)

كان قصير القامة ، صغير الرأس ، دقيق المعنى ، صغير الأذن ، أسود اللون
جامع الميادين ومشوه الخلقه ما جعل التنوكل يصرفه عن تأديب وكده حين رأى
يأطاه عشرة آلاف درهم (٣)

ولد بالهجرة من أسرة متواضعة في مدينتها وفي طبقتها الاجتماعية فلم
يحفل أحد بمولده ولم تعرف سنة ميلاده ، وتضاربت فيها الآراء وإن كانت على
وجه التحقيق في الحقد السادس من القرن الثاني للهجرة .

أما أبوه فلا تعرف عنه شيئا إلا اسمه وإن كان يؤكد لنا أنه لم يكن
من طبقة القوم ولا من فوسطهم كما يدلنا على أنه مات قبل أن يفتح ابنه
الجاحظ ويذبح عتيقه وإلا للحقه شيء من شهرته .

وأما أمه فلا تعرف عنها إلا أنها كانت فقيرة رقيقة الحال وكانت تلتحق
عليه وهو صغير ما اضطره لكسب قوته ، ومواجهة أهوال الحياة مبكرا فباع الخبز
والمسك بسيحان في صباه (٤) وكان يستعمل فراغه في التردد على الكتاب - وسيلة
تعلم الطبقة الفقيرة في عصره - كما كان يتردد على حلقات المسجدين التي يجتمعانها
أبناء الفقراء في مجتمعه إن أرادوا الحصول على قسط من التعلسم وكثيرا ما

(١) معجم الأدباء : يا قوت ج ١٦ ص ٢٥ -

(٢) تاريخ بغداد العجك ١٢ ص ٢١٢ الخطيب لهذا الذي يطهه السماء سنة ١٩٢١

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف ، الأيشينين ، الجزء الأول ص ٩٢ والقصة من الناموس
وهو كتاب نثرات الأوراق في المحاضرات لابن حجة العمري .

(٤) معجم الأدباء : يا قوت ، أحمد رفاعي بك مطبوعات دار التأمين الجزء ١٢ ص ٢٤ /

كان يذهب الى العرب يتلقى اللغة والقصاحة مشافهة من الأعراب . لقد تطهرت

الجاحظ على أساتذة كانوا زينة الدنيا ، وخرقة في جبين الدولة العباسية ، منهم الأصمعي الذي كان يحفظ تلك اللغة ، وأبو عبيدة ، الذي لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجمع العلم منه (٥) ، وأبو زيد الأنصاري ، وقد قيل عنه ومن سابقية ، إن هؤلاء الثلاثة كانوا في عصرهم (أثمة الناس في اللغة والشعر وطعم العرب ، لم يرقبلهم ولا يمدحهم مثلهم ، عنهم أخذ جل ما في أيدي الناس من هذا العلم ، بل كله (٦) ،

والأغثنس ، وكان من أعلم الناس بالنحو والتصريف . وصالح بن جناح اللخمي ، وقصد أدرك التابعين وكلامه مستفاد في الحكمة والنظم . إبراهيم بن سيار اللخمي ، وكان في جملة ما يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة والنور وتفسيرها عدا الشعر والأدب والنسب ،

وصفه الجاحظ بقوله (إن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظيره فإن كان ذلك صحيحا فهو أبو إسحاق النظمي) وقال (إنه ما رأى أحدا أعلم بالكلم والقفه منه) (٧) وموسى

بن سيار الأسواري ، الذي قال عنه الجاحظ (إنه كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يبذل في مجلسه المشهور به فيقعد العرب من بينه والفرس من يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ، وتسم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرهما لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضم على صاحبتها) (٨) .

وإذا نهل الجاحظ من معين هؤلاء ، وأقرن من فيض من عصره يهتدون بسببه غير هؤلاء ، فلا تعجب أن يتسم عصره وأن يحيا من بعده على ويضعله وأدبه وأن يتقسي

(٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، صفحة ٢٤٧

(٦) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، الجزء الثاني صفحة ٢١٧

(٧) المرجع السابق صفحة ٢١٧

(٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٢٨٦

(١) في الأعلام للزركلي ١/ ٢٦ : " فإنه صحيح ذلك كما هو ظاهر من ذلك " وفيه العبارة في موضع (صفحة ٢٦٨)

هذا الأسب وذلك العلم قدوة للمقتدين وضارة للمساكين .

انظر ص ٩٦

لقد كان فاتحة الخير للجاحظ ، التقاوه بموسى بن عمران الذي كان له الفضل في عقد الصلة بينه وبين إبراهيم بن سيار النظم إمام المحترلة فلا زمه ، وتبع مسلكه في الاعترال ، وشهر باعتراله حتى صار زعيما لطائفة الجاحظية التي نسبت إليه وتسمت باسمه .

وقد كان الاعترال حينئذ مذهب الدولة الرسمي ، وكان مذهب المؤمن الذي أذاع في الناس أن يكتبوا في الإطاعة وأن تحمل إليه كتبهم ، فكتب الجاحظ ، وحملت كتبه إلى الخليفة فنالت الخشونة عنده ، ودعا ، وحالسه ، واستمع إليه ، وأطرى كتبه ، وسأله أن يكتب له في العباسية ، والاحتجاج لها فكتب ، وصدر ديوان الرسائل فتخوف الكتاب من توليته هذا المنصب ، وأشفقوا أن يكون ذلك سببا في ضياع همتهم ، وسقوط همتهم ، وكان سهل ابن هارون يقول : (إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب)^(٩) غير أنه لم يمكث به إلا ثلاثة أيام ثم إنه استخفى فأغفى .

وقد اتصل الجاحظ بابن الزيات وزير المحتشم وأهداه كتاب الحيوان فأجازه خمسة آلاف ديناراً وأهدى كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه خمسة آلاف ديناراً وأهدى كتاب الترع والنخيل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فبذره خمسة آلاف ديناراً ، كما قدم للفتح بن خاقان كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة فصار الجاحظ غنياً واعتبر نفسه بذلك صاحب طهيمة لا تحتاج إلى تجديد وتسميد)^(١٠)

(٩) معجم الأدباء . يا قوتج ١٦ ص ٧٩ .

(١٠) المرجع المذكور ص ١٠٦ .

وقد كان الجاحظ واسع الثقافة ، غزير العلم ، خبيراً بالناس وأحوالهم ، لا يكتفى

بالمعرفة ، وإنما يتعداها إلى التجربة والاستبطاء ، ولم يكتبه بالكتب يأخذ منها ،
والأما تذة يرتشف من علومهم ، بل كان يخشى العريد يتلقف اللغة مشافهة من الأعراب

ويحضر مجالس الشعراء ، والأدباء ، ويسمع أشعارهم وسماواتهم ، ويتأمل ^{ويروا} ويوازن ويقارن
وكان له في النقاش والجدل والمناظرة باع طويل ، اكتسبه من أئمة الاعتزال ، وكانت قدمه
تجربه دائماً إلى حلقات الإخياريين والقصاصين والمقدرين المتفكرين الساخرين مما
يصادف هوى في نفسه ، وراحة لقلبه .

وقد استحق عن جدارته ما قاله عنه أبو هفان (لم أرى قط من أحرى الكتب والمعلم
أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى فرائضه كأنها ما كان ، حتى
أنه كان يكرى دكاكين الوراقين ، فيبيت فيها للنظر في الكتب) (١١) (ولا يحسب أحداً
وصف الكتب وتحدث عنها ، بمثل ما تحدث به هو عنها في تلك الفصول الرائعة التي صدر
بها كتابه الحيوان . . . هذا الحب القديم ، وهذه العلاقة الشديدة من العوازل القوية
التي جعلته يؤثر صناعة التأليف ويستغرق فيها ، ويوجه نشاطه كله إليها) (١٢) كما ألفه يددا
من الكتب جاوز بها السبعين بحد المائة ، وربما أكثر تأليفه لامتداد عمره ، ولقضاء شغورها
طويلاً من حياته مريضاً فاضطر إلى ملازمة بيته ، وقطع فرائضه بالكتابة والتأليف ، وربما
كان سوء منظره سبباً في انصراف الناس عنه فحسب بصناعة الكتب ، ليصرفوا أن وراء هذا
الوجه المشوه نفساً جميلة وروحاً فكيلة ، وذهناً وقادراً .

خطا الجاحظ بالكتابة الفنية خطوة جديدة نحو التمهيم من جميع الموضوعات في خلافة
وهو أن عذب ، واتخذ من الحياة والمجتمع والنفس البشرية موضوعاً لأدبه ، واهتم بالألفاظ
والمعاني معاً ، دون أن يجرؤ أحدهما على الآخر ، فهو بحق معلم العقل والأنسب ، يضع
ألمح ناظره إيصال المعاني إلى قارئه واضحة جلية ، في ثوب مناسب من الألفاظ فالشريف

(١١) المرجع المذكور ص ٢٥ .

(١٢) الجاحظ حياته وآثاره ، طه الحاجري ص ١٦٠ ط دار المعارف سنة ١٩٦٦

للشريف والخسيس للخيوسه دون هيق. ^{بوق} أو بجمحة نقه كان يكره العناية الفائقة
 باللفظ التي تجعل الكاتب (عبداً للجموعه من الألفاظ ويجري لها الصانع ويشدها
 شداً) (١٢). وإنما يمشق الأداة الدقيق لعانيه ويمشق معه الوصف المحس لمشاهده
 ما دلا عن المجاز ما استطاع، فان عمد إلى شي منه فإنما للإيضاح، ولظهار الصورة
 بطريقة مبرزها، فنضونه عن الخليل لأنه يجعلنا نظري في مطعرات والمغات تبصده
 من الواقع ومن حقيقة المعنى المراد. لذلك لنتقن من التشبهات ما وضع في الأنعام و
 قرب إلى الآذان، وتفاعل مع الأذهان، فالتصفت كته بالواقعية التي ترونها كما
 هي دون تعوي أو تستره فمويسى الأشياء بسمياتنا، دون لجوء إلى الرموز
 والكتابة، ويصح بذكر السموات والعموات في غير مواضع ولا تستره يرى أن ذلك أكثر
 إيضاحاً للصورة، وإبرازاً للفكرة، وتماشياً مع الواقعية (ولكن واقعية الجاهظ لا تقف عند
 تلك التفصيلات الدقيقة، والظواهر المعية، بل تستعد إلى تحليل نفسي واجتماعي
 وتصوير لبعض الأحاسيس والمواقف) (١٤). وهذا الأدب الواقعي أعطانا فكرة واضحة عن

عصره واجتماعه، بمعامده وسائرته وعواطفه وظلاله، بل بالفاظه ونعني كلام المصوم
 والمولدين بما فيه من لعن وخطأ ليتقل إلينا الواقع بكل ما فيه، بل تعتمد ذلك تعصداً
 يقول: (فإن وجدت في هذا الكتاب لغتاً أو كلاماً غير محرب، ولفظاً معدولاً حسن
 جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يهبط هذا الباب، ويخرج منه
 من حده) (١٥). فحرية الأديبة التي أباحت له ذكر العموات، والإفصاح عنها
 بصريح أسائها دفعت إلى حرية مثلها في اللغة والحق أنه طائر الحرية بأجلى

(١٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي، نوفى صيف ١٦٦ الطبعة الثالثة مطبعة دار
 المعارف.
 (١٤) فن القصة في كتاب لخبلاء للجاحظ، محمد البارك الطبعة الثانية دار الفكر
 بدمشق سنة ١٩٦٥، صفيق ٢٧.
 (١٥) كتاب لخبلاء للجاحظ، تحقيق الجار والعمارة من ٧٨ الجزء الأول.

مجانها ، ومختلف أوضاعها ، وشاعت في سائر مناحي حياة وإباحتها ، فكانت له
حرية في العلم ، وحرية في الدين ، وحرية في اللغة ، وحرية في الأدب ، وحرية في
السلوك .

حرية في العلم : جعلته يستند إلى العقل ، وتوجه إلى البحث والتفتيش ، والتجريبية
والاستدلال ، دون اعتماد على الآراء السابقة ، واتجاهات السابقين ، قبل أن
يعرضها على عقله لمحصنها ، ويوافق عليها . فهو يناقش وينقد ، وينفي ويثبت حتى ولو
كانت هذه الآراء لشيخ فلاسفة الإغريق وفكرهم أرسطو أو لشيوخه النظام .

حرية في الدين : دفعت إلى اعتناق مذهب المعتزلة ، المرتكز على التفكير الحسري
والعقل والمنطق ، والاستدلال والاستنتاج ، وعدم الأخذ بالظاهر دون نظرسر
إلى الحلال والمسيبات ، وأبعدته عن التزم والتطبع ، وحقت له التوازن بين الدين
والدنيا .

حرية في اللغة : حيث فضل السهولة والليونة ، والبعد عن الصع والنافر ، وارتضى حكاية
كلام الأعراب حين يكون ذلك أليق ، وترك الإعراب إن وجد هذا أول وأفضل ،
واستعمل ألفاظ السوقة والمعولم حتى استلزم المعرفه ذلك ، إلا أن الشرف للشريف والسخيف
للسخيف .

حرية في الأدب : حبيبت إليه الانطلاق من قيود البديع ، وسمناته اللفظية والأسلوبية
وعدم الالتزام بطرق السابقين ، أو بطريقة خاصة في الكتابة ، كما أسمت أمته لطريق
في اختيار موضوعاته كما يحلو له ، وفي الكتابة فيها بالطريقة التي تروق له ، وبالترتيب
الذي يراه ، فحينئذ من غرض إلى غرض ، ويخلط الجذ بالدتل ، ويمازج بين
الجميل القصار والجميل الطوال ، ويصح بذكر السموات والحوريات ، دون تسيير
أومارية ، وينقد ما لا يروق من الشعر والنثر ، ولو أجمع الناس على استحسانه .

وحرية نفس السلوك ، أبعده عن قيود الزواج ، والالتزام بمسئولياته ، ونفرتيه

من الكتابة الديوانية ومطالباتها ، وتحت من التروم والركانة ، واتخاذ الهيئة

الوقورة^(١٦) ، والسمت الجاد ، وقربته من مجالس الأئس والعنادمة ، واللهم والمجون

وأهم ظاهرة في أدبه ، بل في كلامه وسلوكه وتفكيره ، وفي حياته العامة

والخاصة ، ط اختار به من يرح فكله مرحفه ، طامه ساخرة خضم بالمعابة ، وتعل

للن التكم ، وتغن الجد بالهزل ، وتخفف أعباء الحياة ، وتقل الصم ، بالمرح

والضحك ، وإذا هنأ دره الغريبة ، وأفكاره المصجية ، وسخراته اللاذعة تجر بسب

إلينا الحياة ، وتدفعنا إلى مصاحبه وقراءة كتبه الشيقة التي تنقل قارئها (من باب

إلى باب ومن فصل إلى فصل) (١٦) فلا يمل ولا يكسل .

مرض الجاحظ في سني حياته الأخيرة بالفالج والتقرس حتى لوطن الذباب

بجانبه لأنه . وحتى لو غرزت في جسمه المسال لما أحس كما قال هو عن

نفسه ومات رحمه الله والكتاب على صدره (قتله مجلدات من الكسب وقصت

عليه) (١٧) وقد اختلفت الآراء في عام وفاته كما اختلفت من قول في سنة ميلاده .

وإن كانت وفاته على وجه التحقيق في العقد السادس من القرن الثالث الهجري كما

أن ميلاده رغم اختلافهم فيه فإنه على وجه التحقيق في العقد السادس من القرن

الثاني الهجري . (الشهر أوله ولادة سنة ١٦٢ - وأره وفاة سنة ٢٥٥)

وصفة القول ، أن الجاحظ كان أمة ، وكان دائرة محارف لانزال حتى اليوم

تتلمذ على ترائه ، وتندمل من فيض أدبه ، وفخر علمه وتمتع النفس والروح برواية

فكاهاته ، والتحدث عن سخرياته ، ويندر أن نجد أدبيا أو باحثا في الأدب ،

(١٦) الحيوان ، الجاحظ الجزء الثالث ص ٧ .

(١٧) الأعلام ، التركلي الجزء الخامس الطيبة ٢ ص ٢٢٩ .

(١٨) قال أبو الفداء في الهداية والنباية الجزء ١١ ص ٧ أنه مات سنة ٢٥٠

قال ابن الأثير في الكامل الجزء ٥ ص ٢٥١ أنه مات سنة ٢٥٥

قال السيوطي في بغية الواعج ٢ ص ٢٢٨ أنه مات في المعن ٢٥٥ وقد جاوز التسعين

(١) في القاموس ، « ولم وقور »

أو ناقداً أو فكها ، أو صاحب مذهب ديني ، أو فكري ، إلا وفي كتبه
 مقتبسات لمن الجاحظ ، وانتقها ، وآرائه ، ونقل عنه . ويقتدى ذلك دليل على سفته
 وفضله ، وصلاحيته أسلوبه وفكره ، وعلى أن اسمه سيظل باقياً على امتداد الأجيال
 خالد ما تعاقب الليل والنهار .

رحم الله أبا عثمان وحزاه عما قدم لأمته وللإسلام وللعالم العربي وللنكسر
 الإنساني من خدمات جليلة أكرم جزاءه .

الفصل الثاني

عوامل نبوغه في السخرية

السخرية فن يحتاج إلى ملكة واستعداد، وحيد وإحسان وقدرة خاصة
تتميز على الابتداع والابتكار، فليس كل شخص قادراً عليها، ولا مستطاباً منه، وليس
كل من يسخر تترك سخريته في نفوس سامعيه نشاطاً وفتعاشاً، وفي نفاهم ضحكات
وقهقهات وتترك في الوقت نفسه في قلب السخرية ألماً مضاء، وضماً قائماً،
وإنما يقدر عليها، ويوفيقها قائماً الشخص الريح، الفكاهة المجلس العلو الحديث
البارع التصوير، السريع الملاحظة، الدقيق المتأثر الحاضر اليدوية
فيخير اللفظ الموجز، والأسلوب السهل، والكلمات المبهمة، ويحيد إلى التوضيح
والتلويح، والكناية والرهز، واللفتة والإشارة، فلا يكاد ينتهي من كلمة حتى
يستلق الجرس على أفتانهم ضحكاً وسخرية، مرددين كلامه، هاتقين بمباراة، متحجبين
بتجسيم المعاني، وجمعه المتناقض، ومبداً لشباك حول فريسه، واقتناصها والعبث
بها، وتحويلها هزأة، وسخفا مشوهاً.

وبقدر ما يكون المعنى عميقاً والهدف مستتراً، يحتاج إلى فكر وفوص، وليس
مثال ما يفتن السخرية طرائقه وأساليبه، حتى لنخال أن الكلام ملق على طبيعته

لا مسخرة فيه ولا تسلّم يكون نجاح المسخرة وبراعتها ، حين تصل إلى الأذهان ، وتلتصق
 في العقول ويؤمن ما يقصده المتحدث ، وما يخفيه وراء الألفاظ والمعاني السطحية .
 والجاحظ - أديب الصرية - هو الذي خلق من المسخرة فنا مستوي القامة ، وطيد
 الأركان ، سامق البنيان ، بقدرته على التصرف في فنونها ، وترويح أشكالها وضروبها
 تساعد في ذلك قريحته الوفاءة ، وعقليته اللامعة ، وما وهبه الله من طهيمه ساخرة
 تنفخ في الصخير روحا فينمو ويكبر ، وتضغط بيدها على هامة العظم فينحط ويتضع ،
 يوازره في تحقيق الألوان الجديدة من هذا الفن ، طهيمه مرحة ، وتصرفات لبقه ، وثقافة
 واسعة ، وخلقة مشوهة ، وترس بالحياة ، واختلاط بالناس ، ومداخلة لهم ،
 وتغلغل إلى أغوار نفوسهم مما استترت بواطنهم ، وتباينت طبقاتهم ، واختلقت درجاتهم
 ثم ما عرف عنه من حب للمزاج ، وقلة الكراث بالتقاليد والعادات ، وما تواضع عليه
 الناس ، وأخذوا أنفسهم باحترامه ، إلى ما شاع في عصره من تضارب فكري يصل
 أحيانا إلى النزق والحمق ، واستهتار ديني يدفع في كثير من حالاته إلى الفسوق والمجون
 والخلاعة والزندقة ، هذا إلى أوضاع اجتماعية متباينة أشد التباين من متى يصل
 إلى ثروات قارون إلى فقر مدقع يملك له الناس عريا وجوا ، إلى تفكك مزج ، وتحديد طوائف
 مقيتة ، وانتشار الظرف والمجون ، والتطفل والتفج ، وظهور طبقات البخل والفضوليين
 والحمقى والتطبيين والشطار والموسوسين والمتعالمين (وسط سارت فيه الخفة والتبكم
 وجه الميل إلى العبث والتندر ومن هنا نشأ ميله الجزئي إلى المزاج شريطة ألا
 يخرج هذا المزاج عن حدوده ، وكان على الجاحظ من جهة ثانية أن يقام
 أثناء مكنه في بغداد تيارا عاما من الجد والقابض والصرامة ، وهذا ما يعقل
 إشارات المدينة إلى نواك الضحك (١) فتمكن هذا الفن من الجاحظ ، وتمكن

(١) أدب الحرب ، مارون عبود ص ٤٠٢ دار الثقافة بيروت عام ١٩٦٠ .

الجاحظ منه ، فأثر على أدبه نبي شتى اتجاهاته ، حتى أننا لا نجد له كتابا - على
 فكرة كته - إلا وقد حوى الصادرة والطرفة ، والتسكم والسخرية ، بل لقد أنسرد
 للسخرية بعض كته ورسائله ، وكتاب الهؤلاء ، ورسالة الترتيب والتدوير ، بل إن عناوين
 كته ورسائله تحمل التسكم ، وتلعب رداء السخرية رسالة فوط جهل الكندي ورسالة
 الحول والمور ، والمرجان والبرصان ...

كانت السخرية نتفا متفرقة ، فبجة الأسلوب ، وبداية الفكرة ، خشنة اللمس ، تعتمد
 على الحكاية والسرد ، إلى أن أتى الجاحظ فجمع أوامدها ، ولم شتاتها ، ووضع
 لها الأصول والقواعد ، فاستوت على سوقها ، فثنا راقيا ، مستقل الشخصية ، واضح المعالم
 وخرضا يخصه الأديب بقصيدة أو رسالة أو كتاب ، ما يشهد ببراعة الجاحظ وحدت فكره
 وإتقانه لفنه الأنور لديه ، الذي كونه فيه عدة عوامل خلقت منه أستاذ السخرية

دون تنازع ، شيئا ؛

∴

∴

∴

١- أصله وراثته

(٢) (كان جدا الجاحظ أسود ، يقال له فزارة ، وكان جمالا لعرويين قلع الكائن)

وإذا كان جمالا فمن شأنه حمادة - أن تدور بينه وبين بنى مهنته أحاديث مرحة ،
 وطرف ونوادير ، تخفف من متاعب العمل ، وثناء السير ، وأن تشب السحاورات
 والمنازعات التي ينطلق فيها اللسان بالشم والهجاء تارة ، والسخرية والتسكم تارة
 أخرى .

ولم يحفظ التاريخ شيئا عن محبوبه ، ولا عن بحر حتى نستشف عامل الوراثة ففسى
 سخريات الجاحظ ، وإن كنت أرى أن بيع الخفة والهن قد سرت إليها من الجذ فزارة ،
 ومن طبيقتهما الاجتماعية المحدودة الدخل ، ومن الهيئة العامة التي عاشا فيها .

(٢) مجمع الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ٢٤ .

(١) هنا محاوره الجاحظ أديب الوراثة الجاحظ ، وفيها لا يذكر أنه سخرية
 عند الجاحظ كانت طبيعتهم وطرفة رطلته

على أن ما قلناه من سخريات محتطة من الجد فزارة ، ومن سخرية أم الجاحظ ، ومن طبقة والديه وأجداده التي تتشرف بها السخرية عادة ، ولا ينقض دليلا قاطعا على أنها أسرة عنقت السخرية ، ومالت إليها ، فليست عندنا أدلة على سخريات فزارة ولا محسوب ولا بحر ، وإنما هي ظنون واحتمالات وليست عندنا أدلة على تسمم أم الجاحظ ، وإنما هي حادثة غريبة لا تشهد دليلا على أنها مطبوخة بل السخرية ، كما أن طبقتهم الدنيسا ليست بمرهنا على ليقتسم في من السخري ، وإنما الخلب عرفا وعادة ، واجتماعيا ونفسيا ، أن تكون مثل هذه الأسرة التي توفرت فيها هذه الأمور ساخرة متسكطة .

والذي يجعل ذلك غالبا على الذهن ، قريبا من الواقع ، أن السخرية التي شربها الجاحظ ، وشاعت عنده ، وانتقلت إليها عبر القرنين ، وتداولتها الألسنة في كل زمان ومكان ، لا بد أن تكون وليدة عدة عوامل ، تآزرت وتضافرت ، حتى خرجت لنا الجاحظ الساخر ، ولا بد أن يكون للوراثة والجد والاب والام دخل فيها كبير ، إن هم المنبع والأصل ، والمنقن ، والمعلم الأول الذي يسرى تعليمه في نفس الطفل عن طريق التقليد والتشبيه والمحاكاة ، فلا بد أن تكون هذه الوراثة قد أثرت في الجاحظ ، وطبعته على السخرية ، وجعلتها تمتزج بدمائه ، وتفيض على لسانه حتى وصل بها إلى البرصاصة التي فزرها في كتابه الجلاء ، وفي رسالة الترميم والتدوير .

٢٤ - دمامة خلقته ، وقبح شيبته ،

كان الجاحظ قصيرا القامة ، صغير الرأس ، دقيق المشق ، صغير الأذنين أسود اللون ، جاحظ العينين ، مشوة الخلق ، مستبشع النظر ، ما جعل المتوكل يصرفه عن تأديب أولاده ، بعد أن دعاه لذلك ، وأعطاه عشرة آلاف درهم (٤) قال فيه أحمد بن سلامة الكتبي :

(٤) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ج ٤ ص ٢٨٨ ، المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبهسي ج ١ ص ٩٢ ، دمامة المستظرف وهو كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات لابن حجة العمري وتاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٢ ص ١٠٦

ما كان إلا دون فتح الجاحظ (٥)

لويبح الخنزير سخا ثانيا

وهو القذى في كل طرف لاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه

وهو من نفسه (ما أخجلني أحد مثل امرأتين رأيت إحداهما في المعسكر ، وكانت
 طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت ، انزلي كل معنا
 قالت ، اصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري
 فقلت ، لي إليك حاجة وأريد أن تمش معي ، ففقت معها ، إلى أن أتتني السي
 صالح يهودي فقالت له ، مثل هذا . وانصرفت ف سألت الصالح من قولها - فقال ، إنك أتت
 إلى صبي ، وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان ، فقلت ، يا مستع ، ما رأيت الشيطان
 فأتت بك ، وقالت ما سمعت (٦) .

(إن لظهور الإنسان وقوامه أثرا في شخصيته ، فالرجل الصحيح الجسم الحسن
 القامة ، قد لا يحتاج في إظهار شخصيته ، والتأثير على غيره ، إلى ما يحتاجه الشخص
 النحيف الجسم ، المشوه الخلقة ، فهينا نجد الأول طبيعيا . . . إذ نجد الثاني . . .
 يتخذ أحيانا وسائل شعبانية أو ثعلبانية . . . وقد يضطر إلى المداعبة في حديثه ،
 فالإنسان حينما يحسن ينقص من الناحية الجسمية مثلا ، تراه يعمل على أن يسد هذا
 الفراغ ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية أو الخلقية حتى يظهر شخصيته للملا
 . . . والجاحظ كان أديب العلماء ، وطالم الأدباء ، وما لقب بهذا اللقب الذي كان

منفصلا إليه إلا لأنه كان جاحظ العينين بارزهما ، يسم الخلقه (٧) وحجوظ العينين
دلالة على أن صاحبهما وقع ممدار (٨) .

(٥) الجاحظ ، جون غريب ص ٢٠

(٦) أمراء البيان ، محمد كرد علي ج ٢ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ طبعة لجنة التأليف والترجمة
 والنشر سنة ١٩٢٧

(٧) في علم النفس ، محمد إبراهيم ج ٣ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ط ١ المطبعة المصرية عام ١٩٢٤

(٨) أخبار الحقق والمفلقين ، ابن الجوزي ص ٢٨ ط المكتب التجاري للطباعة والنشر
 والتوزيع بيروت -

فالدماغ غالباً ما يستصير من توج خلقته ، وشاعرة هيئته بالعلم والأدب ، يمد بها خلقته
ويستر نقيصته ، وبالريح العرجة الفلكية ، يخفف بها بعض ما يضطرب في صدره ، ويتقبل
بها ما يقال عنه في هدوه ، ورضا ، ووطن نفسه على ذلك ، ويعد لها لساع الكثير منه
ويُدبر بها على الجلد ، وقوة التحمل ، ولاعاشر مثقلاً بالحياة ، وربما بها ، كما أن عليه
أن يمد نفسه لمقاومة الذي يقال عنه ، أو يمكن أن يقال ، يسلطن حاداً وتكم مسر ،
يعكس الموضع ، ويلوى عنان السخرية ، فتزلف إلى قائلها ، معدة المزج المضاعف ، والتتكم
القاتل ، فتصير أحد وثمة الناس ، كما أن مرجه ، وخفة روحه ، يظهر أنه بعدم الاكترات
كما يقال عنه ، والاستخفاف به ، حتى إنه ليسخر من نفسه ، ومن غيره الجسمية ، وكان
لسان حاله يقول لا بيدي لا بيد عمرو ، وكأنه يرى أن سخريته من نفسه تخرس الألسن
وتخلق الأفتاة لأن الساخر منه لن يجد ما يقوله بعد ما قاله هو من دماسته وشوخته
وقت يسخر من قبحت هيئتهم ليعين أن هناك من فاته في القبح .

وأدينا الجاحظ المطبوع على الفكاهة الساخرة ، المشهور ببراعته في الاستدلال

والتصليل - حتى إنه ليملل للشئ وضه - قادر على أن يجعل الجميل الوهم قزواً
والبدر المنير قطعة من الفحم ، وفي مكنه بلا ذع سخرياته أن يخرس الألسنة المازقة
ويخفف من تسول له نفسه أن يتاله بلفظ جاح ، أو بإيماة مازلة .

(قيل لأبي هفان : لم لا تهجوا الجاحظ ، وقد نددت بهك وأخذ بمخنتك ؟ فقال :
أمتلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنف لي أمتت إلا بالصين شهرة ، ولو
قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة) (٩) ، ولقد وضع رسالة الترهيب
والتدوير يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب ، فطبقت شهرتها الآفاق ، واستمرت
نموذجاً للسخرية اللاذعة على مر الأيام ، وكر الأجيال ، ولو أنه انتهى فيها ناحية السب
الصريح ، والهجاء المكشوف ، لما ظل لها هذا الأثر القوي ، ولما كتب لها الهناء
والخلود .

والتاريخ يروي لنا عن كثيرين من سلبوا صحابة الوجه وجمال الخلق، ونقصوا
 المروءة الفطنة، والطبيعة الساخرة، فشيخ فلاسفة الإغريق سقراط، كان (قبه)
 المنظره فوق صيربدين دسم، بارز الصين، كبير الأنف في قبح، واسع الفم، بالي
 الثياب (١٠) (مشوه الخلق، جاحظ العينين، ضم المفتين) (١١) وكان التوكس
 من جملة أساليبه في تقرير فلسفته.

وبشار بن برد كان أعى مشوه الوجه من أثر جدرى أصابه فصار قبح المنظر (١٢) وقد
 ضرب المثل بقبحه وقبح الجاحظ، قال مخلد بن علي السلافي في هجاء ابن المدبر،
 رأيتك لا تحب الود الا إذا هو كان من عصب وحلد
 أراي الله وجدك جاحظيا وبينك عين بنار من بسرد (١٣)
 وكثيرا ما عبر بشار الناس بحصى قلوبهم وإن كانت لهم عيون غراب، وقد جاء رجل يسأله
 عن مكانه فوعفه له، قلم يستطج معرفته، فقاد به بنار إليه وهو ينشد ساخرا،
 أعى يفوق بصيرا لا أبا لكم قد ضل من كانت المعيان تبتديه
 وأبو المعيان، كان أعى ضيرا ولم يحقه ذلك عن مناداة الخلق، والسخرية مسن
 الطريق، وإن كانوا من أقرباء الخليفة وأحواله.

وأبو العشيق مروان بن محمد كان مولى لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وكان
 قبح الشكل خلق الثياب، يقول عنه المرزباني (أنه كان عظيم الأنف، أهوت المدقن،
 ملك المنظر) (١٤). ويقول عنه ابن عبد ربه (كان أدبيا ظريفا محارفا، وكان صلوكا
 مشهورا بالناس، وقد لنهم بيته في أطمار مسحوقه) (١٥) وكان مع ذلك ساخرا لادع السخرية.

١٠ قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين ص ١١ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩
 ١١ الجاحظ، محمد عطية الإبراشي ص ٦ مطبعة النهضة مصر
 ١٢ المنتخب من أدب العرب، جمع طه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٨٢ ط دار الكتب ١٩٢١
 ١٣ الجاحظ، جورج فريب ص ٢٠ الموسوعة في الأدب العربي، دار الثقافة ط ١٩٧١
 ١٤ معجم الشعراء، المرزباني صفحة ٢٩٧
 ١٥ للمقد الفريد، ابن عبد ربه، الجزء السادس صفحة ٢١٥ طبعة لجنة التأليف علم ١٩٤٩

وأبو دلامة كان أسود اللون حبشيا ، وكان عولى لبنى أسد وكان مشهورا بحسن
المناداة والمج والسخر والإضحاح حتى من نفسه .

وأشعب كان أبوه من ممالك عمان بن عفان ثم اعتقه فهدى من أهله الشهيد ، وكان ندما
إلى الطمام طفيليا بخيلا قصير القامة ، قبيح الوجه (أنرق أحول أكشف أقرع ألتخ ، وكان
لا يبين الرأ ولا اللام ، يجعلهما ياء) (١٦) وكان مغرما بالضحك والسخر .

فولتير ومولير ورابليه وهم أشهر من نبغ في السخرية في فرنسا وطأت مؤلفاتهم السخرية
الآفاق كانوا ضمافا ضالا يتكون السقم والاعتلال يقول الأستاذ العقاد عن فولتير إن اسمه
كان مشهورا بفثالته (ومزله ، ورجفانه من فرط المصيبة لأقل هياج يعثره . . . وكان
مولما بالهجاء اللاذع والسخر العوالم) (١٧) .

والجاحظ كان يشبهه من رجوه كثيرة فقد (كان فولتير عالما أدبيا ، وفيلسوبا ساخرًا
وكذلك كان الجاحظ ، وكان فولتير كاتبًا من كتاب الثورة الفرنسية ، كما كان الجاحظ كاتبًا
للمعتزلة ، ومهددا للثورة الأدبية وذلك بتقريبه موضوعات الأدب من أذهان العامة . . . وكلاهما
كان ممتاز في أسلوبه بالسخرية والفكاهة) (١٨)

وأعلم المبدع المضروب به المثل في الدعاية والسخرية كان (زنجيا بمعنى الكلمة - كما
يقولون - لولا فصاحة لسانه ولولا أنه ولد وعاش في مصر ففطر على أخلاق أهلها ، وأخذ
بمبادئهم ، وسائر أساليبهم ، فقد كان فليظ المشرفين ، أفطر لأنف ، محرم المدققين ،
أمك الحارطين ، هفلقل شعر الرأس ، أما لون جلده فأشد من فحة الدجسوس

(١٦) الآلى في شيخ أمالى القالى ، لأبي عبيد البكرى نشره عبد العزيز النهى ص ١٥٨ ط ١٩٣٦
ونقل عنه عبد السلام هارون في البخلا للجاحظ صفحة ٢٧١ .

(١٧) ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد الطبعة الرابعة ص ٢٦٨ مكتبة النهضة
عام ١٣٨٨ ، ١٩٦٨ .

(١٨) الجاحظ سلسلة تراجم ، أعلام الثقافة العربية ونواحي الفكر الإسلامي : محمد عطية
الإبراهيمي مطبعة نهضة مصر .

وهو العزيز البشري كان (طويل القامة ، نحيف المود ، وحني الظهر ، قمحسي اللون ، ولم يكن حلوا التقاسيم ، جميل الملامح ، وإنما كانت ملامحه لا يتفق بعضها مع بعض ، وكانت عيناه دائما حمرانين تتفتان اللهب ، أما أسنانه فكانت مفرجة غير منتظمة وكانت شفاهه مرطبتين تتلصقان للطعام ، وكان شعره متناثرا كثا ، أما شعر حاجبيه فكان مبهثرا ، حتى لا تستطيع أن تجمع شعرة على شعرة ، وكان البشري أفوه الثور ، إذا ضحك تفتح وجهه من ثغر واسع ، وقد قمت عالية ، ولم يكن أنيقا في ملبسه (٢٠) وهو من أصل الساجين .

وهو هؤلاء من موضحهم الله عن جمالهم خفه في الريح ، ولطفا في الطباع ، وحسنة في الأذهن ، وقدرة على السخرية .

ولقد كانت كل هذه الصفات في زعيمهم الجاحظ ، يستميين بها على مواجهة مجتمعه وخفف بها حدة ما يؤلم من سخريات الناس منه ، ويتخذها سوطا يرك به كيد المعتدين والمهيب ظهور الناكرين المارقين ، الذين يتدرون على قبج خلقته ، ويهزأون بشكله وهيبته .



٣- طهيعة وقطرته .

لقد طبع الجاحظ على المرح والفتاحة ، وخلقت مع روحه الخفة والداابة ، وسسرى في جبلته السخر سريان الدم في شرايينه ، يعيل إليه ، ويتعشق ، وينشور في أحاديثه ، وينشور في كفيه ، خالطا الجد بالهزل ، ما زجا العنف والصرامة بالسخرية والتدهكسسم جاعلا لك سهيلا إلى استرواح النفس وإحماضها ، وتخفيفها من ثقل الجد وألم الكسد ، فكان له هذا الأدب القادر الذي يسرى في النفوس ، ويعلق بالقلوب ، وتشرب إليه الأفاق

(١٩) المختار ، عهد العزيز البشري ج ٢ ص ١٢٦ مطبعة المعارف .

(٢٠) عهد العزيز البشري ، جمال الدين الرمادي سلسلة أعلام العرب العدد ٢٤ ص ١١٥١

الطرح ٧٥
١٨٥٠
١٨٥١
١٨٥٢
١٨٥٣
١٨٥٤
١٨٥٥
١٨٥٦
١٨٥٧
١٨٥٨
١٨٥٩
١٨٦٠

يجد فيه الجاد متعته ، ويجد فيه الهازل متعته ، وجهه النبي لما فيه من ثياب ، وحشقه
الذكي لما فيه من لاهية .

وحسبنا دليلا على براعته في السخرية ، وأنها كانت فيه فطرة وسجية أنه كان يبدأ
الناس بالتمسك منهم ، وأنه كان يسخر من نفسه وروى سخريات الناس منه دون غيظ أو حنق
قال : (ما أخجلني أحد مثل امرأتين) (٢١) وقال (ما غلبنى أحد قط إلا رجسلا
وامرأة ، أما الرجل ، فإني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا برجل قصير ، بطين
كبير الهامة ، طويل اللحية ، ويده مشط يمشطها ، فقلت في نفسي ، رجل قصير بطين
ألمي ، فاستترت به . فقلت ، أيها الشيخ ، لقد قلت فبك شعرا ، فترك المشط من يمينه
وقال : قل . فقلت :

كأنك صموة في أصل حش
أصاب الحش طش بعد رش

فقال لي : اسمع جواب ما قلت . فقلت : مات . فقال :

كأنك جندب في ذيل كبش
تدلل هكذا والكش يمشي .

وأما المرأة ، فإني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكبا على حمار
فضرطت الحمار ، فقالت إحداها للأخرى : وى ، حماره الشيخ تضرط ، فقاطني قولها
فقلت لها : إنه ما حملني أنتي قط إلا ضرطت . فضربت يدها على كف الأخرى ، وقالت
: كانت أم هذا منه تسمية أشهر في جهنم جهنم (٢٢) . وكما في قصته مع الدهان .

فهو يبدأ بالسخرية من عرفه ومن لم يعرفه ، بسبب ومن غير سبب ، ثم يروي سخريات
الناس منه ويخص بالذكر ما أفضحه وأخجله وقاظه ، فالمرح من صمم طبعه ، والسخرية
لاتفارق لسانه ، ولعل ذلك هو السبب الذي حمله على استعناقه من ديوان الرسائل
أيام المأمون ، وحمله لا يطبق الكتف فيه أكثر من ثلاثة أيام ، فإن من كان طبعه السخرية

(٢١) رويت في هذه الرسالة سابقا .

(٢٢) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ج ١٢ ص ٢١٦ مطبعة المصادة علم ١٩٣١ .

الانطلاق ، بمقدوره أن يجد نفسه تدفعه إلى الازل ، وأن ينقاد وطبعه ببعضه على الانطلاق ، وأن يجد أمامه الموقف الضاحك الساخر ، ويهين لسانه عنه ، ويحشما ببعضه ، أوجدا وتزمتا .

ولأن التمسك عادة ، والسخرية طبيعته ، فإننا لا نجد مولفا من مولفاته المدببة خلا من السخرية ، ونأى من التمسك ، بل إنه خضع للسخرية كليا برمتها .
ومن ثم لا الجاحظ يكاد لا يضم شفقه ، لتتابع ابتساماته المرحة ، وضحكاته المريرة ، وهو بذلك يلتقي مع برنارد شو في فلسفته تلك ، فقد كان يقول : إذا لم أضحك لسم يستطع الناس احتالي (٢٣) . فكثيرا ما كان يخترع العلى ، ويخلفق الأسباب ليتسكع ويخسر فإن لم يجد من يسخر منه ذكر بعض حوادث ساخرة ، أو سخر من نفسه .

وأحال الجاحظ كان يسير في أسواق البصرة بغداد ، ينخر هذا بكلمة ، ويتناول ذلك بسخرية ، يضحك من زى هذا ، ويهزأ من شكل الآخر ، ولم لم تكن له مكانته في الدولة وصلت في العلم والأدب ، لتخيلت مجموعات من الشباب تسير في ركابه ، وتصاحبه ألسنى سار ، وهم بفكاهاته ، وتضحك من سخرياته ، وتطرب للتلويحات وتطليحاته ، ذلك بما جعل عليه من طيبة مرحة ، وروح ساخرة ، متمكنة بكل ما يقع تحت حسنها ، ويجول أمام ناظرها ما فيه مغزوه ويحد عن الذوق والحرف .

جبل ابوعثمان على الدعاية والسخر ، وقلة الاعتناء بالتقاليد والعادات ، والرسم الاجتماعية التي يأخذ الناس بها أنفسهم ، ويراعونها فيما بينهم ، يرى فيها قيودا ، وكنكا للحرية ، ومجاناة للفكر الناضج ، والنصر الطلقة ، كما كان يهتف التعصب للجنسية والطائفية ، ويحقر التعالي في الآراء الذهبية (٢٤) ولا يدخل بسلب خصومه آثاره .

(٢٣) بلاغة الكتاب ، محمد نبيه حجاب ص ٢٠٠ المطبعة الفنية الحديثة .
(٢٤) مصر التأمين ، الدكتور أحمد فريد رفاهي ج ١ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ ط دار الكتب

والتسوية والعدل...
منه...
بعضها من زجاج قدره...
خلقة نفس...
وإجمال ذكره...
والعطف من قدره.

وقد كانت خبرته...
لطول خبرته...
والطرفة...
والتي جمعت...
والشعر العجيب...
والظاهر المدرب.

كان يعتبر...
في الإقناع...
جد إلى منزل...
نشاطها...
وأصولها...
وهو يظن نفسه...
أقول الجاحظ...
ومخبره...
ويقال للمخبر...
والذي الأول من الباب الرابع.

كان يعتبر...
في الإقناع...
جد إلى منزل...
نشاطها...
وأصولها...
وهو يظن نفسه...
أقول الجاحظ...
ومخبره...
ويقال للمخبر...
والذي الأول من الباب الرابع.

كان يعتبر...
في الإقناع...
جد إلى منزل...
نشاطها...
وأصولها...
وهو يظن نفسه...
أقول الجاحظ...
ومخبره...
ويقال للمخبر...
والذي الأول من الباب الرابع.

كان يعتبر...
في الإقناع...
جد إلى منزل...
نشاطها...
وأصولها...
وهو يظن نفسه...
أقول الجاحظ...
ومخبره...
ويقال للمخبر...
والذي الأول من الباب الرابع.

كان يعتبر...
في الإقناع...
جد إلى منزل...
نشاطها...
وأصولها...
وهو يظن نفسه...
أقول الجاحظ...
ومخبره...
ويقال للمخبر...
والذي الأول من الباب الرابع.

أكثر من رضاه ، وحزنه أعم من فرجه (١٦) . فلهذا على ذلك النقص بالتمك والسخرية محققا
أهدائه في إصلاح الفساد ، وتقييم المصير ، وفي تخفيف آلام نفسه ، وشفاء غيظ قلبه ، وفي
إيلام الخصم والتكلمة به ، ثم في أجل أعراض حياته وهو المرح والضحك والفكاهة .

وإذا كان يحضر الناس يلزمه أن يقضى جزءا من وقته في الترويح عن نفسه ، وإذ هاب كلاله
وسآته ، ولم يتاح روحه وحسه بمساجد الموسيقى والغناء ، أو بطرحه النظر متأملا بما هو
الطبيحة ، أو يرسم مناظرها التي تروق وتجتذبه ، أو يغير ذلك ما يحبه وهواه ، وينسبه
إليه وشكواه ، ويجد فيه متعة وسرور ، فإن الجاحظ كانت تملية الكلمة الساخرة
واللذعة الباردة ، يجيدها ويتقنها ، ويحدث مراميها ، فإذا هي سهام مريشة تفجسر
إلى الضحك من أصاق قلوب السامعين سخرية واستهزاء ، كما تفجر الألم في نفس السخرية
كقصصه ^{فقصصه وترديه} ، ويتقن أبو عثمان بعد ذلك منشرح الصدر مثل السيرة ، حيث أوسع
نفسه ، ومارس هوايته وحرى مع نظيره وطبعه .

٤ - مجتمعه وبيئته :

(أ) بيئته العامة :

نشأ الجاحظ (يبيع الخبز والسمك بسيحان) (١٧) ويختلف إلى كتاب القرية يتلقى
مبادئ العلم مع أمثاله من الصبيان ، وهذا من مجتمعا يوجان بالنوادر ، ويحفلان
بالأفكار والطرائف ، ويحتدان على النكتة الساخرة والغمزة الضاحكة ، تنصب على
الرفاق ، أو الشترين ، أو المعلمين ، أو فهورهم من يجاوز الألف ، ويطلق على السرف
فإذا انتقلنا إلى المجتمع الواسع ، والبيئة الرحبة في الدولة العباسية آنذاك ،
وجدناها حافلة بكل شيء ، مليئة بكل عجيب ، مكتظة بشئ المتناقضات التي جمعت

(١٦) مطالعات في الكتب والعبارة : المتباد عن ٩٥

(١٧) مجمع الأدباء ، ياتوت الجزء ١٦ ص ٧٤ تحقيق : أحمد فريد رفاعي .

وتراصت وتاخلت حتى التفتت العقل في تعييزها ، وتكل الألباب وتمجز عن إدراك الحدود والقوانين فيها ، وإصدار الحكم الصائب في حسنها أو قبحها ، فمدتك الترف والسرف والحريفة القضاة البعيدة عن التزمت ، القريب من القوض ، وأطرح الحشمة ، وتبسط التقاليد ، والتحلل من التمايم السامية ، والأخلاق الكريمة ، طرب وفناء ، وسمر ورقص واتخاذ الندما ، والخلماء ، وهقد مجالس الأئس والفكاهة ، ودعوة الخلان إلى المجسسون والفسق ، ومعاقرة الخمر ، والنزل بالمذكر ، ومعاملة معاملته الأئس ، وذكر السموات والسموات يصريح أساطنها دون خجل أو مواربة ، فقد طفت شهوات النفوس ، ونزعات الحقول ، وخفت صوت العقل ، وخف زجر الدين ، وتارت الفرائض طارئة تعيب من العرام ، وتخضع للنزوات ، وترتكب كل إثم ، لا قانون يجره ، ولا سلطان يورعه ، ولا عقل يقنع . هذا شأن الأثرياء الواجدين ومن يسدرون في ركابهم لا شيء في حياتهم إلا المتع الحمسة أيا كان سبيلها ، وهما كانت عاقبتيا ، أما الشطر الآخر من المجتمع ، فقد انزوى في قاع فقره ، وانكسرت في برنة إملاته ، لا يجد ما يطعمه ، ولا يكاد يحظى بفتات الموائد فاحترف اللصوصية والسطارة ، وامتن الدجل والشعوذة ، وهند إلى الفسوق والسرقه ، والكذب والاحتيال ، وسلك في الحياة سهلا ليس بأقل أمواجيا من سبيل الأغنياء المترفين ، أو لجا إلى الزهد والحقه ، وقنع بالدون ، ورضى بمتع الباقية ، وصدق عن مباحج القانيسه ، مرضا مكرها لأن الله لم ييسط له في رزقه ، أو راضيا قائما لوزع ديني ، وتقوى متمكسة في نفسه ، تمدل به عن الموقات والمعمرات ، وذلك عند محدود لا يقاس بمسسن أطلق لشهواته العنان ، ولم يعد يفرق بين الحلال والحرام .

هذا المجتمع المستقل ، الناتج المضرب ، المليء بالمتناقضات ، غنى فاحش وسرف عريض ، بجانب فقر مدقع وإملاق مقوت ، تقوى وزهد إلى جوار انحلال وفسق ، صلاح في ثياب فساد ، وفساد في إهاب صلاح ، مجتمع يثير العجب ، ويدفع إلى السخر .

ترك فيه الجهد الأكبر والمواد الأعظم ، التثبت عند الحكم ، والتوقف عند الشهادة ، وأهدرت القيم ، وضاعت المقدسات ، وقل ذكر العلال والحرام ، واختلست الموازين ، وفسدت المقاييس ، واختلط الحسن بالقبح ، والصالح بالطالح ، وانتشرت الزندقة ، وناعت الخرافة ، وعم الفساد طبقات الأمة على اختلاف نزعاتها .

وإذا كان بحيث السخيرة مجاوزة الإقليم حده ، وبجاناته طبعه ، وظهوره بغير مظهره ، وبرزوه في غير مسه ، كما يكون لاجتماع الأعداء ، وتجاور المتناقضات ، والخروج من ما لوف العقل السليم والاستمانة بالمادة السارية ، فإن مجتمع الباحث يحظى من ذلك بأرض نصيب ، وقد تجاوز أغلب ما فيه حده ، وزاد عن طبعه فصار موضوعا للدم والهزة يقول الباحث : (وأنا مبين لك الحسن ، وهو التمام والاعتدال ، ولست أفضى بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة ، وكثافة الجسم ، أو عظم الجارحة من الجوارح أوسع العين أو الفم ما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة متى كانت في نقصان من الحسن وإن عدت زيادة في الجسم ، والحشود حاضرة لأمر العالم ومحيطه بغيرها ، لموقفه لها ، فكل شيء خرج عن الحد في خلق أو خلق - حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور فهو قبيح مذموم) (٢٨) وهذا وضع الباحث قاعدة القبح والمذموم ، الذي يسخر منه ، ويهزأ به ، وقدمت هذه القاعدة الهادية على السخر عسر الباحث .

شهد كل ذلك عن قريب ، وما يشه من كتب ، وانفعل بهؤلاء ، وبأولئك ، فإذا المجتمع كله مهين ، للضحك والإضحاك ، باعث على التذمك والسخر ، تمضية للوقت ، وتضييعا للعلل ، أو استمانة على بأساء الحياة ، وخشونة المعيشة ، أو نبلا من متع الدنيا وإسعادا للنفس ، والباحث يبارك في طبعه من لمحية وقصص ، يلتقط النوادر ، ويحفظ الطرف ،

(٢) ثلاث رسائل ، الباحث ، نشر بوضع فكل صفحة ٦٥ طبعة ثانية المطبعة السلفية

وتتسع الفكاكات ، ويصق إلى الأحاديث البازلة ، فيخب فيها وضعه ، ويصل ويشمل ،
 فتتواهبه في فن السخر ، وتتسع مداركه ، ويتفاعل مع ما يسمعه ويراه ، فيولد الجديد
 ويضع المجيبه ويوشح كفه بتلك المضاحيك ، فإذا هو كاتب ساخره وأديب متفكس
 وإذا الدنيا بأسرها تقبل على كتبه الساخرة ، ورسائله المتبكرة ، فترى ألوانا من التمتة
 الذهبية ، وأنماطا من الكتابة المبتدعة ، خلط فيها الجد بالهزل ، والصيوس بالضحك
 والسخرية بالجنة بالسخرية الهادفة ، ما يشهد له بالصدق والأستاذية ، وهو الكعب ،
 وسمة الذرع ، وقوة التأثير .

ب - بيئة الفكرية ،

أما بيئة الفكرية فقد كان لها أكبر الأثر في نمو السخرية عنده ، وصدق له ، وبراغمته
 فيها منذ نشأته في الكتاب مع رفاق الصبا ، وحين جلس مع المسجديين من أترابه في حلقات
 تحتوى للملم والأدب ، كما تحتوى الظرف والتندر ، والسخرية من آراء تجانب الحق
 وتختلف المصواب ، وقد كانت تشجع بين رفقته الكتاب ، ورفقه المسجد مفاخرات الصبيان ،
 وببهاياتهم ، وفلرم وادعاهم ، وما يتبع ذلك من تحقير بعضهم بعضا ، واللبؤ إلى السخرية
 والسخرية والتكلم ، والممز واللمز ، كسلاح لتحقير الخصم وإذلاله ، وكثيرا ما يكون
 الجاحظ هدفا للسلم ، ونصيا للطمان باللسان ، يستغل فيه الرقعة دامة شكله
 وشاعه خلقته ، واستخفافه وعبه ، فيساقونه بالسنة حداد .

والجاحظ ... كما هو طبيعه - لا يمكنه أن يقف في هذه المواقف مكتوف اليدين معقود
 اللسان ، وقد وهبه الله خفة الروح ، وبراعة المنطق ، وذلاقة اللسان ، وحضور اليد بيعة
 فإن لم يكن هو الباءى ، فلا أقل من أن يرد السخرية بسخرية أنكى منها ، وأن يكيل
 الصاع صاعين ، فقد فطر على السخرية اللاذعة ، والضحك أيا كان ، ومن البدهى أنه
 كان يدلي دلو ، ويصب غربه ، ويفجر بنا ببع سخريته ، فيفوق خصمه ، ويجعله بسين
 فيخرق

لداء هزاة .

ولما كبرت سنة قصد شيخ البصرة - (٢٩) وأعتما في العلم والأدب ، ولزمهم ، ويشمل من علمهم ، ويرتوى بأديهم ، وفكاهاتهم ، فتأثروا بهم أيضا تأثره ، وظهر ذلك في فكاهاتهم وسخرياته .

ومن شيخ البصرة الذين ما كتبوا يضحون فرصة السخرية إن سحت لهم ، ويخلقونها خلقا إن لم تأتكم طوعا ، أوعبيدة محرم بن المنى (٣٠) . وقد كان فكه المجلس مولعا

بالتمسح والتلويح ، والتسك والسخرية وضخم إبراهيم بن سيار النظم (٣١) ، وكان مشهورا بالمراعاة والثبوت ، وقد لازه الجاحظ ملازمة شديدة ، فركت أفرها في صفحات عقله ،

ونزعات قلبه ، وآراء دينه . وضخم ثمامة الأشرس (٣٢) . وقد نقل عنه الجاحظ كثيرا من

أدبه كما كان أستاذه في الجون والفكاهة ، والنادرة اللاذقة (٣٣) . ومنهم أبو البذيل

العلاف إمام الاعتزال وكانت السخرية تشيع في أحاديثه . ومن أستاذته الذين يميلون أيضا

إلى السخرية أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (٣٤) . وأبو سعيد عبد الملك بن قريش

الأصمعي (٣٥) . وأبو الحسن سعيد بن مسعدة الأحقفتي (٣٦) وقد كان باع النكح ، مشوه

الخلق ، أجمع ، وطالت ملازمة الجاحظ له وصحبته إياه لتشابههما في الطبع والقبح (٣٧) .

ولقد تعددت في عهد الجاحظ الفرق الدينية ، وكثرت المذاهب ، وتوعد النحل ،

فكان منها ، الصائفة ، والرافضة ، والرجضة ، والمانوية ، والزنادقية ، والجبرية ، والثنوية ،

(٢٩) مصحح الأدباء ، ياقوت الجزء ١٦ صفحة ٧٥

(٣٠) وهو بصرى ، وكان إماما في اللغة والأخبار ، توفي سنة ٢١١ هـ

(٣١) أحد شيخ المعتزلة ، وأستاذ الجاحظ في علم الكلام ، وكان بليغا المناقوسى بالبصرة سنة ٢٢١ هـ

(٣٢) من زهاء المعتزلة وأردى في أيام الرشيد ، لكنه استطاع في عهد المأمون أن يولي سياسة الدولة وأن يصحبها بصيغة امتزالية وأن يكون صاحب الكلمة الأولى فسي

القصر وسياسته وتوفي علم ٢٢٣ هـ

(٣٣) ضحى الإسلام الجزء الثالث ص ١٥ : أحمد أمين طبعة لجنة التأليف والترجمة المنشورة ١٩٢٦

(٣٤) كان إماما في النحو واللغة والأدب والثوان والخراب توفي عام ٢١٥ هـ

(٣٥) كان إماما لخوا أتيا بليغا توفي عام ٢٢٣ هـ

(٣٦) كان عالما نحويا شهيرا .

(٣٧) سأل ضرب الأضلة الدالة على ميل أستاذته للسخرية واقتاندهم فيها في الفصل الثاني من الباب السابع (المناخض من فقهه مكانته بينهم) .

وكان لعلله وإطلاعه أكثر من ثقافته وأستاذيته ، ولهذا كان المرء حاذقا مجيدا ،
 واسع الاطلاع ، متمكنا من مادته ، فهو أقرب إلى التعمق ، وأميل إلى السخرية ممن
 يبدو فيه انحراف ، ويظهر في سلوكه اعوجاج ، وقد يلجأ إليها وقت فراغه ، ترويحاً
 عن النفس ، وتخفيفاً من ثقل الدرس ، وما كان كالجاحظ أحد في سعة اطلاعه
 وطوره ثقافته ، وضاربه ملته ، (حدث أبو هنتان قال ، لم أرقط ، ولا سمعت من أحب الكتب
 وللمعلم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كما ثنا ما كان
 حتى أنه كان يقرئ ، كالذين الراتين عبيدتها فيما للنظر) (٢٩) . وكان علمه لا يقف
 عند حد ، ويشهد بذلك قوله : (إذا سمعت الرجل يقول ، ما ترك الأول للأخر شيئاً
 فاعلم أنه ما يريد أن يفلح) (٤٠) وقول أبي الفضل بن العميد (ثلاثة علم الناس كلامهم
 مجال فيها على ثلاثة أنفس ، أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل
 وأما البلاغة والفصاحة واللسن والمارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ) (٤١) .
 وفي بلاط المتوكل على الله اتصل برجال تخصصوا في الهزل والفكاهة والسخرية
 (ولم يكن أحد من سلف من خلفاء بني العباس يظهر في مجلسه اللعب والمضاحكة
 والهزل ما قد استفاض في الناس تركه إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك ، والمحدث
 له ، ففي بلاط المتوكل عرف الجاحظ أبا الصبر الهاشمي ، وأبا العنيس ، والجماه
 ولعله عرف أيضاً أبا العبيد الذي تربطه به صداقة متينة ، كما تشهد بذلك التوارد

(٢٩) معجم الأدباء ، ياقوت : الجزء ١٦ ص ٢٥٥

(٤٠) معجم الأدباء ، ياقوت الجزء ١٦ صفحة ٢٨٠

(٤١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ١٠٢

هذه الهبات الفكرية المتوهجة التي خالطها الجاحظ، واجتمع المايح المفهم
بالمشاهدات الذي عاش فيه، وما تفرغ له أبو عثمان من عشق للسخر، وحب للدعابة
والنميمة، وما رزاه الله به من قبح شكل وزرى هيئة، وما ورثه من أمه وأسرته، كان له الأثر
البالغ في نمولكة السخرية ضدّه، والترقّب بها إلى الحد الذي ضمن لها على مسر
للأجيال البقاء والخلود، بعدها، ذكاه، ولما حيت ورفاهه جسمه، ودقة ملاحظته، وقدرته
على عقد المراد والعلل، وخبرته بالناس وطبائعهم، وقدرته على الابتكار والإبداع
وامتلاكه مواضع الكلام، واستطاعته أداء الصورة المتقنة البارعة، بالعبارة المناسبة التي
تضفي إليها الألوان والظلال، مما جعله أستاذ هذا الفن، والمقدم فيه.

..

..

..

الفصل الثالث

علاقاته الاجتماعية وأثرها في شخصيته

عاش الجاحظ في مجتمع يجمع بالمتناقضات ، ونغمس أهله في حياة الشهوات ،
 فارتكبوا المنكر جاهاً هديناً ، واندفعوا إلى الزندقة والإلحاد ، وأهدرت الألقم
 وتجانف طباعهم عن كل حلال ، ووضوا نصب أعينهم المال ، ويحتمونه من حله وحرامه
 ثم يمشرونه فيما تأمرهم به شيواعتهم التي تتحكم فيهم ، وتقودهم إلى ذلك التيه اللجس
 من الأكل ، أو يقضن أيديهم عليه باخلين ، ويحملونه عدل أنفسهم مسكين ، متمسكين
 بالمثل الذي شاع بينهم " المال المال وما سواه محال " (١) ، ويقول الشاعر أبي نواس

سأبني الخنى إما جليس خليفة نغم سواء أو مخيف سهيل

والجاحظ فرد في هذا المجتمع ، وهلم من أعلامه ، وأديب يرفح بيده مشعل الهداية
 وحمل بقله لواء التوجيه ، وأمام ديني يقم بمهام القيادة الدينية المعتمدة على
 الفكر والخطب ، ^{والإرشاد} والإرشاد ، وقد ركب في طبيعه حب الناس على اختلافهم
 فقد عايشهم ، مع تباينهم وتفاوت أقدارهم ، وتحدد لحلام ، وهقدت بينه وبينهم صلات ،
 وتوطدت أواصر وعلاقات ، تبدأ بياضى السلم وصياديه وشتره في سيجان ، وتمتد إلى
 رفقة الكتاب من أبناء القضاة وغير القضاة ، وتسير في خطها لتصل إلى مشاق اللغة
 والآدب في المرصد ، وإلى القضاة والإخباريين من المسجديين ، ثم ترقى
 إلى شيخ الاعترال ، وأئمة الكلام والنحو واللغة والفريب والحكمة ، وتصل في النهاية
 إلى طبقة الوزراء والأمراء والخلفاء ، وهي بين هذا وذاك تلتقى بالطفيليين والموسوسيين ،
 والحقق والمغفلين ، والشطار والباخلين ، والخلفاء والمال جنين ، والمضحكين
 الساخرين .

(١) من مقامات الحريري للشريشي ٢ : ١٩٢ طبع بولاق .

في سمت الحب ، والمقوية في هيئة المثوبة ، رأى كل شيء يلهم غير إلهامه ، ومقتضى بخير
فيه ، فلأن طبعهم ، ونفسه سحة ، لم يقف من هذه الظواهر موقف القانظ اليأس ،

ولا التبريم المبخس ، لأنه كان يحرف النفوس ونوازلها ، والمقول ونوازلها ، فقطفى المرح
على اليأس ، وأخملت الشفقة المبخس ، فإذا به يستعين بالسخر أدواته السحرية التي تحول
التضيق فقاولا ، والتبريم انشراحا ، وإذا هو يضحك ويتكلم منها إلى الخطاء ، ويقوم العجز
في لين ورفق ، ولكنه لا يسخر ، وكأنه لا يقم ، وذلك أشد أثرا في الإصلاح ، وأبعد
مروءة وأعظم افتقانا في باب السخر ، وأرفع منزلة في فن الأدب ، أدب النفس ، وأدب
الإشياء .

اتصل الجاحظ بأساتذته ، وقد كانوا شيخ عصره ، ونوايل زمنه ، وخلاصة جيلهم
علما وأدبا ، ولازمهم طويلا ، وأخذ عليهم ، واقتدى بهم ، وكان السخر فيهم طبيعيا
وجيلة ، فأثرت المعاشرة ، وأثرت المصاحبة ، ونضجت على الجاحظ فنونا وألوانا
من ذلك الشهد الأبي اللذيع ، فاق به أساتذتهم بذهم ، وأتى منه بالجديد الجديد
والمتكرر المصعب ، تعددت ألوانه ، وتوفقت أنفاسه ، نجأت سخرياته سخريات
الذهن المتوقد واللغة العواتية ، والعقلية اللامحة ، والتذوق العرفي ، والفكر
المتقن .

طلعا ضحك مجتمع الجاحظ منه ، وسخروا من شوخته ، وتعدروا بيشاعة منظره ، وثقل
ذلك على نفسه وآله ، وكان من الهدى أن يقابل السخرية بسخرية أنكى ، وأن ينوع
وسائلا ، ويجيد تصويرها ، وأن يكون للميوب الجسمية في سخرياته نصيب ليبين أن غيره
أقبح منه في شكله وصورته ، أو يشاركه فيها ، أو يتصف بلون من ألوان القبح ، أو أن
يقبحه في حركاته وإشارات ، أو مصاعه وسكاته ، أو في زيه وسمته ، أو في أدبه وشعره .
ومن هنا اتسمت سخريته بالخزالم ، واللذع السام ، والافتتان ، والتجسيم ،

الرهش ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفق ، فقال الرجل ، الفق ما أنت
فيه ؟ فقال دبل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويحمل محمد بن عبد الملك بأسرى
ويختلف إلى ، فهذا هو الفق (٣) وأستبعد أن يعنى الجاحظ ما يريد ، أو يكون
كلامه على سهل الأمنية الفالية التي يمكن أن يوجد بها الزمان ، وأوافق كثيرا من
أدباءنا الذين يفتخرون أن ذلك كان منه على صهيل المزاج (٤) مسقا أن الجاحظ
من أعظم كتاب عصره وأعزهم إنتاجا وأحسنهم بيانا وأعلمهم دقة وقت رفض التصدي برفسى
ديوان الإنشاء ؛ أوليس من أبرز أشه الكلام في زمنه ، ومن أشهر العلماء في أيامه
ومن أحب الناس إلى قلوب بني وطنه ؟ ومن أكثرهم خبرة وشجيرة ونقاد بصيرة ؟ ومصرفه
بطبايح النفوس ؟ وهل في زمنه ومحمد زمنه من لم يتمن أن يكونه ؟ لا وقد يرى أن مقومات
الوزارة لا تتوافر في محمد بن عبد الملك الزيات أكثر من توافرها في عمرو بن بحر
الجاحظ ولكنه لا يجرؤ أن يعنى نفسه بالخلافة وتدونها قطع الرقاب .

(٣) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، المجلد ١٢ صفحة ٤١٩ .

أدب الجاحظ ، حسن السكوتى ، ص ٣٤ الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ، المطبعة الرحمانية

الجاحظ ، جورج غريب الموسى في الأدب العربي ، ص ١٠٧ ، ١٨ ط . دار

الثقافة بيروت .

(٤) منهم جورج غريب في المرجع المذكور ص ١٧ .

واللعب بالسخرة ، ورسم الصورة المزلية له بتشويه خطوطها ومكوناتها ، والعبث بألوانها
وظلالها ، وكشف المصوب وإن دقت ومواطن التشويه مما خفت واستترت .
وحين علا نجم الجاحظ وطار ذكره ، ولمع اسمه ، عاش في كنف الأمراء والخلفاء وعلية
القم ، وصارت قصورهم نواديه ، وسطر رحاله ، وليس فهم ينشئ ساحتها من المنين والموسيقين
والملناء ، والأدباء ، وأرباب الفكاكة والظرف من لا تصله بالجاحظ وشايع قوية ، وليس
بين الجملاء من يتردد في إلقاء طرفه ، أو رواية نادرة ، أو التحقيب على كلمة ، أو نقد رأي
أوزي لمؤلفه ، ومخلقه فبيحة ، وشبهة مقبلة ، ورأي غطير ، فقد أطلقت النفوس على
سجيتها ، وارتفعت الكلفة بين الصبية ، وزالت الحجب ، واختفت الفوارق ، والجاحظ
قطب هذه المجتمعات ، وحجر الزاوية فيها ، يدلي دلوه في ذلك شرارة السخر الكاشفة
في أعماقها ، فيشتعل لسيدها ، ويحلو أورها ، ويحرق شواظها من استمداد لواء فتحي .
سخرياته حذرة ، ورفيقة ناعمة ، ومترجمة بثقافة صرصه ، وسلاسة أدبه ، ودقة علمه ، منا سببة
للمجتمع الراقي الذي تقال فيه ، بعيدة عن المباترات ، ومخلقة مبطنه ، حتى لتبدأ
التفكير في مرمها بعد الانتهاء من إلقائها ، ولا تحصل على المعنى إلا بعد تأمل
وتدقيق ، أو تخال الكلام ملق على طبيعته ، لا يحمل في أحشائه سخرية ، ولا يحدو مرمها
ظاهر معناه ، وذلك غاية ما يرمى إليه الساخر ، ويتعنى الوصول إليه الأديب الناقد .
كان للجاحظ في دولته وضع ممتاز ، فني وافر ، وجاه عريض ، أموال طائلة ،
وطايا سائفة ، وشاهرات متتالية ، وصدقات وطهدة لكبار رجال الدولة ، ومخالطة
للوزراء والخلفاء تجعله فردا منهم ، وناديا لهم ، وهمة طالية ، تطمع في المزيد .
سئل عن حاله فقال : (سألتني عن الجملة فاسمها مني واحدا واحدا ، حالي
أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويؤتوا لخليفة الصلات إلي ، وأكل من لحم
الطير أسنفا ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكن على هذا

حتى أطلعه على علم المعتزلة ، وخرجه أستاذاً في علم الكلام ، وصار فيها دينياً
محتزياً ، له طائفة تتبع مذهبوه ، ونسب باسمه (الجاحظية) ، فارتفع ذكره ، ونسب
اسمه ، ووصل إلى الوزراء والخلفاء ، فأحلوه من نفوسهم محلاً مرياً ، وانتدبه المتوكل
لتعليم أولاده ، وصدره المؤمن في ديوان الرسائل ، وطلب منه أن يكتب في السياسة
والاحتجاج لها ، فكتب ، فأعجب به ، وأطراه ، وأجزل له المطلب ، فحسنت أحواله
وكرمت مولفاته ، وحرت الأموال في يده ، وأصبح صاحب ضيعة لا تحتاج إلى تجديد
ولا تسديد ، مما أعطاه له محمد بن عبد الملك النيرات على إهدائه له كتاب الحيوان ،
وما منعه ابن دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين ، وما أخذه مسن
إبراهيم الصولي لأنه أهداه كتاباً لثمن والتخيل ، وما كان له من مشاهرات تجرى عليه .
وفي كتاب الحيوان ، تتضح ثقافة الجاحظ ، وإلمامه بحارف عصره ، وما سبق عصره ، واطلاعه
على الثقافات الوافدة السائدة في زمانه ، وحضه لها ، واعتاده على المشاهدة والتجربة
الدائية ، والخبرة العملية ، وتظهر جراحته في نقد ما لا يسيغه عقله من الآراء ، ولو كانت
لأرسطو صاحب الفطن ، أو أعتاده من أساتذته كالنظام شيخ الاسترغال ، فيسخر
منها ، ويته على خطئها ، وغيره من مكانة صاحبها ، فهو إنسان يفكر ويخطئ ،
وليس صنما يجلس على عرشه لعصمة ، أو يتناحط بحارب التنزه ، أو طوطمها
تلقت حوله هالات الإجلال والتقدس ، بل هو لحم ودم يتكسر للحطل والزلل ، إجابة
للمركب الإنساني فيه ، وما يكن في جبلته من واقع ونوازح ورفاهات ، وطامع وانفعالات وشبهوات
وفي كتاب البيان والتبيين ، ترى ثقافته العربية الأصيلة وتمسك بها ، ورفع منارها ،
وحذقه أصول البلاغة ، وتحديد معالم الفصاحة ، ورافعة فن الخطابة ، وجودة
البيان ، ثم بحوث لغوية في الحروف والألفاظ ، واللحن والكفة ، ولا تفارقه في صفحات
كتابه السخرية اللاذعة ، والفكاهة المرحة ، والملمعة الضاحكة ، والوصف الرائع ، والخيال
البيان ، والتصوير الفائق .

وفى بهلائه ، يفتح لنا عن فلسفة عميقة ، وفرض في قرارة النفس البشرية ، ووقوف على
بواطنها وخلجاتها . وهو في هذه الروائع وفي باقي كتبه ، وسائر رسائله ، التي تتناول
شئ من العلوم والصناعات الإنسانية ، وتكون دائرة معارف غير مرتبة ، مثقف واسع الثقافة ،
وعالم غزير العلم ، وباحث مجرب ، وأديب سلس الأسلوب ، جيد الصيغة ، وباحث ذهني
اعتزالي ، منطقي متحرر ، يستغنى العقل والدليل ، ويعتمد على الحجة والبرهان ، وفي
ساحة نفس ، وإشراق روح ، وهشاشة تأخذ بجامع القلوب ، وسخرية قارصة ، ذات حبيكة
تهدد دقيقة ، وضحك القاري ، وتتشطه ، وتدفعه إلى مزيد من الاطلاع والاستمتاع .
وثقافته العربية أخذها من الكتب التي عكف على قراءتها ، ومن المرید السندي
طالما غشيه ، ومن شيخها أمثال الأصمعي ، وابن زيد الأنصاري .
وأنت الثقافة اليونانية من طريق علماء الكلام وحججهم ، ومثابرة سلسه ، وابن
سويك ، وحنين بن إسحاق ، وشعثون الطبيب .

وهدق الفارسية وأجادتها وطرد . من كتب ابن المقفع ، وأخذ من أبي عبيدة
وتوسع في اللغات كلها بما كان يقرأ من الكتب كلها ،
وقد كانت العربية واليونانية والفارسية يناهج الفصاحة والنطق والحكم ، والتسويق
والفخامة في التأليف في ذلك الزمان .

وبهنا دليل على رسخ قدمه في الأدب ، وعلوكمبه في العلم ، وإحاطته بثقافات
عصره ، وما سبق عصره ، وشهادة الفضلاء له ، قال أبو الفضل بن العميد : (ثلاثة
علم الناس كلام فيها عيال على ثلاثة أنفس ، أما الفقه فعلى أبي حنيفة . . . وأما الكلام
فعلى أبي المنذبل ، وأما البلاغة والفنلحة واللسن والما رضة فعلى أبي عثمان الجاحظ^(١))

وقال ثابت بن قره ، (ما أحسد هذه الأمة العربية الأعلى ثلاثة أنفس ، أولهم عمر بن الخطاب
والثاني الحسن البصري ، والثالث أبو عثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين
ومدره المتقدمين والمتأخرين (١٠٠٠) (٣) . (وقيل لأبي العيينة ، ليت شعري أي شيء كان
الجاحظ يحسن ؟ فقال ، ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن (١١٤) (٤) . قال
أبو محمد الأندلسي ، رضيت في اجتهه بكتب الجاحظ من نعمها) (٥)

وقد لقب بالجاحظ غير واحد ، اكتسابها للشهرة ، وظلها للمجد ، وخلود الذكر ، فأبو
زيد أحمد بن سهل البلخي ينعت " جاحظ خراسان " .

وأبو عيان التوحيدي الذي سار على طريقة أبي عثمان يلقبونه " الجاحظ الثاني " .
وإبن العميد الذي قيل إن الكتابة الفنية تختمت به نعت أيضا " الجاحظ الثاني " .
ومحمود بن عبد العزيز الفارسي لقب بهذا اللقب الحبيب " الجاحظ الثاني " .
وقد كان العلماء والأدباء يبحثون عن كتب الجاحظ ولحقون في اقتنائها والسؤال
عنها ، ويصيحون في مكة في موسم الحج في عرفات سائلين عن يرفها ، طالبين إحضارها
كما فعل ابن الأختاشاد . (٦)

كان من الهدى وقد تسم الجاحظ مرآة المعرفة والثقافة ، نظريدا وعلميها ،
وقبض على زمام الفصاحة واللمن ، وملك بمقله الحجج والنطق ، أن يكون أثرا عند
الخلافة ، وأولى الأمر ، وأن يحل من نفوسهم محلا رفيعا ، ينه شأنه ، ويحمل الكتاب غيره
ويحتجج المطايا دونهم ، فتشيل كفتهم ، وحسدونه على ما آتاه الله من فضله ، ويحقدون
عليه ، ويديرون له الممالك ، فيتهمونه في دينه ، وفي خلقه ، وينعتونه بالانحرافوا الزندقه

(٣) المرجع السابق صفحة ٩٧ .

(٤) جمع الجواهر ، الحصري ، صفحة ١٦٥ .

(٥) أدب الجاحظ ، حسن السندوي ، صفحة ٧٦ الطبعة الأولى عام ١٩٢١ المطبعه الرحمانيه

(٦) معجم الأدباء ، ياقوت ، ج ١٦ صفحة

وكان حساده وشائثوه إذا علموا أن الكتاب من مصنفاته تلمسوا فيه الصوب والأخطاء
وتناولوه بالنقد والتجريح ، والهجاء المرء والسبا لصريح ، فإن كان له ونسبه إلى غيره
من مشاهير الرجال مدحوه ، وأطروه ، وكالوا له التناج ، ورفعه إلى السماء ، وأصباها وافتتانها
وإن كان قليل القيمة ، رذل الصبارة ، ومعنى هذا حقدهم وكراهيتهم الجاحظ ، وأنبياءهم
بالأسماء اللامعة ، وهم تميزهم بين أسلوب وأسلوب ، يرى الجاحظ ذلك في قوله ،
كتب أولف الكتاب لكثير المعاني ، والحسن النظم ، وأنسبه إلى نفس ، فلا أرى الأسماح
تصقن إليه ، ولا الإرادات تتغير نحوه ، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ،
وأنداه عبدالله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، أو غيرها من المتقدمين ، ممن صارت
أسماءهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، ولا شيء إلا لنسبتها
للمتقدمين ، ولما بداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ، ومناصته عليهم
الغناقية التي عنى بتشيدها . (١٠)

رأى الجاحظ كل هذا من حساده ومعارضيه ، واتي منه أشد المماناة ، وهرق أن
نقدهم وعيبهم له ليس إلا عن حقد وسجدة ، وأنهم يريدون إطفاء نار ، وإتزال قدره ،
ولكنه كان على ثقة من عقريته ومنزله ومدركا أنهم لن يستطيعوا اقتفاء أثره ، أو شسق
فهاره ، فضلا عن اللحاق به ، وسأواته ، فأطلقوا لأستهم العنان ، وأتبعوه ظلما ونورا
ولم يها ملهم الجاحظ بما عاملوه ، وأبت عليه نفسه الكريمة ، وحمته المالية ، أن يتورط
فيها تورطوا فيه ، ورأهم أقل من أن يناصبهم الحدا ، وأحقر من أن يرفع في وجوههم
لواء الخصومة ، ولكنه مع ذلك لم يقف محطوبيا لمبئين ، مكتوف اليدين ، وإنما اختسار
التجر والردع بما يناسب ثقافتهم ، وسلاحه في ذلك السخر المرء والهز ، والاستخفاف
والتدك القائل ، فتمت نصله في صدرهم ، وسقام من لأم نونه ، وأحركهم به فرغى
طائفي الكرامة ، ساقطي العروحة .

(١٠) التنبية والاشراف ، المخطوطة من ٦٦ طبعة الصاوي سنة ١٩٢٨ ، رسالة فصل ما بين
المداد والحمد ، الجاحظ من ١٠٨ - ١٠٩ من مجموعة رسائل الجاحظ لجنة
الطبع والتأليف والترجمة والنشر .

ولقد كان كثير من مشهورى الرجال ^{معيّن} اتصفوا بالعقل والخطق ، والفصاحة
واللسن ، يسمون فى بعض الأحيان ، وينحدرون فى مبادئ فكرية ، ينفذها غير المتقف ،
ويقف على الصواب فيها غير المتخصص ، فكان الجاحظ يمارع الى تقدمهم ، ما خرا
منهم ، ويصحح أخطأهم ، وله مع صاحب المنطق جولات فى هذا الباب .
ولكثر ما كتب الجاحظ ، ولد سامة موضوعاته ، ولوقوفه على طوايا النفس البشرية ،
وشع كتبه بالضحك ، وملاها بالهوادير والظرف ، وحشاها بالسخرات ، وفيه نسي
إرضاء قراءه ، وطرده الكليل من نفوسهم ، ونقلهم من فن إلى فن ، ومن باب إلى باب ،
ووضع على مائدة كتابه أطباقا شتى ، تتناول النفس منها الحلوى والحامض ، والكسسم
والسهل ، وتخرج بين هذه الأنواع ، لتتشط النفس ، وتستعيد همتها ، وتتخلص من
فتورها ، أو ليتناول منها كل شخص ما يلائم معدته ، ويقوى صحته ، أو ليتقى منها السر
الطبق المفضل لديه ، ولا تور عنده .

ولقد عاش الجاحظ أياما ، ومثقفين وفشوا مجالس الأئس واللهمه ، والوا إلى الضحك
وأغرموا بالسخره ، وقتلوا بالهزل ، ونشأت بينه وبينهم أواخر مودة ، وروابط صحبة
وجمعتهم علاقات وطيدة ، من اتحاد المشرب ، واتفاق المنزع ، والإقبال على النج والفكاهة
والهزل والسخرية ، ففتح الجاحظ صدره ، وجارحه ، وهذمه ، وللفكاهة والسخر نفسى
هذا المجال رجال ، وفى الأدب والتشعرونق وجمال ، فكان الجاحظ فارس حلقتهم
والمقدم نبيهم ، وصا موسى القى تلفت ما با فكون .
وكان الخلفاء والأمراء ، وذو الشأن فى الدولة ، يهلون إلى الضحك ، ويحبون
السخره ، يتخفون بذلك من متاعب الحكم ، وغانا الفكره ، وكانوا يحثون بالمضحكين
الساخرين ، وقرهونهم من مجالسهم ونفوسهم ، ويجزلون لهم المظا ، وكانت للطرف
النادرة ، والسخرات اللاذمة ، والمطارحات الهازلة صولات وجولات ، والجاحظ
جلسا لخلفاء ، والقرب إلى الأمراء والوزراء ، بيد يده الضاع ، وتوقف الشاردة

ويقنعنا الفاترة ، ويحبك سخرها ، ويرسم صورها ، ويلونها ، بالوانها الزاهية التي تبهج النفس
وتضحك التكلان ، وتمتبت بالمتكلم به وتجمعه هزاة أطم المجلس ويتوارى خجلا ، ويتقطع الباطن .

ولقد كان كالحياة الجاهظ الفكرية والأدبية صلة وثيقة بسخره فهو :

١- صريح ، يشار على الصريحة وأبناؤها ، ونسب إليهم كل فضل ، ويرجع لهم كل تشوق
وسبق ، فدم العيزون في ميدان الخطابة ، والسابقون في محاج الشعر ، الناهبون
في الحكم ، الطابغون ، الأذكيا ، لذلك يمزعليه أن يرى فيهم ضمنا ، أو يلمس
اعوجاجا ، فهو دائم المنح لهم ، ووضع اليد على عيونهم ، وكثيرا ما كان السخر
طريقه إلى ذلك .

٢- عالم ، من جلة علماء عصره ، محيط بمعارف زمانه ، خبير بنفوس مجتمعه ، يمتاز بالتحقيق
والندقيق ، والبحث والتفكير ، وإجراء التجارب ، واستنتاج القواعد ، ولطف النظر ،
وعدم التقيد بآراء السابقين أو المعاصرين ، يكره الجدل ، ويخطئ الرأي ، ويرشد
إلى الصواب ، ويحث على التروي والنظر ، بأسلوبه الساخر الهادف .

٣- مفكر ، بل أحد عمدا الفكر في عصره وعصره ، خاض بحوره كلها ، وأفتقر عليها جميعها
فصار له رأي الرصين ، ونظرة التي لا تطيش ، وقدرته على مواجهة الصحاب ، وحل
المعضلات ، فهو يعمل دائما على تجنب الزلل والخطأ .

٤- أديبا كدولة لعاسية ، بل أديب الأمة العربية ، رد للغة وروحها ، وأشاع فيها
رواها وهدجتها ، وملك زمام الفصاحة وقاد . قوافل البلاغة ، فنضح له حروفه عذول
عصيا وشرودها ، خير مواطن الضحك فيها فنيه عليها وأماكن القصر فنده بها .

وكان السخر هو الضوء الأحمر الذي يمتلئ في عيون الأديبا ، ليتقوا ضد حدود اللغة
في كاتب ، رفيع الأسلوب ، فصيح الكلمة ، واضح العبارة ، حسن الأداء ، جيد السبك
يتخذ الكلمة وسيلة لإبراز الفكرة ، وتخيير السلوك ، وتقيم الشذوذ .

١- معتزلي ، ورئيس طائفة الجاحظية من المعتزلة ، يدافع عن مذهبه ويؤاخذ من رأيه
فد تيارات كثيرة ، وأهواء متطرفة ، يهيج قوته ، وأدلة ساطعة ، تلزم المعارض
الخصم والانتقاع ، وتتركه هزأة بين الأهل والأتباع .

٢- ناقد موجه ، يرى المصريح فلا يسكت عليه ، ولا لخطأ يمسح عالياً تصويبه ، والتمسك
فيه منه بممول الإصلاح ، والشذوذ فيجعل السخر لجاهه .

فإذا كان هذا هو وضع الجاحظ لثقاني والأدبي ، مروية ، وعلو ، وفكر ، وأدب ،

وخطبة ، واعتزال ، وقد ، وتوجيه ، وكانت هذه حياته كلها تعمل بالتحريم والتبذير ، يهرق

صريح ، وسبب من الإصلاح والتوجيه ونحو ، ونعمت على الصواب ، وترك الامواج ، وتكشف

الصوب ألم أصحابها أو تفضيهم على ملا الأسياد ليرتدوا ^{ويعتزلوا} ، فلا عجب أن نرى

التهكم بشيخ في كلماته وولفاته ، والتصور السخر يوشح كتبه برسائله ، يتخذ ذلك وسيلة

للتقويم والتعليق ، أو الإحاض ، أو التخفيف من غناء الدرس ، أو توشيح الكتب والرسائل ،

أو إزهاق الناظر ، أو إذلال الخصم ، أو غير ذلك من الأغراض التي يهيم السخر سلاحاً

يحققها به ، فإذا هي مقادة له ، ولولا تمت وطأة ضرباته .

وأخيراً ، فقد عرف الجاحظ قدر نفسه ، وعلو شأنه ، وبخفته على معاصريه ، وقاس

نفسه بخير ، فوجد البرق ناسعا ، والنبوة سحيقة ، فسخر منهم ، وهزى بهم ، وتذكر من تخلفهم

وهبوطهم ، إذرا لسخر مظهر من مظاهر الإحساس بالرفعة ، وضرب من ضرب التمييز

عن الملو والسبق .

الباب الثالث
موضوعات السخرية في أدبيات

عاش الجاحظ في مجتمعه بعين الخبير النقاد ، وفكر الفيلسوف الحكم ، وروح المرح
الطروب ، فلمحت عينه النقادة كل عيب ، واهتدت بصيرته الرقادة إلى كل نقص ، ووقفت
روحه البصافة على كل عيب ^{عيب} وانحراف ، فاستمان على عيوب الناس وتناقضهم ، وهي أعياء
الحياة وشدا ئدها بالضحك والسخر ، والتقوم والتذيب ، وللتخفيف والترويح ، وأباحت
لنفسه المتألم بالأصدقاء ، والسخرية من الأقوية ، فسجل خراجهم ، وشاذ أظواهرهم
و ^{مضحك} أقوالهم ، ووردت أفعالهم ، وحبته منهم من شاء ، وسلط عليه الأضواء ، فكشف
عوارضه ، وهلاه بسوط سخره ، غير عابى بلومهم له ، وتشنيمهم عليه ، فإن براعة براعه ،
ونصاعة بيانه ، وعزة برهانه ، ولذعة سخره ، ترد عنه كيد الكالدين ، وسطوة المهاجمين ،
وتقف غرما بينه وبينهم ، تتكسر عليه سهامهم ، أو تترد ثانية إلى نحرهم .
ولم تقتصر سخريته على الأصدقاء ، والمخالطين ، وإنما امتد أفتقها ، وانفتح مجالها
فتشملت من عرفهم ، ومن سمع بهم ، ومن قرأهم ، بعضهم يصرح باسمه ، وبعضهم
يستره ويكنه ، يقول في ذلك ، (ولما من تسمية الأصحاب المتكلمين ولا غيرهم مسكن
المستورين في شيء ، أما المصاحب فلما لا نسبه له ^{لومه} ، وواجب حقه ، والآخر لا نسبه لسخر
الله عليه ، وما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نسى من خرج من هاتين الحالين
ولربما سمينا المصاحب إذا كان ممن يباح بهذا كثيرا ، ورأيناه يعطرف ، ويجعل ذلك
الظرف سلبا إلى منع شيء (١) .

سخر من كل تصرف غريب ، ومن كل قول عجيب ، وهنرى من جاوز حده ، وخالف
مجتمعه ، وطعما في رده إلى نصابه ، وأرجاه إلى قرابه ، أو رغبة في التسلية والمرح ،
والترويح عن النفس ، وقد انفسح مجال السخرية أمامه ، وتمددت موضوعاته ، وأملأ مجتمعه

(١) الإخلاص ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٥٧ .

بأغصان من الناس، وألوان من السلوك، وأشتات من المذاهب تدور إلى السخرية
 وحض على التذم، فتناول الجميع ساخرًا متذمًا، تناول العلماء والفقهاء والقصاص
 والرواة، والمعلمين والمفسرين والمحدثين، والحقق والمضروبين، والمعلمين والمبالغين
 والمتفلسين والمخرفين والموسومين والمخلفين، ومن تبيح شكلهم وسألت خلقهم.

جمل موضوعات سخريته كل من فيه عيب، ومن الذي يخلو من عيب ١٤ تناول الجميع
 بسخره، وتناول نفسه فيمن تناول، مدفوعًا إلى ذلك بطبعه الفكه، ونفسه لرضية، وقطرته
 الساخرة، وما يجده في مجتمعه من تناثر وتضاد، وأوضاع مقلوبة، ولا يكفه - وهو
 المهجول على النقد، المظنون على السخران - يترك هذه العيوب دون أن ينه عليه ساء
 في غمز وخز.

فلا عجب أن وجدنا تيار السخرية يسرى في كل كتاباته، وينتشر في جميع ما أثار
 عنه، وما روى من أقواله، ولو كان الموضوع جدًّا، أو فكاره صعبة، يتلوها بالأدلة
 ويمتد على البراهين، أو دهنها كتفسير آية، وشرح حديث، بل لقد أثاره للسخرية
 رسائل كرسالة الترهيب والتدوير.

وقد تناول بسخره شتى الموضوعات، ومتنوع الخصال، وغريب الأوضاع، ومن
 أشهر هذه الموضوعات التي دارت عليها سخراته،

•••

•••

•••

وإن كان ممداً منفرًا فالجذام والقن والبرص والجرب ، أشعر الإنسان بالنفور والتقززه وأبعد عن السخريه والتكلم .

وإن كان مرعبا مفرعا ، كما تساع المدققين ، وضخامة الهدين وقشور الوجه من أثر حرق مثله ، فإنه يبدو مخيفا ، باعثا على اللجج وذلك يقهض لنفسه ، ولا يحدث السخر الذي أساسه هدوه النفس ومرحبها .

فإذا كانت نفسية الإنسان مشفقه أو مشفزة أو فظة من موضوع معين ، فإن السخريه منه محال ، لأننا لا نسخر إلا إذا كانت نفسيتنا مسترخية ، أو منفعلة انفعالا بسيطا ، لا يخزها للأذى ، ولا يصرها إلى الألم ، ولا يقهضنا بها طبا ، أو يهيج هدوهها ، أما إذا كان السبب الجسمي ضئيلا غير ضاره أو يمكن تلانيه ، فإن السخر يهوي ويتضاف ، كالتسمية المبرجة ، وكالتشويق في الكلام .

على أن السخريه من التشويه الخلق لا توجد إلا في المجتمعات الهدائيه ، التي

لم تزل غسلا وفيرا من الحضارة ، ولم يتمذب سلوكها ، ولم تستطع ضبط انفعالاتها ، فتتخذ من آلام الغير ، وبلا دخل له فيه وسيلة للبره والاستغنى .

وقد يضحك المجتمع الرائق من هؤلاء المشومين ، وسخر منهم ، ولكن ليس ضحكه

وسخره من عاهاتهم ، وإنما من سلوكهم الضحك ، وأدعائهم ما ليس فيهم ، كأن يبدو القزم

في سمع الصملاق ، أو لبطين في صورة الضامر الخصره ، والمسترق القوام ، والأصم في هيئة

حاد الإبصار ، ويهاى مشوه الخلقه بجمال طلعه ، وبها صورته .

وإذا كان الحال كذلك في السخريه من الخلقه ، ولا حيله للمرء فيها ، ولا يستطيع

لها تخيرا أو تهديلا ، والموقف أقرب إلى الرثا ، والرحمة ، أو الخوف والفره ، أو النفور

والتقزز ، منه إلى السخريه والتكلم ، فما بالك بالزى المخالف ، والبزة الشاذة ، والسمت

الغريب ، مما يختاره الإنسان وينتقيه ، ويستطيع تخيره وتهديله ، ونظرتنا إليه عقلية محضه

بعيداً عن الانفعال الما كفي ^{١٢} ان النفس لا تمك إلا أن تسخر من لسان قهمة وسروا
وأطال لعينه وحمل في يده ^{ظلمة وشي} مظلمة وشيخاني القدمين وهذا في هيئة غريبة ، وظهر مضحك .

بين هذه الأنماط نمانح شمعة ملامت عصر الجاحظ فكتب عنها ، وسخر منها . يقول
(وكان إذا أكل ذهب عقله ، وحفظت منه ، وسكر وسدر وانما سره ونهده وجهه ، وصب ،

ولم يسبح ، ولم يوصر) ^(٣) ويقول في السخرية من هيئة رجل لم تحببه : (كنت مجتازاً في
بعض الطريق فإذا أنا برجل قصير بطين كبير القامة طويل اللحية ، ويده مشط يمشطها

فقلت في نفسي : رجل قصير بطين ألي ، فاسترني ، فقلت أيتها الشيخ ، قد قلت فيك
شعراً . فترك المشط من يده وقال : قل فقلت :

كأنك صعوة في أصل ^(٤) أصاب العشق طش بخدرش

ولقد أنشأ الجاحظ عملاً أدبياً متكاملًا في السخرية من هيئة أحمد بن عبد الوهاب
والمبشها فيه من عيوب جسمية ، (وهو رسالة (التربيع والتدوير) ^(٥) يقول الجاحظ (كان

أحمد بن عبد الوهاب مفرطاً لقصره ويدهن أنه مفرط الطول ، وكان مرهبا وتصيبه لسمعة
جفرته ، واستفاضة خاصته مدورا ، وكان جمع الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو في ذلك

يدعي السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الرجة ، وأخصر البطن ، ومعتدل القامة ، تام النظر
وكان طويل الظهيرة ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعي أنه طويل السجادة

رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة قد أعطى البسطة في الجسم ، والسمنة
في العلم ، وكان كبير السن ، متأدب الميلاد ، وهو يدعي أنه معتدل الشهاب ،

(٣) الهمزة ، الجاحظ . تحقيق طه الحاجري صفحة ٢١

(٤) ربح بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء ١٢ صفحة ٢١٦ وقد سوت في الرسالة

(٥) سأقول هذه الرسالة بالدراسة في الفصل الأول من الباب الرابع .

حديث الميلاد (لا وفيها يخاطبه قال لا) (غابت العديده ، وأنت البسيطه وأنت الطويل
وأنت الوائره وأنت المتقارب ، فما سمرنا جمع الأعرابيه وباشخصا جمع الاستدارة والطلول
... .. إن استفاضه عرضك أدخلت الضمير على ارتفاع سحركه وإن ما ذهب
ملك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولكن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك)^(٧)

ويظهر هنا الدليل على ثقافته الجاحظه ورفعة خلقه ورفاهية عصره وثقافته بيئته
لأنهم لم يسخر من العيوب الجسديه كما يفعل من لم ينل قسطاً وافراً من ضروب المعرفة
وإنما سخر من ادعاء ابن عبد الوهّاب بلطيس فيه ، وظنونه في غير ثوبه ، وقد رأينا
الجاحظ يؤكد ذلك بتكرار كلمة (وديعي) ، كان كذا وديعي كذا ، وكما رأينا نفسى
قصة الرجل القصير البطين فإن سمعت سخر الجاحظ منه ادعاءه الرشاقة ، واتخاذ
لعبة تزيد جمالا ، واعتناؤه بتمشيطها .

وقد بحثت كثيرا في مؤلفات الجاحظه لأحصل على سخرياته من العيوب الجسديه
فوجدتها قليلة نادرة ، تكاد لا تمتد على أصحاب اليد الواحدة ، حتى الرسالة التي أنشأها
للسخر خاصة ، كان حديثه فيها عن العيوب الجسديه ضئيلا ، وانصب معظمها على النواحي
الفكرية والحلمية ، ولعل ذلك لأنه ،
أ- كان مشهورا لخلقته ، فكان يكره الحديث في هذه الناحية حتى لا تتألم نفسه الجريحة
وحتى لا يفتح على نفسه أبوابا من اللجأ والتشجيع ما كان أحواش أن تظل موصدة
حتى لا يلجأ خصومه وما أكثرهم .

ب- كان متفقا متحضرا ، ومن شأن العقيد المتحضر - كما قدمت - أن لا يهعن نفسى
السخر من عيوب خلقية لا تدخل لصاحبها فيها ، ولا يهكبه تشويها وعلاجها .

ج- لأنه صاحب الفكر والمنطق ، ورجل العلم والأدب والثقافة الواسعة ، فقد كانت نظرتة
لثقافته والعلم والأدب على أنها المقياس الصحيح الذى يبين مقام الرجال ، ويرجع
كثرتهم ، أما المال أو الجمال ، فإنهما في الدرجة الأخيرة ، أولا يمتد يدما في
ميزان الفضائل .

(٦) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ٨٢ طبعة ساسى طيبة أولى مطبعة التقدم .

(٧) المصدر السابق صفحة ٨٧ و ٨٨ .

الفصل الثاني

غرابية الطباع والأخلاق

بمعانيها عن النحل لملك النحل
الطول المص 117

عن المجتمع العباسي بمن شذت أخلاقهم ، وغربت طباعهم ^{ويعتد عن} وخصت عن المعرف تصرفاتهم
 فانهمسوا في مردول العادات ، ومستدجن الأخلاق ، مستغلين الحرية الفضاضة المتاحة
 لهم ، والتي تمتد إلى ما لا نهاية حتى لتلغى بالفوضى والإباحية ، آمنين بطش القاتلون
 الخافين وواخذته . ولم يعدم المجتمع طبقة من المصلحين ^{الغمر} والضميريين على الخلق ،
 المحافظين على كيان الأمة ، وقفت في وجههم ، وأخذت على أيديهم ، وجعلتهم محطاً
 للفقد ، وشار اللسخط ، كان على رأسها أديب الأمة الفذ الذي سخر أده له لخدمة
 العرب ، وناقدها المرهوب الكلمة ، الموهوب الأسلوب " الجاحظ " الذي أدخلهم آتون
 هزئه ، وتخذهم وقوداً السخره ، فجسم عيوبهم ، لبروها في مرآة ضا ئرهم ، وظلوا
 أما لهم ، ليلبسوها في نفوسهم ، وليعلموا بشاعة ما ركب في طباعهم ، وضمير في أخلاقهم ،
وهلك نفوسهم ^{فتمت} الزجر والرذاع ، وتتم الطريق لهم ، ليلتجوا الطباع السلبية ، والأخلاق
 القوية ، وترسوا خطاياها . فتحدث ما خرا من بخلهم ، وتطفلهم ، وحيثهم ،
 وخونهم ، وكذبهم ، ومبالغاتهم ، وأهمالهم ، وشرهم وطعهم ، واحتياهم ، وخفتهم
 وتعليهم ، وتناول بحاد لسانه سائر طباعهم المعقوتة ، وأخلاقهم المشيخة ، وبالفساد
 والتجريح ، وامتلأ بها أده ، وحفلت سخريته .
 وساتناول أشهر هذه الطباع ، وأبرز تلكم الأخلاق ، وأعرض بعضاً عن سخرييات
 الجاحظ منها ، وتلكه بها ، وهوته بأربابها .

1- البخل ، خاطر
 يوحسب في خاطر البخل أن الناس يريد إفقاره ، وتتمنى زوال نعمه ، وتحتال عليه
 لتستلب أمواله ، فلا يريد أن يعلم على أحد ، ولا أن يكلم أحداً ، ولا يطلب منه إنسان
 شيئاً ، أو يمرض يطلب شي ، الأضاق صدره ، وهدرت أنفاسه ، ودارت عينه ، كالذي

يخشى عليه من الموت ، فهو خائف وجل دائما ، يعتقد الشرقي جميع الناس ، قبل
أن يختبرهم ، ويصرف طواياهم ، فهو في حرب مع نفسه وأهله وبيئته ، ومع الناس جميعا
ومع الحياة وتقلباتها ، وأيام ومنعها ومنحها .

والسخرية من الهخيل تأتي من استعظامه لثأفه الحقير ، أو من فخره الكاذب ، وادعائه
الباطل ، أو من تحليه لتصرفاته تحليلا يفتخرها بالكرم والجود ، أو بالحنم والشهير
أو من تدقيقه المبالغ فيه ، واهتمامه بالمجاز والحد ، حتى لا يبقى شيئا دون أن ينتج
به على أكل وجهه ، ثم ينتج بها تبس ، ثم بما تبقى حتى لا يبقى شيء دون استغلاله ،
والاستفادة به ، وهذا الحرص لا يوصله كما يظن إلى ما يبغيه من راحة وطمانينة ، وإنما
يوصله إلى القلق المستمر على ماله ، وحرمانه من ممتع الحياة ، وإهدار كرامته بسبب
معارفه ، والسخرية منه لشدة جشعه ، ومع إعمال حيلته ، ودوام بقائه ،
فما فطر عليه الهخيل ، والتصق بطبعه وجبلته ، تلمسا للحل وما يخاله براهمن يراد بها
على بعضه بالتقصير ، وهو في ذلك فطن لبق ، يحد إلى النطق الخادع ، والسفسطة
والمنالطة ، يوحس إلى الناس أنه كريم ، إلا أنهم يريدونه هذرا ، ويؤمنون أنه سخيف
لكنهم لا يحبونه إلا مسرفا متلافا ، يريد أن يخذلهم عن حقيقته ، ودخيلة نفسه ، فإذا
هو المختول المخدوع ، ولذا الناس يصرفون حقيقته ، ويقفون على سره .

ولقد كثر البخل في عصر الجاحظ ، ولم تملكوا الثروات ، وتحكموا بأموالهم في المجتمع
ولعل السرفى كرتهم ، وانتشارهم ، ونشوء طبقة من التجار في البصرة وخراسان وبقية
السواضرة ، وهذه الطبقة أفتت سرهما ، وأملكمت الأموال بعد فقره فصرفت قيمة الدرهم
فصرصت عليه ، وشحت به ، ثم إن ربح التاجر لدائق والدائقين ، وهو بهذا جيد ، من
أجل ذلك فما أحراه أن يرضن ويبخل . يقول الثعالب : وسملو أن البخل والنظر نسي
الطفيف يقرون بالتجارة ، والتجار هم أصحاب الترويح والتكيب والتدقيق . (١)

(١) تبار القلوب في الضاف والنسوب ، الثعالب ، صفحة ٩

غاص الجاحظ في باطن البخيل ، وهرق طويته ، وخبر سريره ، وما يهمل به نفسه من الآمال المراضح حين يجمع المال ، وما يحسن لنفسه من البخل ودوامه مدعياً أنه الصلاح والحزم والاقتصاد ، وأن عدم إنفاقه السائل إنما هو تدبير ووع ، فتدرك به ، وهرق كيف يسخر منه ويحقره .

ولقد سبق الجاحظ في الكتابة عن البخل الأصمى وأبو عبيدة وأبو الحسن العدائني ولكن كتابتهم كانت تأخذ طريق السرد القصص ، ولا يتعمق فهماً صحيحاً بالتأملات والنصوص في أصناف النفس ، وتحليل البخل ، والحركات النفسية التي تداخل البخيل كما فعل الجاحظ ، ذلك لأنه (مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبيين الحركات المشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلات بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة من كلمة عابرة ، أو إشارة طائفة ، أو لفظة سريعة معجزة) (٢) .

ولقد أورد للبخل كتاباً خاصاً من مؤلفاته هو كتاب البخلاء الذي أطلعنا فيه على تصرفات البخيل ، وما يحسن لنفسه من البخل ودوامه مدعياً أنه الصلاح ، فتدرك به وهرق كيف يسخر منه سخرًا لا ندع يحقره ، ويأخذ يأنظله . فالدرهم عنده يساوي دية مسلم إذ (الدرهم عشر العشرة ، وإن العشرة عشر المائة وإن المائة عشر الألف وإن الألف عشر العشرة الآلاف ، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم) (٣) وكيف يخرج الدرهم من حوزته ، ويوصف بعد ذلك بإيمان أو صلاح ، وقد طرد من جيبه وبينه دلالة الإسلام وقاعدته الأولى ؟ (إن البخيل يستكر ذلك ويقول : والله إن العوهم ليتزع خانته للأمر يريد ، وعليه حسبى الله ، أو توكلت على الله ، فيظن أنه قد خرج من كنف السلجندكي ذكره حتى يرك الخاتم في موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهماً عليه الإسلام كما هو ، إن هذا العظيم) (٤)

(٢) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٥٠ القديمة .

(٣) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق العوامري والجان الجزء الثاني صفحة ٨٦

(٤) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ٩٦

وقد يصل البخيل بتدقيقه وتفقيره إلى تنبؤ طعامه بالمد والوزن ، ومدادوة التأكسد من سلامته ، وبعده عن الأفواه ، وتطول مراقبته زوجته وأولاده وخادمه ، وسد السبل أمامهم وأخذ الصدود والمواثيق عليهم ، ألا يقربوا طعاما لم يبعه لهم ، فإن داخله الشك ، أو ثارت في نفسه ريبة ، نصب لهم الشراك ، واتخذ صنوف الحيل ، حتى يرومهم في حياتهم وكثيرا ما تكون هذه الحيل خارجة على المألوف ، فلهذه نادرة ، تشر الضحك ، وتؤدي إلى الاستهجان والسخرية ، بل إلى الاستهزاز والنفور .

وهروى الجاحظ لنا صورة ساخرة لتمار (كان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال ، فربما احتبس ، فاتممه بأكل التمر ، فسأله يوما فأنكره ، فدعا بقطنه بيضا ، ثم قال : امضغها امضغها ، فلما أخرجها - وجد فيها حلالة وصفرة . قال : هذا له أبك كل يوم وأنا لا أعلم ، اخرج من هاري) (٥) .

وهروى لنا صورة أخرى أشد بخلا ، وأكثر تفجيها للنفوس ، هي أسلوب ساخر لاذع ، يفضح الشح ، ويبين كيف يبلغ بصاحبه مداه يقول : (كان عندنا رجل من بني أسد ، إذا صعدا بن الأكار إلى نخلة له ليلتقط له رطباً ملاً فاه ماء ، فسخروا به ، وقالوا له : إنه يشربه ، وبأكل شيئاً على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل بال في يده ، ثم أمسكه في فيه ، والرطب أصون على أولاد الأكرة وغير الأكرة من أن يحدث في أحد شطر هذا الشجر ، ولا يمضغه . قال فكان يملأ فاه ماءً أصفراً وأحمر أو أخضر لكي لا يقدر على مثله في رؤس النخل) (٦) .

ولا يملك السرور أمام مظاهر البخل الشديد التي رسمها الجاحظ ، وسخر منها ، وتبسم بها ، إلا أن يضحك ويضحك ، ويشارك الجاحظ سخريته وتذككه بذلك السخر ، الذي يفرح عند سماعه لفظ الكرم ، ويموت فرحاً إذا ذكر أمامه الإنفاق أو الإطعام ، وهو مسبح ذلك يدعى الأريحية والسخاء ، والبذل والمطاء ، وأنه يجد الراحة والسرور في أن يهب أخاه شطراً له ، يقول : (كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكر ، وكان مفرط

(٥) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٥٩ .

(٦) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٦٠ .

البخل شديد النجس ، فقال له يوما أخوه ، ويحك ! أنا فقير مهمل ، وأنت غني خفيف الظمير ، ولا تعينني على الزمان ، ولا تؤاسيني ببعض مالك ، ولا تفرج لي عن شيء ، والله ما رأيت قط ، ولا سمعت بأبخل منك . قال : ويحك ، ليس الأمر كما تظن ، ولا السائل كما تصعب ، ولا أنا كما تقول في البخل . ولا في اليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لو هبت لك منها خمسمائة ألف درهم . يا هؤلاء ! فرجل يديب ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم . **يقال : البخل يخييصل (٧)**

ربما انتقل البخل لطول ملازمة أهله إلى حيوانا قهم ، وطيرهم ، فأخذوه بالتلقين وحذقوه . بالتدريب والتعلم ، واكتسبوه بطول المشرة ، ودوام الصحبة ، فنصارفسي جهلتهم طبعاً . قال الجاحظ ساخرًا من أهل مرو : (لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لا قط ، يأخذ الحبة بنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة ، إلا ديكه مرو ، فإن رأيت ديكه مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب . قال : فعلت أن يخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيوانهم (٨) .

والرقيق ضد البخل عدل نفسه ، وعدل مرضه وثيقه بل هما أهون عليه منه ، (ولأن يطحن طامن في الإسلام أهون عليه من أن يطحن في الرقيق الثاني ، ولشق عصا الدين أهون عليه من شق رقيقه لا يعد الثالثة في عرضه ثلثة ، ويعد لها في شهده من أعظم التلم (٩) .

وتلك سخرية ببخل أهل مرو الذي يتعدى رجالها ونساءها وأطفالها إلى حيواناتها وطيرها ، وكان لسرو تشبعت ببخل أهلها ، ثم صارت هي أستاذة في البخل ، تطيح من عاشر فيها بظاهرها ، وتتضح عليه من محبتها لجزا وتقتيرا .

(٧) البخل : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ١١٥ .
 (٨) كتاب البخل : تحقيق الصوامري والجامع ١ ص ٤٦ .
 (٩) كتاب البخل : ضبط الصوامري والجامع الجزء الثاني صفحة ١٠٠ .

ظهرت في المجتمع العباسي طائفة من الناس من أحببت طعام الخير وهامت به ، وسلك عليها سبيلها وبصرها ، فأقبلت على الولائم ، وحفلت بالأعراس ، فتبعت أخبارها ، ودارت في فلانها ، وفتت بالوانبها ، ورمت بنفسها في أحضانها ، وشاركت فيها دون أن تدعى إليها ، أكلت طعامها ومعداتها مليئة لا تحتاج إلى طعام ، وحيويتها واقرة المال ، وبيوتها مامرة بالخيرات ، عرفت بين الناس بالشرف والنهم والطمع ، ونعت أربابها باسم الطفيلين نسبة إلى طفيل الأعراس أو العرائس زعيمهم في ملء معدته من الولائم ، وسارحته إليها بدعوة من نفسه ، يصفه الجاحظ بقوله : (كان بالكوفة رجل من بني عبد الله بن خلفسان يسمى " طفيل " كان أبعد الناس نجمة في طلب الولائم والأعراس ، فقيل له لئسك " طفيل العرائس " وصار ذلك نيزاله ، ولقبوا لا يعرف بخيره . فصار كل من كانت تلك طبعته يقال له " طفيلي " (١٠) .

ومن صفات الطفيلي حسن المظهر ، وجمال الهيئة ، وخفة الروح ، وإجادة الكتابة

وإتقان الحديث ، والبراعة في تقصي الأخبار ، والوقوف على غامض الأسرار . . . وقد كان طفيل الأعراس يقول : (وددت لو أن الكوفة بركة مصهجة فلا يخفى على من أعراسها شيء) (١١)

ومن أجل اعتذارات الطفيليين حضورهم موافق لم يدعوا إليها قول شاعرهم :

(نحن قوم إذا دعينا أجبنا)	ومنى نحن يدعينا التطفيل
ونقل علينا دعينا فخبنا	وأنا فلم نجدنا الرسول
وأنى طفيلي طعاما لم يدع إليه	فقيل له : من دعاك فأنشأه
دعوت نفس حين لم تدعنى	فالحمد لى لالك فى الدعوة
وكان ذا أحسن من موكب	مخلفه يدعو إلى الجفوة (١٢)

(١٠) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجزى ص ٢٨

(١١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٢) المختار ، البشرى الجزء الثانى صفحة ١٤١

والشره والطمع ، والإقبال على الأكل في نهم صفة مردولة ، ونقيضه معقوت ، وبخاصة إذا كان ذلك على طعام غيره ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الأكل الشره على طعام غيره لم يدع إليه ، ظهر لنا مدى قبح هذه الصفة ، ومهانة صاحبها .

وقد اتخذ التطفل مادة ثرة للسخرية ، وسحينا لا ينصب للهنز والتكلم ، لعناقات مسا طبع عليه المجتمع ، وما تمارقه الناس ، وما رفيهم عادة تجرى مجرى القانون ، فالناس لا يذهبون إلى وليقة إلا إذا دعوا إليها ، ولا يأكلون من طعام غيرهم مستبشرين الأكل إلا إذا أذن لهم فيه ، لكن الطفيل يدمر نفسه ، ويأكل ما وسعه الأكل ، كأنه ماله وحته وإن كان في ماله وطعامه رفيق الأخذ حذرا ، فإنه في مال غيره جشع متلاف ، كثير اللقم سريع الهضم ، له طرق في الوصول إلى القلوب ، تضمن له سرعة وصول الطعام إلى الأمعاء ، فهو يتصنع في ذلك الحيل ، ويتلطف ، ويدق تطفه ، حتى ليحسبه أهل الزنج مسن أهل الزوجه ، فيجلونه ويكرمونه ، ويقدمون له أطيب الطعام ، ويحسبه أهل الزوجه مسن أهل الزنج ، فهو يرمونه مكانا عليا ، ويحلونه محلا سفيا ، ويصدرونه الخوان ، ويفتن هؤلاء في إطعامه ، ويمن أولئك في إتيانهم ، فيجول في المائدة ويصول ، ويكس ما عليه ما هوود صندوق بطنه ، وإن كان ضعيفا منظا ، وهو ليق مفتن ، له رؤا ، ويظهر ، وحسن ست وجمال أحوثة ، حتى ليخدهم عن أنفسهم ، وينسيهم العرس بما فيه ؟

فإذا رويتوا دره ، وذكرته حوادثه ، تخللها التكلم واللمز ، والسخرية والتمسيز فضحك لجاوزته الحد ، وخرجه على الحرف ، ونظرب لعن ثأنيه ، ودقة احتيا السمه وحبكة تصرفه وا دعائه .

لم ينس الجاحظ - وهو الخبير النقاد - هذا الصنف من الناس ، ولم يسلم من غضبه وسخطه ، فتناوله تنا ولا با رما ، وجعله من موضوعات السخرية التي أودعها بطون كتبه ، وأشابهها بين الناس في عصره ، وتناقلتها الأجيال بعد عصره ، فكيف مرحون ، أو قارئين
دا رسين .

وروى الجاحظ في قصة أحمد بن خلف الذي ورث ما كثيرا ، (قلت له سرقتك هذا المال كله - ما أباط بك الليلة ؟ قال : لا والله ، إلا أني تمسيتها لبارحة في البيت . قلت لأصحابنا : لولا أنه بعيد العهد بالأكل في بيته ، وأن ذلك ضرب منه ولما احتساج إلى هذا الاستثناء ، وإلى هذه الشريطة ، وأين يتعقّب الناس إلا في منازلهم ؟ وإنما يقول الرجل عند مثل هذه المسألة : لا والله إلا أن فلانا حسبي ، ولا والله إلا أن فلانا لغر علي ، فأما ما يستثنى ويشترط فهذا ما لا يكون إلا على ما ذكرناه قبل) (١٥).

٥٠٠
 ٥٠٠
 ٥٠٠
 كمال الإحمال والإحمال

إذا كان الشخص متهللاً ، بليد الإحساس ، خامداً ، الماطقة ، جامداً الشعور ، يرى العيب فلا يثور ، ويستخضب فلا يخضب ، كان موضعاً حياً للسخر ، ونموذجاً رائعاً للإضحاك ، وسبباً لا فكها للتكم ، وذلك لشذوذه عن مقاييس مجتمعه ، وظهوره بين الناس في مظهر غير مألوف ، يناهض المجتمع ويحاربه ، وهل هناك أذى للسخرية والاستهزاء من يحتاج ماله أو حشده حرمة ، وهو جامد صامت ، لا يبدى انتباه ، ولا يظهر نفورا أو شتازا ، أو من يترك ما يؤذيه ، ويؤذي الناس دون أن يدنعه ويرغمه ، وأين كان قليل الثروة سهل الإزالة ، وهو السبب في وجوده ، والملة في بقائه ؟ ؟

وقد كان الإحمال وبلادة الحس موضعاً لسخريات الجاحظ ، وكان له ضياء مدهد لا يتفده ، ومحين لا ينضب ، ونماذج متعددة ، ملأت مجتمعه فعالجها بالسخر ، وطأجلها بكشف عيوبها ، وهتك أستارها ، قال : (قال الخليل ، كان أبو لهبة يستغل ثلاثة آلاف دينار وكان من البخل يخر تنقية بالزيت إلى يوم المطر الشديد ، والسيل المياحة ، فوكترى رجلا واحداً فقط ، يخزن ما فيها ، ويصبه في الطريق فيجرحه السيل ، ويؤذيه إلى القاة ، وكان بين موضع بئر والصب قدر مائتي ذراع ، فدان المكان زيادة دراهميين يحتمل الانتظار

(١٥) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ص ٤١

شهرًا أو شهرين ، وإن هو جرى في الطريق ، وأدى به الناس (١١) إلى البخل السدي
 يؤدي إلى بلادة الشحر ، ولا مجال الواجب ، وهم إحساسا لهم بنفسه كما تسان له كرامته
 واحترامه .

والشخصي المعدل الذي لا يقدر مسئولية ، ولا يهتم بشخصيه ، وسكانته في مجتمعه ،
 ولا يعطيها كفاءها من المظهر والسمت ، أو العلم والعمل ، فهستخف بمظاهر الأمور ،
 ويستترهم بكل القيم ^{لإيجاده سمعة} مستخدم على القم ، ويضر مجتمعه ^{وإفريده} ، نتيجة إهماله وتبلده ، ^{لإيجاده سمعة} ولا يجله مجتمعه ولا يجله

ولا يحترمه ، وإنما يجعله محور سخره ، وما دة نياضة للم والاسموا ، وقد عرف
 الباحث المعدلين ، وغرهم على أنفسهم ، وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، فاختص
 المشربة منهم طريقا إلى إظهار مساوئهم ، وتبيين فعالهم ، وأقبح هؤلاء المعدلين عنده
 من ألق كلامه على علاقته ، مع جليل خطره ، وبين خطله ، لم يدقق فيه ، ولم يفحصه ، ولم
 يردده ، وهو رات لائحة ، وسواته واضحة ، فأضر نفسه ، وأضر مجتمعه ، وأضحك الناس
 عليه أبد الدهر .

قال الباحث يسخر من المعدلين ، والذين لا يشتون من كلامهم ، ولا يقنون عليهم
 اللطيل ، ويلقونه دون نصير وتمحيص ، إن بعض أصحاب التفسير يزعم أن الله عاقب الحية
 حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلف آثم وحوا ، وخذعها على لسانها بخر خصال
 فيها شق اللسان ، قالوا ، ولذلك ترى الحية إذا ضربت للقتل كيف تخرج لسانها لتتري
 المضارب عقوبة الله ، كأنها تسترحم ، وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك إلا لحيمة كانت
 عنده تتكلم . (١٢)

(١٦) البخل : الحاجظ ، تحقيق طه العاجري ص ١١٢ ، ١١٤

(١٧) الحيوان ، الباحث ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ٧٤ ، ٧٥

مع الكذب والمبالغة :

الكذب والادعاء ، والمبالغة والغلو ، صفات خارجة عن القدر المستقيمة ، والطباع
 السوية ، فالكذب من الصيوب الأخلاقية التي تؤدي بالفرء والأمة ، والمبالغة التي
 تملك سبيل الادعاء والغلو والتطرف من الصيوب الاجتماعية التي ينكرها المجتمع ،
 ويسعى باحدا للتخلص منها ومن أضرارها ، فالكاذب والمبالغ المدعى - وهو كاذب
 أيضا يستخفان بحقل السامع ، ويتلاعبان به ، ويظنان فيه السذاجة والغفلة ، فاذا كان
 السامع عالما بحقيقة الأمر ، واقفا على تفصيلاته ، فاعلم طبيعة هذه ^{سوءه ، عارا كذبه ، وتبعه} صفة ، وطرف الكاذب ونفسه
 تار تحفظته وتأثر كرامته ، في صور مختلفة ، منها السخرية به ، وكشف قناعه ، وإظهار
 ما حاول ستره وإخفاه ، أو ببجاراته ، وإظهار رصدي كلامه ، ثم يقتله بألفاظه ، ويخرج
 بلسانه ويوقعه في حياثه ، وفي الشرك التي أهدا فكانت مصيدته وقاصمة ظهره ،
 فتقلب السخرية عليه ، ويصير هزاة بين أقرانه ، بعد أن كان يضحك على قلبه ويتفاخر
 في أعناقهم ، ويظن أنه الساخرا لسخانح وأن سامعه هو الفائز الخدوع .
 والجاحظ يستغل هذه الصفة في بعض مفاصله ، فيهم عليهم بحار سخريته ، وقائل
 استنزاه ، ونفس سخريتهم . يقول : إن أحمد بن الخاركي كان يخيلا وكان نفاقا ، وهذا
 لفظ ما يكون منه ، وكان يتخذ لكل جبة أرهة أزراره ليرى الناس أن عليه جبين ،
 ويشترى الأعداق والمراجين والسف من الكلاء ، فاذا جاء الجمال إلى بابسه
 تركه ساعة يوم الناس أن له من الأرضين ما يحتل أن يكون ذلك كله منها ، وكان يكثر
 قدر الخمارين التي تكون للنبيذ ، ثم يتحري أظفها ، ويترى من الحمالين بالكرام
 كي يصيحوا بالباب ، يشترى الدلوى والسكر ويحبسون الحمالين بالكرام
 وليس في منزله رطل ذهب (١٨)

(١٨) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق النواصي والجامع الجزء الثاني صفحة ٤٩

الحماية والرعاية ، ودرء الأخطار كالأب بالنسبة لأبنائه ، وبالمسح بالنسبة لزوجته ،
 وكما لجندى بالنسبة لوطنه ، وتحقيق السخر إذا ادى هذا الجبان إلى لشجاعة ، وأظهر
 القوة والجلد ، وحاول ستر ما في نفسه من اضطراب ، أو اعتذر بهذروه ، واعتزل
 بحالة مفتعلة ملفقة يمين بما سببها حجاب ، ويتضاعف السخر إذا وقف السامع على حقيقة
 الموقف ، وأدرك الخدمة التي ينسجها الجبان ، وادعى عدم المعرفة ، وواقفه في كلامه
 وجا راء .

ولما كانت هذه الصفة محيية بالنسبة لماحبها وكان ضررها يمتد إلى مجتمعه ، وإلحاق
 لا يحاسب عليها ، ولا يفرضها لعقوبة على من اتصف بها ، ولا لمجتمع لا يقبلها ولا يرضاهما
 ومن واجباته تقوم من شد من أفراد ، وحاد عن الجماعة ، فقد ابتكر وسيلة للردج
 ليس السلاح فيها العقوبة الجسدية ، ولا العقوبة المادية ، وإنما العقوبة المعنوية ، فنجأ
 إلى السخر سلاحاً يشره في وجوه الجبناء ، عليهم يروعون ويتشجعون .

وقد وجدت هذه الصفة في كثير من أفراد المجتمع الجباس ، ولقطتها من الجاحظ
 المناقذة ، فله عليها ، وسخر منها ، واحتججنا أصابها ، ورسم الصور الكثرية التي عب
 تخضع لها ، وتقر الناس منها .

يقول في كتابه الحيوان ، (كان بها لجمرة شيخ من بني نضل ، يقال له عمرو بن
 مرقد . نزل ببني أخت له في سكة بني مازن ، ونواخته من قريش ، فخرج رجالهم إلى
 ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يطلن في مسجدهم فلم يبق في
 الدار إلا كلب يمس ، فرأى بيتاً فدخل ، ولصق الباب ، فسمع الحركة بمض الإماء
 فظنوا أن لصاً دخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبي الأعره وليس في السرى رجل
 غيره ، فأخبرته فقال أبو الأعره ، ما يفتنى اللص منا ؟ ثم أخذ عصاه ، وجاء حتى
 وقف على باب البيت ، فقال : إيه يا ملامان أما والله إنك من لعارف ، وإنى بسك
 أيضا لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن ، شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا
 هارت الأقداح في رأسك مثلك نفسك الأمانى ، وقلت لاورنى عمرو ، والرجال خلوف .

والنما • يصلين في مسجد من • فأسرقين • سواء والله • ما يقبل هذا الأحرار • ليس
 والله ما منك نفسك فاخرج • وإلا دخلت عليك فصرمتك منى العقوبة • لأيم الله لتخرجين
 أولاهن حنته مشثومة عليك • يلتقى فيها العيان عمرو وحظلة • ويصير أمرك إلى تباب •
 وتجي • سعد بعثه الحص • ويسبل عليك الرجال من ما هنا وما هنا • • وثمن فعلت
 لتكونن أثنام مولود في بني تميم • • فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين • وقال • اخبرني يا بني
 وأنت مستر • إلى • والله ما أراك تصرفني • ولو عرفتنى لقد قنمت بقولي • واطمأنت إلى
 أنا عمرو بن مرثد أبو الأعز المرثدي • وأنا خال القوم • وحلدة ما بين أمهم • لا يهضموني
 في أمره وأنا لك بالذمة كهيل خفير • أصيرك بين شحنة أدنى وماحق • لا تضار • فاخرج
 فأتت في ذمتي • وإلا فعندي قوضتان إحداهما إلى ابن أختي البار الوصول • فخذ إحداهما
 فأنهدهما حللا من الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ^{وكان} الكلب إذا سمع الكلام أطسرق
 وإذا سكمت وشب يربخ المخرج • فتدافيت الأعرابي أي تماقطه ثم قال • يا ألام الناس
 وأضعهم • ألا يأتي لك • أنا منذ الليلة في واد وأنت في آخره • إذا قلت لك السوداء
 والبيضاء تسكت وتطرق • فإذا سكمت عنك تربخ الخن • والله لتخرجين بالمقرونك • أولاهن
 عليك البيت بالحقوبة • فلما طال وقوفه جاءت جارية من إمامه الحسن • فقالت • أمرأسي
 مجنون • • والله ما رأيت في البيت شيئا • • ودققت الباب فخرج الكلب شدا • وجاء
 منه أبو الأعز مستلقيا • وقال • الحمد لله الذي مسخك كلبا • وكانني منك حرا • • ثم
 قال • يا الله ما رأيت كالليلة • ما أراه • إلا كلبا • أما والله لو علمت بحاله لو لوجست
 عليه (٢٢)

(٢٢) الحيوان • الجاحظ • تحقيق عهد السلام هارن الجزء الثاني ص ١٢١ • ١٢٢ • ١٢٣ •
 ومثله في عيون الأخبار ابن قتيبة الجزء الأول صفحة ١٦٧ • ١٦٨ •

الفصل الثالث

ضعف العقل

إذا تكلم الجاحظ بالمعيب الجسمية ، وسخر من الطماع الضرية ، والأخلاق الشاذة
وأمثلاً بذلك أدبه ، وكثر نقده ، فإن تكلمه بضعف العقل ، وسخره من ثقافة التفكير
وهو رجل العقل والفكر - يحتل من أدبه مساحة شاسعة ، ويتناول موضوعات كثيرة ، ينبه فيها
الجاهل المصغل ، والموسوس المصروف ، الذي يسير وراء الشائعات دون أن يتثبت
ويتحقق ، وليرتد إلى صوابه ، ويوازن بين حاله تلك ، وما يجب أن يكون عليه .
ومن أخطأ دركات الضعف العقلي "الجنون" ، وهو عيب يل مرض شديد الضرر بصاحبه ،
ويخيره من يعاشره ، ومضية يتعدر على من ابتلى بها وعلى مجتمعه التخلص منها ، لذلك كان
مبعثاً للشفقة في القلوب ، والخوف في النفوس ، والرثاء لصاحبه ، والاكثاب من أجله
ولا يسخر منه إلا من فلطت قلوبهم ، وانحرفت طباعهم ، وخفقت في نفوسهم ^{وهفت} النزعات الإنسانية
وماتت في ضائهم بواعث المشاركة الوجدانية ، فتلذذوا بمصائب النا من وضعكوا لبيكائهم
والألمهم .

لذلك لم نرا لجا حظ يسخر من فقد عقله بل أنصبت سخرته على ضحاف العقول الذين
يظهرون بمظهر العقلاء الحكماء ، سالمهم فهم وتصرف تكلماته إلى تصرفات الشاذة
التي لا تلحق ضرراً بالنفس ولا بالخبر ، فإن ألحقت الضرر كان هيباً ضئيلاً ، لا يعرف
النفس من مرحبها وسرورها ، ويذكر الجاحظ المثل على ذلك بقوله (ومن الجانحين الأشراف
ابن ضحيان الأزدي ، وكان يقرأ " قل يأبها الكافرين " فقول له في ذلك فقال ، قد عرفت
القراءة في ذلك ، ولكني لا أجل أمر الكفار) (١)

يرى الجاحظ أنه ، (كانت بالكوفة امرأة يوماً يقال لها مجيبة ، فقد بدلت في

(١) البيان والتبيين الجاحظ تحقيق عبد السلام دارين ، الجزء الرابع صفحة ٢٠

كانت مجيبة أرضته ، فقال له بدلولى ، كيف لا تكون أرهن وقد أرضمتك مجيبة ؟ فوالله
لقد كانت تنق لي الفخ فأرى الرعونة في طراثة (٢) .

يقول الجاحظ ، (ومن مجازين الكوفة بدلولى ، وكان يتشبع ، فقال له إسحاق بن الصباح
أكر الله في الشبيعة منك . قال : بل أكر الله في العرجة مثلى ، وأكثر في الشبيعة
صملك) (٣)

كان بدلولى (جيدا لثقا كقربها مره من بلحب المحبته) به فيقده ، نحشاقفه خراي ،
وجلس على قارعة الطريق ، فكلما قده ، إنسان تركه حتى يجوز ، ثم يصيح به يافنى ، ثم
يدك ، فلم يمد يدهما أحد يقده (٤)

ومن ألوان الضعف الحقلى التي حقل بها أديبا لجاحظه ، وثالت قسطا وفيرا مسن
عنه وسخره ، ومقدلوا الأهواب والفصول في كته .

∴ ∴ ∴

الجهل والخفة

الجاهل ، والفا فل يسمران ضد قوانين الطبيعة ، لا يفرقان من أمرها شيئا ، ولا
يفرقان بين الضار والنافع ، وقد يفعل أحدهما الشيء ، يعتقد أنه خير من الآخر ، والحق
أنه شر صراح ، وقد يلقي الكلمة يرى أنه بها أستاذ الأساتذة ، فإذا هي برهان
سفة ، وضمان جهله ، وذلك ما يخرينا بالتكلم به ، وقد نمنا إلى السخرية منه ،
وكيف يملك الإنسان نفسه من الضحك والسخرية ، إذا جاهل غافل ، يعكس لا مسر
ويقلب الموازين ، ولا يسير مع تفكيراته ومبتممه ؟ فإذا بلغ الجهل والخفة الغاية
نظن أنه اللبى اللقن ، وأعتقد أن ما سواه من الناس تافهة عقولهم ، كليلثة أنفاسهم ،
واستخدم (طائفة الاخفاء) بطريقة معكوسة ، فإذا هو محتجب من نفسه ، ويمن لثافة

(٢) المصدر السابق : الجزء الثاني صفحة ٢٢١ .

(٣) نفس المصدر : صفحة ٢٢٠ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها ٢٢٠ .

الناس^(٥) لأن السخرية منه تبلغ ذراها ، وتتجاوز مداها ، وفتن فيها الإنسان ما شاء له افتتانه ، وإنه (الشخصية تكون مضحكة على قدر ما تجعل نفسها تما) (٥)

ولقد كان الجدل واللفظة موضوعا فسيحا للسخرية في أدب الجاحظ ، وبيدانا رحبنا للتكلم والاستهزاء ، والضحك والإضحاك ، وتبهيها إلى الأخطاء ، وحثا على إقامة المعجزة ، فلما عبت الجاحظ هؤلاء الجذلة الأعداء ، والخافلين الأغبياء ، وسخر منهم وما كان أكثرهم في مجتمعه - وأخذ من جهلهم وفلتهم ، وفرورهم وتكبرهم ، وسيلة لإلها بهم بسياط هزئه ، ولإذع سخريته ، فأحال اليك ضحكا ، وإلاكتساب نشاطا ومرحا ، يندى ويرشد ، ويقنع ويفهم ، أو يطفى لهيبا لقلب ، وهل الصدرة هؤلاء أحوالهم تدعو إلى المعجب ، وتدفع إلى السخر ، فمنهم من يعتقد أن (الفأرة من خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان) (٦) . ومنهم من يروى أن الأسد في سفينة نوح عطس عطسة غري من مخبره زبح سنانير فلذلك كان السنور أشبه شيء بالأسد ، ووسلح الفيل زبح خنازيره فلذلك كان الخنزير أشبه شيء بالفيل (٧) . فسخر الجاحظ من الأول بقوله : (فيل سمعت بحجة قط ، أو بهيمة ، أو بأضحوكه ، أو بكلام ظهر على تلقح حسرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال) (٦) . وسخر من الثاني بقوله : (فمنهض أن يكون ذلك السنور آدم السنانيره وتلك السنورة حواءها) (٧) ويقول بعد ذلك : (وهذا الحديث ناقص عند الموا ، ومنه بعض القصص) (٧)

ومن هؤلاء الجهلة الخافلين ، الذين عاصروا الجاحظ ، وتناوهم أدبه بالسخر ، من كان يفترض فروضا غريبة ، ويدعى الكيس ، والبصر بالمنطق ، فيقول (لو كنت لهرأنا ، وأنا ابن من أنا منه ، لكت أنا أنا ، وأنا ابن من أنا منه ، فكيف وأنا أنا ، وابن من أنا منه) (٨) . أو يحلل لرأية تحليليا يحمل الدليل على فساده هذا الرأي وبطلانه .

(٥) الضحك : هنري برجمون ، ترجمه سامي الدروبي ، بهت الله عبد الدائم صفحة ١٦

(٦) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠

(٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الخامس صفحة ٢٤٧ ، ٢٤٨

(٨) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٣١٥ ، ٣١٦

قال أبو عبيد بن القاسم ، بأى شيء تزعمون أن أبا علي السواري أفضل من سلام أبي
المنذر؟ قال ، لأنه لما مات سلام أبو المنذر ذهب أبو علي في جنازته ، فلما مات أبو
علي لم يذهب سلام في جنازته (١) . أو يخلط في الفاظه فيقول ، (ولدت في رأس الليل
لنصف من شهر رمضان ، أحسب الآن كيف شئت) (١٠) .

أويقول (تزوجت امرأة مخزومية من علي الجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة) (١٠)
قد تبلغ به الغفلة والجهالة إلى أن يكتب غير ما يسمع ويستعمل غير ما يكتبه ، وقرأ غير
ما يستعمل ، وعلى غير ما يقرأ بقول الجاحظ فيه واسم كيسان - واسم من أساء للأضداد
أثليت عليه يوماً ، عجبت لمشتر عدلوا بمحترها عمرو
فكتب أبا بشره وقرأ أبا حفص واستعمل أبا زيد (١١)

والجاحظ من وراء هؤلاء ، يتعقبنهم بسخرية ، ويرشدهم ، ويدين سوء ما لتهم يعبر
تلكم ، وهو في ذلك القائد الماهر ، والخبير العالم بطبائع النفوس ، وأن الجاهل
عص جميع ، وثائر شرور ، إن أخذ بالحنف والقدر ، طبع ذلول ، إن عولج باللين ، وطيب
بالموادة والرفق . والحنف والقدر صفات الرجاء ، واللين والرفق سمات السخرية
وقد كان الجاحظ بعيداً عن الرجاء ، بارعاً في السخرية ، يفتن فيها ، ويتخذها
أداة إصلاح ، وتقوم للجدلة الخائفين ، مراعيًا حالهم النفسية ، ضارياً على الورع الصالحين
في نفوسهم ، وعواطفهم ، فتصدر النخمة الشبهت على الخطأ في سلاسة وليونه ، لا تخرج ،

ولا تسيل الدماء .

وقد يكون
وقد يكون الماخر فطنا لبقاً ، يعرف الجهل والضياع ، كما يعرف الفطنة والذكاء ،
ويدهى مع ذلك عدم المعرفة ، فهتافاً للفتن ، ويجاري الجاهل الناقل ، ويوافق
على ما يقول ، ليصل منه إلى أقصى ما يريد . وقد يبدأ هو الحديث بخبره ويولده

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٢٤
(١٠) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ ص ١٥ وفي نهاية

الأصح ج ٤ ص ١٢ .

(١١) جمع الجواهر ، المصري ، صفحة ٣٦٦ زهر الآداب صفحة ٥٤ ط ١٩٥٢ .

ويدعيه ، ليري أثره في نفس الناقل ، وليفتح له بابا يلج به في توتردي في هلووية سحيقة
 أمثالهم ، وهو تاعمر بسخرة ، هاني ، يتوريطه ، وذلك مذهب الجاحظ الذي ينادي به ،
 ويدعو إليه في قوله : (إننا) أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم ، وفي أي طبقة هموه
 وأردت أن تدخله الكبر ، فتفتح عليه ، ليظهر لك فيه الصحة من الفساد ، فكن ما لما
 في صورة متعلم ، ثم أسأله سؤال من يطع في بلوغ حاجته منه ^(١٢) . وهو يطبق ذلك في
 قوله عز وجل : ألم تعلم أن الشاري حدث أن الخلوغ بحث إلى المؤمن بجراب
 فيه سم ، كما به يخبره أن عنده من الجنيد بحدك ذلك الحب ، وأن المؤمن بحث إليه
 بديك أمره ، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء ، كليم كما يلقط الديك الحب .
 قال : فإن هذا الحديث أناؤكته ، ولكن النظر كيف سار في الآفاق ^(١٣) وقوله ، قلت
 للمكي مرة ونحن في طريق بغداد) ، (ما بال الفرسخ يكون في هذا الطريق
 فرسخين ، والفرسخ يكون أقل من نصف فرسخ ، تفكر طويلا ، ثم قال : كان كسبري
 يقطع للذئب الفراسخ ، فإذا صانع صاحب القطيعة زاده ، كما وإن لم يصانع نقصوه ^(١٤) .
 وقد يكون هذا التفاؤل والتجاهل للثقة ، وسعرا ما يستكن في النفس جارة لمن معه ،
 ومدارة لهم ، حتى يبتعد عن أذاهم ، ويهرب من تهمهم ، وقواتهم . أو للسخرية من
 انقلاب موازينهم فكرها الصواب ، فدويجا زيم على نقص عقولهم بالتفاؤل ليستروا في قيم
 ولهجنتوا مرة جلداس . أو لتجسم الجهل والخفة وتداولها ليصروا مدى تهميها
 في فهمهم فهموا على محوها من أنفسهم .
 ومن أمثلة ذلك في أدب الجاحظ قول المعيطي :

(١٢) الحيوان الجاحظ تحقيق عبد السلام دارون الجزء السادس صفحة ١١

(١٣) للحيوان : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام دارون الجزء السادس ٢ صفحة ٢٢٧ .

(١٤) نفس المرجع والصفحة .

(وأنزلى طول النوى دار فرجة) إذا شئت لاقيت الذي لا أشا كله
فعلته حتى يقال سجة ولو كان ذا عقل لكتبت أعاقله (١٥)

(وقال آخر: تحامق مع الحق لدا ما لقيتهم ولا قهرم بالنون فعل أخى الجبل

ويخلط إذا لاقيت يوماً مخلطاً يخلط في قول صحيح وفي منزل

فإني رأيت المرء لم يشق بحقله كما كان قهر اليوم يسعد بالعقل (١٦)

وإن شئتني آخره وللدهر أيام تكن في لسانه كلبسته يوماً أبجد وأخلاقاً

وكن أليس الكيس إذا ما لقيتهم وإن كنت في الحق فكأن أنت أحقاً (١٧)

٢- الخرافات

والخرافات والأباطيل ، وإلقاء الشباك على الفريسة ، واللعب بحقول الناس وإعطياتهم
سهلة هينة ، ومختل المنة وخدامهم ، وبخاصة إذا كان المختول الخدوع يعتقد أنه
فوق أن يخدع ، ومجربة للضحك ، وأكبر داع للسخره والذي يقلب الأمور ويكس الأوضاع
فيعتقد صدق الخرافات ، ويؤمن بما يقوله المشعوذون ، ويخضع لهم تمام الخضوع ، أو
يقوم هو بالشعوذة فيصيد الحقول ، ويستخف بالألحاح ويتلاعب بالنفوس ، مصدر من مصادر
الأسخره وموضوع جيد من موضوعات ، يدعنا إلى الضحك والاستهزاء من باع ضميره
ودينه ليكسب المال من طريق يتناقى الخلق والدين ، والسخرية والتكلم من يقع تحت
سيطرته ويسير في ركابه ، وينقاد له انقياداً أعمى ، يلقي فيه عقله وشخصيته ، ويصبح لعبة
في يد المشعوذ الدجّال . . .

(١٥) البيان والتبيين : الجاحظ ، شرح هارون الجزء الثاني صفحة ٢٢٥ ، فوج ١ ص ٥ ٢٤
ج ٤ ص ٢١ .
(١٦) البيان والتبيين : الجاحظ ، شرح هارون الجزء الأول صفحة ٢٤٥
(١٧) الحيوان : الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٢٦

لم يحمل الجاهل هؤلاء في كتاباته ، فجعلهم مجال سخريته وإضحائه ، طمعا في أن يقتبه العامة والخاصة لهذا الضرر الماحق ، والشر المستطير ، وعلامة خطر لمن يقصون تحت تأثيرهم ، وراية حمراء في وجوه المخرفين ، إنذار ألهم بانكشاف أمرهم ، واقتضاح سرهم ، ليرتدعوا ويرجعوا ، فكانت السخرية في أدبه علاجا يعنى به ضحاف المقبول من ضحاف النفوس .

ولم يأخذ آراء العلماء المشهور لهم بالحق والفضل قضية مسلمة ، بل عارض كل ما خالف عقده وسخر منه حتى ولو كان لأكبر فلاسفة اليونان أرسطو . قال عنه : (قال صاحب اللطيق ، ويكنى بالبلدة التي تسمى باليونانية طباقون حية صغيرة ، شديدة اللذع إلا أن تعالج ^{بمخرج} من بعض قبور قدام الملوك . ولم أفهم هذا ، ولم كان كذلك) (١٧) وقال : (وقد زعم صاحب اللطيق أنه ظهرت حية لها رأسان ، فسألت أعرابيا عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق . فقلت له : من أي جهة الرأسين تسمى ؟ ومن أيهما تأكل وتعضي ؟ فقال فأما السمي فلا سمي ، ولكنها تسمى إلى ما جتدا بالثقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تعضي بقم وتتغذى بقم ، وأما العض فإنها تعض برأسها وما ، فإذا به أكذب البرية . وهذه الأجداد كذا مما يزيد في الرعب منها ، وفي تعويل أمرها) (١٨) .

وقال سائرا من بعض آراء علماء الطب في زمنه ، المشهور لهم بالحدق والفوق ، (أنها خالفت تفكيره ، وشذت عن عقله الحصيف ، وعن عقول عامة الناس ، (خيرني ثمانية من أمهر المؤمنين اللامون أنه قال ، قال لي بختيشون بن جبريل ، وسلمويه ، وابن ماسويه إن الله باب إذا ذلك به موضع ^{لغة الزبور} ~~لحفظ النبي~~ سكن . فلهنني زبور ، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة ، فما سكن إلا في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج ، فلم يبق في يدي منهم إلا أن يقولوا ، كان هذا الزبور حقا غائبا ، ولولا هذا العلاج

(١٧) الحيوان ١٠ الجاحظ ، الجزء الرابع ، صفحة ٧٦ .

(١٨) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الرابع ، ص ١٥٦ .

للتلك ، وكذلك هم إذا سقوا دواء فضره أو قطعوا عرقا فضره قالوا : أنت مع هذا
العلاج الصواب نجد ما نجد ، فلولا ذلك كنت الساحة في تاريخهم (١٩)

وإذا كانت هذه هناك من أشهر علماء الإغريق وفلاسفتهم ، وسقطات تروى فيهم
بعض حقائق عصره فكشفا بنير فكره وهاهنا بجرى قلمه في غير ما به ولا وجل ، فلا
غرو أن سخر من غيرهم ، وممكن ظهراة عما وهم ، ووضع تخريفهم ، حين قال بعضهم : إنني
قدبت بالقفر مع الفول ، وتزوجت السملا ، وجاوت الماتف ، ورقت من الجن إلى الجن
واصطدبت الشق ، وجاوت النساء ، وصحبت الرقى (٢٠)

وحين استغل المتطهرون في ضاياهم ضعف العقل ، فاتخذوا الحيل لا يترار أموالهم
جعلهم الجاحظ من موضوعات السخرية في أدبه ، وضحك منهم ، وأضحك الناس عليهم أهد
الدهر ، يقول : (كان واحد يسخر بالناس ويعدى أنه يرض من الضرب إذا ضرب على
صاحبه ، فكان إذا أتاه من يشتكي ضرره ، قال له إذا رقا ، وإياك أن تذكر إذا
صرت إلى فراشك القرد ، فإنك إن ذكرته بطلت الرقية ، فكان إذا أوى إلى فراشه أول شيء
يخطر على باله ذكر القرد ، وهبت على حاله من ذلك الوجع ، لينفذ إلى الذي رقا ،
فيقول له : كيف كنت البارحة ؟ فيقول : هت وجما . فيقول : لملك ذكرت السقره ؟
فيقول : نعم ، فيقول : من ثم لم تمتنع بالرقية) (٢١)

وكتبا لبيان والتبين ، والحيوان - وهما أشهر كتبه وأرفعها قيمة - مضمنا بالسخرية
من خرافات المعمرين وا لقصاصين والنسويين والمتدلقين والرواة ، والمدعين المباليغين

(١٩) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الخامس ص ٢٦٤ طارون ، ج ٥ ص ١١٠ طبعة

ص ٥٠

(٢٠) البخل ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٤٧ .

(٢١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام طارون الجزء الرابع صفحة ٦٥ .

والأذكياء لابن الجوزي ص ١٢٦ .

ومن العلماء الذين يروون الأخبار لا يمحونها ، ومن يستمعون إليهم ، يأخذون
بأقوالهم ، محتدين على تقدمهم وسابقتهم .

وللجأ حظ في ذلك اليد الطولى ، يدها لينتشل من يدوى من أفراد أمته .

ويرفعها في وجه من أوشك على السقوط محذرا من ذرا .

و^{وخفضها} يخفضها بالسخرية إلى الداوية على يرى فداحة ما هو فيه ، وما صر إليه ، فيقلع

ويرتدع .

ويرسى بها الخط المستقيم الذى يمتد به أبناء أمته فلا يميدون ولا يصيدون .

∴

∴

∴

الفصل الرابع

الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية

عاشه الخامل ^{في} ^{تتم} ^{فلم} ^{تحت} ^{عنته} ^{الثابتة} ^{ما} ^{يدور} ^{فيه} ، ^و ^{خاصة} ^{بورا} ^{ما} ^{يحاول}
 أن يستره ويخفيه ، فوقفت على أسراره ، وأدركت مراميه ، رأيت نقائصه وعيوبه ، كما رأيت
 أفضاله وحسناته ، عرفت مكان ضعفه وهزاله ، كما عرفت مواطن قوته وسعفه ، فقد خبر
 مجتمعهم ووعاه ، وعاشراً حدائمه وشارك فيها ، وعاشراً رجاله قرابة قرن من الزمان ،
 استطاع فيه بتخطيطه ، وبعشق تجربته ، وطول معاشرته ، وفزير إنتاجه ، أن يلفت جيد
 الزمن إلى ما تركه من تراث حضاري ، وما دة أديبه ثرة ، ^و ^{ينقد} ^{مفحم} ^{لادع} ، سلطه
 على كل نواحي الضعف والقصور في عصره وسخر مره وجهه إلى النقائص المتراكمة نفس
 تصرفات جيله ، فشم الحياة كلها : اجتماعيا وسيلسيا وثقافيا ودينيا ، وفضن موضوعات
 الضعف كيف كانت ، حتى لم يسلم من سخره تصرف أحق ، أو وضع قريب ، أو هيئة شاذة
 وسخره من الأوضاع الاجتماعية ، لأنه شاهدها ، ولمسها عن قرب ، وتمققها ،
 فرأى ما فيها من تناقض ، ومذ كان فقيرا يبيع الخبزوا لسك بسبحان إلى أن صار صاحب
 مشاهرات ، ووضحة لا تحتاج إلى تجديد ولا تمديد ، ومنذ كان صبيا ، إلى أن أصيب
 بالفالج والنقرس ، وبالعضاة التي لا ينسج معها بوله في أخريات حياته ،
 وتوكله بالأوضاع السياسية ، لأنه رأى من كب القتل والتكيل ، والأخذ بالظنسة
 والسجن بالشبهة ، والتكالب على الوظائف ، والتصارع على المناصب ، فقد خالط القضا
 والحكام ، وجالس الوزراء والخلفاء ، وكان صاحب حظوة لديهم ، ومنزلة سنية نفسى
 قلوبهم .

وهزوه من الأوضاع الثقافية ، لأنه رأى الجهد في سعت العلم ، والفتاهمة
 في ثياب الفصاحة ، منذ نشأته في الكتاب إلى وقوع أجلاوا لكتب عليه .

وفقرة الأوضاع الدينية ، منذ عرف استأذنه النظام إلى أن صار زعيما لطائفة الجاحظية
 المعتزلية ، إذ رأى الفرق المتعددة إسلامية وغير إسلامية ، كل يجادل غيره ، ويتهمه
 بالزندقة والإلحاد ، والعمى عن الدين ، ويختار له مكانا في الجحيم ، ويدعى لنفسه الصلاح
 ويضرب في أعلى عليين .

∴

∴

∴

لقد انقسم المجتمع إلى أغنياء لا تحصن ثروا تهم ، وفقراء لا يجدون ما يقيم أولادهم ،
 واستعمل الأغنياء أموالهم في شربها وتم ولادهم ، أو تبايعوا في البخل بها ، وجعلوها
 صدق أنفسهم ، وهم في الحالين يتخذونها أساس مجدهم ، وهوان شرفهم ، وشرطيسا
 يخضع الناس لهم ، تحفلوا بها ، ولم يهتموا بها سواها ، وارتكبوا كل منكر وهم في مأمن من
 مخالفته مادامت لهم الأموال التي تحميمهم ، وتصده عنهم ، وهابوا الفقير أن يوجه إليهم لوما

أو عتابا ، وأن يفضل الخنى في صحة أوقوه ، أو يتمتع بحماسة فقدما بهمض الأغنياء . ومن
 سخريات الجاحظ في ذلك قوله ^{وتقع} (^{وتقع} بين أبلين كلامه ، فأسمع أحدهما صاحبه كلاما
 غليظا ، فرد عليه مثل كلامه ، فرأيتهم قد أنكروا ذلك إنكارا شديدا ، ولم أر لذلك
 سهوا . فقلت : لم أنكرتم أن يقول مثل ما قال ؟ قالوا : لأنه أكثر منه مالا ، وإذا جوزنا
 هذا له ، جوزنا لفقرائنا أن يكافئوا أغنياءنا ، ففي هذا الفساد كله إقرار جدهان بن
 صباح ، كيف صار رباح يسمنى ولا أسمعه ؟ ، فذهبوا أكثر منى مالا ، وسكت) (١)

ورسيلة للخنى الفاحش كشر السرف والبهذخ ، والإنفاق في غير الوجه المشروعة ، وتحكم
 الموى في الأثرياء ، فشاع فيهم اللدوا والرقص والخلاعة والمجون ، ورجال الأئس
 والشراب ، وافتتوا في الصيد ، وانفقوا كلابه ، واختاروا صفوه وزاته ، وقضوا في ذلك
 معظم أوقاتهم ، وانتشرت تجارة الرقيق ، وشاعت ، حتى أنه كان في بغداد شارع يسمى

(١) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح السوامى والجبالي الجزء الثاني صفحة ٤٨

شأن الرقيق هـ واقتوا الجوارى والقيان هـ حتى ألف الجاحظ رسالة في القيان هـ واتخذوا
 الخصيان الخدمتين هـ والقيام بشئونهم هـ وكانت الجوارى والمحظيات يتألقن في ثيابهن
 ويتشبهن بالغلطان في قص الشعر وتفصيل الثياب هـ وقد صرف في الأدب العربي باسم
 "الغلاميات" كما ^{استشر} اشتد الغلمان الذين كانوا يتشبهون بالنساء في اتخاذ وسائل
 المنهية والمطروقة هـ ولبسوا لحلل العزكمة المشاة هـ ويمضون في التزين والتجمل هـ
 والتعطر والادهان هـ وتحاطوا الخمر سرا وعلانية هـ حتى أن بعض الخلفاء كان يذمونه هـ
 وأعمل الجاحظ سيف نقده في هذه الأوضاع التي نبتت عن الذوق فصائبا هـ يقول هـ ^{هذا}
 ما نزل شبيب بن زياد على شرب النبيذ فقال هـ لا أتركه حتى يكون شرعيا هـ وقال
 السامون هـ اشربه ما استبشمته هـ فإذا سهل عليك فاتركه (٢) (وقيل الآخرة إنك لحسن
 السنة هـ قال هـ أكل لباب البر هـ وصفار المحزه وأدنه من لحام المنفج هـ وألبس
 الكتان) (٣) (وقد يطلق البخيل على نفسه من العن هـ ويلزمها من الكلف هـ ويتخذ من
 الجوارى والخدم هـ ومن الدواب والحشم هـ ومن الأنية المحببة هـ ومن البزة الفاخرة هـ والشارة
 الحسنة هـ ما يربى على نفقة السخى المشرى هـ ويضعف على جود الجواد الكريم هـ فيذهب
 ماله وهو مذموم هـ ويتخير حائله وهو ملوم هـ وربط غلب عليه حب القيان هـ واشتد بالخصيان
 وربما أفرط في حب الصيد هـ واستولى عليه حب المراكب) (٤) هـ

ويقول في رسالته (في الرد على التصاري) هـ (وما يدل على غلة رحمتهم وفساد قلوبهم
 أنهم أصحاب الخصال هـ من بين جميع الأمم هـ والخصاء أشد العلة هـ وأعظم ماركه إنسان
 ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم هـ ولا دفع عندهم) (٥) هـ

(٢) البيان والتبيين هـ الجاحظ هـ تحقيق عبد السلام هـ الجزء الثاني صفحة ٨٢

(٣) كتاب البخل هـ الجاحظ هـ شرح الصوامري والجار هـ الجزء الثاني صفحة ١٢٢

(٤) البخل هـ الجاحظ هـ تحقيق طه الحاجري صفحة ١٥٤

(٥) ثلاث رسائل هـ الجاحظ هـ يوشع فنكل هـ المطبعة السلفية صفحة ٢١

ونتيجة للفقر المتقع ، والنفلة والخبا ، ظهرت طبقات من المكبرين والشطاره والطفيليين
 والمخرفين ، والنشاشين المدلسين ، سلاحهم الخداع لا يتراز الأموال ، والتمويه
 والتلبيس لاستدراك الرزق ، يأخذونه دون كد ، ويحصلون عليه بإراقته الرجح ، والجاحظ
 من روائهم ، يتابع سخرياته ، ويرهبهم بنقده واستزاجه ، ويفضحهم على الملأ فيقول عن
 المكدين ، (قالوا ، وإنك لتعرف المكدين ؟ قال ، وكيف لا أعرفهم ، ألم يبق في الأرض
 مخرطاني ولا مستعرض الأثنية ، ولا شحاذ ، ولا كفاشي ، ولا بانوان ، ولا قريين ، ولا عوا
 ولا شغب ، ولا منهدى ، ولا أسطيل إلا وقد كان تحت يدي) (٦) . ويقول في النشاشين
 الغزفين ، (ثم لا يدع منقا ولا مكمل ولا زائفا ، ولا يؤينا را يهرجا إلا دسه فيه ، ودلسه
 عليه ، واحتال بكل حيلة ، وتأتى له بكل سبب) (٧) .



أما الأوضاع السياسية ، فقد شارك فيها الجاحظ مشاركة فعالة ، فكتبه : السياسة
 والمشائبة ، وشاقبا لتركها مة جند الخلافة ، ووجوب الإمامة ، والعرب والمجسم
 والرسائل لها شيات ، تيرمن على إسماه في الحياة السياسية ، وهو كما جبل عليه
 يتقد منها الأوضاع الغربية ، والأحداث العجيبة ، التي شارك فيها ، ومن أشهر هذه
 المحررات تنورا ابن الزيات ، فقد كان الجاحظ معها لابن الزيات الوزير وضحرفا عن ابن
 أبي داود القاضي الذي استطاع أن يستعمل الخليفة المتوكل إليه . وكان عدوا للمعتزلة
 والحرية الفكرية . فأسقط ابن الزيات ، وقتك به ، وكان ابن الزيات قد أعد تنورا به
 صامير بالداخل ، يعذب به ، ويحرق المخالفين والمصاة ، فكان جزاءه أن عذب به
 لقبض المتوكل عليه ، فهرب الجاحظ (فقيل له ، ألم هربت ؟ فقال ، خفت أن أكون فاني
 اثنين إذ هما في التنور) (٨) ولكنهم جاءوا به ، فغظروا له ابن داود ، وقال ،

(٦) كتاب الخلا ، الجاحظ ، سن العوامري والجارم الجزء الاول صفحة ٨٦

(٧) الخلا ، الجاحظ ، تحقيق د. الحاجري صفحة ٨٥

(٨) صبح الأدباء ، ياقوت صفحة ٧٩ الجزء ١٦ .

(والله ما علمتكم إلا متأسياً للنعمة ، وكفراً للنعمة ، معدلاً للمساوى ، وما فتى باستصلاح
لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ، وداً من خيلتك ، ونسواً اختيارك ، وتغالب
طبعك ، فقال له الجاحظ ، خفض عليك أيديك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير
من أن يكون لي عليه ، ولأن أسى ، وتحسن ، أحسن عندك من أن أحسن نفسي ، وأن
تضعوني حال قدرتك أجل من الانتقام مني) (٨) .

ويذاع من السلطان ، ويسخر من هؤلاء الذين يتقون له بالمرصاد ، ويتأولون أعماله
وأقواله ، ويصحبون حكمه ، ويسخطون على أيامه وعصره . يقول : (السلطان لا يخلو من
مأول قائم ، ومن محكم عليه ما خطه ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح ،
ومن مصعب برأيه ، ذي خطل في بيانه ، مولع بتدجين الصواب ، والاعتراض على التدبير ،
حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لشئان الملكة يضع نفسه في موضع الرقبا ، وفي موضع
التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يحدرون كان مجاز العذر واضعاً ، ولا يقسّم
فيه يكون للشئ محتملاً) (٩) .

∴

∴

∴

والأوضاع الثقافية التي سادت في هذا العصر كانت في كثير من أشكالها لا تعجب الجاحظ
ولا تلائم ثقافته ، فسخر مما لم يسنه عقله ، وولع بما جاف منطقته وفكره ، وحطم أصنام المسلم
وأفزلهم من رفيع مروءتهم ، حين كشف عيوبهم ، وبين خطل رأيهم .
رأى من المعلمين : من يعلم الصبيان القرآن والصلوات ، الضناء ، ومن يحب من لم
يرها ، ولا يعرف أوصافها ، ولا شيئا عنها ، أكثر من كتبها "أم عمرو" ويظهر فرحاً بهذا
الحب ، ثم ينتز ويصوت كمداً لسماعة خير موتها (١٠) ، ومن ينهج نهج الكلاب ليتجذب تليماً
اختفى منه ، وكان يعرف مقدار حبه لكلبه (١١) ، ومن يجلس وحده في الكتاب وقد هرب

[٩] رسائل الجاحظ ، ١ الجاحظ ، ص ٢ ، طبعة دار النهضة ، بيروت ، ومجموعة رسائل :

١ الجاحظ ، ص ٢ ، طبعة التقدم ، طبعة ما من .

(١٠) المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبيشي ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٢ .

وفي ثمرات الأوراق ، ابن حجة الحموي ، الجزء الأول ، صفحة ١٨٠ .

(١١) المستظرف في كل فن مستظرف ، الأبيشي ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٢ .

السيدان من يتصارون ولربهم من بطشهم خاف إرجاعهم إليه (١٢).

ورأى الكتاب في تافه على نيل المناصب ، وتضاع لتولي ديوان الإنشاء ، وتماقت
 في تدبير المكائد لبنى ممنتهم ، وهم مع ذلك (في الذروة القصوى من الصلف ، والسنام
 الأعلى من البذخ ، وفي البحر الطامس من التيه والسرف ، يتوهم الواحد منهم أنه
 إذا مرض جبهته ، وطول ذنبه ، وقصر على خذاه صدغه ، وتحذف الشاهرتين على وجهه ، أنه
 الشين ليس المتابع ، والمليك فوق العالك ، ثم الناس فيهم إذا وطئ مقعد الرئاسة
 وتترك مشورة الخلافة ، وحجرت السلة دونه ، وصارت الدروة أمانه ، وحفظ من الكلام
 فتيقظه ومن العلم طمعه . . . أنه الفارق الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالشارع
 - ليكون أول بدوه المظعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضة (١٣) . (وحلس
 الجاحظ يروا في بعض الأدوار في فتايل الكتاب ، فقال : خلق حلوة ، وشما تمل مشوقة
 وتظرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فإن أقيمت عليهم الإخلاص ، وحدتهم كالزبد
 يذهب جفاء ، وكتبه يحرقها الريح من الرياح ، لا يستندون من العلم إلى وثيقة ،
 ولا يدعون بحقيقة (١٤) . وطاب كواصيتهم بعضهم ، وسهرهم بالوقومة وتغيبهم زوال
 الصفة عن أبناء ممنتهم . يقول لدم (١٥) : (لكنكم أولاد حلات وضرائر أمهات ليس
 مداوة بضمك محضا ، وحقق بضمك على بعض) وصورتها غيظهم بقوله : (هم كالدميق
 من الكلاب في مرايحتها) يهربها أصناف الناس فلا تتحرك ، وإن مر بها كلب مثلها
 نضت إليه بأجسدها حتى تقتله (١٦) .

(١٢) المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبيشيبي الجزء الأول صفحة ١٤٢

(١٣) ثلاث رسائل ، الجاحظ ط ٢ يوشح فنكل صفحة ٤٢ . رسائل الجاحظ حارون ١٩٢

(١٤) ثلاث رسائل ، الجاحظ طهمة ثانية يوشح فنكل صفحة ٤٥ رسائل الجاحظ حارون

١٩٩ / ١ مكتبة الخانجي .

(١٥) ثلاث رسائل ، الجاحظ طهمة ثانية يوشح فنكل صفحة ٤٢ رسائل الجاحظ حارون ١٩٢

مكتبة الخانجي .

(١٦) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشح فنكل من ٤٦ الطهمة الثانية .

وكان (تم ذكره من قبل) كتبهم غيرهم من العلماء وغيرهم

إلى يرى الاسم المشهور، صار فيه النظر عما في الكتاب من نقص وملتصين له لعل
والعمانديره كما كانوا يمتنون بكتب غيرهم فيصيرون فيها ويبدلون . يقول الجاحظ
(كنت أولفا لكذابا لكثرة العمانى ، الحسن النظم ، وأتسبهاى نفسى فلا أرى الأسع
نفسى اليه ، ولا الإرادات تقيم نحره ، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة ، وأنحله
مهدي الله بن المقفع ، أو سدل بن حارون ، أو غيرهما من المتقدمين ، من عارت أساطيرهم
في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويشارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لتسببها
للمتقدمين ، ولما بداخل أهل حذو المصر من حسد من هم في عصرهم) (١٧).

وقد كان كثير من أهله مصره وعلمائه يمدونه على ما آتاه الله من فضله وقد (صنف
كتابا عن كتبه ، ورويه ، ورويه في الناس ، فأخذه بعض أهل مصره ، فخذف منه أشياء ،
وجعله أظلم ، فأحضره ، وقال له ، يا هذا إن المصنف كالمصور ، وإنى قد صورت نفسى
تصنيفى صورة كانت لها عينان فحرتنهما أعى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلتتوها
صلم الله أذنك ، وكان لها يداں ففقطعتنهما ، قطع الله يدك . حتى عد أعضاء الصورة) (١٨)
.. ..

وكانت الأوضاع الدينية - في كثير من حالاتها - خارجة عن التقاريف ، بعيدة عن
المتألف ، فقد تعددت المذاهب والنحل ، وانقسم علماء الكلام شيئا وأحزابا ، وكثرت
الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية ، وتضاربت آراؤهم ، وكثر بعضهم بعضا ، وشاعت الزندقة
والإباحية ، وادعى البعض الإصلاح والفقهاء ، وتعاملوا بالرها ، وأتوا الذكران ، وتمشقوا
الفلان ، وأفتروا القيان وغير القيان ، واستجلوا الحرام ، وأباحوا المنوع ، وكانت
هذه الأوضاع تلقى من الجاحظ نفورا ومماضة ، ودعوة إلى التقوم والتهديب ، عن طريق

(١٧) مجموعة رسائل الجاحظ ، رسالة فضل ما بين الدنيا والآخرة والحمد : ص ١٠٨-١٠٩ .
(١٨) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ص ٤٦٥ .

النبي عليهم وآلهم من غير مناسبة . فمن سخره من عادة إتيان الفلجان قوله : قال قاسم
التار (قالتوى) لى هرق حين قدمت منها مقعد الرجل من الغلام . . . وقال فى غلام
له روى ، ما وضعت بينى وبين الأرض طيب منه (١٩) . كما سخر من بعضهم لتركه الصلاة
بقوله من قاسم ، (وأقبل على أصحابه وهم يبشرون النبذة وذلك بعد المصرب ساعة فقال
لبعضهم : قم صل فانتك الصلاة ثم أسك عنه ساعة ، ثم قال لآخر : قم صل ويك فقد
ذهب الوقت) فلما أكثر عليهم فى ذلك وهو جالس لا يقوم صلى ، قال له واحد منهم :
فأنت لم لا تصل . فأقبل عليه ، فقال : ليس والله تصرفون أصلى فى هذا ؟ قلت : وأى
شئ أصلك ؟ قال : لا تصل لأن هذه العترة قد جاءت (٢٠) .

وقد كانت الحالة العينية فى ذلك الوقت تدعو إلى القلق ، فقد تباين كثير من الناس
فى أمر الدين وأكلوا الودائع وأموال اليتامى ، يقول الجاحظ فى ذلك ساخراً : (قد كنت
أعجب من بعض السفن حيث قلل ما أعرف شيئاً ما كان الناس عليه إلا الأذان . . . وأنا
أقول ذلك . . . ولو كانوا إذا جلسوا فى الخيوش ، واتخذوا الجمادات فى الديرة ، وأقاموا
وظائف التلج والريخان واتخذوا القبان والخصيان ، استرد الناس وهتهم ، واسترجعت
القضاة أموال اليتامى والحشرية منهم ، لما دوا إلى دينهم وميئتهم واقتصادهم) (٢١) .

وأصح ساكن الدار من إلى جيرانه ، وخذع غلام صاحب الدار ، وفسد جاريته عليه
يقول الجاحظ ، (فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها ، وربما أحبلها ، وإن كان
غلاماً خدعه ، وربما شطره ، وهذا مع التشرف على الجيران ، والتعرض للجارات ، ومع
اصطحاب طهورهم ، وتمريضنا لشكايتهم ، وربما استضعف عقولهم ، وطمع فى فسادهم

(١٩) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ صفحة ١٢ .

(٢٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ صفحة ١٢ .

(٢١) البهلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٢٠٥ .

السخرية اللون متعددة وطرق متنوعة وملك لحن تأثر محدود وملك طريقة لرفع صحن
بل إن لكل سخرية أثرها الخاص في نفوس السامعين و في نفس السخرية لا يوجد في
سواها ولا يؤدي غيرها مؤداها .

وتوقف معنى السخرية و مقدار تأثرها في النفوس على السخرية والسخرية والحضور
والموقف العام والموقف الخاص والأسلوب الذي تقال به والعبارة التي لها تقنى كما أن
للزبان والمكن دخلا كبيرا . وعلى الساخر أن يراعى كل هذه المكونات ويوازن بينها
ويحفظ التماسك بينها والتفاعل بين عناصرها حتى يحقق السخرية التفوق فتؤدي
الغرض وتصيب الهدف . وتلك كلها خطوط عرضية يلتزمها الساخر فلا يجهل منها
ولا يخرج من إطارها .

واللون السخرية و جواتها الفنية ، أكثر من أن يحددها حد أو يحيط بها حد ، لأنها
فن لا يخضع للقيود والرسم والحدود - شأن كل فن - والساخر فنان ينتقل من واقع
إلى واقع ويقدم الشاردة ويصيد النائرة ، وينوع في سخرياته ويبدع فيها ما شاء له
ابتداعه ويبتكر أنماطا جديدة ، ويؤكث منها أشكالاً وصوراً أو يلقف القديم
فيغير حاله ويحول ملامحه ويصهقه بصيغه ويحيد صدره وصبه في قوالب جديدة ،
تعمل إليها الأذهان وتتشط لملامها الأذان كأنها من قبل ما وهته وما سمعه .

ولقد كان أبو عثمان الجاحظ أول من اتخذ من السخرية فناً أدبياً و بنه في جميع
مؤلفاته وطرقته التي ابتدعها وهي خلط الجذ بالذل و مزج النصيحة بالفكاهة
والتزجج من ثقل الدرر بالأحماض و تشييطاً للقارىء و إيمتاعاً لروحه و تثقيفاً لذنه ،
فقد كانت السخرية عنده من وسائل التعليم والتثقيف والتبهيح إلى الخطأ والعيوب و
لمتجنبها من وقع فيها و يحرف أضرارها من لم يقع و نهى و يحاذر .

وما علم الجاحظ قد اتخذ السخرية فنا يقصد بها لتأليف والتدوين في كتاب أو رسالة
فمن حقها عليه أن يحذرها مستلزما لها ، ويوفر لها أدواتها ، ويهيئ لها أسباب نجاحها
وتفوقها ، من معرفة بأحوال الناس ودخائلهم ، وآمالهم وآلامهم ، ويقف على متطلبات
حياتهم ، ويدرس طباع النفس الإنسانية ونوازعها ، وهاداتها وتقاليدها ، وأسباب فرحها
وانتمائها ، أو ضيقها وانقباضها ، ثم يتخذ العبارة الموجزة ، والأسلوب السلس ،
واللفظ الخفيف ، ويعتمد على اللحمة واللينة ، والإشارة والكناية ، ويصب عمله في قالب
من التصريح والتلويح ، لتحقيق السخرية ما أراد منها ، وتجنس نمراتها طيبة شبيهة
وتوجه على موائد الأدب ناضجة ساخنة ، فتعطي نكهتها المحببة المنعشة ، رغم لدغها
وحراريتها ، وتفتح لها النفوس والعقول ، فتشط وتتدفق ، كما تختار التوابل اللاذقة ،
وتنقى الأجزاء الحريفة ، لتضاف إلى الموائد ، فتفتح لها الشهية ، وتشط المعدة ، وتتدفق
الأمعاء .

والجاحظ - إمام هذا الفن - قد راعى كل ذلك وحققه ، ونشره في كتبه ، ونشره في
رسائله ، فشر به واقتمت غاربه ، وانفرد بإمامته ، وصار علما على هذا اللون من الأدب
حتى لتكاد تنسب إليه كل سخرية بارعة ، ويرجع إليه كل تمكيم مرير ، ويوازن به كل كاتب
ساخر ، وتعقد بينه وبين غيره المقارنات ، فيشهدون به فولتير الذي يعد في مقدمة المتحمكين
الساخرين من المجتمع الذي عاينته ، فقد صاب لاذع تهكمه على رجال الدين ، ونظم
الحكم بصفة خاصة وسجل ذلك في كتبه الحديثة ، ومسرحياته الخالدة .

{ فولتير لا يهزأ بتماليم الدين ، ولا يستخف بنظم الحكم فحسب ، بل إنه يشفق
على هؤلاء الناس الذين خدعهم رجال الدين بخرافاتهم وأكاذيبهم ، ثم أولئك الذين
غرر بهم رجال السياسة بمسؤول كلامهم ، فهو يدعو الإنسان للتحرر من سلطان رجال
الدين ، كما يدعو للثورة على رجال الحكم لا بالسلاح ، بل بالسخرية بهؤلاء وأولئك
فا لقرئ في ما انتخبني من كتابه (كانديد) ارتسمت على وجهه ابتسامة اشفاق ، وأوانطقت

وإحساس

منه ضد كسفة تكلم ، هي مزج من الاعتداد بالنفس ، وإحساسها بتفاهة الخير^(١) .

ألم يكن الجاحظ كذلك ، ساخرا بما ليجتمع الإنساني فيعيب أعما له وتصرفاته ، وينمى عليه جهله ونماده ، ونظم الحكم فيه ، وقد سجل سخرياته من مجتمعه في كتبه ، ومن أشهرها ، البخل ، والحيوان ، والبيان والتبيين وفي رسائله وقد خص بذلك رسالة يسخر

فيها من أحمد بن عبد الوهاب ، كما أنه عاب الكثير من رجال الدين في تفكيرهم وأقوالهم وأفعالهم^(٢) . لا يسخرية من الدين وإنما استهزاء ببعض رجاله الذين يلغون عقولهم

وحاربهم لا بالسلاح الحديث الذي يسيل الدماء ، وإنما بالسخرية المازجة التي ترقق الثرارة ، وهو لم يهزأ من صحيح الأحاديث ، وإنما من بعض تفسيرات وتأويلات لا يقرها

عقل ، ولا يسيئها ذوق ، فضلا عن عقل عالم فودق أديب ، اشتغل بالتحقيق والتصحيح قرنا من الزمان ، (وما يتكلم أحد في أن الجاحظ إمام الأدباء في مني الحقائق

الجانفة بالفكاهة ، والعراوطة بين الجد والمستم ، والضحك العوس ، والانتقال من برهان

مقع إلى تكلم موجه ، وسخرية لاذعة)^(٣) في براعة وحسن ثبات ، وبراعة كالمعال القاري ، والسامع ، فإن بدا عليه الكلال من طول الجهد أسفه بنا ذرة ما خرة يكون فيها نشاطه

وزهاب سأمه ، وإن اشتط في تقديراته وتصوراته ، وسار في تيار ادعائه ، عاجله بسخرية

تصره قدره ، وتثيب إليه رشده ، وتوقفه عند حده ، فتكون أداة تهذيب وإصلاح ، ومع

(١) سيكلوجية الضحك ، أحمد عطية الله ص ١٢٨ الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية أكتوبر سنة ١٩٦٤

(٢) كلامه من سفينة نوح وسنانيرها وفترانها والحجر الأسود .
(٣) الجاحظ ، أحمد الحوفي ص ١٠٠

احتفاظها بالآفة واستمرار المصداقة والعشرة .

وقد أبدع في سخرياته ، وأتقنها ، وأن ملها بالعجب الحجاب ، ولونها بالوان
ثقلته ، وطهيمته بيته نوعا ثدا منه ، واتخذ من محاصره نتائج أدار عليها حوار ، وجعلها
هدانا لفكاهته ، وهدانا لسخريته ، ورسم لها الظلال والألوان ، وقد خطوطها ، وتلاعب

بأشكالها ، ونقض عند سبها ، وهدم بناءها ، فمادت مسخا مشوها يثير الضحك ، ويدفع
إلى السخره وهذا ما نمبر عنه حديثا (بالصورة الكاريكاتورية) ، وهذا اللون (الكاريكاتيري)

السخره يعتمد على التصوير لا على اللفظ وعلى التجسيم والتشخيص والمقارنة لا السب والشتم

والمباشرة ، وأنه يعتمد كثيرا عن السخره الأخرى من الهجاء الذي يتضمن أنواعا فاحشة

من الاتهامات والقذف كما يعتمد أيضا عن الهجاء الشعبي الذي يشبه (الرياح) (٤)

وسخرياته مستمدة من الحياة الواقعية يتم فيها تمثيل الأشكال الظاهرة ، وتصوير

الحياتيات والناظر والحركات ، وهو موجه ذلك يفضي داخل النفس البشرية ، بدلها ، ويحرق
أحاسيسها وانفعالاتها ، وطباها وانطباعها ، وأخلاقها وسلوكها ، ويقف على مواطن
السخره ، ويوعث الاضحاك ، ويجعل ذلك كله مدد السخرية ، وأصباغا لتكماته ، فتأتي
سخرية حافلة بكل المضحكات ، مليئة بما يحسن التذمك به ويرديه .

وقد اتخذ لسخرية الجوانب الفنية التي تحقق لها النجاح ، وتوافر فيه العوامل

التي هي : لها السبق والارتقاء ، فقد كان مرحا وخفيف الروح ، مستخفا بالحياة ، هازئا

بأزائها ، لها حاسمها ، بارعا في التصوير ، قويا في التعبير ، متلذذاً بالأسلوب

عليها ، بالشماعات الألفاظ ، خيرا بطلائع النفوس ملها بمعارف عصره ، ساهرا غير مجتمعه

كاعفا داخل معاصره ، بصورا بما يختلج في نفوسهم ، ويحاولون ستره ، والظلم

(٤) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، محمد مصطفى هداره صفحة

على خلافه ، نقادة ، بين الأمور بميزانها الصحيح ، فيلذع من يطفئ الكيل ، أو يخسر
الميزان ، ويرويه بسلام سخريته ليرتدع ويرعى (٥).

والذين يتحدثون عن الفكاهة والسخرية أو النادرة في أدبنا العربي بمائة وعند
الجاحظ بمائة ، ويحملونها مجالا لمحدثهم ، وسجورا لأحاديتهم وقد يقسمونها حسب
هسته من سخرون منه ، فيجملون بابا للسخرية من الفقهاء وآخر للسخرية من المحلمين
أوالدجالين أو المتطهين ...

أو يقسمونها حسب الموضوع الذي منه سخرون ، أو الصيب الخلقى الذي يديره الحديث
عليه كالتفلة والبلاهة والتطفل والبخل والادعاء فيضمون كل نمط من هذه الأنماط في مجموعة

خاصة تحت عنوان من تلك العناوين ...

وقد يكون هذا الضم وذلك الجمع بحسب الصيغ الجملية ، فهذه سخريات من الصبيان ،
وتلك من العور ...

وقد يضمون لكل سخرية عنوانا ، يستتبطونه من داخلها ، دون أن ينظموها المتشابه منها
في صنف واحد ، فهذه سخرية تحت عنوان ، الشبوبة وتلك تحت عنوان ، أكلة منعت أكلات
ولكنى يروقنى أن أقسم أنواعها ، وأعداد ألوانها ، بحسب الناحية الفنية ، التي من
أجلها كانت سخرية ، وأضح لها العناوين بحسب الأداة التي يستعملها السخرة ، فتلشر
في السامع الضحك والطرب ، وفي المتكلم به الانقباض والغضب والتعسب بحسب أصولها
ومواضعها وشبوات الضحك فيها ، وأتم بدراسة تحليلية تكشف مصادرها ومضامينها
وبرامجها ، ووجه الإبداع فيها ، وأرجو أن أحقق ما أجهت من ذلك في الفصول الستة
القادمة إن شاء الله .

(٥) أوضحت ذلك في الرسالة في الفصل الثالث من الباب الأول ، وانتمها ومناصبها

الفصل الأول

التصوير اليزلس "الكاريكاتور"

وهو من ألوان الفن من فنون السخرية ، ويمتد على الألوان والأشكال ،
والأضواء والظلال ، والتشبيه والتشثيل ، ورسم الصورة المبالغ في حجمها ، أو الحركة مع غير
إفهام المستعمرة أعضاء ليست من جنسها ، فيقف الساخر عند جانب من جوانب
التعريف بجمد شخص أو تفكيره أو سلوكه ، فيبرزه إبرازا يلفت النظر إليه عما عداه مسن
للإلمام والسماحة ، وضحه (كأنما يريد أن ينس الضحك والضحك الذي يمكن فيه إلمام
أقراء ، فراء ، ينتدز فرصة مثل تفرس حاجب ، أو انحناؤ أنف أو تجميد جبهة ، أو
انتفاخ خد ، أو طول ذقن ، أو ضيق عين ، ويكرر ذلك مشوها ، مستغلا للطبيعة والخلق^(٦)
ليرز الحركة التي قد لا تدرك ، ويملط عليها الأضواء الكاشفة ، فيجعلها واضحة بارزة أمام
العين ، كما لديهم أن يشاهدوها ، وتشدهم نحوها ليسخروا منها ، مع حرمان السخرية على
سترها وإخفائها عن الناس حتى لا يسيروا ، وهذا ما يضاعف السخرية ، ويزيدها قوة وإلمام
ودقة وإحكام ، حين ينكشف القناع ، وتهدد السموات ، وتمتلك الأستار ، وبذلك تصيح الصورة
السخرية قوية التصير من صاحبها ، لأن المصور فاعل وراء الحائلي الخفية فالتقطها ، وركز
على الجوانب الدابة فأبرزها وصوت بها ، وغير نسبها وفي الوقت نفسه تصيح مقارا للضحك ،
وبجالات السخرية لها بداني شخصية السخرية من تنافر واضطراب ، وتمازج بين ما هي عليه ،
وما يتحس أن تكون عليه ، أو بين ما يراها الناس عليه ، وما تدعي أنها عليه ، (التصوير
في الضحك قد يكون في الأشياء الحسية الظاهرة ، فيضحك الإنسان من بعض الأوضاع الضريب
الثنائية ، والبيئات المتناقضة ، والأقوال الموضوعة في غير مواضعها المصروفة ، وقد يكون

(٦) الفكاهة في مصر ، شوقي ص ١٥ كتاب اليلال مطبعة اليلال

هذا التعديل في النسب في الأمور المعنوية والنفسية فنضحك مثلا من بعض التفكرات القريبة والتصرفات الشاذة ، ونحن نجد في قصص الجاحظ النوعين جميعا (٧)

وتكثر الصور الكاريكاتورية في عهد الفوضى والانحلال والاضطرابات ، حيث تضعف الروح الجماعية ، وتفكك الروابط ، ويقبل التساند ، وحيث لا يقوى المخلوب على الوقوف في وجه الخالب ، ولا يستطيع في نفس الوقت كبح جماح غضبه ، والسيطرة على انفعالاته ، فتصبح الصورة الساخرة آنذاك أداة للتفيس عما تشعر به الجماعة من قلق وحيرة وخيبة ، وما يشعر به الأفراد من آلام مكبوتة ، وفيظنهم يخشون مضية إظهاره والإفصاح عنه ، وقد يكون الغرض منها كما يقول لانسن (توجيه انتباه القارئ في لحظات سريعة خاطفة إلى السس خصائص خفية ، موجودة في الشخص كى يولف من جماع هذه الخصائص المصروضة صورة تدعو إلى الإعجاب إذا كان الغرض منها المدح ، وإلى التذم إذا كان غرض الكاتب النقد والهجاء) (٨)

وما يحدث في تصوير الأشخاص بالألفاظ والمبارات من عبث بهم ، ونقص لأوضاعهم وتشويه لمكوناتهم .

وما يحترق الصورة الأدبية الساخرة من تقديم وتأخير ، وقلب وحذف ، وما يصيب الكلمات المفردة من تصحيف وتحريف ، وزيادة ونقص .

في ذلك ضرب من الكاريكاتير يحدث مثله في تصوير الناظر والأشخاص بالقلم والفرشاة فلكل النوعين تصور هائل ساخر ، عابث بأعضاء الصورة ، هازئ ، بمحالمها ، إلا أن الأهل أدوات الكلمة والمباراة ، ويداها ويداها في معانيه وبيانه وبيده ، والثاني أدوات القلم والفرشاة ويداها في ألوانه وظلاله وأضوائه وسريراعة النوعين يكمن في حسن استخدام الأدوات ، والتسيق واللامية بين عناصر الصورة ، ومراعاة التناسب بين أجزائها .

(٧) فن القصص في كتاب البخلاء ، صفحة ٢٠ الطبعة الثانية .
(٨) أبو حيان التوحيدى ، إبراهيم كيلانى صفحة ٦٩ ط ٢ دار المعارف

وهذا التصوير الكاريكاتوري الذي يستخدم اللوحة والفرشاة ، ويتلاعب بالصورة ، ويغير
نبرتها وقسائمتها من التصوير المادي الذي يحكي المناظر كما هي ، ويؤدى الصورة
كما يراها ، ويرسُمها بالفرشاة والمعاد والألوان ، بأن الأول يسجل ما وقعت عليه العين
والمستأخر العواس ، وما جاز في الشعور ، واضطرب في الوجدان ، و تجاوز الحقيقة
المشاهدة ، والواقع الملموس ، إلى إبراز خفايا النفس وطوايا القلب ، نفس وقلب المصور
نفس وقلب المصور ، فتبعد الصورة عن هيئتها ، ويظهر ظاهرها ، ليكشف باطنها ، فهو
تصوير من الداخل ، وللمصور الحرية في التغيير في مظهرها كيفما يشاء .
أما الثاني فينقل المظهر الخارجي ، ويحافظ على مقاييس الأعضاء ، وهيئتها وألوانها
كما هي ، وقد يتدخل في الصورة بشئ من فنه ، فيضيف إليها القليل من الخطوط والألوان
ويزيل منها بعض التعامد والظلال ، تحسينا لها ، وإبراز الجمالها ، وإظهار بعض تلميحات
تضفي عليها الرزق والبهاء .

وتفوق بين هذا النوع الثاني وبين التصوير الشمسي والضوئي لأن هذا الأخير ينقل
الصورة كما هي بصورتها وحاسنها ، دون أدنى تغيير ، فهو عمل آلي ، لا انفعال فيه
وما يبرزه من افتتان واختيار المناظر ، وانتقاء الزوايا التي يقف فيها المصور والمصور ، وثقافة
كمية الضوء الساقطة على بعض أجزاء الصورة ، لا أهمية له إلا في جعل الصورة مطابقة
للأصل ، وغاية نتائج هذا اللون ، وأرق أنواعه : هو ما توافرت فيه أمانة النقل ، ورزقه
تدخل المصور مع الآلة ، واقتداره على التحكم فيها من أجل تحقيق هذه الغاية .
وأرق أنواع التصوير ، وأكثرها ليطة بالنفس ، وأشدها التصاقا بالفن ، التصوير
الذي الأدي بالكلمة والعبارة والقصة والرسالة .

لأن الأديب يملك في تصويره الكاريكاتوري بالكلمة والعبارة ما لا يملكه المصور بالفرشاة
والألوان أداة التصوير من الاسترسال في التصوير ، والتخييل بالاشتقاق والتوليد فلا يزال

قلب الصورة وتعقبا ، ويرزأ أحشاءها ، ويغير ملامحها ، ويكسر أوضاعها ويخرجها واحدة
 بعد الأخرى في أشكال وأوضاع مختلفة حتى يأتي على جميع السمات التي يحتلها المقام
 وقد صبينا في قوالب با رقة وأنغما في عبارات دقيقة فتجني صميرة متحركة بأضواء بالحياة ممتدة
 الخطوط متلاحقة الحركات متتابعة التسميرات بخلاف صورة الفرشاة فإنها تكون خامدة هامدة
 لا روح فيها ولا حياة ولا حركة ولا تسلسل ولا تناهح ، وبخلاف صورة الآلة لأنها تنقل الأصل
 دون تسمير فيه ودون كشف دخائله .

ولقد كانت أدوات التصوير البزلي الكاريكاتوري الساخر عند الجاحظ كثير متنوعة ،
 استفادة يتخذ الكلمة أداة لرسم الصورة اللبزية الساخرة ، ودليلا يتهدى إليها عند ادائها
 يلونها بها .
 - وطورا يجعل السكون أو الحركة طريقا إليها ، ورزا يدل عليها ، وإطارا يحتويها
 ويرزأ معالمها .

ك- وكثيرا ما يستخدم المرآة النفسية المقعرة أو المحدبة لتمكينا اختفى في ثنايا القلوب
 وزوايا الضمائر ، في صورة تخرج الخطوط ، وتثبت بالعلاج .

ل- وفي غالب سخرياته يحدد إلى الصورة القصيرة ، يجلي بها بحضورها لها ، ويوضح
 بها الجوانب التي تظفي على السخرية اللون اللاذع الذي أراد له .

م- وأحيانا يلجأ إلى الصورة الفسحة ، فتكون عناصرها متكاملة متآزرة يأخذ بعضها
 بحجز بعضه ، وتتساند كلها في إيضاح الصورة العامة الكاريكاتيرية التي أرادها .

ن- وقد نجد ، كما في رسالة التريخ والتدوير - يوسع الصورة ، ويفتح مداها ويمسك
 مخراما ، ويمد أطرافها لتكون صورة كلية شاملة تتناول ، أحمد بن عبد الوهاب

في كل حركة وكل سكة ، وكل كلمة ، وكل جملة ، تشمل شكله وتفكيره ، وأدعاه ونفجسه
 وصفه وجهله ، وعاداته وطباعه ، وجل أخلاقه ، كأنها شريط مصور يعرض في دور الخيالة

أوتى كلية الطب أطم طلابها ، يكشف عن موطن الداء ، ويبين تطوره ، وحداده خطره ، ويفصح
 عن هذه الشخصية ، ويرينا ظاهرها وباطنها ، واقمصا وخيالها ، وإن كان يعد إليه يده
 بما لتضخم والتحويل ، والتشيل والتجسيم ليتضح الخطره وتبين أبعاد الكارثة ، أو يصبه في
 قالب الصور المتحركة كما صد المسخ والتشويه فيكتب الصفة النزلية " الكاريكاتورية " الساخرة
 التي تجلب لنا الضحك والسرور .

وهو لا يأتي في كل لون من هذه الألوان بسخريات تجرى على وتيرة واحدة ، وتسير في
 خط معين ، وإنما يجعل لكل منها طابعا خاصا ، وسطا فريدا ، ووطنا للإضحاك ، وسرايدز
 للنفس ، وشعرا لطرب ، بما يحدته من صنعة وإبداع ، وما يطله عليه فنه من إيجاده وإيقان
 ففصل لكل منها مذاقا خاصا ، ولذعا مغايرا ، وإن كانت جميعها تشترك في الإضحاك وجلب
 السرور ، وتبيان عيوب السخرة وتجسيمه . فمن أدواته الساخرة :

∴

∴

∴

1- الكلمة : وتكون الكلمة أداة للتصوير الدلزي بتضخيم بعض حروفها بالتقدم أو التأخير
 أو الزيادة أو الحذف ، أو التصفيف أو التحريف ، أو بالاستقاق أو القلب ، أو بتحويلها
 عن معناها الأصلي إلى معنى آخر تحتمله أو يمكن لفحواها أن يدل عليه ، وذلك كله
 ضرب من العبث بصورتها وهبتها ، وشكلها وضمونها ومعالقتها معاملة الأشخاص
 الذين نعت بهم ، وتقلب أوضاعهم ، ونسخ أشكالهم بتحويلهم إلى الصورة العزلية
 " الكاريكاتورية " مع بقاء العلامح الأصلية ، والخطوط الدالة على الشخصية التي نسخ
 منها .

يقول الجاحظ : (أتيت منزل صديق لي فطرقت الباب ، فخرجت إلي جارية مندبة ، فقلت
 لها ، قولي لسيدك ، الجاحظ بالباب . فقالت ، أقول الجاحظ بالباب ؟ - علي لنتها -
 فقلت ، لا ، قولي ، الحدق بالباب . فقالت ، أقول ، الحدق بالباب ؟ فقلت ،

تفسير الجارية الهندية بعض الحروف في الكلمة بحروف قريبة منها في العنق والجرس
أحال الكلمة من معناها وصور الجاحظ تصويرا هزليا ساخرا شوه عقيدته في الكلمة الأولى
وشوه كرامته في الكلمة الثانية وجعلها تعزى إلى سخرية فاحشة غشى الجاحظ
مغبتها ، فاكتمى من الغيبة بالإياب ، وولى الأعداء قاتلا للجارية ، لا تقول شيئا .
وقالت أم ولد لجرير بن الخطمي لبعض ولدها : " وقع الجردان في عجان أمك " .
فأبدلت الذال من الجردان ذالا وجعلت المجرى عجانا (١٠) .

فصارت الصورة بهذا التبدل ساخرة هازلة ، " كاريكاتورية " حاجنة ، تهر الضحك
بما أحدثه التبدل من معنى غير مقصود ، يس إلى المتحدته ، ويخدش حياءها ، ويضحك
السامع لهذه الصورة التي شوهدا إلتصيف والتحرير وهي خطوطها وهبت بمعناها .

٢- السكون والحركة .

وقد يتخذ الجاحظ من سكون الشخص وتصلبه ، وولادة انفجالة ، أو من كظمه حرقاته ،
وتقيده جوارحه ، أداة للتصوير الهازل ، بإظهاره في مظهر الجادات ، وفي ستمات لتأثيل
وأخاماد كل حركة وكل حس فيه ، وفي هذا التحويل إلى ما هو أحط منه رتبة ، وأخس
شأنا ، تصوير كاريكاتوري يلفى إحساس الشخص ، ويفسح طريقا للسخرية ، ويفتح
بأبواب للإضحاك .

(٩) مجمع الأدباء لياقوت ج ١٨ ص ٨٥ ، آداب العرب لبطرس البستاني ط بيروت سنة ١٩٢٤

مكتبة صادر .

(١٠) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٣ تحقيق عبد السلام دارون ط ١٩٦٨ مكتبة

الخانجي .

كفلا أن تحويل الضيق القدرة الخائر البحة ، إلى سيد جبارة وفارس مضواره لين
 من الكاريكاتور ، بالباس القم ثوبا فضفاضا هو ثوب صفاق يتعثر فيه ويسقط ، أو بكسوة
 الحعلق ثوبا صغيرة ضيقة ، هي ثياب القم ، فتتمزق وتتقطع ، وتكشف من أعضائه وما حاط
 ستره .

روي الجاحظ ، (كان أبو شعرا إذا تازع لم يحرك يديه ولا عنكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم
 يحرك راحته ، حتى كان كلامه إنما يخرج من صدع صخرة) (١١) . هذا المكنون ، وذلك لتصلب
 والجمود ، والخروج من التألوف - حتى ليذكرني خلد السليح أن الكلام إنما يخرج من صدع
 صخرة أخذت سميت أبي شعرة ، وهذا الصدع الذي بها هو الشق الذي في وجه أبي شعرة
 يخرج من جوفه الكلام ويسمونه قفه - رسم لنا الصورة الكاريكاتورية البزلية التي تمسخ كيان
 أبي شعرة وتشير سخريا تارة وتعلمى قديماتنا .

وقد يكون تناجح الحركات وكثرتها ، والمبالغة فيها ، أداة لرسم الصورة الكاريكاتورية
 الساخرة ، التي تضحكنا ، لنا بيد وعليه صاحبها من حركات عشوائية طائشة ، أو لأن
 حركاته لا تعقل رد الفعل المطلوب ، وهو مع ذلك يكرها ويتأبها ، ولا يزال من كسل
 حركة إلا سخرية .

والجاحظ يرسم لنا بمراسم صورة كاريكاتورية فذة ، يجمع فيها الجمود والتصلب ، مسج
 خفة الحركة وتأبها ، والإلحاح عليها ، وتتضاعف السخرية ، وترتفع قيمة الصورة ، وتعمق
 المقارنة والموازنة بين السالتين المتماكستين ، اللتين تستدر كل منهما الضحك ، وتشير
 التهمك والسخر ، فقد روي (أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يجر ويتجره وينزل على
 رجل من أهل العراق ، فيكيومه ويكفيه مؤنته ، ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقي

(١١) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٧٧ .

لهمت أني قد رأيتك بمروء حتى أكافئك لقديم إحسانك ، وما تجدد لي من البر في كل قدم
فأما ههنا فقد أفتاك الله عني ، قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة
في تلك الساحة ، فكان ما هو عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاقتراب ، وكان المرزوي هناك
فلما قدم ، مضى نحوه في ثياب سفره ، وفي هلمته وقلنسوته وكسائه ، ليحط رحله عنده ، وكما
يصنع للرجل بفتته وموضع أنسه ، فلما وجد قاعدا في أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يسه
أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال العراقي في نفسه : لعل إنكاره إياي لمكان
القناع ، فرس بقناعه ، وابتدأ مساء له ، فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنما أتى
من قبل الصامة ، فنزها ثم انتسب ، وجدد مساء له ، فوجده أشد ما كان إنكارا .
قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة . وعلر المرزوي أنه لم يبق شيء يتملق به المتخايل
والمتجاهل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك (١٢) .

فرس الجاحظ الصورة الكاريكاتورية المازلة التي تجمع شخصيتين متناقضتين في إطار
واحد إحداها ساكن متصلب زميت ، وال ثانية متحرك متقلب كلما طاشت منه حركة تبعها
بأخرى ، ومكرة الحركات الطائشة ، وبالمسكون البالغ فيه ، وجمع النقيضين في لوحة واحدة
تكمل الصورة وتتمتع ، وتعمق السخرية وتتضاعف .

∴

∴

∴

٣ المرأة النفسية :

وأقصد بها ، أن يكشف لنا الجاحظ بواسطة تصويره الكاريكاتوري لقسوة الشخص
الذي أمامه ، ويطلنا على دخيلة أمره ، وخفايا سره ، وينقب عن السيوب المستكة في
زوايا نفسه ، وينزل الضباب الذي يخلف به الشخص نقائصه ، ليبيد ما عن العيون ،

وهذا الحجب والأستار التي سد لنا بيننا وبينه ، وطمح ما يظهر به ، وما يجب أن يرينا
نفسه عليه ، لنراه على حقيقته ، وثقف على طبعه وسجيته ، وقد بدأ عواره ، وتجمدت أوزاره
في هيئة مزرية ، وصورة نازلة ، برز فيها العيب والنقص وتضخم ، وضلل فيها الكمال والجمال
أو تميز

كما تعكس المرآة المحدبة المرثيات في صورة ضخمة هائلة تقرب البعيد ، وتكبر الصغير
تعكس مرآة الجاحظ الكاريكاتورية خبايا النفوس في صورة قريبة مكبرة .
وكما تعكس المرآة المقعرة المرثيات في صورة صغيرة متضائلة تبعد القريب ، وتصغر الجسم
تعكس مرآة الجاحظ المنزلية فضائل النفس البشرية في صورة هزيلة متداهية .
وقد تجمع مرآة الجاحظ النفسية وظيفية المرآتين معا ، وتؤدي مؤداهما في منظر واحد ،
فتضخم جزءا وتضائل جزءا ، وتوضح صفة وتخفي أخرى ، وقصدا إلى إبراز العيوب ، وتجسم
الخطأ ، ومرحا ولديها فؤادها وتقومها ، أو عظة وعبرة .

وحل كتابه البخلاء . يجسم نفسية البخيل ، ثم يعكسها في صورتها المشوهة المنفرة ، إلا
أنه يكبر الصورة ، ويحث بلامحها ، ويلقطها من زوايا فنية تبرز ما خفي منها ، وتكشف
أدق تفاصيلها ، وأضمر خلجاتها .

واليك صورة لصديق له رسمها بقوله : (صديق كما قد ابتلينا بمؤاكلته بوقد كان ظن
أنا قد عرفناه بالهخل على الطعام ، وهجس ذلك في نفسه ، وتوهم أنا قد تذاكرنا أسره
نكان يتهد في تكبير الطعام ، وفي إظهار الحرص على أن يوكل ، حتى قال ، من رفع يده قبل
بما لقم فرمناه دينا را ، فترى بنضه إن فرم دينا را ، وظاهر لائمه محتل في رضا قلبه ،
وما يرجو من نفع ذلك له) (١٢)

(١٢) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامي والجان الجزء الأول صفحة ١١٢ .

وتحقيق طه الحاجري ص ٥٥ .

يدخل بحسن اقتضاح أمره ، ويظن معرفة الناس نحوه ، فيسارع بهدم الظن ، وسقرا ليلخله ،
 يدعوهم الى طعامه ، والإكثار منه ، والإلحاح عليهم في تناوله ، وإظهار حرصه على أن يتناولوا ،
 بل إن ، حتى إنه ليماقب من يتهنى من الطعام قبل غيره بتخريبه دينارا . ولكن هذه ،
 العلوية التي أراد بها البرهنة على كرهه ، كانت الأداة التي تكشف حقيقته وتفضح عن
 كمن بخله ، وأكدا من لحزه ، وما يرجوه من تعويض نققاته بما يجنيه من دنائير عقوباته .
 وقد برزت لنا هذه الصورة منعكسة على مرآة الجاحظ الكاركتورية القادرة المحدبة .
 فأما البخل ، وكشفت عنه ، وجسمته وضخمته ، وأظهرت السخاء المصطنع ، والجدود المبتدع
 في صورة اللبنة الواهية ، التي تخضع هامتها لمصلاق البخل ، وسلطان الشح .
 وصورة أخرى ديجتها براعة شيخ الآخرين ، ورسمتها مخيلته الممطاة ، وهكستها
 مرآة المحدبة ، التي تعظم الحقير ، وتضاعف القليل ، وتكبر الصغير ، وتضخم الضئيل ، فجاءت
 صورة نظية كاريكاتورية ، ناطقة صامتة ، ومتحركة ساكنة ، تعجز ضهاريتها الصور الفتن ،
 ولا لونها حذبا قريحة الرسم الملهم ، وإن سكب الألوان ، وسد الخطوط ، وأسدل الظلال ،
 قال : (قال العكبي : كان لي ابن عم يقال له سليمان الكزبي - سعى بذلك لكثرة
 ماله - وكان يقربني وأنا صبي ! لي أن بلغت ، ولم يدب لي مع ذلك التقريب شيئا قط .
 وكان قد جاوزني ذلك حد البخلاء . فدخلت عليه يوما ، وإذا قد أمه قطعة دار صيني
 لا تسوى قيراطا ، فلما نال حاجته منها ، مددت يدي لأخذ منها قطعة ، فلما نظرت
 إلى لمضت يدي . فقال : لا تقبض وانهمط واسترسل ، وليحسمن ظنك ، فإن حالك عندي
 على ما تحب ، فخذ كله ، فهو لك ، بزوره وحدانيته ، وهو لك جميعا ^{نفس} فتشعر بذلك
 سخيته ، والله يعلم أتي مسرورا وصل إليك من الخير . فتركته بين يديه ، وقسمت
 من عنده وحملت وجهي كما أنا الى المراق ، فما رأيته وما رأيته حتى مات) (١٤)

(١٤) كلب البخلاء ، الجاحظ ، من الصوامير والجاور الجزء الثاني صفحة ٤٢ ، ٤٤

فقد عكست المرأة نفس سليمان ، وقاصت في أحاطة ، وأهدت عواره ، وإن ظهر في صورة
 نهر ، وهبة جواد ، يخطى كل ما أمامه ، ويمن في البذل .
 كشفت نفسها التي تعظم التاف ، وقد همدية فاخرة ، تسخو بها راضية ، وهبة هائلة
 تعطىها كاملة ، دون أن تستبق لها شيئا ، وتمدها خيرا طائلا ، فشر به من أهديت
 إليه .

وهي صورة أخيرة - وما أكثر الصور - أقدمها امرأة الجاحظ للنفس الكاركة تورية تضح بخيلا
 شرها ، يدهى إلى طعام ، فيسأل لولاثة ، يفرف فوق حقه ، ويلتهم أكثر من طاقتهم ،
 ولا يراى من يشاركونه الأكل ، ويقطرا لسن على الخوان ، وهذه الفعلة الأخيرة ، التي
 يفض سرها ، والباع عليها ، هي التي تضحها المرأة ، وتجعلها لب الصورة ،
 ولكن السخر ، ثم تنزل غرضها وتضج ، جوانبها بأن الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسه
 ليكون الدسم كالديخ له ، وبأنه طلق امرأته لأنها فعلت خوانا له بها حارة وكان الوجه
 أن نسده .

وعانا

قال الجاحظ في كتابه البخلاء ، (قال أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظم ، ^{عانا} جارنا
 فأطمنا نمر ، وسنا سلا ، ونحن على خوان ليس عليه إلا ما ذكرت ، والخراساني محتيا
 يأكل ، فوايت يقطر السن على الخوان ، حتى أكثر من ذلك ، فقلت لرجل إلى جنبى ،
 ما لى فلان يضيع سن القم ، ومضى ، لولاثة هو شرف فوق العنق ، قال ، وما عرفت
 علي ، قلت ، لا والله ، قال ، الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسه ليكون نال ديسخ
 له . ولقد طلق امرأته وهي أم أولاده ، لأنه رأى فعلت خوانا له بها حارة . فقال لها ،

علا مستحسنة ، (١٥) .

(١٥) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، من الموماري والجاويج ١ ص ٥٥٥ ، ٥٦

١- الصورة القصيرة :

وقد يمدد الى الصورة القصيرة الساخرة ، فيجعلها أداة تمكك ، ويحول هزته ، لتكون صورة خيالية ساخرة عن طريق التشبيه أو الاستمارة أو غيرها من ألوان الجلال أو تكون صورة متحركة أمام العين حركات (بهلوانية) على خلاف المؤلف ، فتعبر عن شخصيته عذبيها ، وتوضح جوانب من سلوكه فتحقق السخرية فرضيها ، وتبلغ هدفها ، مسن للإضمار والإيجاع ، ومن صور تلك :

(١) تغذي أبو السرايا عند سليمان بن عبد الملك - وهو ولي عهد - وقداهم جدي فقال له سليمان : كل من كليته ، فإنها تزيد في الدماغ ، فقال : لو كان الأمر كذلك لكان رأس الأمير مثل رأس البغل (١٦) .

قصد سليمان أن أكلها يجلب للدماغ ضحوا ، وفقا في التفكير ، وبقظة ، ولذا حسن حوده وقظا وفضنة ، فانصرف ذهن أبي السرايا الى الحسيات وأهمل المحنويات ، واعتقد أن الأمر كبير حجم الدماغ ، أو تظاهر بهذا الاعتقاد جلها للسخرية ، ثم رد على الأمير بدلالة على نساد رأيه ، وشوهدا ملامح جسمه حيث اختار له الصورة الكاريكاتورية اليسوخة ، أمير من جلد الأمراء وولي عهد تعبد له الأيما أن يكون خليفة المسلمين ، جسم آدمي ، ورأسه رأس بغل ، ولعله أراد التمرض بخياله الأمير ، كما أن قول سليمان : كل من كليته لأننا تزيد في الدماغ ، قد يكون تعريضا أيضا بقصم أبي السرايا ليكون تعريضا بتعريض .

(٢) (جلس علي بن إسحاق بن يحيى مع بعض متفاني فقالان العسكر وجامع النخاس بجوار . فقال علي : لسنما في تقويم الأبدان وإنما نحن في تقويم الأعضاء ، ثم أنف هذه خمسة وعشرون ديناراً ، وثمان أذنيها ثمانية عشر وثمان عينها ستة وسبعون .

(١٦) البيان والتبيين ، الجاهظ ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٢٨ تحقيق هارون ، ص ١٧١

وتبين رأيا بخير شي من حواشيها ماء دينار . فقال له طعمه المتخاقل ، ما هنسا
بأيهوا داخل في الحكمة من هذا . كان ينهى لقدم هذه أن تكون لسان تلك وأصابع
تلك ان تكون لقدم هذه ، وكان ينهى لشفتي تيك أن تكون لقم تلك وأن يكون حاجباتيك
لجبين هذه . نفسى مقر الأعضاء (١٧)

والكاريتا نور) هنا ناجم من تجزى الأعضاء ، وجعل كل عضو مستقلا عن غيره ، ويقوم وحده ،
ويحدد ثمنه المناسب له ، وأنه شخصية قائمة بذاتها . كما رسم هذا صاحب المتخاقل
صورة مركبة من أعضاء غير متألفة ، باستبدال كل جارية عضوا من جسمها بمضروب من
جسد غيرها .

ج) (وكان أبو نواس يرتضى على خوان إسماعيل بن عبيد (١٨) ، كما ترتضى الإبل
في الحضرمي طول الخلة ، ثم كان جزاؤه منه أنه قال .

خبز إسماعيل نالو شك مكربسى إذا ما شق يرفسا (١٩)

فصير أي نواس على طعام غيره ، يأكله في نهم وحشع كالإبل ترتضى في الحضرمي طول
الخلة ، تصورهازي هازل ، يوضح هيئته العقيمة حين يتناول طعام غيره ، وتلك مخربسة
لاذمة عن طريق الكاريتا نور تقا بلها صورة أخرى لخبز إسماعيل الذي يشبه الرثسى ، يمكن
أن يرفا إذا شق .

د) (قيل لابي الحارث جبين ، كيف وجه محمد بن موسى على غداك ؟ قال ، أما جبينه
(٢٠) (٢١)

فمعنا جبين . وقال فيه أيضا ، لو كان في كفه كرخردل ، ثم لعب به لعب الإبل بالأكرة ،
لما سقطت من بين أصابعه حبة واحدة . وقيل له أيضا ، كيف صغاره على الخبز خاصة ؟
قال ، والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا حبس نرف العباب لوشه ما تجانى عن

١٧) الهياتي والتبين ، الجاحظ ، الجزء ٢ ، لرا بيج صفحة ١٦

١٨) إسماعيل بن أبي مدبل بن نبيخت من سراة البصرة ومن جلماء الأمن وهو فزار سنا عمل
ابن نبيخت المتكلم المعتزل الشيعي .

١٩) الهذلاء الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٧٢

٢٠) أبو الحارث جصين أو جعيز مدني صاحب نوا در كوزه كان يتجر بها في العراق . اتصل
بمحمد ابن يحيى البرمكي ، وعيسى بن جعفر ، وكانا يعلانه بالرشيد .

٢١) أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكي . حسب ما له نكتة المماكة التي أن اطله ال

رؤيف (٢٢)

فقد صنع له الجاحظ بضح "كاريكاتوريات" ، وضع عليه حدود حدد بها أو حركتها حركة دائرية مضطربة ، ثم جمعه خفيف الحركة "بهلوانيا" لولعب بكر خردل ما سقطت منه واحدة ، ثم وضع على شحمه وثقله وأنه لو ألقيت إليه كرة طعام ارتفعت حتى وصلت السحاب ، فنعمته الحفظ لم يتبادر عن رؤيف ، وسخو به ، وذلك هو قصيدة تعتمد على التشبيهات السليمة تجسم الصورة وتبرزها .

د - (ولم أر مثل أبي جعفر الطرسوسي ، زار قوماً فأكرمهم وحملوا في شاره وسيلته غالية فحكته شفته العليا ، فأدخل أصبحه فحكها من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ أصبحه شيئاً إذا حكها من فوق) (٢٣)

والصنوع عند تسمية ضيقة الحدود ، ولكنها مقلوبة للوضع ، ومنعكة العلاج ، دفع الطرسوسي

للربيع لأن يخله ، ووا فر شحمه ، فجاءت كاريكاتورية مفصصة من نفسية صاحبه ، ساخرة من انقلاب الوضع قدمونا الى الاستمراء والاستهجان ، وخاصة إذا شهدت بالمعان ، وقد أدرك الجاحظ أن التصوير بالكلمة لن يكون له سحره وتأثيره ، وشدة فاعليته في النفس حتى أداته للسخرية ، كالتصوير المصحوب بالحركة والإشارة ، والذي تشاهد فيه الشخصيات وكلامها وحركاتها ، فقال منقياً : (وهذا وشبهه إنما يطوب جداً إذا رأيت الحكام يمسونه بحينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كل شيء ، وعلى حدوده ، وحقاً لقد) (٢٤)

و - (قال سجاد : وهو أبو سعيد سجاد ، نام من العوازة إذا لمسا الخفاف في الستة أشهر التي لا ينزعم فيها خفافهم ، يشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهره

(٢٢) البخل : الجاحظ ، تحقيق الحاجري ص ٧٢ شرح العوامري ص ٢١ ج ١

(٢٣) البخل : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٨٤

ولي أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر ، مخافة أن تجرد لعالمهم أوتقّب (٢٤) .

وتخيل صورة إنسان يسير على أطراف أصابعه ثلاثة أشهر رافعا عقبه متحملا الضرر والآلام ثم يحسن وضعه فيسير ثلاثة أشهر أخرى على عقبه رافعا أطراف أصابعه ولا شيء يدفعه إلى ذلك غير البخل والكثرة ، ثم التصوير المحجّب والرسم الكاركتوري الرقيق ، الذي ابتكره هؤلاء الجاحظ ، وحدث خطوطه المنزلية مقربتة الفضة الموائية ، التي تعشق الضمير وتضيق بالتحسين ، وما يخلع على الصورة الظلال والألوان ، ويضيف لها البريق واللحمان غير طريقة المشية ، وتعاكس الوضعين قوله : " إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا ينزفون فيها خفافهم " فم في ستة أشهر خفاة لا يلبسون الخفاف ولا يقربونها والشطر الثاني مسن العام شطرون شطرين ، شطر يسرون فيه على صدور أقدامهم ، وشطر يسرون فيه على أعقابهم . ففي القصة تصوير هنلي للبخل بلغ مداه ، وضياع الدنيا جاوز انتهاء ، ومخرية وحث على المخرية بدلا من المراوذة ، الذين كحصاروا أضمره الدنيا ، بما خلق عليهم من الجاحظ من صفات ، وما وضعهم فيه من إطار ، برزوا منه صورة مجسدة متحركة ، مشوهة الطامح مسوخة الهيئة ، مقوتة الحركات ، آلية التصرف .

ومن هذه الصورة السابقة ، ومن الصور اللاحقة عرفنا ونعرف أن الجاحظ كان مصورا طهرا ، يرى المنظر الضريب ، والهيئة التلذذة ، ويلج فيها الخرنج على الإلف ، والابتعاد من المرف ، فيسلط عليها عدسة وجدانه ، ويجهزها ويعدّها في صوان نفسه ، ثم يختار منها فترة من الزمان لتثبت ألوانها ، ويقوى طلاؤها ، وأخيرا يظهرها ويجليها آية في الافتتان ونموذجا في الروض والإفتان .

٥- الصورة الفسحة :

وقد يتخذ الصورة الفسحة والعشيد الصريح، والهيئة الخارجة عن نطاق المقبل
أولاً لعرف الأوالعادة مادة لرسم الصورة الكاريكاتورية بوصفها يضعه على فرشاة هزئيه ،
ليكون به المناظره وشبهه اللامح ، ويخلق الصورة المسوخة ، التي تصح عن صاحبها
وتبرز مآطه ومخلجات نفسه ، وخبايا عقله ، ثم تضخم عيوبه وتضاعف شوهته ، ومن أمثلة
ذلك :

(أ) (ما كان من أين طين إلى جبل الضمر : وكان جبل خرج ليلاً من موضع كان فيه
خفاف الطائف ، ولم يأمن المستقن ، فقال : لو دقت الباب على أين مازن ، فبست
عنده في أدنى بيت ، أوفى دهليزه ، ولم ألزمه من مؤثن شيئاً ، حتى إذا انصدع عود
الصبح ، خرجت في أرائل المدلجين . فدق عليه الباب دق واثق ، ودق مدل ، ودق
من يخاف أن يدره الطائف ، أو يقفه المستقن ، وض قلبهز الكفاية ، والنفقة باسقاط الشقة
فلر يهنك أهورمان أنه لقي صاحب مدية . فنزل سرهما . فلما فتح الباب وصر بجبل بصر
بملك الموت ، فلطراه . جبل واجما ، لا يحر كلمة ، قال له : إني خفت معرفة الطائف ، وجلة
المستقن . فقلت إليك . ، ولأبيت عندك . فتساكر أهورمان ، وأراه أن وجهه إنما كان
بصعب السكر . فخلق جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، وأنا والله سكران ، قال له
جبل : كن كيف شئت . نحن في أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتاج إلى سطح ،
فأقم هالك بالمر ، ولست أحتاج إلى لحاف ، فأكلفك أن تزورني بالدار . وأنا كما تسرى
قل من الشراب ، شيمان من الطعام . ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب الناس دخلا .
وإنما أريد أن تدعني أغنى في دهليزك إقفاة واحدة ، ثم أقم في أرائل المبكرين . قال
لهومان وأرضع منه وفكه ولسانه ، ثم قال : سكران والله ، أنا سكران ، لا والله ما أقتل
أين أنا ، والله إن أنهم ما تقبل ، ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك أن عذره
قد وضع ، وأنه قد أطفأ لنظره حتى وقع على هذه الحيلة (٢٥)

(٢٥) كتاب البخل ، الجاحظ ، شرح الصوامري والجام صفحة ٥٧٦ ، ١٧٧ الجزء الأول .

فهد صورة مسوخة للصديق الذي يتنكر الصديقة ، وهو واثق أنه لن يكتفه طرفة ، ولن يضح عليه في عينه ، وكل ما يخفيه منه ما استراحة في بيته ، أو غفوة في دلالته ، يأمن بها الصمن والصوص ، ولكن أبا مانن يدعى السكر ، وفقدان الحى ، وعدم الإحساس بما حوله ، أو الإدراك لما يقال ، ثم يتخذ الصورة الموشىة فيخلع جوارحه ، ويخيل لسانه ، ويرخي عينيه ، وفكه ، ولسانه ، وأخيرا يخلق في وجه صديقه الباب ، ويظن أنه قد مثل فأجساد التمثيل ، وقد أوضح المذر ، وأصبح عن السبب ، وألطف النظر ، ولم يعد واقفا تحت وطائلة اللطم ، والاتباع بالتقصير ، وأن جبل قد انطلت عليه الحيلة ، وألم يظن بصاحبها بخلا ، ولا سوء ضيافة ، لأنه كان غائبا عن وعيه ، فاقتدا رشده ، بما شره من خسر .

ب - اشترى محمد بن أبي المؤمل (مرة شبوطه - وهو ينفذاه - وأخذها فائقة عظيمة ، وظال بها ، وارفع في ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ، وهو بصرى لا يصبر عنه ، فكان قد أكبر أمره هذه السمكة لكثرة ثمنها ، ولسنها وعظمتها ، ولشدة شويته لها ، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها ، وتفرد بأطاييها ، وحسر من ذراعية ، وصمسد صدرها ، هجمت عليه ومضى السدري ، فلما رأى رأى الموت الأحمر ، والظالم الجارف ، ورأى الحتم المقض ، ورأى قاصمة الظهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد اهتل بالثنين ، فلم يلوته السدري حتى قور السرة بالمبال ، فأتته على ، فقال لى ، يا أبا عثمان ، السدري يحجبه المسد فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعا ، فأقبل على مسد لقال ، والسدري يحجبه الأفتاء ، فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله ، فقال يا أبا عثمان ، والسدري يحجبه المتن ، ولم يظن أن السدري يحرف فضيلة ذنب الشبوط ، ودون لحمه ، وظن أنه سيسلم له ، وظن معرفة ذلك من النامى ، فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعا ، ولولا أن السدري أبطره وأنقله ، وأكده ، وبلا صدره ، ولكم غيظا ، لقد كان أدرك منه طرفا ، لأنه كان من الأكلة ، ولكن الغيظ كان من أعوان السدري ، فلم أكر السدري جميع أطاييها ، ويقى هو فى النظارة ، ولم يقى فى يده .

ما كان يأمله في تلك السمكة إلا الفيظ الشديد ، والضم الثقيل ، وظن أن في سائر السمكة ما يشبهه ويشتق من قرنه ، فبذلك كان عزاه ، وذلك هو الذي كان يمسك بأرمانسسه ، وحيثما كانت نفسه ، فلما رأى السدرى يفري القرى ويلتهم التهاما ، قال : يا أبا عثمان ، السدرى يحجبه كل شيء ، فتولد الفيظ في جوانبه ، وأقلقت الرعدة ، فخبثت نفسه ، فما زال يقف ، وصلاح ، ثم ركبته الحمى ، وصحت توبته ، وتم عزمه في ألا يؤاكل رغبيا أبدا ، ولا زهدا ، ولا يشتري سمكة أبدا ، رخيصة ولا غالية ، وإن أهدوها إليه إلا قبلها ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها (٢٦) .

وتلك صورة كاريكاتورية لابن أبي اللؤلؤ ، توضح التواءات التي تبرز في سجيته ، وتظهر التمرجات المنطقية خلقه ، والالتواءات التي يفصح عنها سلوكه ، والتي يلمحها الجاحظ من خلال حركاته ونظراته ، وما ينطوي في باطن كلماته ، وتمتد خطوط البخل ، وخطوط النوم إلى الأكل ، فتضاعف أطوالها ، وتتنوع أعراضها ، وتكون إبداءها الأسود نفسية محمدا ، فإذا هي قاتمه حاله ، ملاءما البطر والتقل ، والكيد والفيظ ، وإذا الصورة متحركة مضطربة مرتعشة ، وإذا الحركات متوالية متتابعة بين قف ، وصلاح ، وحسن ، فأخسند بمجامع الصورة فتبرزها هذا عنيفا .

لقد أوضحت الصورة أن من مظاهر اهتمام محمد بالسمكة ، وإقباله عليها ، واحتفائه بها ككرة لعبها ، وسنينا وطمعا ، وشدة شهورته لها ، وظنه الانفراد بأطالبيها ، وشروطه ليس تناولها . . . ثم بينت بواعث غمه وكربه وهي : دخول السدرى عليه وأمامه الشبوطة ، ودخول السمكة الحمراء والتنين العفيم ، والحتم المقضي ، وإقبال السدرى على أكلها لا يفرق بين جيد ورودي ، ولا يصرفه عن أكلها صارف ، ثم ضياع ماله ، وعدم انتفاعه به ، ثم جمع محمد وشدة شهورته إلى أكمل شيوطته ، وأخيرا أمانته التي تخبر مع كل جزء من أجزاء الشبوطة بغيره السدرى في كهف بطنه ، قور السدرى السرة بالمبال فداجت نفس

(٢٦) كتاب البخل ، الجاحظ ، غيبط الصوامري والجارح من ١٨٦ ، ١٨٧ الجزء الأول

محمد وصلاح . السدري يعجبه السرر ، ثم قبض على القفا فالتهم جانبيه فصيح ابن أبي الطول
السدري يعجبه الأقفاء ، ثم اجترفا لمتن كله فجار محمد ، السدري يعجبه المتن ، وكان
محمد يمني نفسه بمحمد كل جزء يلتهمه السدري بأن الباقي سيخلص له ، ولكن السدري يخيب
ظنه ، ^{ويزج} فيظه بمناجعة اللقم ، وسلب الشبوطة أشلاء ما شلوا بمحمد شلو . وارتاحت
فمن محمد بعض الشيء ، حين ظن أن الذنب سيسلم له ، وإذا بالسدري ، يزدريه ، ولما لم
يهدأ ، أملاه من الأطايب ^{الشيء} ، احتسب ما ذهب في باب كرهه ، وأرض نفسه بأكل ما بقى
من الشبوطة على يد هب جوجه ، لكن السدري كان يفرى الفرى ، ويأتي على كل شيء ، ويعجبه
كل شيء ، حتى لم يبق من الشبوطة شيء .

لقد صورنا لباحظ نفسية محمد ، وما كان يحترق قلبه من ضم ، وما كان يعصيه من صدع
والسدري يتابع أكل الشبوطة ، فيبسطه ويثقله ويكده ، ومحمد لا ينال منها شيئا ، لأن الغيظ
ملأ قلبه ، وكان من أهوان السدري عليه ، فلم يقرب الطعام ، وخلص للسدري ، صورته تصورا
هنزيا كما ريكاتوريا جعل كل حركة من السدري تعيث بقلبه ، وتطيرليه ، وتزيد حوى الغيظ في
نفسه ، وتغمد في جوانبه أملا في الأكل كان يريد تحقيقه ، وكان سمدا قدر عوج تحتسه
للنار كي يهتلى ويضطرب ، وقد سدت نوافذه ، وامتنع تصاعد بخاره ، والذي يخفف سميره ،
فكاد ينفجر ، لولا أنه كان بين آونة وأخرى ينفث نفثة مكتومة ، السدري يعجبه السرر .
السدري يعجبه الأقفاء . السدري يعجبه المتن . ثم يصدر أخيرا نفثة طويلة ، فيها
جماع غيظه ، وفائض ألمه ، السدري يعجبه كل شيء ، ثم يكون الندم والتوبة عن أن يأكل
أحدا ، أو يقرب سكا .

محمد - (صحيفي محفوظ النفاش من مسجد الجامع ليلا ، فلما صرت قرب منزلة - وكان منزله
أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي - سألتني أن أبيت عنده . وقال : أين تذهب في هذا
المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة ، وليس معك نار ، وهندي لبألم بر الثامن مثله ،
وعرفنا عليك به جودة ، لا تصلح إلا له . فملت منه ، فأهبطا ساطع ، ثم جازني بجمام

لها ، وطبق عمر . فلما مدت قال : يا أبا عثمان ، إنه لبأ وفلظة ، وهو الليل وركوده ،
ثم ليلة مطر ووطوبة ، وأنت رجل قد طمعت في السن ، ولم تنزل تشكو من الفالج طرفا ، وما زال
الخليل يمسح إليك ، وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء ، فإن أكلت اللبأ ولم تهالسخ ،
كبت لا آكلا ولا آرا ، وحرشت طباعتك ، ثم قطعت الأكل أشهر ما كان إليك . وإن بالفت
بقا لي ليلة سوري من الاهتمام بأمرك ، ولم تعد لك نبيذا ولا صلا . وإنما قلت هذا
الحكلم لئلا تقول غدا ، كان وكان ، والله قد وقمت بين ناي أسد ، لأنى لو لم أجلك
به وقد شكره لك ، قلت : بخل به ، وبداه فيه . وإن جئت به ولم أحذر كمنه ، ولم
أشكره كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق على ولم ينصح . فقد برئت إليك من الأمرين جميعا
وإن شئت فأكله وموتة وإن شئت فبعننا لاحتمال ، ونم على سلامة .

فما ضحكك قط كضحكى تلك الليلة . ولقد أكلته جميعا ، فما هضمه إلا الضحك والنشاط
والسرور . فيما أظن . ولو كان مسمى من يفهم طبيب ما تكلم به ، لآتى على الضحك ، أو لقضى
على . ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب (٢٧)

وهذه صورة أخرى كاريكاتورية ، عميقة الأفوار ، فسيحة الأبعاد ، ممتدة الخطوط لمخيل
تفاج ، يدعى الذكر ، فيدمو صاحبه للنزول في ضيافته ، ويبلغ عليه أن يقبل دعوته ،
ويرضه في البيت عنده ، والجلوس إلى ما تدع ، ويشهى له الطعام ، ثم يقع بين شقي مضمي
نفسه ، ويجري رضى رفا ، يخله وشحه ، وأدعائه ونفجه ، فنفجه يحته على المبالغة
في إكرام الضيف ، وتقديم الطعام له ، ويخله يولدى به إلى اختراع العليل ، وانتحال الأسباب
واقعا من البراهمين التي تدفع بالزائر بعيدا عن طعامه ، ليحفظ كاملا لم تسمه يد .

دعا محفوظ النقاش الجاحظ الى منزله ورحب إليه العبيت عنده ، وهذه الأسباب التي
 تحمسه لقبول دعوته ، والاستجابة لضيافته ، واستعمل لذلك أساليب التخوف والترهيب ،
 تبين المخاوف والمخاطر التي يتعرض لها إن لم يصح للكلامه من مطرورد وظلمة ، واستعمل
 أساليب الترفيب والتشويق ، ليقبل ضيافته ، فذكر أن طعامه نسي ، لئلا لم ير الناس مثله ،
 وتعرض لحدود الجودة ، والجاحظ في رأيه - لا يصلح لشيء من الطعام إلا له .

فهرب الجاحظ الشر ، ورضي الخمر ، فقبل دعوته ، ووالى معه إلى منزله ، ولكن الشخ
 يتضح في تصرفات النقاش ، ويظهر رفا عنه ، ويظل يرأسه من حوله ، ومن بين ألقائه ، ومن
 خلال تصرفاته ، لقد دعا الجاحظ ليظهر له جوده ، وأريحيته ، فلما قبل الدعوة ، وطعت الطامة
 خلفه نفسه الكثرة ، وزجرته ، فاختار لحيل الباردة ، وانتقى الأدلة الخادعة ، وليمنعه من
 الأكل ، وليعيد لنفسه المائدة هذوها ، واستقرارها ، فأبطأ ساعة في إحضار الطعام الذي
 لا يجب إحضاره الإبطاء ، إذ هو دجام لها وطبق تمر . فلما مدا الجاحظ يده إلى الطعام
 وكان ينهض ألا بعدها بعد هذا الإبطاء الذي هو بمثابة الامتناع من الدعوة والرجوع فيها
 ما جئت كوا من الشخ في نفس النقاش ، وتأججت نار البخل في قلبه ، فأحتمل العييل لينعه
 من الطعام ، وقد لبس ثياب صديق ناصح ، وإهاب أخ شقيق ولا زال في سمات كرماء
 وهبة الأسخياء ، فحشد له كل العوامل التي تمنعه من الأكل ، وتصرف رغبته عنه ،
 فاطعمه ثقيل غليظ ، والليل راكد هواله ، والأعضاء لا تشطه ، والهضم لا يستقيم ، والجو
 مطر رطب يؤدي إلى الانكماش والانقباض ، فيتوقف الهضم أو يبطئ ، وقد كبرت سنه ،
 قضمفت أجدزة الهضم عنده ، وفقدت قدرتها على امتصاص الطعام ، وتشيل الغذاء ، وهو مع
 ذلك مريض بالفالج الذي يتقل جسمه ، فلا داعي للطعام حتى يكون خفيف الجسم ، نشيط
 الحركة ، ثم إن الخليل يسع إليك فيداه شرب الماء مع الرطوبة والبرودة والفالج ، وفي
 ذلك إرهاب له ، لا يحتمله جسده الواهي ، وأضاف إلى ذلك أنه غير معتاد العشاء
 فيكون أكله - إن أكل - على خلاف عادته ، وفيه من القسط د ما فيه .

على أنه لو ضرب بذلك كله عرض الحائط ، وصم على العشاء ولم يتعطر عقله على فاسد رغبته
ولم يتبين خطئ ما هو مقبل عليه ، وظلمته شهوة الأكل ، فلما أن يأكل قليلا أو كثيرا
فإن أكل قليلا كان لا آتلا ولا تاركا ، وعرض صمته ، وفتح شهوته ، ثم قطع الأكل أو حتى
ما يكون إليه ، وأكثر اشتداه منه قبل يده ، وإن بالغ في الأكل كانت ليلة سوء لما
يصيبه من ألم ومرض ، وما يجلبه على محفوظ من ضم وكمد ، ولم يجزله ذوا ، ولم يجد لسه
نبيذا ولا عسلا

ثم بين أنه يبحث النصح ، وأنه يؤدي ما تفرضه عليه الصداقة ، وأنه يرى من ذنبه
إن أصاب به ضره وأنه ما قال ما قال إلا ليدفع عن نفسه اللوم والتأنيب إن وقع به شره ثم
بين موقفه من ضيفه ، بأنه إنما أتاه بالطعام حتى لا يتهم بالهخل ، ونصحه حتى لا يتهم
بغث الصحبة ، ثم جملة مختارا بين أكلة وموتة ، وبين جوع وسلامة .
لقد التقط الجاحظ هذه الصورة الكارثية بحدسة سخره ، وسلط عليها الأضواء من
أشعة فقه ، واستعمل ألوان اللمز والتكلم فلون بها نفسية انقا شه ودمنها بالهخل
والتقهر ، وجعلها تدافع عن نفسها ، مدعية أنه التوجيه والإرشاد ، وتنفى الهخل بنتي
الصلل ومختلف المعاذير .

صدر نفسية متضاربة متعارضة ، منقسمة على نفسها ، لها طبيعة باخلة متأصلة ، ومظهر
خادع كاذب نافع ، ونشأ الصراع بين الباطن والظاهر ، كل يحاول أن يفوق ويغلب
وتولد الاضطراب النفس ، والسيج الداخلي ، ولجأ انقا شر إلى اللائمة والتوفيق بين
الضدين بالتحال الصلل ، وخلق الأسباب ، لإرضاء النفس ، والتوجه على الخير ، واتخاذ
أساليب الخداع ، وألوان الإيهام ، لعمل الجاحظ يقع في حباله ، ويمتد فيه الكبر ،
فيغوز بالمخمنين ، العادي ، والمضوى ، الاحتفاظ بالطعام غير مشقوص ، وإثبات صفة الكبر
والجود .

والجاحظ يعلم ما يدور في نفس محفوظ ، وما يندرج به خاطره ، وما يحاول به ان يخدم
 الجاحظ من حجج عقلية ، وتقسيما منطقية ، وبراهين جدلية ، وما يبدو عليه من هيمنة
 النص ، واكتم ، فيضحك لغفلته ، وتكلفة السخاء ، وتلفيقه المثل ، ويتعالي ضحكوه سخرة
 وتكميا ، ويأتي على الأكل كله ، ونكاية به ، وإثمانا في غيظة ، وجلبا للمرح والضحك ، وما
 يولد من ادلة ، وما يتكلفه من أتيمة . ولقد شتم الأكل المرح والضحك ، ولو كانت هناك
 رفته تسبح وترى وتشارك لتضاحف الضحك ، وأهدت ، وكأ نهم مرابا تتحكر مليها ، لضحكيات
 فتزيد وترهب .

د - (كان عندنا يا المدينة رجل قد كثر عليه الدين ، حتى تزارى من عزائه ، ولتم منزله
 فأناه فرهم له عليه شي يسير ، فتلطف حتى وصل اليه ، وقال له : ما تجعل لي إن أنا
 دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور ، والسلامة من غماتك ؟ قال : أتضحك حقا ،
 وأزهدك ما عندي ما تقر به عينك ، فوثق منه بالأيمان ، فقال له : إذا كان غدا قبل الصلاة
 مرخا دمك يكس يابك وفناءك ، ويرش وييسط على دكانك حصرا ، ويضج للبعثا ، ثم أمسك
 حتى تصبح وبهر الناس ، ثم تجلس ، وكل من يمر عليك ويسلم انصح له في وجهه ، ولا
 تزيدهن عن النباح أحدا ، كما ثنا من كان ، ومن كلمك من أهلك أو خدمك ، أو من غيرهم ،
 أو غريم أو غيره ، حتى تصير إلى اللوالب ، فإذا كلمك فانصح له ، وإياك أن تزيد أو غيره
 على النباح ، فإن اللوالب إذا أيقن أن ذلك منك جد ، لم يشك أنه قد مررتك طارضا
 من من ، فيخلى عنك ، ولا يخرى عليك ، قال : نفعل ، فمر به بعض جيرانه فسلم عليه ،
 فصح في وجهه ، ثم مر آخره ، ففعل مثل ذلك ، حتى تصاح غماتوه ، فأناه بعضهم
 فسلم عليه ، فلم يزد على النباح ، ثم آخره فتملقوا به ، فرفعوه إلى اللوالب ، فمألسه
 اللوالب ، فلم يزد على النباح ، فرفعوه معهم إلى القاضي ، فلم يزد على ذلك ، فأمر
 بحبسه أياما ، وجعل عليه العميون ، وملك نفسه ، وجعل لا ينطق بحرف من النباح ، فلما
 رأى القاضي ذلك فأمر بإخراجه ، ووضع عليه العميون في منزله ، وجعل لا ينطق بحرف

الإلتجاج ، فلما تقرر ذلك عند القاضي ، أمر فرجاء بالكف عنه ، وقال : هذا رجل يسه
 لم ، فكيف ما شاء الله تعالى ، ثم إن غيره الذي كان عليه الحيلة أتاه متقاضيا لعدته
 فلما كلمه جعل لا يزيد على النباح . فقال له : عليك يا فلان أرفعى أيضا ، وأنا علمتك هذه
 الحيلة ، فاجعل لا يزيد على النباح ، فلما بشره انصرف بالناس ما يطالبه به (٢٨) .

صورة كارتونية ساخرة لمعاظيل يوحى دفع ما عليه من مال ، فاذا حل الأجل كورالط جيل
 وأخلف الوعد ، وهو لا يكفى بالمطل ، وخلف الوعد ، وإنما يتعدى ذلك إلى الكذب
 والهرب من الضمان ، والتواري بعيدا عنهم ، وحبس نفسه في منزله ، وعدم السماح لأحد
 منهم بمقابله مبعولا منهم ، واكتفاء لشروطهم ، ثم يسيء له القدر فرجاء ، يد له على حيلة
 يتخلص بها من فرجائه ، ويتعهد بدفع دينه ، وزيادة ترضيه ، وتقرها عينه ، نظير الحيلة
 التي سطره ، وتزيل دينه ، وتزج همومه ، وكانت الحيلة أن يتعمس شخص قلب ، ويرد على

الكلم باللباح ، فيظن الناس أنه به لومة تسقط كل ما عليه من دين وفعل ، ونجحت
 الحيلة ، ولكنه يتجا وزمدا ، فبأكل الدين ، وخلف الوعد ، مع من علمه الحيلة ، وسهل
 له المخن ، يريد أن يودعه أنه مريض فعلا ، وأنه ينجح حقيقة ، ونسب بل تناس أنه أستاذ
 ومبتكر الحيلة ، وصاحب الخديعة .

لقد أظهره الجاحظ في مظهر المجنون ، فأبدل تصرفه ، وهو سعنته ، وأخرس لسانه
 وقلب صوته نباحا ، وضرب بين عقله وبين ما يراه وصحته بحجاب ، ولأنه لا يسيء ولا يفسد
 فلذا هو صورة مشوهة لإنسان مخبول تنزع عقله ، وتتأزل عن كرامته وإنسانيته وقلب وضعه
 وحقيقته ، واتخذ لنفسه صوت كلب ، فأبدل بالكلم نباحا .

(٢٨) العريان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ج ٢ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ مكتبة مصطفى

وحوى الاطار صورة مسوخة ، مؤثرة للصورة الأولى ، وتمتد لها ، لغيره أراد أن يخلص
بماله ، ويضاعفه ، مقابل تعلم ذلك المدين حيلة ينجو بها من دائيه ، وتمكده مسن
الظهور أمام الناس بعد طول احتجاب وخوف ، وكانت الحيلة ، أن يبيع الناس ويهدو
في حيلة من به لم ، ومن أصابه من ، فإنها به يتفن الأداة ، ويهدع التشيل أطم الغرمان
وأطعم الخوالي ، وأمام القاضي ، فقير جنونه ، وسقط دليله . وبأى الخرم غريمه ، مطالبها
بماله ، وبالزيادة المعروفة ، فيصاب بخيبة أمل ، ويرتد كيدته في نحره ، وتصيب الحيلة
صاحبها بضررها ، وتحرق معلمها بشواظها ، وتقلب الأمور عليه ، فتكون خسارته العادية
ضاعفة ، فلا يحصل على الزيادة ولا على أصل ماله ، وخسارته المضمونة كبيرة ، إذ لجأ
إلى الكذب والتضليل والاحتيايل ، وتقلب صورته وتشوه معاملها ، كان أسطنا فصار تلميذا
لتلميذه ، ظن نفسه خبيرا فطنا ، وحسن التدبيره ، وأصح الحيلة ، فإنها به تروسة ذلكمه
وصريح حيلته ، وإذا الذكاء غبا ، والاحتيايل حقي ، وإذا صورة المدين تشهير ملامعها
وتعرج خطوطها ، وتختلف ألوانها عدة مرات ، كانت بسيطة ما درجة ، قلقة حائرة ، تتوارى
عن العيون ، وتتخفى من الأنظاره ، ثم برزت في صورة مجنونة ، وهيئة كلبية نابحة ، فزادت
المداخلة ، وقلعها البله ، ولتمسك ثم انتهت إلى ذكاء حاد ، ورواة وتفوق ، حين تغلبت
على من احتال لها ، وانصرفت عليه ، ولم يصر في يده قليل ولا كثير .

إن مراعاة الجاحظ ، ودقة براعه ، وازدهار رسمه وألوانه ، وروعة بلاغته واتقانه ، وهزله
وسخره ، وتصويره وسحره ، قد منحها الصورة الكاركتورية ، التي التقطتها مخيلته ، فعبثت
بها ، وركبتها بالهزل والسخر ، وأحالت معاملها ، وقلبت سحنها ، وغيرت صورتها
البسمة أو العقلية أو النفسية أو الاجتماعية ، فكشفتها لنفسها وللناس ، وحسنت صورتها
وأبرزت ضعفها ، وغيرت نسبها تشييرا مضحكا ، مازلا ، فجاءت آية الآيات ، وهران التفوق
والسحر الفكري والأدبي .

ولكن أكانت سخريات الجاحظ ، وصوره الهزلية ، التي أنبتنا في كتبه ، من صنعه سدى
ولحمه ، ومن بنات أفكاره خلقا وإيجادا ، فهو ريب المعنى والفكرة واللفظ والأسلوب ، والتكوين

الفنى ٤٤ .

أم سيقه بهذا غيره ، وخطبا قلم قبل قلمه ، فللسابطين المعنى والفكرة ، وللجاحظ لرونق
والديباجة ، والأسلوب السلس ، والتصوير الرائع ، والصفحة المحبوبة ٤٥

أم نقلها من غيره ، ورواها عن أعلامه ، واطلع عليها في كتبهم فأنبتنا في كتبه ، فليس له

منها إلا فضل الرواية ، ودقة الحفظ ، وأمانة النقل ، وتخليد التراث ٤٦

لا شك أن الجاحظ خالق الكثير من هذه السخریات ، ويمتدح العديد من تلك

(الكاريكاتيرات) فهو مؤلف مواقفها ، ومنسق مناظرها ، ومدعى الجو المناسب والبيئة

الصالحة لها ، ورأس الانفعالات ، ومحدد الحركات والإشارات ، وصاحب الحديث والحوار

بمجرد المضحكات على ألسنة أناس لم تصدر منهم ، سواء أكانوا حقيقيين أم وهميين ،

ما ابتدعهم فكره ، وصورتهم له مخيلته ، فهو منشىء الشخصيات ومحررها ، ومنطقها

ومضحكها ، فالأسلوب أسلوبه ، والفكرة فكرته ، والتصوير الفنى ، والحبكة القصصية ، والكلمات

الساخرة ، من صنعه وتقديمه والعمل الفنى بأسره من ابتكاره والوجه الدسيسة

التي يقدمها على مائدة كتابه من ابتداعه ، فله بذلك فضل السبق ، وجودة الإنشاء ، وبراعة

الإخراج ، وبرعة التصوير ، وله تحية تقدير وإعجاب من علم النفس والاجتماع واللغويات ومن فن

القصة والرسالة والكاريكاتوره لما قدمه من خدمات ، وما استحدثه من إضافات .

وقد صح الجاحظ بما ابتدعه السخریات ، وابتكاره المضحكات ، وخلق الصور الهزلية

كما في رسالة التريح والتدوير ، وغيرها ، من السخریات التي لا ينك أحد في أنها من

إنتاجه ، وما لا تحتاج في إثبات نسبتها إليه إلى سوق الأدلة والبراهين ، يقول (كان

أحد من عهد التمام مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مرهما ، وتسميته

لسمة جفريه ، واستفاضة خاعته مدورا (٢٩) . ويقول : (فلما طال اصطبانا حتى يلبس
الجهد منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ، ونالف سبيله ، رأيت أن أكتف قناعه ، وأهدى صفحته
للحاضر والبادي ، وسكان كل نشور وكى مصره ، بأن أسأله مائة مسألة أهزأ فيها ، وأعرف
الخاص بقدر جهله ، وليسأل عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غره ، وليردوه بذلك
إلى ما هو أولى به) (٣٠) .

لهذه الأسئلة الساخرة إذن من صنع الجاحظ وابتكاره كما يقول ، ولا يدخل لأحد فيها
كما أن سائر الأوصاف الهزلية في الرسالة من نتاج قريحته .
وتما كذا نسبة السخرية إليه حينما لا يكون نحل ولا إضافة كلامه إلى غيره أو روايته عن غيره
كرواية في خرافات بعض المفسرين ، وفيما روى عن خلق المنانير والخنازير ، وما قيل عن
علاج لسمة الزنبور ، وما جاء في وصفه المرارزة .

وقد تحتاج في التمييز بين فكرته وأسلوبه ، وبين فكرة وأسلوب غيره إلى تلمظ وتدقيق
بظرف ، لتصرف أي السخرية له ، وأيتها ليست له ، ولنميز النحل من الصحيح ، فقد (يخيل
إلى القاري بادي الرأي إذ يقول الجاحظ حدثنا أو أخبرنا ، أنه يسوق كلام غيره كما في
رسالة الكندي مثلا ، ولكن حقق النظره وأعمل الفكره فليست في البجطة ترى لغير الجاحظ
قولا ، ولا غير أسلوبه أسلوبا ، ولا غير روحه روحا) (٣١) وإنما ولدها هو ، ووضع أحاديثه
واقنع فيها ، ونسبها إلى غيره ، وليست نسبتها إلى غيره دليلا على أنه ليس صاحبها ،
فإن (أسلوبها وطريقة وضعها ، ونحو الاستدلال فيها ، كل ذلك شاهد قوي الحجة ، واضح
الدلالة على أن الجاحظ هو صاحبها) (٣٢) وإن كان قد نسبها إلى غيره ، وليس

(٢٩) رسائل الجاحظ ص ٨٥

(٣٠) رسائل الجاحظ صفحة ٨٦

(٣١) كتاب البخل ، من الجار والعماري ص ٦

(٣٢) البخل ، الجاحظ ، تحقيق الحاجري ص ٤٠ المقدمة .

هذا كما كان يشيع في عصره من توليد بخرته الجاحظ ويذكره ويصف به غيره في قوله : (ولو
أن رجلا ألق نادرة بأبي الحارث جمين ١٠٠) (٣٣) وقره هو ، وهو يفرق في طريقه وينتمجه نفس
شبابه حين كان يولف الكتب وينسبها إلى غيره من مشاهير الكتاب لتسيع وتديع ، وتكتسب
المدة والسجد ، بقوله : (كنت أؤلف الكتاب الكثر المعاني والعلم النظم والنسب إلى
نفس فلا أرى الأسع تصفى إليه ، ولا الإرادات تتم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة ،
وأقل فائدة ، وأنحل عبد الله بن الحنفية أو سهل بن هارون ١٠٠٠) (٣٤) ،
وقد سبقه غيره إلى سخريات وصور هزلية ، ويتحدث بها رجال قبله ، وهم أرباب
فكرتها ، وراضوا أسماها ، ولكنه يتناول هذه الفكرة بدباحتها المشرقة ، وتصويره البدع
وتصغفه وفوضه ، وتحليله النفس ، ويتمدها بالتفحيز والتعذيب ، والتنظيم والتسويق ،
ليحذف منها ، ويضيف إليها ، ويغير هيئتها ، ويصعبها في غير قالبها ، فتبعد عن أصلها
وتتبدل صورتها ، وتستحيل صورة أخرى جديدة هو أحق بها وأهلها .
ويثبت ذلك ما يرويه في كتبه من صور ساخرة ، ومن قصص ومواقف هازلة ، صدرت عن رجال
سبقوا عصره ، وماتوا قبل مولده ، لم ير الجاحظ مواقفهم ، ولم يعش أحداثها ، وإنما سجلها
في كتبه منسوبة إلى أصحابها ، بعد أن نقلت إليه ، وطرفت سمعها ، أو بعد أن اطلع
عليها في كتابات غيره . وما كان أكثر اطلاعه - ولكن بأسلوبه هو ، وبطريقته في التصوير
والأداء ، وذلك كمدنيته عن عبد الرحمن بن أبي بكر الذي ألقى (على خوان معاوية
فراى لقم عهد الرحمن ، فلما كان بالعنى عراج إليه أبو بكر ، قال : ما فعل ابنك
اللقامة ؟ فقال : اعتل . قال : مثله لا يمدم العلة) (٣٥) . وروايته السخريات
لشام بن عبد الملك ، ومعاوية ، وأشعب ، وهو يخطب ابن عبد العزيز ، وللال بن أبي

(٣٣) البخلاء ، الجاحظ : شرح الجام والصوامري ص ٣١

(٣٤) رسالة فصل ما بين المدواة والحسد من مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٠٨

(٣٥) البخلاء ، الجاحظ : تحقيق طه العاجري صفحة ١٥٣

بردة (٢٦) وغيرهم وغيرهم .

يقول الدكتور عبد الكريم الأشتر في كلامه عن فن القصة في كتاب **البخلاء** للجاحظ ،
 (فأقول على الموضوع . يجمع الحكايات والقصص والنوادر والاحتجاجات ، ويحيد كتابتها بأسلوبه
 الخاص ، فيلن المشاهد ، ويحلل النفوس ، ومظاهر السلوك ، ويختصمها بالتفصيل الوصفية
 الدقيقة ، حركات الوجه واليد والعين والقدم ، ويصنع الحوارات التي المترابط المركب
 ويستعين بموهبته في الإضحاك ، والوقوف على منبر الضحك ، في الكلمة والطبع والإشارة
 تميزها عن مطلق في خلال ذلك نظرت إلى الحياة والإنسان ، ويكتب هذا كله بلغته الطبيعية
 البسيطة) (٢٧) .

ويقول جورج غريب في كلامه عن **بخلاء الجاحظ** : (ومع ذلك فهو لم يقتبس من سابقه
 سوى عشرين نادراً كما يقول . أما ما وضع على السنة الكثيرين من نوادر وأخبار وأحداث
 فليس في ذلك دليل على أن أبا عثمان يسوق كلام غيره) (٢٨) .

وقد تكون السخريات لغيره ، لم يخترها هو ، ولم يبتدعها ، ولم يغير صورتها ،
 وإنما ذكرها في مؤلفاته ، ونقلها إلى كتبه كما هي ، دون تعديل أو تهديل ، فله بذلك
 شكرنا على تخليده التراث ، وإحياء الآثار الأدبية ، وإبراز صور الحياة في عهده ، وما قبل
 عهده ، ثم إنها أوضحت لنا جانباً من أدب الجاحظ ، وتذوقه ، ونقده ، وأطلعنا على
 إحماسه الفني ، وشغوره بالجمال الأدبي فتقديره للكاركاتورة وللصورة الراقية التي
 وجدت فيها يلتقطها من مكنيا ، ويختارها لكتبه ، ويوتضها لقصصه ، ويضها إلى
 نوازه ، وساخراً أدبه ، معلنا من صاحبها ، كرسالة سهل بن هارون (٢٩) .
 والسخر الذي تاتر في مؤلفاته ونسب إلى أربابه .

(٢٦) البخلاء : الجاحظ : تحقيق طه الحاجري الصفحات : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ .
 (٢٧) محاضرات الموسر لتقاني عام ١٩٦٤ / ٦٣ الجزء السابع مطبعة الوزارة بدمشق
 صفحة ٢٢٩ .
 (٢٨) الجاحظ : جورج غريب ، صفحة ٧٧ .
 (٢٩) يرى الصوامري والجان أن رسالة سهل بن هارون له حقيقه . كتاب البخلاء ص ٦٠ .

وقد ينقل بعضها لافية فيه ، واعتزاز بنسجه وحياتك ، وبراءة صوته ، وإنما لنقد ما لا يروق
 منه ، وكصة من يريد أباه أن يشير باللقمة إلى قطعة الجبن من حميد دون أن يمسها حتى
 لا تصاب بنقصان . فيقول : (ولا يخجيني هذا الحرف الأخير ، لأن الإفراط في إطالة له ، وإنما
 تحكى ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله أو حجة أو طريقة . فأما مثل هذا الحرف
 فليس ما تذكره) (٤٠) .

ولعل كلام الجاحظ نفسه ، وحديثه عن سخريات من الهخلاء ، يفيد ما أوضحته من أخذه
 طرفاً من لسخر من أصحابه ، وابتداعه طرفاً آخر ، ^{ورواية} وليت سخريات تناولها بقلبه وألسنه
 وإن كانت أفكارها وحوادثها لخير . قال : (هذه ملقطات أحاديث أصحابنا وأحاديتنا ،
 وما رأينا بميتنا ، فلما أحاديث الأصمى ، وأبي عبدة ، وأبي الحس ، فإني لم أجد منها ما
 يصلح لهذا الموضع ، إلا ما قد كتبت في هذا الكتاب ، وهو بضعة عشر حديثاً) (٤١) .

٦- الصورة الكلية الشاملة ،

وقد يفسح الصورة ، ويوسع مجالها ، ويمد أطرافها ، لتشمل شخصية بأسرها ، وتتاولها
 من جميع نواحيها ، ويكشف تفاصيلها ، ودقائقها ، ويفضح عن نزواتها ونزقاتها ، وآمالها وآلامها
 وحقيقتها وخيالها ، وواقعها ورومها ، ويوضح لنا موقفها من الناس ، ومن نفسها ، وتسم
 موقف الناس منها ، ولا يكتفى بأبوابها ، وإظهار مخبئاتها ، ويوضح عيوبها ، بل يعمد
 بتلخيصها ، ويقلب نسبها ، ويبرز بأعضائها وتركيبها ، وقلوبها ونفسياتها ، وانفعالاتها ،
 في عرضها فن ، وتصوير ضاحك ، ورسم كاريكاتوري حازل ، يشوهها ويسخنها ، ويجسم
 معنوياتها ، ويشخص أوهامها ، ويضخم مآلها ، فإذا هي هزأة ألام الناس
 وإذا بها صورة فريدة في نوعها ، عجيبة في باهرها ، لا تقالها يدقنان ، ولا يسور إليها

(٤٠) كتاب الهخلاء شرح المومني والجام الجزء الثاني صفحة ٥٨ .

(٤١) المصدر المذكور صفحة ٨٢ .

قل أديب ، ما يكتب لها المجد والخلود .

واقف الآن أمام عمل متكامل الخلق ، تلم النضج ، أمام رسالة طويلة في الصغرية مسن
شخصية واحدة امتدت فغطت أكثر من خمسين صفحة ، تظهر فيها براعة الكاتب ، وسعة
نرده ، وامتداد نفسه في هذا المضمار ، هي رسالة الجاحظ في أحمد بن عبد الوهاب
الجهلي التي سخر فيها منه فخلد له بها صورة كاريكاتورية ، رسم بساخرته خطوطها ، وفتح
بها خيرته ألوانيا ، وأضاف إليها من روحه ، وخفة ظله بصارة تثبت ألوانيا ، فلا
تحمى ، ولا تتجرد ، على مر الأيام ، ثم أحاطها بإطار من الفكاكة والرج ، يجذب إليها
كل ناظره ، ويلصقها بالقلوب والخواطر ، فلا تستطيع من أسرها فككا .

ويجدر بنا أن نتناول الرسالة ، ونعمن فيها النظر ، ونحلل ما فيها من كاريكاتور ،
فهي جديرة بذلك ، باعتبارها أول عمل فني طويل متكامل في ميدان السخر ، ولد شابا
ينضج قوة وصيرة ، ولا زال شابا فتيا حتى يومنا .

فما بنا الآن إلى تلك الرسالة ، نطلع على شخصيات الجاحظ الأدبية النقدية من خلالها
نرى اللغات الفنية ، والألوان البزلية ، والابتكار والصبورية ، ولنتأكد أن الرسم بالكلمة
قد يفتق الرسم بالفرشاة ، وأن الأديب البارع يوفى المنظر حقه ، والصحرة متطلباتها ، فتروع
وتتهجر ، أكثر ما يؤديه الرسم ، ويقوم به المصور ، ويستنده النحات والمثال .

رسالة التريب والتدوير

رسالة كتبها أبو عثمان الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب ، يسخر فيها منه ، ويتهمك
به ، وهي أول رسالة في اللغة العربية ، كتبت في هذا الغرض ، واختصت به ، وصوت
السخر تصويرا كاريكاتوريا هازلا ، تناوله من جميع نواحيه تناولا بارعا ، وسخر شمس

وتفطه تفوته وأسبقيه .

تلك فكرة عاجلة عن الرسالة ، ونبرة مختصرة عن محتوياتها ، وأسلوبها ، وموضوعها ،
وما ياتها ، وطرق الاقتان فيها ، أما نصوصها ، وتفصيلها ، ونواحي القوق فيها ، وجواب
فن السخر التي تضمنها ، فاليك بها ، بعد أن تعرف الشخصية التي سخر منها وبواعث
السخر ، ودوافعه إليها .
الشخصية التي سخر منها ،

إن الشخصية التي سخر منها الجاحظ في رسالة التريح والتدوير ، وسلط الأضواء الكاشفة
على زواياها المجهولة ، فظهرت واتضحت ، ووضع عليها جهر سخطه وهزته فتمت وعظمت ،
وعيث بدقا نقيا وتفاصيلها فتعرجت وتكررت ، واستطالت ثم تقبضت ، وألهمها بعيم هزته
فتشوهت وتقرحت ، لا بد أن يكون لها شأنها وخطرها ، حتى يناصبها الحداء ، ويحبس
قلعه للحديث عنها فترة من الزمان ، ويستطيع أن نستخلص معلومات عن هذه الشخصية
من كتابات الجاحظ نفسه ، فهي خير برهان ، وأوفى دليل .

يذكر لنا الجاحظ أن صاحب هذه الشخصية هو أحمد بن عبد الوهاب وقد صرح بذلك

في مستهل رسالته فقال : (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدهى أنه مفرط الليل) (٤٣)
وقد أثار إلى هذه الرسالة وصرح باسم صاحبها في كتابه الحيوان ، فقال : (فان أعجبتك
هذه المسائل ، واستطرفت هذا الذهب ، فاقرا رسالتي إلى أحمد بن عبد الوهاب) (٤٤)

وقد صرح بضاعته وهي الكتابة في قوله : (فاقرا رسالتي إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب) (٤٥)

وقد تبين لنا أنه من كتاب الأمراء ، ولا من كتاب الديوان فقد قال : أبو الفج الأصفهاني
(وكان لصالح بن عبد الوهاب أخى أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد) (٤٦) . كما
أوضح لنا أن القبيلة التي ينسب إليها هندية قحطانية في قوله : (ولم أزم أنك رجل يمان

(٤٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، ص ٨٥ طبعة دار النهضة الحديثة بيروت سنة ١٩٧٢ .

(٤٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء ، صفحة .

(٤٥) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٤٦) الأقباني ، أبو الفج الأصفهاني الجزء الثاني عشر صفحة ١١٠ مطبعة التقدم .

لولا ذلك لكان قد طان ، كيف وأنت أقدم من قحطان (٤٧) ، ثم صح باسم قبيلته " بجيلة " في قوله ، (والله لكن رميتي ببجيلة لأرمينك بكائة) (٤٨) ، وقد كان مذهبه التشبيه ، والقول بالبداء ، والرفض . يقول الجاحظ له ، (فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطنها وما فيها مجال ، وما فيها فاسد ، فألنم نفسك قراءة كتيبي ، ولنهم باين ، وابتدي بنفسك التنبيه ، والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال) (٤٩) ، ويقول : (وما الحجسة في الرجعة ، والقول في المناسخ ، ومن أين قلم بالبداء) (٥٠) ، ويقول : (وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت في طرفه . . وأنت رافضي) (٥١) ، ولا بد أن يكون ابن عبد الوهاب شخصيه ناهية ، لها مكانتها بين الناس ، ووزنها بين الكتاب ، وأهميتها في الدولة ، وإلا فكيف يناصب الجاحظ - القم - العداء ، رجلا من عامة الشعب ، وغواة الأمة ، ويطلق السخرية منه ، وسخرية يظهر القصد منها ، ويتضح السر في أن إظهارها شفاة ليخيط قلبه ، وضيق صدره .

وقد كانت للبهلي مكانته المرموقة في الدولة ، وله أحرابوه الذين يدافعون عنه ويستمد إليهم عند اشتداد الكرب ، ومن وجهاة الدولة ، وأولى الشأن فيها ، كصالح بن علي ، وسلطان بن وهب ، وجمفر الخياط ، يقول الجاحظ في الرسالة ، (لكن نهضت بمصالح ابن علي (٥٢) لا نهضت بأحد بن خلف (٥٣) ، وإسماعيل (٥٤) بن علي ، ولئن صلت علي

- (٤٧) مجموعة رسائل : الجاحظ ، ص ١٢٢ طبعة دار النهضة الحديثة ببيروت عام ١٩٧٢ .
- (٤٨) المصدر السابق صفحة ١١٨ .
- (٤٩) المصدر السابق صفحة ١٢٠ .
- (٥٠) المصدر السابق صفحة ١٠٤ .
- (٥١) المصدر المذكور صفحة ١١٩ .

٥٢ صالح بن علي بن عبد الله بن عباس قائد من قواد الدولة العباسية وأمير من أمرائها تبع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حتى قتله في مصر ، تولى إمارة الحج عام ١٤١ هجرية .

(٥٣) محمد بن خلف كان يهاصر الجاحظ وكان مشهورا بالبخل وله في كتاب البخل أحاديث وكان الجاحظ يمتريه ويفخره .

(٥٤) إسماعيل بن علي هو أخ صالح بن علي وكان من قواد الدولة العباسية ، تولى إمارة الحج سنة ١٤٢ هجرية .

(٥٥) سليمان بن وهب لادمغتك بالحسن كهن وهب، وثمن تمت على بغانصة جعفر الخياط

لا يبين بحمة وهب الدلال (٥٧) ، كما كان من أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات كما يذكر

أبو الفتح الأصفهاني في كتابه الأظاني (٥٨) وفي ذلك الدليل على أن هناك من كانوا يوازونه

ويحتمد عليهم في الشدائد، من كانوا ذوي أهمية في الدولة، وصدارة في المجتمع العباسي

ولا يلقى بثقلهم أن يوازوا ويشدوا عضد ابن عبد الوهاب إن كان من رعاغ النامرود همائم

ولا يلقى به، بل يجرو أن يقتصر بهم إن كان من ضار العامة، ثم إن من يقف من الجاحظ

موقف المعارض الناري في المذهب والآراء الدينية وصناعة الكتابة، وفي القبيلة التي ينتسب

إليها، وفي الأ نصار المنجدين، والمساعدين عند الشدائد، لا بد أن يكون له شأنه وخطره

ويكفي لرفعة قدره، وامتداد سلطته أن يكون صاحب ابن الزيات، وتدهم جعفر الخياط،

ومتصلا بصالح بن علي، وسليمان بن وهب.

الذائع إلى تأليف الرسالة.

كان لأحمد بن عبد الوهاب - كما أسلفنا - كبير من رجالات الدولة الذين يسا عدونه

ويشدون أزره، وينجدونه عند الضائقة، ويصلون بهم على من يحترضه بأذى، ويناله بسوءه

ومن كان كذلك كانت له منزلة الرفيعة في المجتمع، ومكانته السامية بين عطاء الدولة،

ولدى رجال الحل والمقد في الأمة، وليس يبعد أن يكون قد احتل المركز المرموق

من قلوب الخلفاء والأمراء والوزراء، وذلك شي يشير الغضب في نفس الجاحظ، ويبعث

على الحق، ويحرك نار الشيط لقد كان الجاحظ يرى نفسه في غير مكانه، لم يقدر حتى

قدره، ولم يوضح حيث ينبغي أن يكون، وأنه لو أنصف لكان هو الخليفة، ومحمد بن عبد

الملك الزيات يأتمر بأمره، ويعمل تحت يده، وسواء أكان ذلك منه على سبيل الفكاهة

(٥٥) من كبار رجال الدولة العباسية وكان وزيرا من فرائدنا.

(٥٦) كاتب عالم شاعر توفي عام ٢٤٧ هجرية تقريبا.

(٥٧) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١١٨ طبعة بيروت دار النهضة الحديثة سنة ١٩٧٢

(٥٨) الأظاني، أبو الفتح الأصفهاني، الجزء الثاني عشر صفحة ٢٢٥٢١ مطبعة التقدم

والمن أم على سبيل الاعتزاز بالنفس والاعتراف برعمة القدره إلا أن المؤكد أن الجاحظ كان طلعة ، ذا آمال عراضه ، وتقدم في الحياة ، وارتقاء في معارجها لا يعرف الطلوع والكلال ، ومن الصعب على من كان هذا طموحه ، وتلك آماله أن يرى من هواظر تربة وأقل منزلة ، قد نال فوق ما ينبغي له ، حتى ليكاد يملو أو يساويه في الشرف والمكانة ، والجاحظ الذي ينفر من الظلم ، ويبغض السكوت على الضم ، ويكره التسليق إلى الجسد بالذم شريفة ، والتسلل إلى المعالي في قفلة الرقباء ، لا يستطيع قلبه الساخو أن يصمت : إزاء هذا العرق ، فشره سلاحاً بتاراً ، وببعضها يتأصل تلك الزيادة غير الطبيعية التي نعت في شرف ابن عبد الوهاب ، ونأت في قدره ، واختار الكاريناتور ترياقاً يحميه نفسية الجهل إلى حالة من التوازن والاعتدال ، وينفي ما أصابها من أورام ضخمت شخصيتها ، ونفخت كيانها .

وكان ابن عبد الوهاب كاتباً ، وكان الجاحظ يكره الكثير من أفراد هذه الطائفة ، ويعيبها ويذمها ، ويرأها من الثقافة ، وقلة الفطنة ، وضمف الأداة ، في مستوى يبرى بتلك المهنة الرفيعة ، ويحط من قدرها ، لا يهتمون إلا بمظهرهم فإذا فتشت عقولهم ، ووقفت على دخالهم ، هالك الجهل والحق ، وسوء التدبيره وضحالة التفكير ، وذلك ما جعله يترك الديوان سريعاً ولم يطق أن يكتب فيه أكثر من ثلاثة أيام مع أمثال هؤلاء الكتاب الذين وصفهم بقوله : (إن قبح الكتابة ينس على أنه لا يتقدها إلا طابع ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ، ولم نر عظيمها قط تولاها بنفسه ، أو شارك كاتبه في عمله) (٥٩) وجلس الجاحظ يوماً في بعض الدواوين فتأمل الكتاب فقال : خلق حلوة ، وشماثل مشرقة ، وتظرف أهل الفهم ، وقار أهل العلم ، فإن ألقوت عليهم الإخلاص ، وجدتهم كالزبد يذهب جفاً ، وكهنة يحرقها الليف من الرياح ، لا يستندون من العلم إلى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة (٦٠) ، فقد امتلأ قلبه بكرههم ، وقد كان لابن عبد الوهاب من تلك الكراهية

(٥٩) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوشع فننل صفحة ٤٢ الطبعة الثانية المطبعة السلفية ١٨٢ هـ

(٦٠) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوشع فننل صفحة ٤٥ الطبعة الثانية المطبعة السلفية ١٨٢ هـ

أوفى نصب جبرته الجاحظ برسالة طويلة ساخرة وخصه بها ، شفاءً لفيظ نفسه التي ، ترى فيه النظرة ولا ترى المخبره وتتظرا لصنعة الشريفة في أيدي الأخصاء المفلوكين .

ثم إن الجاحظ كان ساخرا بطبعه ، وميالا إلى الفكاهة بفطرته ، يطلبها ويلتمسها في شتى مواطنها ، ويولدها ويشقق منها الرائق إن لم يجدها أمله ، ويخترعها ويتدعها إن لم تسعه حافظه ، رواية الناس منها ، ويتخذها أداة تعاض وأسلوب رده ، وشعلة يهدي بها الضال ويعرفه بنواظرها إن لم يستجب لتوجيهاته ، وفلسطيا على ابن عبد الوهاب فسخره ، وتركه صريح هزئه ، وقيل تمككه قال في كتابه الحيوان : (والحديث عن مسخ الحضب والجري ، ومن مسخ الكلاب والحكاة وأن الحمام شيطان ، من جنس المزاج الذي كنا كتبنا به إلى بعض إخواننا ممن يدعى علم كل شيء ، فجميلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار من باب المسائل نقلنا له ما الشنقاق والصبان وتكوير ودركا داب ومن قاتل امرأة مقبل) ويقصد بذلك أحمد ابن عبد الوهاب لرووده هذه الأسئلة في رسالته .

وقد كان ابن عبد الوهاب في هيئته وسحنه ونفسيته وعقليته ، صورة متناقضة ، تدفع الجاحظ بما طبع عليه من حب للمع والفرح ، وما قرى جبلته من ليج بالسخر والطرز ، وما انفعلت به نفسه من كره له ، وفضب عليه ، إلى أن يتناولها بقلمه ، فيرسم لها الخطوط ، يظلمها ويخرجها ، ويثقلها ويدهرها ، ويعمق بطولها وعرضها ، ويضفي عليها الظلال ، ويسكب فوقها الألوان ، فإذا هي صورة مشوهة ، ولوحة للقيح مجسنة ، يساعد في ذلك ، ويده بالخطوط والأصابع ، والعماني والأفكار ، ما كان عليه ابن عبد الوهاب من قصر ودانة ، وسباهة بفزارة ملكه ، ووفرة أدبه ، والجاحظ ينظر إليه بعين الزاوية ، ويراه بلحاظ الهزء ، ويعلم فروره وتعبه ، فهو منه هزءا ، ويحول مسخا ، ويصوره تصويرا كان يكاتوريا ، يفصح عن خفاياه ، ويفصح بكنهايا ، ، فنضك ونقيفه ، ونسر ونسعد .

كان الجاحظ يهين الوجه ، مشوه الخلق ، إلى الحد الذي جعله يقول : (ذكرت للمتوكل
لتأديب بمضروكه ، فلما رأيته استبشع نظري ، فأمرني بمشرة آلاف درهم وصرفني) (٦٢)
ربما كان ابن عبد الوهاب جميل الوجه وسينا بدليل أن الجاحظ لم يتعرض في رسالته
للسخر من وجهه . . . فغاضه ما عليه ابن عبد الوهاب من عبادة ، وفيه ما عليه وجهه هو من
دمعة ونصب ! لى ابن عبد الوهاب تهجه ، وأسقط عليه شومته فأوسعه هزوا وسخرا ليتخفف
ما ملأنفسه من ألم ، وكريها من تشويه فكان هزوا بعيدا عن الوجه منصبا على خلقه وطمه
وقله ، وقصره وتدوير بطنه ، مما لنا في ذلك ، متخذا التاريكاتر أداة للمسح والتشويه .
ربما تاه ابن عبد الوهاب بنفسه ، واغتر بمنصبه فاعتقد أنه فوق الجاحظ ، وأن يسده
لن تالم ، فعابه ، وهزى به عواده ، وهجاء مستغلا في ذلك منصبه وتفوقه ، وصحبته
كبار رجل الدولة ، وكثر ذلك منه حتى ضاق به الجاحظ بعد طول اصطياره ، فألف رسالته
في السخرية منه ، طويلة بقدر صبره عليه ، لاذعة بقدر ما حبس في نفسه ، وكظم في قلبه
وما يهد ذلك قوله في الرسالة : (فلما طال اصطيارنا حتى بلغ الجهود منا مؤكثنا نعتك
مذاهبه ، وألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدي صفحته للحاضر والبادي ، وسكان كل
قصر ، وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة ، أهذا فيما نأعرف الناس بمقدار جهله ، وليسأله
مدا كل من كان ^{في} منك ، ليكفوا عنا من غريبه ، وليردوه بذلك إلي ما هو أولس به) (٦٣) وقوله :
(فانت والله يا أخى تعلم علم الاضطرار ، ولم الاختيار ، ولم الأخباره ، أنى أشد منك
عقلا ، وأظهر منك حزما ، وألطف كبيدا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما ، وأخف روحا ، وأكرم
عينا ، وأقل غشا ، وأحسن قدا ، وأبعد غورا ، وأصعب طرفا ، وأكثر ملحا ، وأنطق لسانا ،
وأحسن بيانا ، وأجهر جهارة ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تشد ومن العلم ، وتتفق من

(٦٢) وفيات الأعيان : ابن خلكان الجزء الثالث صفحة ١٤١ تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحمد . مكتبة النهضة سنة ١٩٤٨ .

(٦٣) مجموعة رسائل : الجاحظ ، صفحة ٨٦ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ دار النهضة الحديثة .

والاختياره وتروى نفسه ، ومغفون قدره ، وتسمى بالشباب ، وتتنيل بالمراب ، وتتهيب
 بحسن اللقاء ، وليس عندك إلا ذلك ، ثم تزامم البحار بالجدائل والأجسام بالأعراض ، ولا
 يتأخر بالجزء الذي لا يتجزأ (٦٤) وفي ذلك الدليل على أن ابن عبد الوهاب كانت بينه
 وبين الجاحظ ملاحاة ، ومناقسة ، وأنه طه بنفسه على الجاحظ وغيره بمضالته ، وحط من قدر
 الجاحظ ونزل به إلى الدرك الأسفل ، مما حدا بالجاحظ أن يرد عليه ، ويرى به ، ويبتسل
 كلامه ، فكان الرد هذه الرسالة الساخرة .

اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات وشأعبيهما
 صداقة وطيدة ، ثم حدثت بينهما جفوة ، وقد اتصل كذلك ابن عبد الوهاب بابن الزيات
 وطرب منه ، وغربه إليه ، وربط انتشار ابن عبد الوهاب هذه الجفوة فأطلق لسانه في الجاحظ
 ليزداد قره من العليقات ، وربما كان السب في الجفوة الواقعة منه ، والوشاية به ، وربما تألم
 الجاحظ لأن ابن عبد الوهاب حل محله ، فثار نفسه وكان ذلك سببا في إنشاء الرسالة .
 دان الجاحظ بالاعتزال ، واتخذ مذهباً دينياً كلامياً ، ونبغ فيه وانفرد ببعض مسائل
 خالف فيها ما عليه عامة المعتزلة ، وأفردت بطريقة اعتزالية خاصة ، نسبت إليه ، وتهمتها

جماعة سميت باسمه ، فصار زعيم الطائفة الجاحظية المعتزلية ، واعتق أحمد بن عبد الوهاب
 البجلي الرضي والتشبيه والقول بالهداية ، فخالف مذهب الجاحظ الكلامي وعارضه ، والجاحظ
 رجل الفكر والنطق والكلام ، وينصب نفسه مدالما صابراً حقا ، ويسخر ويهزأ بكل ما يعتقد
 خطأ ، ويظلمه ، ومن ثم هزى ابن عبد الوهاب ، وهاب مذهبه ، وضالة شكره ، وحوله
 ونزقه ، وهت سخريته ، وانفسج مداها ، فشملت جسمه وخلقه وكل شيء فيه .

التصوير المنزلي في الرسالة :

نظالنا رسالة التبريح والتدوير بالوان من السخره يدية وصور من المنزله مشوهة ، تناول فيها الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب ، ونسخه مرميت بشكله وحيثه ونهى ، بأخلاقه وآدابيه ، وتكلم بتفاحة تفكيرة ، وقلة تدبيره ، ويزري لجهله وهيه ، وبالفات والامانات ، وكذبه واقترافاته ، واتخذ لذلك الأساليب التي تزلزل وتزيين ، ولصيب فتصبي .

فتارة يرسم جسده بحباراته ، ويصوره بألفاظه ، رسما مشوها ، وصورة مسوخة ، يدوره فيها ويكوره ويقصره ويقلله ، ويلقى التناسب والمساحات بين أعضائه ، ثم يعطه ويظلمه ، ويعدله ويقيمه ، ويباعد بين أعضائه ، ويزيد في قامته وهامته ، فتراها ينكمش وينقبض ، ثم يطول وينبسط . وطورا يرفعه إلى درجة الكمال ، ويخلق عليه شخصية (السيديان) ^(السورمان) ويجعل الكمال الخلق .

والخلق مجتمعان فيه ، وتابعان منه ، وما في الناس منهما إنما هو خيط وصلهم به ، وشعاع من مثله منه ، إلههم ، فبههم ضيا ^{ضياؤه} ، فاذا حسن الناس إذا قيس بحسن طلعتة فحسا ، وإذا ذكاهم وألمعتهم إذا وزنت بذكائه وألمعته جيلا ، وحقا ، هزأ به ، وسخرأ منه من طرف خفي ، أشار إليه إشارة ، وأوما إياه ، أو ترك الموقف يدل عليه ، ويرشد إليه ، وكثرا ما يحقد الموازنات بينه وبين غيره ، من سبقوه ، ومن حاصروه ، فيجعل كفته راجحة ومظلمة لا تطفئ ، ويصوره في أوج المعالي ، وفي قمة الالكتال ، قد فاق كل مشهور فيها شهره ، فالأد هو وحيد دنياه ، ونموذجا فريدا في بابه ، وفرضه من ذلك السخرية ، ورائسده .

الزراعة .

وأحيانا يصح بصيوره ، ويدله على مخازنه وذنوبه ، هليلج يرتدح عن فيه ، ويتبين مدى قبحه وحيلته ، فيصرف لنفسه قدرها ، ويضمها في مكانها . وقد يوازن بين نفسه وبينه ، موازنة بين عملاق وقزم ، ودارة وحصرة ، وبشخص صفات كل منهما ، ويجعلها بإزاء بعضها ، فتبين عظمة العظم وتتضاعف ، وتتضح تفاحة التافه وتتموه فلذا البون شاسع ، واللبوة سحيقة ، والمسافة الفاصلة بينهما هائلة .

وطورا بقلب الحقائق ، وبتحريك ما يجمع الناس على قبحه ، ويرون فضله ونوقه ، ويبرهن على صحته ما ذهب إليه ، ويمدح به ابن عبد الوهاب ، ويجعله من خصائصه ، وميزاته التي تافق بها بني جلدته .

وأكثر الرسالة محفود على إخراجها بالأسئلة ، بمساءلة ما فسالة يكون جوابه عليها الصواب والحصر ، فإذا هو صورة مجسمة للجسد ، وتمتوج للسفوف والطيش .

وهي ذلك فالصورة (الكاريكاتورية) الأدبية أتمج مجالا ، وأرجب صدرا ، من أن تقتصر على المسخ الجسدي ، والتشويه المضي ، بل إن العبث بتفاصيل الجسم ، وتشويه معالم النفس ، وانعدام التلازم بين العاطفة والعقل ، والجسم والروح ، والعادات والعمومات ، وفقدان المتوازن بين الأمور الحسية والعقلية ، ووجود التضارب بين صفة وصفة ، والتصوير حسن الاضطراب والتردد في تصرف الشخص ، وشذوذ سلوكه ، وتصوير ذلك في عبارة ساخرة هازلة كل هذه الألوان ^{من} الكاريكاتور ، وكلها قد لمستها بمرآة الجاحظ ، وكونت منها صورة ابن عبد

صبر

عبد الوهاب ومثت بها من جميع نواحيها .

فلنصاع إلى صورة ابن عبد الوهاب التي أنتجتها عبقرية الجاحظ لنصرف له فضله ، ونحتوف بأهنيته وحذقه ، كونستمتع بنقوشه وتصاويره ، ثم نفخر بوجوده بين أديب الصريفة ومفكرها .

∴ ∴ ∴

اب العبث بتفاصيل جسده ،

ك) الصورة تخالف ظلها ،

يستعمل الجاحظ رسالة الترييح والتدوير يرسم الصورة الدلزية الضاحكة لجسم ابن عبد الوهاب ، فيمد يده بالتشويه في خطوط عرضه ، وخطوط طوله ، فيطيل خطوط العرض ، ويقوسها وتدويرها ، ويجعل خاصرته مستقيضة وخطه أماه مستدة ، ورأسه كرة هائلة ، ويضغظ علسي

خطوط الطول من أطرافها بمنفصفتا صر خطوط العرض في تحقيق هندتها من استدارة

الرأس والجسم ، ثم يضغظ على خطوط الطول من أسفلها ، فيقتصر أصابعه ، وتجمت أطرافه

وتكتمش نظام فخذ ، وتتقارب مفاصلها ، ولو وقف المنظر عند هذا الحد الذي نجد فيه
ابن عبد الوهاب مكعبا مربعا مدورا ، والذي حدا بالجاحظ إلى أن يسوق رسالته " الترهيع
والتدوير " لهذا الطرب ، واستولى علينا الضحك ، ولم نستطع كتمان ما في نفوسنا من سخر ،
أو حس أهدينا من الإشارة إلى تلك الصورة عجبا وانسراحا ، ولكن المنظر يتسع ، وتكون
له خلفية يسقط عليها ظله الذي يختلف من الأصل ، وينأى عن الحقيقة ، فهو طويل الباد ، رفيع
العماد ، وأخمس البطن ، ورشيق عتيق ، وعلى خير ما يكون الاكتمال الجسماني ، وعلى أتم ما
يكون التناسب بين الأعضاء ، فتتضاعف السخرية ، وينمو الموقف المنزلي ويتعاضد ، حين تقارن
بين الحقيقة والخيال ، والواقع والادعاء . يقول أبو عثمان (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط
القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ، وتحسبه لسمة جفرت ، واستفاضة خاصرت مدورا
وكان جماد الأطراف قصير الأصابع ، وهو ذلك الذي يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه
أخمس البطن ، ومحتدل القامة ، تلم العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو
مع قصر عظم ساقه ، يدعى أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الياصة
قد أملى البسطه في الجسر) (٦٥)

ب - القلاب الصورة ظلا والظل صورة :

وتكرر ادعاءات ابن عبد الوهاب ، وتتوالى انقراءاته والجاحظ يجاريه ، ويجسم له
أوهامه ، ويقلب حقيقته ، ويستعمل لذلك أسلوب المخالطة يحول به الظل أصلا ، والأصل
ظلا ، فيغير خطوط الصورة ، ويبدل الألوان ، ويحسب الأوضاع ، فيجعل الظل حقيقته وجوهه
وأصله الذي يعلنه الله ، وينكره الناس ، من طول وجمال ورساقة ، وكأنه الصورة رسمت
قبل الخروب ، ويجعل أصله وحقيقته ومنظره الخارجي الذي يظهر به أمام الناس ظلاله ، ورسمها
مشوها لحقيقته ، يبرز فيه قصره وظلته واستدارته وكأن الصورة قد رسمت وقت الزوال ، والناس

لا يستطيعون أن يميزوا جمال كماله ، لأنهم يدركونه بحواسهم التي تخدعهم ، فتظهر لهم
 قصره ومرضه ، وإن كان في الحقيقة طول جميل ، وقدود مشوق .
 ومن جنوحه إلى المنطق ، واستمالة أساليب الجدل ، يبين لهم أن استفاضة مرضه هي
 التي جعلته يبدو قصيرا ، وما ذلك إلا من خداع الحواس وكذبها في إيصال المعلومات
 الخارجية ، ولكنه في حقيقته طويل يعلم ذلك الله والراسخون في العلم الذين يعتمدون
 على العقل إذ هو الحكم والفيصل .

على أن الجميع يحكم - حسا وقلا - بطول بانه راكبا ، وطول ظهره جالسا ، وإن
 كانوا يختلفون في طوله قائما وضطجما ، والله يعلم والذهن يؤكد أنه في الحالتين طويل
 على ما يسميه الناس في غيره يزول شينه إن نسب إليه ، فلئن كان واسع الجفرة فهو مقدود ،
 ولئن كان مستفيض الخصرة فهو رفيع هذا رشيق ، لا يؤثر فيه النقص لأن كماله يطنى عليه ،
 ولئن كان العرض يمتدح في بعض الأحيان ، والطول يمتدح في بعض الأحيان فإن أحسن
 يمتدح في كل الأحوال ، لأنه ضم إلى مرضه الطول ، وجمع من كل نوع ما به يمتدح ، فهو
 الطويل والعديد والبسيط والمقارب ، وهو الفرد الأوحى الذي جمع الاستدارة والطول .
 يقول الجاحظ ، (قياسك الذي إليه تنسب ، ومذهبك الذي إليه تذهب أن تقول ، وما على

إن رأي الناس عرضا ، وأكون في حكمهم غليظا ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفي
 الحقيقة مقدود رشيق . وقد علموا أبقال الله مع طول الهجان راكبا طول الظهر جالسا ،
 ولكن يهتفم فيك إذا قمتا خلافا ، وطولك لهم إذا اضطجعت مسائل ، ومن قريب ما أعطيت
 وديح ما أوتيت ، أنا لم نر مقدودا واسع الجفرة فبرك ، ولا رشيقا مستفيض الخصرة سواك
 فأنت المديد وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت المقارب ، فيا شرا جمع الأمازيغ
 وانحطوا جمع الاستدارة والطول ، بل ما يملك من أقاويلهم ، وتتماظمك من اختلافهم ،
 والراسخون في العلم ، والناطقون بالعلم يعلمون أن استفاضة مرضك قد أدخلت الضم
 على ارتفاع سلكك ، وأن ما ذهب منك مرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا

في طورك لقد اتفقوا في عرضك ، وإن قد سلموا لك بالبر شطرا ويضموك بالظلم شطرا
فقد حصلت على ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ولمعنى إن الصيون لتخطي
وإن الحواش لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ
كان زماما على الأعضاء ، وعبارة على الحواس (٦٦) .

وإذا دقت في الصورة واستمطنتها لحت المتمكن في طياتها ، والسخرية في زواياها ،
والتصوير الميزلي يمكن في تضاميتها ، وقد أظف الجاحظ الصنعة ، وأتم الحكمة ، وجاء
بالسخر منقضا محككا لا يكا ديبون إلا بعد فحص وإيمان ، ولقمة صياغته وبراعة صناعته ، وذلك
بدليل الاقتان ، وسر التفوق .

فقد صور القبح في صورة الحسن ، وموهبه علينا ، وزوره لنا ، ودل بمنطقه عليه ، وأرانا
الأصل والظل متعاكس ، أوضح ، ورسم السخرية مجعما للمتناقضات ، ومرضا للأضداد ، وقلم
لنا باطنه وظاهره ، وخياله وحقيقته ، ثم أبدل بالواقع الخيال ، ثم أضاف إليه أجل ما في
الوجهين ، وأحسن ما في النقيضين ، وكان العبث باين عبد الوهاب قد امتد إلينا محشر
قرائه ، وكأن الصورة قد نضجت علينا سخرية أريكتنا وشتت عقولنا ، وسارت بنا في دروب
تحتاج منا إطالة الفكرة ، وإدانة القطعة ، لنفوس قوصها ، ونلقط الدر من بحارها ، ونشفي
طهيمه الصورة البزلية الكاريكاتورية المتعددة النواحي ، والتشابهة الحلقية ، المركبة
تركيبا متلاحما يؤكد في النهاية إلى البرز والاستخفاف ، والتصوير الغد الذي أتتبه
في رسالته .

(ج) الاحتياج لفضيلتي المرض والقصر .
ثم يهتج بأنه لو سلم بحرضه لكان ذلك من أسباب كماله ، ولم يكن به إلى نقصان ،
فقد وجدنا الأفلاك وما فيها والأرض وما عليها على التدوير دون التطويل كذلك
الوق والتحر والسحب والشمس ، وقلمت والريح وإن طال فإن التدوير عليه أغلب لأن التدوير

عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه موصلاً وفضلاً ، والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً ، وكذلك
الإيمان وجمع الحيوان ، وقلت ، ولا يوجد الترتيب إلا في المصنوع دون المخلوق وفيما أكره على
تركيبه ، دون ما خلا رسم طبيعته ، وعلى أن كل مربع في جوفه مدور ، فقد بان المدور بفضل
وشارك الطول في حصته (٦٧)

ولننظر إلى ذلك لعبت المنطق ، والتلاعب العقلي ، أليس فيه السخر بما بين عبد الوهاب
والآخر بمقلد جسمه ، ورسم الصورة للكارينكاتورية المترددة بين تفضيل القصر أو الطول
وهو الحكم على جسمه با لقصر أو الطول ، وبين جمعها في جسم واحد ، وكأن ابن عبد
الوهاب قطعة من الصلصال ، تارة يمدّها ويطلبها ، وأحياناً يكورها ويدورها ، وطوراً يمحطها
البسطة في الطول والعرض ، أو يجعلها قصيرة طويلة معاً ، وإن كان لا يستطيع المصوّر أو
الرسام أو النحات أو الخالق أن يجمع القصر والطول لجسد شخص في صورة واحدة كما فعل
الجاحظ ، وإن تضافرت جهودهم ، وكذا قرائدهم ، واستغفروا فندم ، فليس لهيبته يعجبك هذا
كيفما شاء ، ويلبسها الملابس التي يريد ، ويمسحها كما يحلو له ، فنعته صنعته التصويرية ،
وأدواته البيانية ، وأصباغة الفكرية ، ومغزياته التي تتجج العجيب ، وتلد الخريب ،
وهو يحرف قصر قامته ، وامتداد عرضه ، وأن القصر هييب جسمي ، والتكوير صفة تم ، ولكنه
بما طبع عليه من عناد ولجاج وأدعاء ، يدافع عن قصره ، ويحامي عن تدويره ، ويقرأ لجدل
حولها ، وإلتيان بما يشبه الأدلة على معاكس هذا القبح ، وفوائد ذلك النقص ،
ولا شك أن قلب حقيقة الأشياء ، وإلا لجاج على إثبات ما هو عكس طبيعتها ، وتصوير
الاضطراب النفس ، والقلق الفكري ، في صورة هزلية ضاحكة ، ضرب من الكاريكاتير ، يقول
الجاحظ ، (روايتك تقول ، إن كان الفضل في النكابة ، أو في الشدة والحلاية ، تفقد

كل شيء أشد ضرراً ، وأدق مدخلا ، وأظهر قوة وحكماً ، كالعجارة أصلها الحصى ،
 وكالحبات أقلها لجرارات ، وكذلك أحرار الطير وبخاؤها ، وصغار البراغيث وكبارها . . .
 واحتجبت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الإنسان كالناظرين والأنثيين وحببة القلب وأم
 الدماغ ، وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه واعتد شخصه أسس الانهدام إلى بدنه والانحطاط
 إلى ظميره ، وأن التصير لا يتقوس ظميره ، ولا يعيل خلقه ، ولا يضطرب شخصه ، ولا يمحى عظامه
 ويسمه كل باب ، ويقطعه كل ثوب ولا يخرج رجلاه من النمش ، ولا تفضلا عن الفراش (٦٨) .
 ويستدل على فضل القصر على الطول بقوله : (إن الأرض لم توصف بالمرض دون الطول إلا
 لفضيلة المرض على الطول ، وذلك قول الشاعر : .

ورصف العلماء : وقال الشاعر :	على الخائف المطلوب كفة جاهل
كان بلاد الله وهي مريضة	
ولم يقل كان بلاد الله وهي طويلة	وقال آخر :
فن الأرض للمرض المريضة مذهب	ولم يقل الطويلة وقال :
ولا تصداني ببارك الله فيكما	على الأرض ذات الصرخ أن توسعاليا

وقال الراجز

تقطع أرضاً وتلاقى أرضاً	إن البلاد قلبتني مرضاً
ولم يقل طولا	ولولا فضيلة المرض على الطول لما وصف الله الجنة بالمرض <u>قون</u>
الطول حيث يقول جل ثناؤه : (وحنة مرضها كمرض الساء والأرض) (٦٩) .	
د - تمسح ما فتح فيه .	

وقد ينتج نهجا آخر في رسم الصورة الدنزية ، فلا يتناول الميوب ، والنقالع بالتمضم
 والتمضم ولا يجعلها كما هي عليه من قبح ، ولا يذكر صفاتها العادية ، وأوصافها الجسمية

(٦٨) المصدر المذكور صفحة ٩١ و ٩٢ .

(٦٩) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ٩٢ .

بصفتها الحقيقية ، وإنما يجعلها ، ويحسنها ، ويمدحها ويظهرها ، ويمتبرها معاسن ومفاتن
 تحقق لصاحبها الجمال ، وتبرز الفتنة ، في رسم لها الصورة المثالية الفاتحة الحسن ، الرائعة
 الياء ، ولكنها تكون كاريكاتورية عن طريق التضاد وقلب الحقائق ، فما عرضه المدح ، ولا قصده
 كشف مفاتن الجسم ، وإنما الهدف لتشكيك والبلبلة ، وإعطاء السامع صورة رائعة الحسن لما
 لا حسن فيه ، فإذا شاهد الأصل أو كان يعرفه ، كانت السخرية اللازمة والتهكم الموجه ،
 وتحقق للمتل محناه ، وأدت الصورة ما صورت من أجلك . يقول الجاحظ : (قد علمت - حفظك
 الله - أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخامة اليانة ، وحرور العين موجود

القد) (٧٠) فأما حور العين فقد انفردت بحسنه ، ونهبت ببهجته وطلحه بإلاما أبانك الله به

من الشكلة ، فإنها لا تكون في اللثام ، ولا تفارق الكرام . وقال الشاعر :

ولا عيب فيها غير شكلة ^ع بعينها ، كذلك عتاق الطير شكل عيونها .

وقال آخر :

وشكلة عين لوجيبت ببعضها ، لكنت مكان النجم مرأى ومسمعا .

فأما سوادنا لناظره وحين المهاجر ، وهدب الأشفارة ورقة حواشي الأجنان ، ونعلني أصل عنصرك

ومباري أمراقك) (٧١) . (ولولم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول في الجفنة ، ونسند

الموصف والمدحة ، هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس ، وأبيض من النيث ، ولها حسن

من هم الحلبة ، وأنا لا نستطيع أن نقول في التفاريق ، كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه

لسان حية ، وكأن عينه ماوية ، وكأن بطنه قبطية ، وكأن ساقه بردية ، وكأن لسانه ورقة

وأن أنفه حد سيف ، وأن حاجبه خط بقلم ، وأن لونه الذهب ، وأن عوارضه البيرد

(٧٠) المصدر السابق ، صفحة ٨٧ .

(٧١) المصدر المذكور ، صفحة ٩٤ .

الشكلة : عمرة في بياض الصدر ، وهي شبيهة بالزهر
 (١) الشكلة : عمرة في بياض الصدر ، وهي شبيهة بالزهر
 والأساس : العين

وكان فاه خاتم ، وكان جبينه هلال (٧٢) ، (وهي حملت النساء اجمل منك ، ولربما رأيت
 الرجل حسنا جميلا ، وحلوا مليحا ، وعتقا رشيقا ، ونخما يتويلا ، ثم لا يكون موزون الأضراس
 ولا مقدود الأجزاء ، وقد يكون أيضا الأقدار متساوية ، وغير متقاربة ولا متفارقة ، ويكون
 قصدا ، وقدارا عدلا ، وإن كانت دقائق خفية لا يراها إلا الأملس ، ولطائف غامضة ، لا يعرفها
 إلا الذي ، فأما الوزن المحقق ، والتعديل المصحح ، والتركيب الذي لا يفضحه الثغرس ،
 ولا يحصره التعمت ، ولا يتمل جادبه ، ولا يطمح في التموه ناعته ، فهو الذي خصصت به
 دون الأنام ، ودام لك على الأيام (٧٣) .

٢- مجاوزته حدود الكمال ،

أ- رفعة فوق قدره ،

ويتابع الجاحظ تصويره ، فيمد خطا من خطوط الجمال والكمال في الصورة الكليسة
 الشاملة ، يرفع به ابن عبد الروهاب فوق قدره ، ويضعه أكثر من طاقته وما تحمله أخلاقه
 وخلقه ، وإذا هذه الرفعة عبا عليه ، وحمل ثقيل يثن تحت ، وإذا جسمه يخفق وقد
 فظاه هذا الجمال الممار ، ونفسه وقد علاها الكمال الطارف لا تكاد تبين ، وهمت وجبلته
 لا تستطيعان أن تتوضعا بمتطلبات هذا الكمال ، ولا أن تتلاهما مع ذلك الجمال ، وإذا
 خطا الرفعة والكمال خط نقص واتضاع ، يفصح عن الصيوب ، ويدل على المخازي ، ويشير
 بأصبعه إلى نفس واهية ، وهزينة خائرة ، وقسمات شوها متفارقة فتكدست عليها مساحيق
 الجمال ، فتصبت من تحتها عرقا يسيل مع هذا الخليط من المساحيق ، في خطوط
 تحمل ألوان الطيف ، وعوامل التشويه والقيح ، ثم أنها للتجميل ، حيث وضعت في
 غير موضعها ، وكميات وافرة ، وهذا ما أراد به الجاحظ الرسم للصورة حين مدخطه ،

(٧٢) المصدر السابق ، صفحة ١١١ ، ١١٢ .

(٧٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١١١ .

لسمكان (من جعل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أثبت من مياننا ، وفوق أرجح من جمدنا
وهذا منك أجود من تفكرنا ، وفعلك أرفع من وصفنا ، وغيبتك أهدب من حضور السادة ، وعتك
أشد من عقاب الظلمة) (٧٤). (إن تفتيت فالرشاقة والملح ، وإن تنسكت فالرهبانية والإخلاص
وإن تبرزت فثملان ذو الهضبات ما يتحمل) (٧٥).

ب- تفوقه على المخلوقات ،

ثم بعد خطا آخر من خطوط الكمال والجمال في المصورة ، إلا أنه أطل حجابا ، وأغلس
سكنا ، وأعلى في باب الرقعة والكمال مثلا ، وأضوأ في مقاييس الحسن والجمال بهاء ،
يتجاوز به الحدود ، ويخترق السدود ، ويرفع ابن عبد الوهاب إلى مرتبة لم تخلق إلا له
ولم تقدر إلا على مثاله ، لا يشرك فيها القمر ليلة تمه ، ولا النخيل إبان نواله عولا يدانيه
المقربون الأخيار ، ولا اللائلة الأبرار ، أجمل من كل جميل إذا ازدهى بجماله ، وليس
فيه من النقص ما يعثره في بعض أحواله ، فالدمن تبح إذا قيس بحسنه ، والقبح حسن إذا
كان فيه ، وانضم إلى صفاته ، وبض الجاحظ في رسم هذا الخطك ويند في طوله ، ويضاف
من سكه وحتى يصل به إلى العمال ، ويصير وهما من الوهم ، وإذا الصفات كلها منبارة ،
والبناء منقوض ، انهدم من طول ما ارتفع ، وسقط لكثرة ما أضيف إليه فما احتل . وإذا ابن
عبد الوهاب كما هو بيده وتكويره ، وقصره وتدويره ، وقفته وبلادته ، يقع في زوايا النسيان
ويرتدى أخلاق الأخلاق ، وإذا ما كاه نراه طويلا مريضا سميكا ، سد الأفق ، وحجب الشمس
دخان ذهب مع الريح ، وقبتا لفحة السودا ، التي كان ينهت منها مكانها معتوقة .
يقول الجاحظ ، بل يرسم الجاحظ ، (وَأَنْ أَبْكَأَ اللَّهُ أَمْشَقَ إِنْصَافَكَ كَمَا أَمْشَقَ الْعَرَاءَ
الدُّنْيَا ، وَأَتَمَّلَ خُضُوكَ لِلْحَقِّ كَمَا أَتَمَّلُ التَّقَى فِي الدِّينِ ، وَلِرَبِّمَا ظَنَنْتَ أَنَّ جُورَكَ

(٧٤) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٠٩

(٧٥) المصدر المذكور ، صفحة ١١٥

إنصاف قوم آخرين ، وأن تعقدك سماح رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة العجة
بالنسيبة ، ومقابلة الاختيار بالاضطرار ، واليقين بالشك ، واليقظة بالعلم ، إلا الذي خصصت
به من إيتار الحق ، وألهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أجمع ما تكون إلى الإنكار

أذ من ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى العيلة ، تقرا ، وأشد ما تكون للحجة طلبا (٧٦)

لا وهل في تمامك ريب حتى تعالج بالحجة ، وهل رد فضلك جامد حتى يثبت بالبيته ، وهل
لك خصم في العلم ، أو ند في الفهم ، أو مجار في الحكم ، أو ضد في العلم ، وهل يتبلفك
الحمد ، أو يضرك العين ، وتسعوا إليك النسي ، أو يطعم فيك طامع ، أو يتعاطى شاك باغ
وهل يطعم فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف أن يقصر دونك ، أو يخشع عالم أن يأخذ منك ،
وهل غاية الجميل إلا وصفك ، وهل زين البليغ إلا مدحك ، وهل يأمل الشريف إلا اصطفاك
وهو يقدر المثلوف إلا ضياك ، وهل للطول عرض سواك (٧٧)

وفي هذه الخطوط الكاريكاتورية قلب الحقائق ، وبلغ الوصف درجة الامتصاص
واللمب بالسخر ، ينقله من حال إلى حال ، ويحمله في مواقف متضاربة ، يمكن أن تكون له
كما يمكن أن تكون عليه ، ثم إرجاعه إلى حاله الأولى ، وصورته القبيحة بعد إذهاب كل
جمال عنه .

وما هوذا الجاحظ يوازن بينه وبين القمر في الحسن والجمال ، والعلامة والجلال ، فيبرز
القمر ضئلا نضوا ، ومحتوجا سخنا ، يزيد وينقص ، ويشخص ويحج ، أما هو ^{فدائم} كذلك ^{الكل}
لا يحتمره نقصان ولا يعتمد على غيره ، نارى التوقد ، ^ورحاني البدن ، وهذه الصفات
غير المحقولة ، تسمى السخر وتضخمه ، وتجعل الصورة بعيدة عن الأصل ، بل مضادة له

(٧٦) المصدر المذكور صفحة : ٩٢

(٧٧) المصدر السابق صفحة : ١١٠

وتلك صفات الكا ريكاتور . يقول : (وقد علمنا أن القمر هو الذي يضرب به الأمثال ، ويشبه به
أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ويموجاً سخناً ، وأنت أبداً قمر بدر فخر
تم مع ذلك يحترق في السرار ، ويتشامخ به في الحاق ، ويكون نجماً كما يكون سحداً ، ويكون
نقماً كما يكون ضراً ، ويقرظاً لكأنه ، ويشعياً الألوان ، ويختم فيه اللحم ، وأنت دائم اللمعان
ظاهر السعادة ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسوم من أمراء ، وتكن من أشعبه ، وهل أنه قد
محق حسنه الحق ، وشانه الكلف ، وليس يندى توقد ، واختمال ، ولا خالص البياض ، ولا مثلاً
ويحلو به ، ويكسو ظل الأرض ، ثم لا يحترق ذلك إلا عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ،
وكثيراً ما يعترقه الصغار من بخار البحار ، وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر
كريم المنصره ناري التوقد ، هوائي الذهن ، دري اللون ، روحاني البدن ، وإن احتجوا
عليك بالجزر والعد ، احتجبت عليهم بالعلم والعلم ، وإن طامتك اختياراً واعتباراً وطاعة
طباع واضطرار عوان له سيرة قد قصور عليها ، ومنازل لا يجاوزها ، لا تمكها البدوات ،
وليس في قواه فضل للمتصرف ، وهل أن ضياءه مستمر من الشمس ، وضياؤه عارية عند جميع
الخلق ، فكم بين المصير والمستعير ، والعتيب والعتير ، بين العالم ومن لا حسن فيه) (٧٨)
وإذا كان النموذج السابق قد شبه ابن عبد الوهاب بنى واحد هو القمر ، وأخذ يحوره
وقلبه ، ويتناول من جميع زواياه ، ومن شتى اتجاهاته ، وفي مختلف أحواله ، حتى استقصى منه
جميع أوجه الشبه ، واستخلص ما فيه من محاسن ، ثم أوضح الفرق بين طرفي التشبيه ،
وبالغ حتى قلب الحقيقة وقلب التشبيه ، وجعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً ، بل جعل المشبه
في القبة ، حسن صورة ، وبناءً ظلمة ، وأعطاه من الامتيازات ما لا يوجد في المشبه به .

فإنهما لا يكتفى بمنظر واحد ، ومنه به مفرد ، لأنه لا يراه - وإن تهاى حسنه ورواه
كأنيا في وصف المشبه ، وإبراز جمال العسكرة ، فمدد المشبه به في حسن انتقاء ، وهدى مع
اختيار ، ثم التقط لأحمد من صفات الجمال أبرز ما في كل مشبه به ، وأرن ما به يتصف ، فجعله
وجه شبه ، وأبعد باقي الصفات ، بما في بعضها من قبح قد ينال ظله المشبه ، فيقال وجوده
بعض الشيء من تيمم وجلاله ، وتلك طريقة رائعة في التصوير ، ولكن أخذ المشبه من المشبه
به أجود ما فيه وأبدع ، وجمعه من كل شيء أكبره وأثمنه ، وتكرار ذلك في سائر التشبيهات
لشعر واحد ، دون أن يسه من أحدها شبيهة سوء ، وبالغنى وفلوه ، وارتقاء بأحمد إلى درجة
خيالية ، بعيدة عن الواقع ، مخالفة لطبيعة البشرية بل لطبيعة المخلوقات كلها ، وتجريد له
من إنسانيته ، وإبعاده عن صورته ، وهذا يبين الأصل والحقيقة ، ويؤثر الوهم والخيال ،
فالصورة هنا بعدت عن الأصل بعدا غير سحتها وأوضاعها ، وبدل معالمها وأوضاعها ،
والقصد من ذلك التفكك والبهزل ، لأن الجاحظ لا يقصد المدح ، وإنما يريد التشويه والبهزل
كما يتبين من سائر الرمزية ، ومن أسلوبه في قوله ، (وطبقتك - جعلت فداك - طباع الخمر
إلا أنك حلال كلك ، وجوهرك جوهرا الذهب ، إلا أنك روح كما أنت ، وقد حوت خط ل الياقوت
إلا ما زادك الله عليه ، وأخذت خصال المشتري إلا ما فضلك الله به ، وجمعت خلال الدر إلا
ما خصصت به دونه ، فلك من كل شيء صفوته ولها به ، وشرفه ودياره) (٢٩)

ج - مصرفة كل شيء .

ومن خط الرفعة والكمال ، والتفوق على الكائنات يفرغ خط المصرفة التي جازت الحدود
وخبرت الأولين والآخرين ، فتجد ابن عبد الوهاب قد حازها متفرقة ومجتمعة ، وقالها قديسيه
وجديته ، وبعث في كل لون ، وأثمن كل ضرب ، وكان بها أستاذ الأساتذة ، وعلم الأقداد ،
والمستقل عن المعلم والفنون ، والقيم عليها ، في كل عصر وحيل ، والجامع لها بما شردت

وا لجانر صليها وان دقتوخت ، لا تعترض علمه عقبات فلا ينقص أو يتبدل على مر الأيام .
واستطالة هذا الخط ، ومجاورته المدى يحدث التشويه في الصورة ، لأنه إن كان لا يتلائم
مع باقي الخطوط ، ولا يتناسب مع أطوالها ، فإن المنظر يكون سيء التركيب ، ومعيب التكوين
ممسوخا ، كمن يرسم صورة شخص ، ويجعل أنفه في حجم جسده ، وإن تلائم مع سائر خطوط الصورة
وروى التناسب بينه وبين أحجامها ، فإن ذلك غير كاف لخلق الصورة الجميلة ، أو السليمة
على الأقل ، إذ لابد من التلاؤم مع الأصل ، والمطابقة للواقع ، فالصورة السليمة الجيدة
في عرف الفن ، ما تلائمت خطوطها مع بعضها ، وروى التناسب بين أجزائها ، مع تلائمتها
ككل مع الأصل الذي عنه نقلت . وهنم التلائم بين الصورة والواقع تشويه لها ، ومسوخ لكانها
كصعلوك في ملابس ملوك ، أو كمن يلبس لبيا ما يفضل عن جسده من كل جانب ، فهو يتخيل
فيه ويتعثر .

والجاحظ قد وضع صورة ابن عبد الوهاب ذلك الوضع المشوه البزلي بشقيه ، فجعل خط
المحرفة في بعض المواضع يناسب سائر خطوط الصورة في الطول والاتساع ، ولكنه لا يتفق مع
الأصل ، كما جعله أطول من سائر الخطوط في مواضع أخرى ، فهبت الصورة في كلا
الموضعين كاريكاتورية هزلية ، تضحك المشاهد سرورا وانشراحا وتسرى عنه ، وتبكي صاحب
الصورة غما وكندا حتى تمض عينيه . يقول زعم التصوير الكاريكاتوري الناطق : لو عثمان عمرو
ابن بحر الجاحظ ، في أحمد بن محمد الوهاب ، (وقد تعجب نامر من إطالتي في ومن كرة مسألتي
وشعبي من تعجبهم أشد ، وا لذي كان من أفكارهم أعظم ، ولورغبوا في العلم رغبتي ،
ورا وا فيه مثل رأي ، وكانوا قرءا وكانوا إليك في شيعتي ، وأيام شباب رغبتي لاستقلال من
ذلك ما استكروا ، ولا استقصروا منه ما استطالوا ، فإن أذنت لي أظلمت ، وإن تجدد على
أعلمت . وستقول ما نطقك إلى التشويه بذكرى ، وتعرف الناس مكانى ، وقد تعرف حشمستي

يا قفاطى، وشردى واستوحاشى . ولولا أنك جعلت فداك مسلط فى كل زمان ، والغاية
فى كل عصر . لما تفردت بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسى فى الجواب ، ولكك قد كنت
أذنت فى مثلها لبروس ثم لأفلاطون ، ثم لأرسطاطا ليس ، ثم أجبت معبد الجهنى ، وفيلان
الدمشقى ، وحمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وإبراهيم بن سيار ، وعلى بن خالد الأسوارى ،
فترية كهك ، وائلناشى . تحت جناحك ، أحق بذلك ، وأولى ، وقد كان يجب أن يكون على

ذلك أحرص ، وبه أعتى (٨٠)

خروج جماله من القبايس :

وهنا يضيف الجاحظ إلى صورة ابن عبد الوهاب ، أصباغا جديدة ، وألوانا فريدة ، يجعله
بها عجبا غريبا ، لاند لهولا مثل لجماله ، بل إن حسنه تخطى القواعد ، ونأى عن القبايس
وجارت فيه الأفكار ، فلا يدرك الناظر سره ، ولا يعرف أين مآته (وما ندرى فى أى الحالىن
كنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكل ، وإذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كك ،
أو إذا تأملنا بمضك فأما كلفى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها
كل ما اتصل بها ، ويحتمل بها كل ما صار فيها ، وكما أصبحنا وما ندرى التأمى فى يدك أحسن
لم القلم أم الريح الذى تحمله ، أم المخرصة أم الحنان الذى تمسكه أم السوط السدى
تملقة ، وكما أصبحنا وما ندرى أى الأمر المتصلة برأسك أحسن ، وأبها أجمل وأشكى ، اللمة
أم مخط اللحية أم الاكليل أم الحصاة أم التاج أم العمامة أم القناع أم القنطرة فأما قدمك
فىن التى يحلم الجاهل كما يحلم العالم ، ويحلم البعيد الأقص كما يحلم القريب الأدنى ،
لأنها لم تخلق إلا لعبر شفر عظيم ، أو ركاب طرف كريم ، وأما فوقك فهو الذى لا ندرى
أى الذى تفوق به أحسن ، وأى الذى يبدونه أجمل الحديث أم الشعر أم الاحتجاج أم
الأمر والنهى أم التعلم والوصف ، ولنى أننا ما ندرى أى السنك أبلغ ، وأى بيانك أشقى

أقلك أم خنثك أم لفظك أم إشارتك أم عقودك ، وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد
 وأنت في ذلك فوقهم والحمد لله ، وواحدهم وأعيذك بالله ، وأنت تجوز الغاية ، وتفوق النهاية (٨١)
 لقد شغل جمال ابن عبد الوهاب العلماء والأدباء والمفكرين ، واحتل قلوب النساء إماماً
 وأحرارا ونبيات وأبكارا ، وأحدث القلق والغمرة في نفوس الرجال ، فما يأمن أحد على مرسه
 وصارا بين عبد الوهاب فكر الناس وحياتهم ، وشغلهم في يقظتهم ونامهم ، وكأنه كل شيء ،
 وكان العالم بأسره أحمق بن عبد الوهاب ، وهم يقنون عجزه أمام جماله ، وتضطرب مقاييسهم
 وتتحطم موازينهم ، وتلك الصورة الكارثية قريبة من المذهب الرمزي ، والمذهب السريالي
 ففيها مع قلب الحقائق ، وخلق الصورة الرائعة الحسن لمن لا حسن فيه ، وجعل الحسن
 وصلة للقيح ، وعلى مقدار ما ارتفع الحسن وساقى الصورة فارتفع مؤشر القبح وطلا في الأصل
 أقبل ، في الصورة مع هذا إيماء وتلويح ، وخفاء ولهها ، ووصف شيء والمقصود وصف شيء
 سواء ، وحديث عن حسن ورواية ، والمراد قبح ودماثة ، وتلك سمات الرمزية ، وخيال بعيد
 يقرب من الأوهام ويصل إلى درجة ما نراه في المنام من أحلام ، وتلك خصائص المذهب
السريالي . ذلكم أبو عثمان وافتائه ، ومعرفته السريالية والرمزية في الأدب والتصوير
 قبل أن يعرف العالم اسم السريالية والرمزية ومعناها في الفنون وقيل أن يولد هذا أن
 الأديبان الضربيان اللذان زعم أدباء الغرب ، بل وأدباء العرب
 أنهما صاحبا المذنبين ، ومبتدعا هما على غير مثال عودون احتذاء . يقول ابن بحر :
 (وقد أصبحت وما على ظهرها هود إلا وهي تمثر باسمك ، ولا قينة إلا وهي تغنى بمدحك
 ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لعوك ، ولا عجوز
 إلا وهي تدعوك ، ولا غير إلا وقد شقي بك ، فكم من كيد حري منضجة ، ومصروعة مفرقة
 وكم من خائف ، وقلب هائم ، وكم عين ساهرة وأخرى جاهدة ، وأخرى باكئة ، وكم عسجري
 حولة ، وفتاة محذبة ، قد أقر قلبها الحزن ، وأجهد عليها الكد ، قد استبدلت

بالحلل العظلة ، وبالأثر الوحشة ، وبالكتميل المره ، فأصبحت والهة مبدوتة ، وهائسة
مجهوده ، بهد طرف ناصح ، ومن ضاحك ، ونجح ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة
توهج ، وليس حسنك أبقاك اللام ، الذي تبقى معه توبة ، أو تصح معه عقيدة ، أو يديم
معه عهد ، أو يثبت معه عزم ، أو يمدل صاحبه الثبوت ، أو يتسع للتخير ، أو يثبته لغيره ،
أو يهذبه خوف ، هو أعزك الله شيء ، ينقض المادة وينسخ العنة ، ويمجل عن الروسة
ويطرح بالمعري ، وتتوسمعه العواقب ، ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك أعظم ما صنع بنصر
ابن الحجاج ، ولو كيك بأعظم ما ركب بعجدة السلي ، بل لدعاه الشغل بك إلى ترك
التناقل بهما ، والضيظ عليك إلى الرحمة لهما ، فمن كان عيب حسنه الإفراط ، والطمع عليه
من جهة الزيادة ، كيف يرومه عاقل ، أو ينقصه عالم ، فلا تعجب أن كنت نهاية البهة ،
ونهاية الأضحية (١٢)

— حيا تم سبقت آدم —

ومن الكاريكاتوري الرسالة : العبالقة والفلوئي طول عمر ابن عبد الوهاب ولو حبل
حياته إلى غير غاية ، حتى لا تصرف بدايته ، وجعل مولده من الخفى الفاض الذي لا يستطيع
أحد أن يقف عليه ، لا نظوا في مجال الزمن ، وتتابع الحقب عليه ، مع زم أحمد
أنه محفل الشباب ، حديث الميلاد ، وذلك يسلنا إلى التناقض الواضح بين حقيقته
التي يراها الجاحظ ، وبين ما يزمه أحمد :

والتناقض والاختلاف الجوهرى بين الأصل والصورة ، بكثرة الخطوط التي يحدثها العصور
في تقاسم الوجه ، وتعميرها ، وبانحناء خط الظهر وتقويسه ، وتفسير الأصابع بتحويل
لون الشعر إلى الأبيض الناصح بعد أن كان أسود فاحما ، ضرب من التصوير الهزلى
ولون من الكاريكاتور :

كما أن بين الأصل والصورة تناقضا أعظم ، وتضاربا أعم وأشمل ، يصل إلى الصمت بالمقول
واللغة والاستخفاف بصاحب الصورة ، بتصويره في شكل غريب ، ووضع مستحيل ، يجعله
أقدم من أبيه ، ومن رأس قبيلته بجيلة ، بل أقدم وأسن من جده ، لأعظم قططان ، وهذا القدم
جعلهم يستقل أما را للممرين ، ويمتبرهم أطفالا إذا قيسوا به ، فنوح في قياسه لم يمش
طويلا ، فما خمسين وثمانين سنة بالمر المديد .

يمكن للمصور أن يعبر عن امتداد عمر ابن عبد الوهاب بطل اللحية وبياض شعرها ،
وتنضن الجلد ، وانحناء الظهر ، وكلال البصر ، ووهن الجسم وتخاذله ، ولكنه مهما بالغ
وامتلك الريشة الذهبية ، والموهبة الابتكارية فإنه لا يمكنه أن يجعل هذا المعتد المرشباها
ولا يستطيع أن يجعله أقدم من أبيه ومن قبيلته ومن نوح وآدم ، وهنجل يمكنه أداء ذلك
في صورة كاريكاتورية أو غير كاريكاتورية . ١١٤

ولكن براعة الجاحظ السخرية ، وراعيه التعميرية ، ومقدرته الفنية ، أتاحت له ذلك ،
وأتاحت له حرية استخدام الألوان والخطوط ، فاستطاع أن يجعل ابن عبد الوهاب تجاه
أفلاطون وأرسطو ليس يناظرهما ، ويصاحب نوحا في سفينته ، ويصرف الإنس مذخلقوا ،
ويشاهد الجن قبل أن يحجبوا ، وكأنه ليس إنسيا ، ولا جنيا ، لأنه أقدم من خلقهم ، ولم
أوم أنك رجل يمان لولادة لك في قططان ، كيف وأنت أقدم من قططان ، ومعدن معدناين ،
ومن القرن التي خيرا لله عن كرتنا ، ومن آياتها وأجدادها ، ولكك منهم بالهوى والنصرة

ولأنهم كانوا لك أحشاما وصنيعا (٨٣) فخيرين ما جرى بينك وبين هروم في طبيعة
الملك ، ومن سمالك من أفلاطون ، وما دار في ذلك بينك وبين أرسطو ليس ، وأي نوع
امتدده ، وأي شيء اخترت ، فقد آبت نفس غورك ، وآبت أن تتشفي إلا بخيرك (٨٤) (إنك

٨٣ مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ١٢٢ .

٨٤ المصدر المذكور صفحة ١٠٦ .

لا تمد عروج عراء ولا اللجم يوما ، وإنك قدفت التاريخات وجزت حساب الباورات ،
 واستقلت الأحقاب ، وخرجت من خطوط الهند لما استطالت بأصا رها ، ولا فرحت بطل
 أياها (١٥)) قد شا هدت الإسم مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ووجدت الأشياء
 بنفسك خلصتة ومنزوجة ، وأغفلا وموسوعة ، وسالمة ومدخولة (١٦))

∴

∴

∴

٢- مقارنة بالمشاهير :

وقرن الجاحظ ابن عبد الوهاب في الصورة المنزلية المترامية الأطراف التي رسمها له في
 رسالته المترجم ولقد صور بمشهورى الرجال ، ويجعله نداهم ، بل يرفعه ليتفوق عليهم ، ويبدعهم
 فيها سمروا به ، حلما وحكما ، وزانة وفروسية ،
 وأرتقاه عليهم مجتمعين ، وغرقة على كل منهم في أيرزما عرف بإجادته له ، مع صا
 اثر عن ابن عبد الوهاب من غرور وادعاء ، وما روى عنه من جهل وى ، يدل على أن
 الصورة لم يرد بها الصور تنظم صاحبها وتهجيه ، وإنما أراد تشويهه ، واللغو به ، وتجسيم
 عبوره وخطائه ، وإبرازها مقارنة بالصلح ، في منظر ساخر مقلوب ، جعل الحافظ نقل عن
 المساوي دركات .

وهذا شبيه بكاريكاتور تصور بالفرشاة لشخص يقف على رأسه ، ففيه مع الطرائفة والتكبير
 قلب الحقائق ، ووجه الأشياء معكوسة الوضع ، فالأعلى أسفل ، والمجد والرفعة ضمة
 وانعطاط ، وما روى ابن عبد الوهاب ، في الكاريكاتور اللفظ له ، والشخص الذي يقف
 على رأسه ومثله في الكاريكاتور الرسوم ، أن العالم معتدل ، وأن الانقلاب إنما هو

(١٥) المصدر السابق صفحة ١٦٠
 (١٦) مجموعة رسا لى ، الجاحظ ، صفحة ١٠٢

في وضع كل منهما ، في هيئة

ومن هذه الخفلة والتكيس رؤية الأشياء مقلوبة ، والحكم علينا بعكس ما تستحقه
يستند السخرقوتة ، ويبلغ التصورا المنزلي ذروته ، وما ذلك على الجاحظ بعزيم حين يمسك
لله ليقول : (وأشهد بعد أنك تخالفن صرورين بحر الجاحظ وتعاقله ، ثم تظارفه وتطاوله ،
وتغنى من مخارق ، وتكر فضل زور ، وتستجمل النظام ، وتستبرد الأصمى ، وتعتفى قيس
بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتبارز أبا الحسن علي بن أبي طالب رضي
الله عنه ، ثم تخرج من حد الضلابة إلى حد العراء ، ومن حد الأحياء إلى حد ود الموت)
(٨٧)

حد التصريح بصيوة :

وقد يصح بصيوة ، ويجار بصيوة ، وذلك فأدر في الرسالة ، وأندر منه أن تكون الصيوة
المصحح بها جسمية ، أما الغالبية العظمى لسخره في الرملة فإنها تتصل بالناحية العقلية
أولاً لنفسية أو لسلوكية ، حين يرى شدودها والتواءها ، وهو لا يبلغ في ذلك حد التصريح
قالها ، إذ هو رجل الفكر الدقيق ، والنفس المرحة المنبسطة ، والأدب الراقى ، ومن كان
كذلك قل تصريحه بالصيوة ، وأبداء المخازي ، وكشف العورات ، وإن كان قصده الإصلاح ،
لأن كشف الصيوة ، وذكرها دون موازنة أو تستر ، وبخاصة إذا كانت جسمية ، من صفات
الضمر الذي لم يتمرس بالأدب ، والفظ الذي لا يحفل بالناس ، أو الوقاح الذي لم يحاشر
غير السوقة والرعاع ، أو الجاهل بمسائل الإصلاح والتصحيح ، ولم يكن الجاحظ واحداً
من هؤلاء ، لذلك اتخذ الأسلوب اللين ، والعبارة المخلفة طريقاً للسخر ، وصبغها
للتصوير اللين ، يرى أنها أكثر إيجاباً ، وأعون على تحقيق الغرض ، وأرفق من يود
إصلاحهم وتقويمهم ، وأليق بمخاطبة العلماء والأدباء ، وعلية القوم ، فابتمد ما أمكنه من
السبب الصحيح والمباشرات ، والهجاء المفحش ، واتخذ السخر والتصوير المنزلي طريقاً

إلهاء الميرب ولاجبا .

ومن عيوب ابن عبد الوهاب التي صورها الجاحظ كاريكاتوريا فأبدع وأوجع .

أ . ادعائه ما ليس فيه .

ولقد ألقى الميرب اسمه في تشويه الصورة ، وتلطيف معالمها ، وتجليلها بالسوا . حتى

بدت كما هي عليه ، من وجهتين :

أولاً : لأنه دأب عليه ، ومرض به ، وأقبح صفة تحسب إلى العلماء والمفكرين الذين يعتمدون

على التحقيق والتجربة والواقع ، بل إنهم دائماً ينقصون نفوسهم عظمتها ، ويهضمونها

حقها من السور والرقعة ، فهم أرفع من أن يتصفوا بالنفخ والادعاء ، وقد كان الجاحظ

عالماً وفكراً وفيلسوفاً ، فكان هذا الميرب أشد ما يفتيه ممن يتصفون به ، فما بالسك

إن كانوا لا يتعلقون من العلم بسبب ! +

ثانياً : لأنه ينجح الصورة لونا من المسخ ، وضوا من الشذوذ ، وكثيراً من التمايز بين الحقيقة

والادعاء ، كما يحدث التمايز في الصورة الكاريكاتورية بين عضو وضوء أو بين الصورة برمتها

ومن نقلت عنوه ، فلهذا بدأ إلى التشويه والمسخ ، والسخر منها .

ولقد اتخذ الجاحظ من هذا الخط الأسود في نفسية ابن عبد الوهاب منطلقاً لرسم

الصورة المنزلية له ، فقارنه بالحقيقة لتبين التناقض ، فيضاهف المنزل والبرز ، فقال : كان

أحمد بن عبد الوهاب مفراط القصر ، ويدعى أنه مفراط الطول ، وكان مرهما وتحسبه لسمعة

جفرتة ، واستيفاضة خاصته مدروا ، وكان جمعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى

المسباطة والرشاقة وأنه عنق الوجه أخمض البطن ممتدل القائمة ثم العظم ، وكان طويل

الظهر قصير عظم الخد ، وهو مع قصر عظم ساقته ، يدعى أنه طويل النجاد ، رفيع المهاد ،

عادي القائمة ، عظيم الدانة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسمعة في العلم ، وكان

كثير السن متقادماً المبلدة ، وهو يدعى أنه ممتدل الشباب حديث المبلدة ، وكان ادعائه

لأصناف العلم على قدر جماله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر فخارته عنها ، وكان

كثير الاعتراض لهجا بالمرأة ، شديد الخلاف ، وكفا بالعجاذبة ، متتابعا في العنوة مؤثرا
 للمعاقبة ، مع إضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرة عند قصر الزاد ، والعجز
 عند التصرف والمحاكمة ، مع الجهل بثمره المراد ، وخيبة نساء القلوب ، وبكده الخلاف ، وما
 في الخوض من اللغو الداعي إلى السوء ، وما في المائدة من الإنم الداعي إلى النار ،
 وما في المعجاذبة من التكد ، وما في التفالب من فقدان الصواب وكان قليل السماع غمرا
 وصحفا غفلا ، لا ينطق عن فكر وثيق بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام المنع واستبصار الحق
 بعد أسبغ الكتب ولا يفهم معانيها من محمد الملاء من غير أن يتعلق فيهم بسبب وليس
 في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب (٨٨)

وهذا يلزم ما قلناه آنفا من أن تصريح الجاحظ بالصيبي نادر ، والأكدر منه أن يتناول
 للصيبي الجنسية ، لأنه هنا ما تناول الصيبي الجنسية إلا ليصل منها إلى أحد عيوبه
 النفسية وهو الادعاء ، بل يمكن أن أقول إنه لم يتناول الصيبي الجنسية ولكن ما ينميه
 ومنه ويصيه هنا ، الادعاء والكذب عن طريق ذكر الواقع ثم ذكر النفي والافتراء .

ب - جهله البدعيات :

ويضيف الجاحظ إلى الصورة الأدبية الشاملة خط الجهل ، لتكامل معالمها ، وتظهر
 من جميع نواحيها ، ويتم التشويه والسخ فيها ، فتبذ صورته الصور ، ومجزأ الفتون عن
 اللحاق به ، وهل في مقدرة الصور أو الرسم أو المثال أن يمد في الصورة خط جهل ؟
 وذلك عند أبي عثمان أوثق خط بالتشويه ، لأنه من الأدباء العلماء المفكرين ، الذين يجلون
 العقل وقدسونه ، ويحقرون الجهل ، ويعتقونه ، يرونه أتم القهاج ، وأبشع الصفات ،
 وأمر كل داء ، فلما أراد أن يكسو صورة ابن عبد الوهاب البشاعة والشناعة ، اتخذ الجاهل

وغيرها ، أو ترك عليها بصاتها ، ولو أن عقل ابن عبد الوهاب أعيد صهره وتشكيله
لما قبل بطبعه الصبر والتشكيل ، بل لما لان ، ولا أثرت فيه حرارة ، وقول له الجاحظ
(وقد اختلفوا في العقل بأكثر من اختلافهم في العلم ، فمعنى من ذكره لك غرضه عليك
واستتاره عنك ، ولعل أن لا أقدر أن أعبره لك دون دهر طويل ، ولا أضحك معناه دون
ترويب كثير) (٩١) وقول له ، (وأنت - جعلت فداك - لا تعرف هذا ، ولو أدخلتكم الكفرة
ونفخت عليكم إلى يوم ينفخ في الصور) (٩٢) ،
في التواء طباعه ،

وكما فعلت الصورة الكاركية بالسخ والتشويه في جسم ابن عبد الوهاب ، فجعلته
قصيرا مريضا مدورا ، فقد فعلت ذلك بنفسه وقلبه وطباعه فجعلته ملتويا محقدا ، كما
جعل الجاحظ الطبيب يقطع الصور بالأشعة الملونة ، تبرز خفايا ، وتبدى تشويحاته ،
بل تصيف إلى تشويه تشويها ، فلا ترى من الصورة إلا الهيكل الحظي والأورام والكسور
والالتواءات ، ثم يضمه على مائدة التشريح ، يخرج أحشائه ، ويفحص جراثيمه تحت مجهر
هزئه ، فتعظم وتتضاعف ، ويكوى جسمه موطن الكاء ، وينزل ببعضه ناسد الأحشاء ،
لعل الكاء ينجح ، والكسور تجبر ، والأورام تنزل ، ولكن نفس ابن عبد الوهاب قد
خبثت ، والأورام فيه قد انتشرت ، وعقل الجاحظ حينذاك لا يفيد إلا في تشبيه الناس ،
وت الوقاية بينهم مظاهر الالتواءات والتشويحات في طباع ابن عبد الوهاب وسلوكه ،
للحظة واللاذكورية آت إليه حاله ، وللمرج والسرور ، لأن طباعهم سلمت ، ونفوسهم
اعتدلت ، وقولهم صدق ، وانستمع إلى الجاحظ لطبيب يخاطب مريضه ، مبينا نتيجة
التحليل ، وضحم الأكمة ، (وأنت ترى القتل في حق المائدة شهادة ، وترى أن مباينة
المنصفين في تعظيم المنود سعادة ، وأن الرئاسة في دفع الحقائق مرتبة ، وأن الإقرار

(٩١) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٣٢

(٩٢) المصدر المذكور صفحة ٨٩

بما يظهر للمبين ضحة ، وأن الشهرة بالبالغة رقة ، أظهر القوم عندك حجة أرفعهم
 صوت ، وأخلصهم للتوبة أصلهم وجها ، وأحسنهم تقية أقلهم تحرجا ، وأكرمهم عندك
 إنصافا أشدهم شغبا ، تمسقا لتسوية وتكلف بالجمع ، وتما في الوقاح ، والأدب
 عندك من يحيب أحوالهم الجلساء ، واعترض على نوادر الإخوان ، وفخر في قفا النديم ، وصب
 للعالم ، وأبغض الماقل ، واستنقل الظريف ، وحسد على كل نعمة ، وأنكر كل حقيقة (٩٣)

.

٥- موازنته بالجاحظ ،

وإمكاننا في كشف شوهة ابن عبد الوهاب ، وتضخيم عيوبه ، ووضع أمام مشاهد يسره
 في صورة ضاحكة ساخرة ، جعل صورته تقابل صورة الجاحظ ، في وضوح لا تتم فيه المقارنة
 ولا تصح الموازنة ، لما بينهما من تناقض في جل الصفات ، وتتولد السخرية في اللوحة
 من هذا البعد الناصح ، ومن أن الموازنة بينهما كالمرآة بين الضدين ، وكالجمع
 بين النقيضين ، وليس مولد الجاحظ بالموازنة تبيان أوجه الاتفاق ، ونواحي الاختلاف ،
 لأنه الاتفاق وإنما المراد السخر ، ورسم الصورة المنزلية المضحكة ، لمشوه مسخ ،
 بوضع بارز ، كامل جميل في لوحة واحدة ، وهذا الاقتران وحده كميل بالتشويه والإضحاك .

يقول الجاحظ حين يعرض الصورتين من الناحية الجسمية : (فأما الباء والقامة ، فمن
 يمدل بين اللثاة والكرة ، ومن يمثل بين النخلة والدكان ، وبين رحى الطحمان ، وسيف
 وبان ، وإنما يكون التمثيل بين أكرم الخيرين وأقبح الشريرين ، وبين المتقارين دون
 المتجاهدين ، فأما الخيل والحمل ، والحصاة والجبل ، والسم والغذاء ، والفقر والغنى
 فهذا ما لا يخطئ فيه الذهن ، ولا يكذب فيه الحس) (٩٤)

(٩٣) لصدر السابقي ، صفحة ١١٩ ، ١٢٠
 (٩٤) المصدر نفسه ، صفحة ١١٩

وحين يعرضهما من الناحية الفكرية والصفات الخلقية ، (وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل واطلبها ، وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فألتم نفسك قراءة كتب ولوم باني وأبند بنفسي التشبيه والقول بالهداية ، واستبدل بالرفض الاعتزال ، وإن أتكرضحك بعد المتكلمين والبدل ، وحدد التفريع والشاهد فلا يبعد الله إلا من ظم) (٩٥)

(فأنت والله يا أخي تعلم علم الاضطرار وهم الاختيار وهم الأخبار رأي أشد منك عقلا ، وأظهر منك حزما ، وألطف كيدا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما ، وأخف روحا ، وأكثر عينا وأقل غشا ، وأحسن قدرا ، وأبعد غورا ، وأنصع طرفا ، وأكثر علما ، وأنتطق لسانا ، وأحسن بيانا ، وأجهر جسارة ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تشدو من العلم ، وتتفق من الاختيار ، وتوه نفسك وتغر من قدرك ، وتتهيا بالنيا ب ، وتتهل بالمراتب ، وتتحبب بعين اللقاء ، ليس عندك إلا ذلك ، فلم تزاخر البحار بالجدائل ، والأجسام بالأغراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ) (٩٦)

وحين يعرضهما من ناحية النسب والأنصار ، (والله لئن رميتني ببجيلة لأرميك بكناية ولئن نهضت بمالح بن علي لأنهضن بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن علي ، ولئن صلت علي بسليمان بن وهب لأدمننك بالحسن بن وهب ، ولئن تهمت علي ببناءمة جعفر الخياط لأيهن عليك بجسة وهب الدلال ، وأنا أرى أن تقبل العافية وترغب إلى الله تعالى فسي طول السلامة) (٩٧).

وبذلك يتضاءل ابن عبد الوهاب ، أمام الجاحظ المعلق ، ويكاد يذوب ضمة وانحطاطا .

(٩٥) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٢٠

(٩٦) المصدر المذكور ، صفحة ١١٨ ، ١١٩

(٩٧) المصدر نفسه ، صفحة ١١٨

٦ - قلب حقيقته :

وقد يقبل حقيقته ، ويغير معالنه ، ويرزه في صورة كاريكاتورية هازلة قصدا الى المخسر
ورغبة في الإضحاك ومن الجوانب المزلية ، والأصباغ الكيماوية التي يضيفها الى صوره
فيكون التفاعل القوي ، والمخ الظاهر والخبئ .

٧ - جمعة المتناقضات :

فن الموضرات الفنية لصورة ابن عبد الوهاب المزلية ، أن جعله الجاحظ محفيا
للتناقضات ، وذلك يؤدي بالصورة الى التضارب والتشويه والبهمة عن الحقيقة والواقع ، بل
إنه يبعد بها عن المحقول والممكن ، ويخلق الشخصية الغامضة المعقدة ، بل الشخصية
الوهمية الخرافية المسوخة التي تجلب دهشنا ، لبراعة تأتبه بوجوده مسخه ، وسخرنا لما
صارت عليه من خروج عن الإلف ، ونفور من العقل ، كما نسخر من غريب الهيئة والأبلسه
يقول مخاطبا ابن عبد الوهاب : (فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت المتقارب
فيا سمرنا جمع الأعرابيه ، ويا شخصنا جمع الاستدارة والطلب) (٩٨) (وفيك أعران غريبان وشاهدان
بديمان جواز الكون والفساد عليك عتماورا نقصنا ونالزياد اياك ، جوهرك فلكن وتركيبك
أرض ، فيك طول البقاء ، ومعك دليل القناء ، فأنت ملة للتضادة وسبب للتناقض ، وما ظنك
بخلف لا تضره الإحالة ، ولا يفسده التناقض) (٩٩) .

٨ - جد قصد به المنزل :

لقد يتحدث حديثا جادا ويراده المنزل ، ويبدى محاسن ابن عبد الوهاب في وطرى
مغامده ، وا قصد همزه ولمزه ، وتشويهه وهمزه ، كمن يتحدث تمثالا من الحجر ثم يطلوه بالذهب
في صنعة جيدة ، وتمويه متقن ولكنه يترك جزءا صغيرا من جسمه دون طلا ، فيفضح به
أمره ويبدى ستره ويبدل به النا سر على رواة لزانف ، ويحجره الكاتب ، وقد تعمس

(٩٨) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة : ٨٩ .

(٩٩) المصدر المذكور : صفحة : ٩٩ .

ولو لم يكن من المجدب إلا أنك أول من تعبد به الله بالصبر على خطأ الحسن ، والشكر
 على صوابه ، لذهن ، لقد كنت في طولك آية الساهلين ، وفي مرضك مناراً للضالين (١٠١)
 (ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ، ومن القناعة والإخلاص ، إلا أنك ترى أن ما عند الله
 خير لك ما عند الناس ، وأن الطول الخفى أحب إليك من الطول الظاهر ، كان في ذلك
 ما يشهد لك بالإتصاف ، ويحكم لك بالتوفيق (١٠٢)
 جد - التلاعب بعقله .

وقف الجاحظ من عقل ابن عبد الوهاب وتقديره موقف لاعب الكرة من كرهه ، يقذفها
 إلى أعلى ، ثم يتركها تهبط ، يعترف في ضربها بقدمه ثم يلين ، ويفخها حتى يكبر حجمها
 ويصعد بجرمها ، ثم يطويها بإفراج المصراعين ، أو يتلاعب به لعب الصبي بدمية التربة
 البنية ، ربطها بخيط من المطاط ، يرمى بها إلى أسفل وإلى اليمين أو اليسار أو قلبها
 ويرقصها ، وهو آمن وصولها إليه ، وارتدادها له ، وامتلاكه إياها مادام الخيط في يده ،
 وهي لا تملك لنفسها حولا ولا حيلة . أو يفعل به ما يفعل بالصور المتحركة في دار الخيالة
 أو بالعراس الخشبية في المسرح الضاحك . وإذا كان التلاعب بهذه الجواهر باعنا على
 اختراع النفس ودمجتها ، فالاعلى حدق اللاعب ومبارته ، فإن اللعب بعقل ابن عبد
 الوهاب - الآتي - يضيف إلى الانصراف والبهجة ، والحدق والمباراة ، (المزج والاستخفاف

والدجل والسخر ، وحرية الحركة وحفا في المسح والتشويه ، حيث طمس آهيمته رقم وجودها
 وأهطل تيضات عقله وألغاه ، وهو يحمل في رأسه ، وذلك محط الدجل ، ودار السخر ،
 عقل الجاحظ ، (وأما إدراك الشخص البصير ، وقراءتك الكتاب الدقيق ، ونفس

(١٠١) المصدر السابق ، صفحة ٨٩ ، ٩٠

(١٠٢) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ٩٤ .

الخاتم قبل الطبع ، وفهم المشكل قبل التأمل ، مع ومن الكبر ، وتقادم الميلاد ومع
سخون الأيام ، وتفحص الأهلين ، فمن توتيا * الهند ، وترك الجماع ومن الجميع الشديدة ،
وطول استقبال الخضرة ، فأنت يا عم حين تصلح ما أفسد الدهر وتسترجع ما أخذت

ملك الأليم لكنا قال الشاعر

عجز ترعى أن تكون فتية

فدعي إلى المطار ميرة أهلها

وقد لعب الجنيان واحد وذهب الظهن

(١٠٣)

وهل يصلح المطار ما أفسد الدهر

(أولاً سخون في العلم ، والناطقون بالفهم ، يحملون أن استفاضة عرضك قد أدخلت

الضم على ارتفاع سمك ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولئن

اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك ، وإن قد سلموا لك بالرخم شطراً ، ومنعوك

بالظلم شطراً ، فقد حصلت على ما سلموا ، وأنت على دعواك في عالم يسلموا ، ولمعري

إن الصيون لتخطي ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطح إلا الكذبن ، وما الاستبانة

(١٠٤)

الصديحة إلا للعقل إذا كان زماماً على الأعضاء ، وهياراً على الحواس

٢- إنعام بالاسئلة

نوجه إليها الأسئلة الكيرة ، وقد بلغت مائة مسألة ، يعرف قصوره عن إجاباتها ، ليوين

كسوته ، وضلالة حصيته ، ونضوب قريحته ، ثم يحيله إلى كتبه الصديحة ، يلتصق بالإجابة

بها ، ويتعلم بين دفتيها ، ليظهر له الأستاذية ، والحدق والعبقرية ، ولا يهضم

الجاحظ جوابه ، ولا يمتنع رجوعه إلى كتبه ، وليس فرجه إلا حة فياهب جهله ، وإنما وكده

المؤاينة بمقله وعلمه ، والطرز بسقوطه وتفحمه ، ووضعه في إطار قاتم من الهلالية والبهامة

وجعله كاريكاتوراً مشوهاً لمن يدعى العلم ولا علم لديه ، ولمن يفاخر بذكائه ، وقلبيته

مع طبقات الظلم ، ولمن يطاول أستاذة ويخاشنه ، وهو أحط من أن يكون تلميذه ، وقد

(١٠٣) المصدر المذكور : صفحة ٩٤

(١٠٤) المصدر نفسه ، صفحة ٨٩

أوضح الجاحظ الطريقة التي بها يذله ويمنحه في رسالته ، وهي الأسئلة التي يلقونها
إليه ، ويطلب جوابها منه ، ثم التمهيد به ، يجعل كل من يلقاه يسأله إياها ، ويخرج
بها ، وذكر السبب الذي من أجله سأله لأخرجه ، وكشف للناس وله جبال جهله ، وسم
الصور والمشوهة لعقله ، إنه سبب شريف ، ورض نبيل ، هو كشفه أمام نفسه ، لكشف
من غيره ، ويمدح من سلوكه وقوله . وقد ذكر ذلك في رسالته بقوله : (فلما طال اضطرابنا
حتى بلغ العجز منا وكدنا نعتك مذهبه ، وتألف سبيله ، رأيت أن أكشف قلبي ، وأبدي
صفحة للحاضر والبادي ، وسكان كل شجر ، وكل مصر ، بأن أسأله من مائة مسألة أهمها فيها
وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ، وليكنوا عنا من غيره ، وليردوه
إلي ما هو أولى به) (١٠٥)

وهي الأسئلة التي وجهها إليه ، (خبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه ، في أول
ما أخرج في إناءه أكان بحرا أجاجا استحال عند زلازله أم كان زلاعا عذبا استحال أجاجا بحرا
خبرني كيف صار الماء أبعد من الفلك ولا يكون إلا في بطن الأرض ، وهو أشبه بالسماء
كما أن الهواء أشبه بالنار) (١٠٦) . وخبرني عن النزافة أم ولد الناقة أم من الضبع
ومن الشبوط أم ولد البني أم الزجر ، وخبرني ما عفا مغرب ، وما أبوها وما أمها ، وهل
خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ، ولم جعلوها عقبا ، وجعلوها أنثى . (١٠٧) . (وخبرني من
خلق الخريف وقافل سعد بم النفق ومن الذي استوى عمرو بن عدى ، ومن صاحب عبارة
ابن الوليد ، ومن يصع منهم الأصحاب ، ومن يرى العرض ويستوى العقلاء ، ومن
فصل ما بين الشيطان والجنى ، وما بين الجن والحن ومن طعمه الجذف) (١٠٨)

(١٠٥) مجموعة رسائل والجاحظ صفحة ٨٦
(١٠٦) المصدر المذكور ، صفحة ٩٨
(١٠٧) المصدر نفسه ، صفحة ٩٩
(١٠٨) المصدر نفسه ، صفحة ١٠٤

وهذا كما في الرسالة ميدانا قسيما للسخرية ، وجالا رحبا للاستنزاهة والإيجاع ، تناول
 فيها الجاحظ شخصية ابن عبد الوهاب فسخها ، وتلاعب بها وصوره قزبا ضللا ، ثم ألبسه
 رداً قضا فاما من أرنبة الكمال والجلال فتعشرفي ثيابه وتردي حتى أصبح سخرية الطخرين
 وأضحوة الضاحكين ثم خلق منه هذه الثياب ، وأظهر عورات وعيوبه أمام الناس ، وعلى سلا
 حدر وبنية مربية ، ومسرة مجسة ، وبالغ في هذا التجسيم مبالغة ساهرة ، فظهره في
 صورة كثرها صورة تدعو الاليز ، وتشتت الساخرين على الإسراع بالسخرية .
 للجاحظ يتلاعب به ، يرفعه ويخفضه ، ويقصده ويخزعه ، ويدنيه ويقصبه وقد لله ثم يخرجه ،
 ثم يتركه هؤلاء الساخرين ، وأمثلة الساخرين ، وما مثله معه إلا كقط وقع في حباته فأره فهو
 يتلاعب به ، ويقاذفه ، ثم يظهر الخفلة عنه ويتأساه ، حتى إذا أمن الأثره وتأهب للقرار
 فشره فهدم حاجبه ، ذلك المصايد الساخره فشد حباته حولي ، فلا يروغ منه ، ثم يظهر له
 الصداقة ويضحه الإخاء ، وطيب الصحبة ، ليتغره نفسه ، ويفن روحه ، ثم يكرهه بالهجو
 ويلاحقه بالطمعات ، وذلك أشد ألوان الإيلاء ، وأعنف أنواع التمهيد .



تلك رسالة الترهيب والتدوير ، التي حققت الكاريكاتور ، وارتقت بفن السخرى وأطلعتنا على
 جوانب عديدة له ، وفنوناً مختلفة الألوان ، شبيهة الطموح ، من اللذع والقرص ، والهجاء
 الذي رقت به المدنية ، ولطفته الحضارة ، فسلكت به طريق التصوير المضحك ، والسخر المراء
 المعتمد على المقابلات ومرض المتناقضات حين تناول الجاحظ صاحبه ، وأخذ يلقبه بسبون
 يدور (وصحت به قبل أن يقتله ، فلماذا به شكل غريب ، وخلق عجيب ، وفرر وحسد ، وجعل
 رجلا جنة ومع حسن القامة ، وعظم القامة ، وهو المصين ، وطيب الأحدة ، ثم يلجئ فيسا
 يتاوله ، ويخالق في سرد النكتة ، ويدس السم في الدسم ، حتى تركه صورة أوقصة تضحك
 القارئ ، ونسجبت المتألمين على مر العصور (١٠٦) . وقد عدد الجاحظ نفسه أقراض

١٠٦) الأسلوب وأحمد الشايب صفحة ١٤٤ الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٩ مكتبة النهضة .

كتاب التريب والتدوير ومن فوائد^١ وأعجب به وارتضاء (مع ما فيه من الأخلاط من أشكال
وأعداد ومن الجهد والهناء ومن الإطلاع ومن الاستئناف والقطع ومن
التحفظ والتضييع ومن التثبيت والتهاون ، إذا أريد به تفریح معجب ، أو كشف سره
أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو وقع مارة ، أو مازحة ظريف ، أو مسألة عالم
أو مسألة حافظ ، أو تشبيها على الطريق ، أو تجديدا للذهن) (١١٠)

ورأى الأستاذ أحمد أمين في الرسالة^٢ للدارس الباحث أكثر ما رأه الجاحظ ذلك
أنه : (استطاع أن يجعل لنا موضوعا علميا ، بل لعلنا أحسن رسالته لمن شاء أن يعرف
أعلى المسائل العلمية والعقلية والأدبية والفلسفية كان يشغل الناس في عصر الجاحظ) (١١١)
يقول الدكتور طه حسين عفا غمرا بالرسالة^٣ مبينا ابتداء الجاحظ وطول نفسه (ويشعر

جدا أن تنظر في رسالة التريب والتدوير التي يجوبها الجاحظ أحمد بن عبد اللطيف .
تستجسد هذه الرسالة طويلا تبلغ خمسين وثلاثة صفحة ، وهي من أولها إلى آخرها مجاهبه
ومجاهم لم يقصد فيها الجاحظ إلى الجهد وإنما الدنل .

تعدت في أمين الشاعر العربي الذي يستطيع أن يبلغ في المجاهبه بعض ما بلغه الجاحظ في
رسالته هذه ؟ وأين القصيدة التي تبلغ في الطول والتقن ما بلغه الجاحظ ، ولمسمن
تستطيع أن تقرا مجاهبه جبر ومجاهبه الفرق^٤ ومجاهبه الأخطل ، فقلن فيها شوقا
بعض أن يقاربه هذا اللون والذي تجده في كتاب الجاحظ) (١١٢)

وأقول : لقد سمعت أن أجمل رسالة التريب والتدوير ودها موضوع بحثي ، وأبنت أن
فيها القافية لتخطيته ، والقدرة على إعطائه متطلباته ، ومدته بالعناصر اللازمة لخلق بحث

(١١٠) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ١٢٢

(١١١) ضمن الإسلام ، أحمد أمين الجزء الثالث صفحة ١٢٨ ، ١٢٩ الطبعة المعاصرة مكتبة

النهضة .

(١١٢) من حديث الشمر والنثر ، طه حسين صفحة ٦٠ مطبعة دار المعارف بصر سنة ٦٥

منطقه حتى ليكن التصريح بأن الرسالة صورة واضحة لأدب الجاحظ ، ولوجه وقلبيته
وخلصته ، واعتباده في الحياة ، وأن الدارس يستطيع من خلالها أن يقف على نفسه الجاحظ
وخصاله ، وخلقته وحماسه ، وبراعة منطقته ، وطواعية قلبه لخلجات فكره .

وأما الرسالة الأولى من نوعها التي تناولت السخرى فنحن وابتداعه ، ومسط وبيجاج ،
ببذوب الأنظار ، وولفت جهد الزمان ، وأن السلاح السحري فيها ، والأداة الأدبية التي
لم يهتق إليها ، كانتا لتصور الميزل الواسع الإطار ، والمتصرخ الخطوط الزاهي الألوان .

ولكنني أردت أن تكون دائرة بحثي أوسع ، لا تمتنع بالجاحظ أكثره ، ولأنهم تقدم نفسه وأدبه أعقده
ولأضحك منه صجبا وطربا ، وهزوا وسخرا ، ولأرتوي في تودة وترو من الأدب الصاخر
عنده ، الذي نشره في رسائله ، ونشره في سائر مؤلفاته ، وهو من أن اقتصر على هذا اللحن
من التصوير الميزلي في رسالته رين كان قد جمع فأوصى ، وقدح فأورى ، وأصواب فأص .

الفصل الثامن

سخرية المواقف

بمعرض المرء في يوم الكثر من المواقف والمديد من المشكلات وهو يواجه في موقف
 متحالة على ما يلزم منه بلقاءه وحل كل مشكلة بشئ من الجهد قد يكثر وقد يقل ^{تعا} ^{وإقامة}
 لأهمية المشكلة وقد يقرر المالك وقد يكون الحل ببعض المثل ^{بتليل} ^{وتلبيح} من المخرجه ^{وإقامة}
 مبررة تحصل التفاضل والرضا وتخلف المشكلة أو تحوينا .

وواجبة المواقف باليأس والفتور من صفات التبريم بالحياة والرافضها . والتوفيق
 أساسها بالصراحة والسلف من عادات الخشن الفظ الذي لا يأبه بالناس ولا يكسره
 بل هو لم صعبته والانسحاب من الموقف في ذلك وانكسار من صفات الخائر المديد
 الذي يخاف المواجهة ويفرق من المجاهدة .

وحل المشكلات بالضرب والقتل - إن اعتبرنا ذلك حلا - دليل الامتناع على القوة
 العقلية ^{الجبرية} والقدرة الجسدية وذلك شأن من لم يزل هظا من التعليم ^{وتسخط من الحقل}
 والتدبير فيندفع جسمه سابقا ومنه فكره .

وفضها بالشتم والسلب من خصائص ذي اللسان البذيء والخلق الدنيء .
 ومما يجتهد بالضحك والابتسام والسخرية والتهنؤن وطبيعة التعلم المتأديب الناضج
 الفكره الواسع العيلة الذي يدرك باللين والضحك أكثر مما يتكلمه غيره بالهتاف والقسوة
 وتزول مشكلاته ويقتل خصمه وهو مطمئن النفس مستريح البال يضحك على شدة تهمسه
 ومن حشوا فيليه وشرح بقتله المتخبط في دمه ويحل روحه بنظره وقد أمن أن
 يخذ به بريرة أو يحاسب على قتله .

كان لاجتماع هذا الطراز الأخير الذي يجابه المواقف بالمخرجه ومخالج المشكلات
 بالضحك ورأيه الخصم بالذم والاستخفاف لم يكن تبرا بالحياة ماخطا عليها بل

كان مرحا ومثاقلا ، يحب الحياة بكل ما فيها وإن تصالحت على جسمه الأضداد ولم يكن
 خشنا قظا ، وإنما كان ليينا سهلا ولم يكن خائرا جبانا ، بل كان جريئا مقداما ، يفتد ما
 لا يترقبه ، ويتناول بلسانه الحاد ، من حاد ، ولو كان أستاذه ، ولم يحل مشكلاته ويواجه
 مخالفتهم بالمضرب والتحل والقوة الجسمية لأن تلك مدة من لا تفكر له ، وحيلة من لا حيلة لديه
 ولم يلجأ إلى السب والشتم والبهتان ، بل اتخذ الطريق اللين في التقرير والتأنيب ، طريق
 الاستمراء والسخره وأحب من اتخذوه لهم طريقا ، ورى سخرياته وسخرياتهم في مواجهة
 المواقف التي اعترضتهم ، كما رى كلمات لهم في مواقف طهمتها بالسخر والتهم

وأحب - كما وعدت - أن أبين الجوانب الفنية عند الجاحظ التي جعلت السخرية سخرية
 وأضع اليه على المعاني التي من أجلها أضحكت وأبكت ، فأقسما بحسب فنيتها في المواقف
 التي استلزمها إلى أربعة أقسام :

١- الأجوبة المسكتة .

٢- عين التعليل .

٣- التخلص الفج .

٤- ظهور ما في العقل الباطن .

١- الأجوبة المسكتة :

قد يحاول الرجل أن يسخر من صاحبه ، ويضحك منه ، فيبدأ بالعبث به ، فإذا شمته
 هذا الموقف فإننا نضحك لهذا السخرية ، ونعرب بذلك العبث ، ولكن ضحكنا يزيد وشمته
 ويصير قهقهات عالية النخمة إذا حاول المتكلم أن يسخر بصاحبه ، فيلويه السامع عن قصد
 ويفسد عليه خطته ، ويرد كيد في تحره ، فيقلب عليه سخريته ، ويحول إليه مسار سببه ،
 فيحميه ويصممه ، فإذا هو الصيد بعد أن كان الطارد ، وتتضاف السخرية ويحسف
 المتكلم ، ويتضاف المتكلم الأول لأن السخرية آتية من عدة نواح :

ب - أنه أنعم وأجر - ج - أنه عار هداً للسهام ،

وتصبا للطمأن .

وهذا للتلون من السخر يحتاج الى عقرية فذة ، وذلك لانج ، وقدرة على معرفة ما هو عليه المنتظم ، وسرعة في الإجابة ، وحضور للهدية ، فنجياً خصمه بالقول الضم ، والسخرية لللاحقة على غير توقع ، ويجرمه مرارة كأسه .

والجاحظ أستاذ هذا الفن ، قد برع فيه ونبع ، واشتق منه ألواناً ، وشققت منه ألقاباً جعلت ضرباً من المعجب ، وتولدجا من الروعة ، وإعنان الطنعة . فمن ذلك :

١ - قال الجاحظ مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجاه بالقولج ، فأراد الزيات أن يدعبا للجاحظ ، فأمر أن يجعل في جوفه ا لجزء الرقيق من الصخرة ، فأسرع الجاحظ بالأكل ، فنقد ما بين يديه ، فقال له ابن الزيات : تشمتت سماؤك قبل سماء الناس بالليل الجاحظ . (لأن فيها كان رقيقاً) (١)

أراد الزيات السخرية من الجاحظ ، ومن سرعة أكله ، وشدة لونه ، فقال له وقد مدت سماء غللة أملك تشمتت سماؤك قبل سماء الناس ، فأجابه إجابة سريعة وأمية ، على طريقة المشاكرة ، قائلاً ، لأن فيها كان رقيقاً ، فذكر السبب الذي من أجله تشمتت سريعاً ، وكان رداً مضطرباً فيه سخرية بالزيات الذي أراد خداعه ، والمعبث به ، والسخر منه ، فكشف خديته ورد عليه سخرية وكان لسان حاله يقول ، ما أنا بالنهم إلى فالنودجك ، ولا بالنسر الذي يخدع ، ولكن هذه طريقتك في إكرام ضيوفك .

٢ - قال الجاحظ ، جاءني يوماً بعض التلابة ، فقال : صنعت أن لك ألف جواب صكت ، فعلمني منها . فقلت : نعم ، قال : إذا قال شخص : يا زني ، يا زني ، يا زني .

(١) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، المجلد ١٢ ، صفحة ٢١٨ مطبعة المصانعة

فقد نظر الجاحظ للقادة ، ولقط عينه الفاحصة ما رآه في الرجل من فنونه خلّصه ،
وتناظر بين أعضائه ، ومع ما يبدو عليه من اعتزاز بالمظهر ، واعتناؤهم بجمال السم ، فاستراهوا
لكن إجابة الشيخ كانت بارحة لازمة ، وقد أتت إلى الجاحظ سخره فأفهم وأجيب .

وأما المرأة فقد رأتني منظرًا لجاحظ وجمارته التي أصدرت هذا الصوت القبيح ما
يدعو إلى الاستغراب والتعجب ، فاستغربت بلطف ، وتسلّمت في رقة ، ولكن سوط سخر
للجاحظ لتعجبنا فأجابها ، وظن كلامه لا يهبط له ، ولا يحقّ عليه ، وقد كانت المرأة أبغ
سخرية ، وأبدع إجابة ، وبين سخرته وبأسه ، ووضعتهما في صورة هزلية أسكتته وحقرته
فلم يملك إلا الاعتراف بقصوره وتخاذله .

١- (حدث أبو الميناء محمد بن القاسم ، قال : صرت إلى الجاحظ ، فقلت له : جئتكم مسلماً
وقاضياً للحق ، ولي حاجة لبعض أصدقائي ، وهي كذا وكذا . قال : لا تشغلنا الساعة من
العادية ، وتعرف أخبارنا ، إذا كان في غد وجئت إليك بالكتاب فلما كان من غد وجه لي
بالكتاب ، فقلت لا بهي وجه هذا الكتاب إلى فلان ، ففيه حاجته . فقال لي : إن أبا عثمان
بصير النور ، فيبغض أن تفضّه ، وتظن ما فيه ، ففعل ، فإذا في الكتاب ، هذا الكتاب
مع من لا أمره ، وقد كلمني فيه من لا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رده
لم أذمك ، فلما قرأت الكتاب مضيت إلى الجاحظ من فوري ، قال : يا أبا عبد الله قد
علمت أنك أنكرت ما في الكتاب . فقلت : أو ليس موضع نكرة . قال : لا . هذه علامة
بين من الرجل نهي عن أعتني به . فقلت : لا إله إلا الله ، ما رأيت أحداً بطمك ، ولا ما جعلت
عليه ، من هذا الرجل علمت أنه لما قرأ الكتاب قال أم الجاحظ عنده الآف في عشرة آلاف
... ، ولم من بماله حاجة . فقلت له : ما هذا ؟ أتشتم صديقنا ؟ قال : هذه علامة

بين أعتني به . فضحك الجاحظ . (٥)

معجم الألفاظ الجزء ١٦ صفحة ٨٢ + ٨٦ ، جمع الجواهر للعصرى هي ٢٠٤ م تيسق

البيروت ط ١ سنة ١٤٧٢ هـ .

ابتداء الجاحظ بالسخرية ، فجعل كتاب الوصية لا وصية به ووضه الرجل لقرأه لعله عسى

فرد الجاحظ ، وضح ما توقعه .

ويجعل

وأراد الجاحظ أن يتخلص بلباقة من السخرية الأولى ، ويحصل في الوقت نفسه من هذا

التخلص سخرية أخرى ، فذكر أن ما ظنه الرجل سخرية به ، ليس إلا علامة بينه وبين المرسل

لتلبيح
إليه تلبيحاً ما يطلب .

إلا أن حامل الوصية لم يندع ، وكان السخر سخرين ، وكان الجواب من نفس المنبع .

ما أشرك الجاحظ طرية للभाقة الرجل أو تخفيفاً لما أصابه من استنزاه ألم ، أو سخرية

لورعه
من نفسه ليرده في حباله ، فلم يجد ما يقول إلا الضحك .

وه (قال المصباح ليعلى بن سعيد بن الماسر) أخبرني عبد الله بن هلال صدق

إيليس أنك تشبه إيليس . قال : وما ينكر أن يكون سيد الإنس يشبه سيدا الجن (٦)

وفي ذلك تخلص رائع ، وإجابة مسكنة ، ورفعة للسخرية وقد أراد المتكلم امتناع والنز به

حرك فيه كثر من النور والأهلية وسخرية من يحيى أخملت سخرية المصباح ومط مسن

قدرها وقدره .

٦- (جاء رجل إلى وجهه فقال له : أنا جارك ، وقد مات أخي ، فقل لي بئس ، قال

الوجه : لا والله ، ما عندى البس شيء ، ولكن عد إلى بعد أيام تستجد ما تريد ، قال :

فقل صلح الميت إلى أن يعمى عندكم شيء (٧) .

وهل تشين الميت ودفعه يمكن فيهما تأجيل ، أو انتظار عدة أيام يعود بعدها الرجل

ليأخذ من الكفن ، لذلك جاءت السخرية بآفة لازمة ، تقترح حلاً ليس يحل لها أن

كلام الوجه حل ليس يحل ، إلا أن الوجه لم يرد السخر لكن الرجل أراد السخر

(٦) البيان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ١٢٠

(٧) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١١ ، جمع البواصر

والفرج

والضيق والافحام والتجرب

قال (روى أن العجرا الأسود كان أبيض، فسوده المشركون ، فقال الجاحظ كان يجب أن يهذه المسلمون حين أسلموا) (٨)

قال الجاحظ ، قال الههسي لشريك القاض - وموسى بن عيسى ضد - لم يهد عليك ههس كنت تقيم ! وأراد أن يضرب بينهما ، قال شريك ، من سألته عنه ؟ لا يزال عن ههس غير أمير المؤمنين ، فإن زكيتك قبلت . فقلها عليه) (٩)

١- (قال الصولي ، قال الجاحظ ، قال ثمامة ، دخلت إلى صديق لي أعمده ، وشركت حماري على الباب ولم يكن صي غلام ، ثم خرجت وإذا فوقه صبي ، فقلت ، اتكب حماري بنسب إزني ؟ قال ، خفت أن يذهب فحفظته لك . قلت ، لو ذهب كان أحب إلي من بقائه . قال ، لسان كان هذا رأيك في الحمار ، فاعمل على أنه قد ذهب وحب لي) (١٠)

٢- (دخل رجل من بني مخزوم وكان زهيريا على عهد الملك بن مروان ، فقال له عهد الملك ، أليس قد ردتك اللعللى عليك ؟ قال ، أومن إليك لقد ردت على حبيبتك فاستحبها ، ولم أنه قد آسأ) (١١)

(٨) امرأه البيان ، محمد كرد علي ، الجزء الثاني صفحة ٤٦٨ .

(٩) الأذكياء ، عهد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي طبعة دمشق ص ١٦٦ .

(١٠) الأذكياء ، صفحة ٢٤٤ .

(١١) البيان والتبيين الجزء الرابع صفحة ٧٥ .

الفج

٢ - التخلص القبيح

إذا وقع شخص في ورطة ، وتأنم الموقف ، وضاعت السبل ، وأصل فكره وقدح زناد عقله ، فأضاه له
الظلمات ، وكشف السمعيات ، وأفسح السبل أمامه ، وأوجد الحلول لأزماته ، فخرج مسن
سنته أقوى سودا ، وأكثر مرانا ،
وما أتبع قول الشاعر :

جزى الله الصائب كل خير عرفت بهادوي من صديقي

وقول بعض الفلاسفة : السم الذي لا يقتلني يزيدني خبرة وشجيرة .
فإن ضاق عظمه ، ولم يسمحه تفكيره ، وحاول أن يخرج من ضائقته خروجاً شكراً ما أو يتخلص
فيها تخلصاً نجاة ، يفصح عن عقله المحدود ، وذممه الكليل ، المكبود ، سخرنه منه ، وهزئنا
لتفج تخلصه .

(٢)

وقد احتوى أدب الجاحظ على مخزيات من هذا اللون منها :

١- (قيل لوزع البشكري: قم فا صعد المنبره وتكلم ، فلما صعد ، رأى وجوه الناس نحوهم
فقال : لولا أن أرا تي حملتي على إتيان الجمحة اليم ما أتيت وأنا أشهدكم أنها طالق
ثلاثاً) (١)

لقد ألبسه الموقف ، وعقد لسانه ، وهربت الكلمات من شفتيه حين رأى الناس ينظرون إليه ،
ينتظرون نصيح كلامه ، وجليل عظاته ، وهو لا يجد في صدره فصيحاً ولا هزلاً ، ولا تتحرك
شفتيه بوعظ ولا بقصة ، فتذكر موقفه من امرأته ، وأنها سبب مأزقه ، بدفعها إياه إلى
الصلاة ودار ذلك في عقله فصار كلمات علي لها نغمة وكان خطبة أشهد فيها الناس أنفسه
طلق امرأته ثلاثاً لقد كانوا ينتظرون منه خيراً فقال شراً فكانوا ينتظرون وعظه فسمعوا
هجره ، وإذا تخلس من ورطة وقع فيها بورطة أخرى أقوى وأكبر ، وإذا وجد في موقف يعلم

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثاني صفحة ٢٥١

(٢) كيف تعيد سر هذه القصة والبرازة التي أدب الجاحظ في الخرية ؟

الناس كما قال له ، فنطق غير ما يعملون ، وفعل خلاف ما ينتظرون ، كانت السخيرة المحببة
والدنيا العويج ، والضحك القاتل .

٢- (خطب مصعب بن حبان - أخو مقاتل بن حبان - خطبة تكلم ، فحضر فقال : لقنوا
موتاكم قول لا إله إلا الله . فقالت أم الصروس : عجل الله موتك ، ألهذا دعونا ؟^(٢) .
المرس من وسهجة ، والموقف يستلزم أن يكون فيه كل حرف مبيح ، فإن كان إنسان
محموداً فليست له ، أو ليتنا ساءه ، أما ذكر الموت في الأفراس ، فشيء تشتمز منه النفوس ،
وتجفل له الطباع ، لعدم مراعاة الموقف ، وقد فعل ذلك مصعب ، وتصرف تصرفاً جيداً ،
وتخلص تغلماً كان هو السقوط بعينه ، وذلك يدعونا إلى السخر من مقاله ، ويدعو أم الصروس
إلى أن تتعنى له تعجيل موته ، ثم تقول هازئة : ألهذا دعونا ؟ فقد دعوه ليلقى خطبته
تكلم لا خطبة تأبين فلما حصر أبن ، فوقع في أشد مما سقط فيه ، وكان كالاستجوير من
البيضاء يا لئام .

٣- (قال إبراهيم بن هانئ : كنت عند أحمد بن الخاركي إذ مر به بعض الباعة ، فصاح :
الخن الخن . فقلت / وقد جاء الخن بعد ؟ قال : نعم ، وقد جاء ، وقد أكثرنا منه ،
فدعاني الشيطان عليه إلى أن دعوت البائع ، وأقبلت على ابن الخاركي ، فقلت : ويحك ؟
نحن لم نسمع به بعد ، وأنت قد أكثرت منه ، وقد تعلم أن أصحابنا أترف منك ، ثم أقبلت
على البائع ، فقلت : كيف تبيع الخن ؟ فقال : ستة بدرهم . قلت : أذنت من يشتري ست
خوخات بدرهم وأنت تعلم أنه يباع بعد أيام مائتين بدرهم ثم تقول : وقد أكثرنا منه ، وهذا
يقول ستة بدرهم ١٤ قال : وأي شيء أرخص من ستة أشياء ،^(٣) .

(٢) البيان والتبيين / الجاحظ ، تحقيق هارون ج ٢ ص ٢٥٠ ، تحقيق السندوني ج ٢ ص ١٧٩

(٣) الإخلاص ، تحقيق طه الحاجري ، صفحة ١٢٦ و ١٢٧ .

أحمد بن الخاركي كما يقول الجاحظ كان بخيلا نفاقاً^(٤) ، ادعى أنه أكثر من الخوخ في
 بالكثرة ، وثمنه مرتفع ، فسخر منه ابن هاني . . . بدعوته البائع ، وسأله عن الثمن ، وبيان
 فدأته بالنسبة للحز الخاركي ، وحاول ابن الخاركي التخلص من موقفه ، والبروب من المأزق
 الذي نج بنفسه فيه ، فلم يحسن ذلك ، وجاء تخلصاً محتسفاً ، منافياً للعقل ، وهو يعتقد
 أرويهنا أنه يقول صواباً ، وأن له في ذلك عذراً مقبولاً ، وأنه قد أكثر من الخوخ تمسلاً
 لرخص ثمنه ، وثمنه قيمته ، فستة أشياء^(٥) يشي^(٥) واحد ربح ربحاً ، وهذا التخلص المتعسف من
 موقفه المحرج هو سبب سخرننا ، وببعت ضحكاً .

٤- قال ابن حسان : كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكروه وكان مغرط البخل ، شديد
 النج ، فقال له يوماً أخوه : ويدك ! أنا فقير معيل ، وأنت غني خفيف الظفر ، لا تمينني
 على الزمان ، ولا تؤاسيني بهمض مالك ، ولا تفتح لي عن شيء ، والله ما رأيت قط ، ولا سمعت
 بأبخل منك ! قال : ويدك ! ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا أنا كما تقول
 في البخل ولا في البصر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم ، لو هبت لك منها خمسمائة ألف
 درهم ! يا هولا ! فرجل يربى ضربة واحدة خمسمائة ألف يقال بخيل^(٥) .
 أخرج الرجل في موقفه أطم الناس ، فقد بين له أخوه المذرف في سألته ، وكشف له
 وللناس باطله ، وألزمه عيبه ، وشهر ببخله ، وما طلب منه إلا درهماً تمينه على سد أفواه
 أولاده الجائعين ، ولما أراد الخروج من المأزق ، والإفلات من هوة الموقف ، لم يفلح ، إذ
 خلق معونه أخاه على أن يمتلك ألف ألف درهم ، فكان أسلوباً رذالاً ، وتخلطاً نجاً ، أضحك
 القاصر وأضحكنا ، فسخرنا منه وسخرنا .

(٤) كتاب البخل الجاحظ ، شرح الحوامري والجانح الثاني صفحة ٤٩

(٥) البخل الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ١٩٥

٦ - (صمد علي بن أرطاة على التبره فلما رأى جماعه الناس حصره فقال الحمد لله الذي يطعم هؤلاء وسقيهم) (٦)

٦ - (بينما معاوية بن مروان واقف بدمشق ينتظر عبد الملك علي باب طحان وجمار له يدورها لرحي ، وفي عنقه جليل . إذا قال للطحان : لم جعلت في عنق هذا الحمار للجلجل قال : ربا أدركتني سامة أو نعسة فإذا لم أسمع صوت للجلجل علمت أنه قد قام فصحت به . قال معاوية : أفرايت إن قام ثم مال برأسه هكذا وهكذا - وجعل يحرك رأسه بينة وسرة - ما يدريك أنت أنه قائم ؟ فقال الطحان : ومن لي بحمار يحقل مثل عقل الأمير) (٧)

٧ - (ادع رجل على الهيثم بن مظهر الفأقا أنه سرق بفلا فقال له الوالي : ما يقول ؟ قال : ما أعرف ما يقول شيئا قال : أصلحك الله ، إنه سكران فاستكبه . قال : لأى شيء يستكبنى ؟ آكلت الخيل) (٨)

٢ - حسن التعليل

وهو أن يفتن المتحدث علة للشيء ليست هي العلة الحقيقية له تصدا إلى السخرية ورفعة في الإضحاك .

فالسامع حين يرى المتكلم قد انتقل بفكره من الشيء الذي كان متوقفاً تنتظره الأذنان وتترقبه الأذان ، إلى شيء آخر لم يكن متوقفاً ، ولكنه حل لطيفاً وأجابةً بطريقة تصد بها السخرية ، وبالبناء إلى الإضحاك ، تفعل نفسه بهذا الموقف ، وتشرح لهذا التلطف وحسن التأتى .

(٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٥١

(٧) البيان والتبيين الجاحظ ، صفحة ٦١ لوميون الاخبار ، ابن قتيبة العبد ٢ ص ٤٤ طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(٨) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٢٤

والمفكر حين يترك الحلة الحقيقية ، ويخترع حلة أخرى فإنه يحقق السخرية من السامع ،
 باظهاره له الشيء في غير موضعه كما وتحليله الموقف بما ليس حله ، فهو يستعين به ويقدمه
 السابق أو يبين براعته واقتداره على امتلاك نواحي الكلام ، وهنالك المعاني ، وأنه نسي
 مرتبة أعلى من مرتبة محدثه وأرفع ، وهو بهذا التحليل الحسن يرد الاعتقاد السائد ، ويخلص
 السبيل السابق ، ويوضح لهم سبب استحدثه ، كان غامضا على أذهانهم ، ولا يخفى ما في
 ذلك من تهكم واستعلاء .
 واليه حظ جرؤي كثيرا من سخرياته ، يمكن الإضحاك منها ، وهو السخرية فيها حسن
 التحليل ، يظل .

١- (من الجانبين الأشراف ابن ضحيان ، وكان يقرأ " قل يا أيها الكافرين " فقل له في ذلك
 فقال ، قد عرفت المقراءة في ذلك ، ولكني لا أجل أمر الكافرا^(١))
 أخطأ ابن ضحيان في قراءة القرآن ، فدله الناس على خطئه ، وحرّفوه الصواب ، وأصبح في
 موقفه هذا متبهما بعدم الحفظ ، ويجعل قواعد النحو ولكنه تدارك الموقف وحمله له بعد أن
 كان عليه ، فقد ادعى أنه يعرف القراءة المتبعة ويستطيع أدائها ، ولكنه تعدد القراءة على
 الوجه الذي قرأه ، ولم يخطئ . حين قرأ الكافرين بالجر ، وحيثه في ذلك ، عدم إجلاله
 الكافرين ، فهو من أجل هذا لا يقرأ الكافرون بالرفع ، لأن الكافر أحقر من أن يرفعه ابن
 ضحيان ، وإنما مكانته عند الأرض فهو لذلك يجره دائما ، فعطل لخطئه بحلة طريقة ماخرا
 فيها من الكافره محقرا إياه . وحسن التحليل في هذا الموقف في حاجة إلى بصيرة نوره
 ومعرفة لقواعده ، حتى نعرف مراد ابن ضحيان ، ووجهته المؤدية إلى السخرية ، وكيف
 كانت كلمة الكافرين أو إبدال الواو في الكلمة مؤديا إلى عدم إجلالهم .

(١) البيان والتبيين الجزء الرابع صفحة ٢٠

٢- قال الجاحظ ، رأيت جارية بسوق النخاسين بيغداه يتأدى عليها ، وهي خدما
خال ، فدعوت بها ، وجمعت أظفيرا ، فقلت لها ، ما اسمك ؟ قالت ، مكة فقلت ، والله أكبر ،
قرب الحج ، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود ؟ قالت لي ، إليك مني ، ألم تسمع قول الله
تعالى ، لم تكونوا بالنيه إلا بهق الأنفس (٢) .

رأى الجاحظ الجارية مكة فأعجبه ، وأراد وصلها ، ورغب في التمتع بها ، واستغل الاسم
المشترك مكة ليكني ويصيح ، وأراد بهجمة قرب الحج ، الرغبة في قربها ، وطعمه في زيارتها ،
وهي بالحجر الأسود عما يريد أن يقبله منها ، فانتقل من عبت إلى عبت ، ومن كفاية إلى
تورية إلى مجانة وأجابته الجارية بما يلائم أسلوبه ، ويوائم طريقتيه ، ويتناسب مع الموقف الذي
وجدت فيه ، وكان حسن التعليل لعدم نيل شيء منها باستخدام الآية الكريمة هو سوط الشعر
وشواظ الميزه . وتظهر في هذه الأمثلة براعة استخدام الألفاظ والعبارات ، وترتيبها
طريفا وسخرا .

٣- (مر ابن علقمة بمجلس جماعة من بني ناجية ، فكبا حماره على وجهه ، فضحكوا منه . فقال
عليهم السلام : إنه رأى رجلا قريش فسجد) (٣)
ضحكوا من الموقف ، وسخروا حين كبا حمارا بن علقمة ، فباد لهم سخرية بسخرية ، بإيهامهم
أن ما ظنوه كبا ليس به ، وأوضح لهم خطأ ظنهم ، فالحمار لم يكب ، وإنما تمدد أن يخر
ساجدا ، إكراما لوجهه قريش ، وتشطيا لأقدارهم .

١- الأذكار ، عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي ص ٢٦٢ ط دمشق
٢- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٥ .

قد جاء به حجة حسنة ليهين خطأ دعيه على كلب إن الموقف لا يتطلب أن يقرن بـ كلب ،
لأنه يقرن بـ كلب آدمي منذ الخدانة .

١- ظهور ما في العقل الباطن :

مطامع المرء لا تتقف عند حد ، وأما له لا تتنفس إلى غاية ، وكلما حقق مطمعا ، وقال أملا ،
تجددت له مطامع وانبتت في فكره آمال ، وهذه المطامع ، وتلك الآمال لا يستطيع
تحقيقها كلها ، وما لم يستطع تحقيقه لن ينتهي بانتها الأيام ، بل يترسب في عقله الباطن ،
وينكش في زاوية من زوايا ، ولكنه لا يخبر ولا يخمد ، وإنما يتخرب بين الحين والحين ، فيض
ويلتصق ، ويحيطوا على السطح ، ويرز إلى عالم الحقيقة والواقع .

وما ينقل به الإنسان ، فيأخذ الكبير من تفكيره ، ويستولى على عقله ، يجعله فسير
منه تماما لغيره ، فتكون رؤيته غير واضحة ، وكلماته باهتة تائهة . فإذا كلمه أحد ، ربما
أجاب على غير كلامه ، أو خلط بين الإجابة عن كلامه وبين ما يدور في نفسه ، وذلك الخلط
بين ما يدور في النفس وما يتطلبه الموقف يدعو إلى السخرية ، ويحقق لنا من أوائدها ، فإذا
رويت لنا هذه العبارة المخلوطة سخرنا من قائليها ، لما فيها من فقدان التجانس ، وانعدام
التلازم ، ولما تفصح عنه ما كان المتكلم يخفيه ويحرص على كتمانه ، ويحاول جاهدا أن يظل
مستترا لا يقف على حقيقة أحد ، فتكشف أستاره ، وتمتلك حجبته ، فإذا هو واقف أمام
الناس عاريا ، فضحك متهكمين ، ونقده ساخرين .

وقلت لسانه تلك ، تطلعتنا على دخلية نفسه ، وطبيعية تفكيره ، وحقيقته بين الرجال ،
فنصرف قدره ، ومكون نفسه ، وحشيه ونمسه ، أو بخله وتفتيره ، أو فحجه وانعاشه ، فنسخر
وننطز .

والسخريات التي تتناول المواقف التي يظهر فيها ما في الشمر مبرحا بالحقيقة الخارجية

كبيرة منتشرة في أدب الجاحظ . ومنها :

١- (كان محمد بن راشد البجلي يفتدى وبين يديه شهوة ، وحياط يقطع له ثيابا وراه
 يلاحظ الشهوة . فقال : قد زمت أن الثوب يحتاج إلى خرقة فكم مقدارها قال : ذراع
 في عرض الشهوة) (١)

كان الخياط جائما مغرورا بالسكن ، فأخذت الشهوة كل شكره وملكته عليه حواسسه
 فلما كلم ابن راشد كان فكره ونظره في الشهوة فخلط الكلام الخارجي بعديت نفسه ، فظهر
 شوقه وشرقه إلى الطعام واضطرب موقفه هيا يدعو إلى السخر والضحك .

٢- (قال الجاحظ ، قلت لأبي سعيد الطفيلي ، كم أربعة في أربعة ؟ فقال : رقيقين وقطعة
 لحم) (٢) و (قيل لطفيل ، كم اثنين في اثنين ؟ قال أربعة أرفقة) (٣) .

والجاحظ يرى في أحلامه الخبز واللحم فلا ينظر لشيء إلا على أنه يؤكل أو يشرب أو أنه ينبع
 من تلقاء أو جائع ضامر ، فحاله يسيطر عليه في أقواله وأفعاله ، والموقف هنا يستحق
 للضحك ، ويحلب للسخر ، وقد نهبت السخرية من ريتنا نماذج من الرجال جعلوا عقولهم
 في معادهم ، ولو أمعناهم في عقولهم ، قدمنا عليهم الأكل والشرب أقطار نفوسهم ، وهم
 جوانب حياتهم ، كما أنها نابعة من الخلط في القول ، والإجابة بما ليس بجواب أو اختلاط
 الظاهر بالباطن ما يدل على تهليل الفكر ، واضطراب الخاطر .

٣- (مات لابن مقرن غلام في طاعون ، فحفر أعرابي قبورا للظلم بدرهمين ، فلما أعطوه
 الدرهمين قال : دعوهما عندكم حتى يجتمع لي محكم من ثوب) (٤) .

١ البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق السندوني ج ٢ ص ١٢٧ ، وتحقيق هارون ج ٢ ص ١٢٨
 ٢ الأذكياء : عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي صفحة ٢٢٢ طبعه دمشق
 ٣ البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق السندوني الجزء الثاني صفحة ١٢٥ ، وتحقيق عبد
 السلام هارون الجزء الثاني صفحة ١٨٧ ، والأذكياء ابن الجوزي صفحة ٢٢٢ طبعه دمشق .
 ٤ البيان والتبيين الجزء الرابع صفحة ١١

لغيرها شهوة للطعام والشراب ، ولا جمع المال وتكثيره وإنما السخرية من كلام الأعرابي
لأنه أظهر أضياعه ، وهي وإن كانت تحقق له النفع إلا أنها تجلب لغيره ضررا يوازى أضرار
أضرار نفعه ، فهو يعني أن يموت الكثير من أفراد هذه الأسرة ، ويحتاجهم الطامعون
نفع موت كل شخص ، ورمضان له ثمن حفره قبره كما يقال : تلك فن مرقته هذا جنوده باتمامه .
بمجاناة الذود
تصانف الذنوب واليه من اللبابة ، على ^{بلى} نفسه ^{نقصه} ينقص نظره ، وقفاة عقله ، ورضيمتا إلى
السخرية منه والاستهزائه •

الفصل الثالث

سخرية التضاد

من الجوانب التي تولد السخره وتثير النفس للامز والضحك ، أن يظهر المرء في غير مظهره
 ويلبس الشخص غير إهابه ، أو يتصرف على عكس ما عهد فيه ، أو يصنع نفسه موضعا ليس أهلا له
 أو يتحدث بكلام متناقض ، وأفكار متعارضة ، أو يُكَلِّم بينه وبين ضده في الشكل واللون ، أو
 الرينة والسر ، أو الخلق والعلم ، أو التصرف والسلوك . ^{فالتضاد} فالضاد هو العكس المشترك ،
 والقاسم الأعظم بين السخريات على تنوع أضربها ، واختلاف طموحها ، وتعدد أساليبها
 لا تكاد تشد سخرية منه ، أو تفصل من مجال جذبها ، أو تبعد عن دائرة فكها ، وإن كانت
 تختلف من ناحية وضوح هذا العنصر أو خفاؤه ، وقلته أو كثرته ، وبالنسبة لعامل آخر ، قد يكون
 أكثر بروزا ، وأسطع ضياء ، وأظهر في تحقيق السخرية ، ومث الاستنزاء فتشبه إليسه
 وتضم به ، وإن كان التضاد لا يزال يكمن بين طياتها ، وحشوجياتها .

سخرية الكاريكاتور كما قدمت - يحمل فيها التضاد عمدا ، فهيد يده اليمنى يجذب بها
 الصورة الأصلية ، ويهد يده اليسرى يقرب بها الصورة المسوخة ، ومن هذا التقارب ^{لا} المتباعد بين
 والجمع بين المتعاندين المتضادين .

الأصل والصورة ، تتفحج شرارة السخرحين يلتقيان كما تتفحج شرارة البرق بين السحابتين
 المتضادتين الموجبة والسالبة عند التقائهما فتحرق وتضقق .

وسخرية المواقف - كما شاهدنا - يشترك فيها التضاد ، بين الموقف الكائن والموقف الذي
 يجب أن يكون ، ومن التناقض بينهما - والأصل أن يتحدا - تنبتق السخرية وينمى الضحك
 لسخافة المرء ، والخروج عن الإلف .

وسخرية الحركة - كما سيأتي - منبمها التضاد ، حيث وجدت الحركات الكثرة المعارضة
 للوضع الطبيعي ، أو الحركات القليلة المتأنية ، والعماد فالمرء يحتمل أن تكون كسخرية

مطابقتها ، أو وجدت الحركة بدل السكون ، أو السكون بدل الحركة ، فحدث الضد ، وتصح
المعنى ، فتثور النفس ، وتتضح السخريه ، وينضح اللفظ الجسامات وضركات وتبديلات ، بمقدار
عمق السخريه ، وخفاء المفاصلة .

وسخريه الكلمة آتية من وضعها في غير موضعها ، أو تحمليها معنى غيرها ، أو معنى غير
مقصود ، أو التلاعب في مواضع حروفها ، بتقديم أو تأخيراً وحذف أو زيادة ، ومن الكلمات
غير المعروفة ، والمعنى غير المقصود ، والحرف الموضوع في غير محله ، والضئيلة الناجمة
من ذلك تكون السخريه والاستخفاف .

والسخريه الذهنية ، أساسها ، تناقض المعاني ، وقلب الأفكار وتباين مفهم العبارة في
ذهن المتكلم عما هو في ذهن المخاطب ، وإظهار الإساءة في مكان الإحسان ، أو العزل
في موطن الجند ، وذلك تتحقق السخريه وتوجد ، حيث وجد العنصر الأساس لوجود هلو
وضع الشيء ، في غير موضعه المألوف ، وللتضاد صور قنية ساخرة ، يطلب فيها ما سواء ،
ويطعن من الجوانب الداعية إلى اللفظ ، ماعداء ، ويقف فيها على قدميه سادا الأتقى ، مستقلا
بالذبح والإضحاك .

ومن صوره : ١- التناقض في المقالة ٢- المفارقات ٣- القياس القاسد .

∴

∴

∴

١- التناقض في المقالة :

التناقض في الكلام دليل التناقض في العقلية ، وإذا كانت العقلية متناقضة سخرياً من
صاحبها ، لخروجه عن الفكر السليم ، والرأي الرصين ، وإبطال كلامه السابق بكلامه اللاحق
وإبطالها مما يتعارضها ، لأن السامع لا يدري ما يقصده المتكلم ويريد ، إذ هو مبهم
غامض متضارب ، لا يحمل معنى يقبله العقل ، ويلبظ بالنفس ، بل لا يحمل معنى على
الإطلاق لأن آخره ألقى أوله .

والا كما نسخر من يرجع عن رأيه القديم ، أو يغير موقفه وقد خلا إلى نفسه وقلة الوقت الطويل ، ونمرا بين ينقض مده حين يصل الفكر والتدبيره وله من الأسباب ما يبدئه إلى ذلك كطمعه في مال ، أو رغبته في جاه ، أو طلبة منحة ، فأولى بنا أن نسخره وأن نستخف ونهزأ ، من تناقض عبارته ، وتضاربت عقليته ، وغلط في كلامه ، فلم نجد اثنين وجهته وفكرته ، وصار إلى الغباء والبلاهة أقرب منه إلى الفهم واستقامة المبالغة .

ولديلاً أمثلة زخر بها أدب الجاحظ ، وشاعت في فنه الساخر منها :

اسم قال الجاحظ ، دخلت واسط فبكرت يوم الجمعة إلى الجامع ، فقدمت ، فقرأت على رجل لحية لم أرا أكبر منها ، وإذا هو يقول لآخر : ألم السنة حتى تدخل الجنة . فقال له الآخر : وما السنة ؟ قال : حب أبي بكر بن عفان ، وهشام القاروق ، وهو الصديق ، وليس ابن سفيان ، ومعاوية بن أبي شيان . قال : ومن معاوية بن أبي شيان ؟ قال : رجل

صالح من حملة العرش ، وكاتب النبي صلى الله عليه وسلم ، وختته علي ابنته عائشة (١)

جمع التحدث أسباب الوقار وعظمة المظاهرة

١- فهو في الجامع بكرة الجمعة ٢- له لحية ٣- لحيته نائفة فارسته ، لم يهر الجاحظ أطول منها ٤- يعظ الناس ويعرفهم أصحاب الرسول عليه السلام (وهذا

المظهور دليل السموالديني) . وإذا عظته جعل تناقض فيها كل كلمة ما بعدها ، إذ يمسب الرجل إلى غير أبيه ، ويلصقه بخير لقبه أو كنيته ، ثم يزيد خلطه ، ويعنف خطبته في آخر مقالته - فحامل العرش - في واسع علمه - رجل ، هو كاتب الرسول ، وهو ختته ، وعائشة ابنة الرسول (وهذا الخبر دليل البله والعمه) فتناقض المظهور مع الخبر ، وتضارب الكلمة مع سابقها بهذه الكرة وذلك التركيب - صحت السخره وأسس

(١) أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزي صفحة ١٨٢ المكتبة التجارية للطباعة والنشر

البرزخ والاستخفاف .

(٢) قال رجل : تزوجت امرأة مخزومية من عبدا الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة (١)

كيف تزوج المرأة عبدا ؟ وكيف يكون الحجاج التقى عبدا وهي مخزومية ؟ وكيف يكون الحجاج ابن الزبير ؟ وهو ابن يوسف التقى ، وكيف ومتى هدم الكعبة ؟ هذا التناقض المركب ،
يعمل الجليل المركب ، وذلك بجمعنا نسخر سخرا مركبا ، ونضحك ضحكا متواصلا .

(٣) قال الجاحظ : (مررت بمعلم وقد كتب لفظا ، وإن قال لقمان لابنه وهو يخطه يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا وأكيد كيدا فمعلم الكافيين أمسلم رويها نقلت له ويحك ؟ قد أدخلت سورة في سورة ؟ قال : نعم ، إن كان أبوه يدخل شهرنا فسي شهره فأنا أيضا أدخل سورة في سورة ، فلا آخذ شيئا عولا ابنة يتعلم شيئا (٣)

والتناقض هنا ناشئ من إدخال سورة في سورة ومنج آية بآية والسخر هنا ليس محتمسه
إلى اللاحق ، والخرف ، لأنه مقصود متعمد ، بل ناتج عن الذكاء والافتتان ، مما يقود للأب
الذي يدخل الشهر في الشهر ، فيكون الجزء من جنس العمل ، وتتركز السخرية على الأب
وقد نالت من جراء هذا الخلط ، وإدماج الآيات ، وقد يقال المعلم منها شيء ، ونتيجة
تحريره الكاهن مواضعه ، في مقابل ثمن يخس دراهم معدودة احتجنا الأب له ، وهو

رجل الدين ، وفاس المبادئ ، والقلم .

٤- (سئل رجل عن مولده ، فقال : ولدت رأس الهلال ، للنصف من رمضان وبعد العيد

بثلاثة أيام ، فاحسبوا الآن كيف شئتم (٤) فكل جملة في العبارة تناقض الأخرى ، ومن العجائب

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١٥

(٢) أخبار الحنفى والمغفلين ، ابن الجوزى صفحة ١٤٢ طبعة بيروت .

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٥ .

جمع التقيضين ، لذلك سخرنا من عقل المتكلم ، وتضارب جملة .

٥- (خرج أبو شيان للحج ، فبكى أبناؤه حوله ، فقال ، لا تنكوا بأهلي ، فإن أريد أن أضي عندكم) (٥).

٦- (دخل كرتيم السدوسي على بلال بن أبي بردة ، فدعاها إلى العشاء ، فقال ، قد أظمت ، قال ، وما أظمت ؟ قال ، قليل أرز فأظمت منه) (٦).

٢- الفارقات

من الجوانب الفنية التي تحقق السخرية ، وتخلق جوا من التلميح والاستدلال أن يجعل الشيء في غير مكانه ، ويوضع الأمر عكس موضعه ، فيبدل ضربا في مكانه الجديد ، فأبها حسن موضعه الأصل ، ولما كان المكان لا يناسبه ، والموضع لا يلائمه ، لا تنسك عليه ، وأرضيقه منه ، أو تنافره معه ، انفتح المجال للسخرية ، واتعمقت الأثر بالضمكات .

ومن الألوان التي اتخذها الجاحظ لفارقات ، وذخرت بهما كتبه وسخرت منها في لغته

فأشاعت الفكاهة والمزح .

أ- للجواب غير المتوقع ب- الدليل المضاد ج- النتيجة المعكوسة .

د- اجتماع المتكدين .

أ) الجواب غير المتوقع ، الذي لا ينتظره السامع ولا يخطر بباله ، لعدم احتمال التوقف

له ، أو لشراية منزهه ، أو لوجود ما يضاده . ومن أمثله ذلك :

١- (تحمل أبو عبد الله الكرخي اللحياني إلى الخربة ، فأدعى أنه فقير ، ووطن أن ذلك

٥) المرجع السابق صفحة ١٥ والمقد الفرب الجزء الرابع من ٢١٥ مطبعة مصطفى محمد

سنة ١٣٥٤ هـ .

٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٤٥ ، أخبار العنق والنخلين لابن

الجزري ، طبعة بيروت صفحة ١٨٧ منه عيون الأخبار ج ٢ ص ٥٣ .

بجز لمكان لميت وسنه ، فالتى على باب دار البوارى ، وجلس تجلس إليه بعض الجيرانه
فأتاه رجل ، فقال ، يا أبا عبد الله ، رجل أدخل أصبغ في أنفه فخرج عليها دم ، فأى
شىء يصنع ؟ قال ، يحتجم . قال ، فعدت طبيباً أو عدت فقيراً ؟ (١)

وضع المكحى نفسه في غير مكانه ، ومرو على الناس بلحيته وجميل روكه ، فلما سئل وأجاب
ظهر مقطعه ، وهوت مكانته كمثل سؤال الفقهاء ، فأجاب إجابة الأطباء ، والوضع السليم
أن يجيب إجابة الفقهاء ، ليناسب المخبر المظهر ، ومنشأ السخر الإجابة غير المتوقمة ، لأنها
لا تناسب الموقف ولا غرض السائل وقصده من سؤاله ولا هيئة المستول وسنه وأدعائه ، وهذا
اللتاقض ، وتلك المسارقة هى التى ولدت الاستهزاء ، وجعلت السائل يسخر منه قالوا ،
عدت طبيباً أو عدت فقيراً ؟

٢- (قال الجاحظ ، كان يأتينى رجل نصيح من المجر ، قال ، نقلت له ، هذه الفصاحة
وهذا البيان لولا دعيت في قبيلة من العرب لكنت لا تازع فيها . قال فأجابنى إلى ذلك ،
لجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذه هذا ، نقلت له ، لأن ^{سنة} طبناً . قال ، سبحان
الله ؟ إن فعلت ذلك فأنا إذن دعى . (٢)

ولم يكن الجاحظ يتوقع الجواب المذكور ، لأنه يعرف أن الرجل دعى فاه عليه أو لم ينسبه
وأن الرجل يؤكد للجاحظ الذى اخترع له هذا النسب - أنه من تلك القبيلة العربية فعلاً
والسخر ناجم من الجواب الغريب الذى لا يتوقمه الجاحظ والذى يخفى الحقيقة عن من يعرف
حقيقتها ونسبه الطرف والتاك ، بل لمن ابتدع له هذا النسب وأوجده ، وكما لله دور
طوبه .

(١) الميوان الجزء الثالث صفحة ٧ ٨٥ البيان والتبيين الجزء الثانى صفحة ٢٢٢ عمون

الأخيار ٢ ص ٥٤

(٢) مصحح الأدهب ، ياقوت الجزء السادس عشر صفحة ١٤ مطبوعات دار الأمين .

٣- (دعا بعض السلاطين مجنونين ليحركهما ، فيضحك ما يحيى ، فندبا ، فلما أسمعاه
 وأسمعها غضب ، ودعا بالسيف ، فقال أحدهما لصاحبه ، كما مجنونين فصرنا ثلاثة)^(٣)
 لم ينتظر السلطان أن تكون إجابة المجنون بهذا الحكمة ، فيجتمع في المجنون خيال
 وفلسفة وإذا بالسلطان مجنون والمجنون حكم ، وفي التضاد وقلب الموضع السخر والدس ،
 والضحك والمرح والانشراح .

٤- (قال الجاحظ ، رأيت بالعسكر امرأة طويلة القامة جدا ونحن على طعام ، فأردت أن
 أأزحها ، فقلت ، انزلي حتى تأكلي معنا . قالت ، وأنت فاصد حتى ترى الدنيا)^(٤)

٥- (سئل بعض العجائز ، كيف أنت في دينك ، قال ، أخرفه بالمحاصي ، وأرقمه بالاستغفار)^(٥)

٦- (كان رجل يقود أعمى بكرا ، وكان الأعمى ربما عثر العثرة ، وتكب النكبة فيقول ،

اللهم أهدل لي به قائدا خيرا منه ؛ فقال القائد ، اللهم أهدل لي به أعمى خيرا منه)^(٦)

٧- الدليل المضاد ، الذي يتخذ برهانا للرد على ما يقال ، وحجة مضادة لما يحدث ،

وهو في الوقت نفسه غير الملحة الحقيقية ، وغير الدليل العقلي الذي يسلكه العقل الواهم

الجاهد للبرهنة والاستدلال ، وقد انتجت ضديته الانحامية المنزلية ، فأشبه العلة في مظهرها

والدليل في صورته ، وابتعد عن جوهرهما في الإقناع والإفحام . فقيه ضديته لما يقال ،

ضديته للدليل الجاهد ، وإن كان يلبس لبوسهما ، ويتبرهن ببرهنتهما ، وذلك سر السخره

ونوع الاستنزا . . . ومن أمثلة الجاحظ في ذلك ،

١- قال أبو إسحاق : مروان بن محمد ، في طعام جعفر بن أبي زهير ،

(٣) النيمان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٢١

(٤) الأذكياء ، ابن الجوزي صفحة ٢٦٢ ، عيون الأخبار ج ٢ ص ٤٧

(٥) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء السادس صفحة ٥٠٦

(٦) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٠ ، ٣١

حسبت الخبز في جوار السحاب

رأيت الخبز مزكك حتى

ولكن خفت مرزقة الذباب (٧)

وماروحتنا لتذب عنا

القائلة الحقيقية للترويح ذب الذباب خوفا من سقوطه على الطعام ، وانتقال القملة

إلى العالقة بأرجله والجراثيم المنتشرة في جسمه إلى الطعام ، ولكن أبا الشمق صرف نظره عن

هذه القملة وطواها ، وضرب عنها صفحا ، وذكره للذب مبتكرة ، ووجه الملح مسترعى قاصدا

بها السخرية من البخل ، والتكلم بالشح فزعم أن جعفر بن أبي زهير إنعذب خوفا

من نقص الطعام بسلب الذباب بمضامنه ، والسخرية بهذه الطريقة أشد إيلا ما ، وأقوى إيجاما

لنفس المتكلم به عواكس سرورا ، وأعظم إضحاكا وإنما لنا للحضور والسامعين .

٢- (عرفنا الأسد لأهل قافلة ، فتبيع عليهم رجل ، فخرج إليه ، فلما رآه سقط وركبه الأسد

فتدوا عليه بأجمعهم ، فتخلى الأسد ، فقالوا له : ما حالك ؟ قال : لا بأس ، ولكن الأسد

.. في سراويلي (٨)

أراد أن يوهم الحضور أنه بخيره وأن شيئا لم يحدث له ، وأنه جرى مقدمه وهو الأسود

وخاف مخبة ذلك وقابته حين يروه وقد امتسخت ثيابه ، فحطل لهذا الاطلاع بحلة غير حقيقية

وحمله دليل البسالة والشجاعة ، وهو في الحقيقة دليل الهلع والفرق ، والذي يزيل انضباط

الأعضاء ، ويهزى الصامات والعضلات ، هروبا من تأنيب الحاضرين وتخفيفا لأنه النفس ،

وفي الصورة تضاد ومفارقة ودليل مضاد وتصوير الأسد بصورة ما خوة ، كما أن فيها سخرية

بعقل أهل القافلة ، وجرهم إلى اعتقاد ما ليس حقيقيا وسخرية بالرجل إذ ظن مطعيسة

عنته ، ووضوح حجته .

(٧) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح الحوامري والجامع ج ١ ص ١٢٢ وتحقيق طه العاجري

ص ٢٢ ، ٢٣

(٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ج ٤ ص ٧ ، وتحقيق الشندي ج ٣ ص ٢١٩

٢١٦ ، مثله في أخبار الحمقى والمفكرين لابن الجوزي ص ١٦٨ .

٣- (حدثني جعفر بن أخي وأصل قال : قلت لأبي عبيدة : قد أحسن الذي سأل امرأة من اللحم فقالن : أكله السنور فوزن السنور ، ثم قال : هذا اللحم ، فأين السنور ؟ قال : ^(٩) كما تعرضي .

أكل السنور اللحم فإذا وزنا السنور وضعنا في الكفة الثانية وزنه السابق مع وزن اللحم حتى يتساويان ، ولكن الرجل حين وضع وزن اللحم في الكفة تعادل مع وزن السنور فقال مقاتل الماخرة ، فهو يسخر من امرأته إذ ظهر كذبها في نظره لذلك قلب العبارة قائلاً هذا اللحم ، ولم يقل هذا السنور ، ونحن نسخر منه فإن ما يؤكل يخضم ويخرج بمبيداً عن البدن ، فلا يزيد وزن القط بمقداره كما اعتقد ولا لصار السنور في حجم الأسد والنمر . بل في حجم الفيل أو أثقل ، وعلى مقدار ما أكل فكلام الرجل صورة للدليل ، وخدعة لحنة وتهكم بامرأته ، وسخر من عقلها وهو في الوقت نفسه يسخر من الرجل وتفكوه لأنه أتسى بالدليل الذي يحمل في جوفه أما رة بطلانه .

٤- (يقول المرزوق : لولا أنني أبني مدينة لبنيت آريا لدايتي ^(١٠))

ج- النتيجة المحكوسة ، يحدث الالتصاق ، وتتولد المفارقة ، وتتشأ المفاجأة ، ومن حدوث غيرا لتوقع ، ومن الجهد المبذول ، والتجربة المحن بها ، المبالي في انتقامها ، تتبعها النتيجة الفاشلة ، التي قلب الأمل الملوخية وتذهب بالتمسك والكأدراج الرياح ، وتأتي بالخاتمة كأعنف ما تكون ، وعلى عكس ما يرتجى ، وضد المادة والمعرف بل قد تحدث النتيجة المأ مولة إذا لم يوجد انتقام ، ولم يبالغ في الاحتراس ، وترك الأمر تجري كما شاءت لها المقادير ، وهذا ما يضاعف السخر ، ويرقد أتون البرز .
ومن ذلك ما ذكره الجاحظ في قوله :

(٩) كتاب البخل ، الجاحظ ، تحقيق الصوامري والجام الجزء الثاني صفحة ٢٦

(١٠) البخل ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٢٧

١- (إنه اشترى جارية تركية جميلة - رجاء أن يزرع منها ولدا يكون بمثلها وذلك ما تولدت له ولدا جاءه بقبحة وجهها) (١١)

وفي هذه النادرة تضاد ومقاومة ونتيجة معكوسة فقد اختار الجاحظ الجارية التركية جميلة ولكنها جاهلة طعما أن يرث ابنها جمالها ، وكان هو ذكيا ولكن قبيح الصورة ، فطعم أن يرث ابنه ذكاه ، فإذا النتيجة جمع الخلام للمبين ، وحيازته الفهمتين وفي ذلك سخريسة بالجاحظ لحدوث غير ما ينتظر ، وضد ما يشتري .

٢- (ورأيت أنا رجلا عيوننا يدعى عليه بقود قال : إذا رأيت الشيء يعجبني وجدته حمارا في تخرج من عيني . وقال وسع بقرة تحلب فأعجبه صوت شخبها فقال : أيتهم هذه ؟ فخافوا منه ، فقالوا : الفلانية الأخرى ورواها - فملكتا جميعا المورى بها ، والمورى عنها) (١٢)

والجانب القبيح الذي جعلنا نسخر أن النتيجة عكست بل عمت فنحن نسخر من الرجل العمير ، وسخرنا يشتد إن كانت عينه لا تخيب ، وسخرنا المتزايد في هذه النادرة لهذا ولأن العبيطة لم تجد ، والتورية لم تقدر ، بل أتت بنتيجة عكسية مع حدوث النتيجة المتبادلة فملكت البقرتان مما حدث خلاف ما ينتظر مع ما ينتظر .

٣- (كان عننا رجل أحذب ، فسقط في بئر ، فذهبت حديته وصار آذره ، فقول له : كيف تجدك ؟ قال : الذي جاء شرم من الذي ذهب) (١٣)

٤- اجتماع الضدين ، وقد تشأا المفارقات من اجتماع الضدين ، ووضعها بإزاء بعضها ومقارنة كل منهما بالآخر ، فيتضح قدر كل منها ، ويظهر مدى عوار أحدهما إذا قيس بالآخر ومدى كمال الثاني إذا ووزن بالأول ، أو يذكر الرجل لنفسه صفة تناقض إحدى صفاته المعترف

(١١) أمراء البيان : محمد كوك على الجزء الثاني صفحة ٢٥٨

(١٢) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثاني ، صفحة ١٤٢ تحقيق هارون ط ١٩٦٥ .

(١٣) الحيوان : الجاحظ : ج ١ ص ١٧٧ هـ ج ٩ ص ٩ ، جمع الجواهر : للعصرى صفحة

بها ، والمشهورة منه ، ويدعى اجتماعها معانيه . وضع الضدين في إطار واحد أو ٤٨
 لهما شخصية واحدة ، أحد السنة اللب المندلعة والتاجية خيلها والسخر المستعرة
 التي يولدها التضاد ، وتذكيرها المفارقة ، وقد عرف الجاحظ لها لادعيا فذكرها في كتبه
 ونها .

١٤ (إن عربين أبي ربيعة إنما سمي باسم عربين الخطاب ، وأنه ليلة ولد له ما تشبهه فلما
 كان بعد ذلك ذكروا فساد هذا صلاح ذلك ، فقالوا ، أي باطل وضع وأي حق رفع)
 للإسم عربسيمان ، أحدهما فاسد سمي الخلق يعيل مع الباطل ، والثاني صالح
 طيب الخلق يرفع لواء الحق ، فاجتمعا معا - وهما المتضادان - في الاسم الواحد
 صوره كما اجتمع له وضع ورفع في وقت واحد ، والضدان لا يجتمعان ولا يوضعان ، كما
 يقول الناطقة ، فلجتماعهما وارتفاعهما هنا أمانة السخر ورمز الهزء ، إذ التضاد ليس
 على حقيقته لأنهما شخصان وليسا صفتين ، وإلا لكان الكلام خارجا عن حدود العقل .

١٥ (كان إلهام بن هانسي يدعى بحضرة أبي إسحاق طم الحساب ، والكلام
 والعدسة ، واللحون ، وأنه يقول الشعر . فقال أبو إسحاق : نعم لم تعطلك فسحق
 هذه الأمور ، فلك أن تدعيها عندنا ، فكيف صرت تدعى قول الشعر ، وأنت إذا رويت
 لشريك كسرتة ؟ قال : فإني هكذا طبعت ، أن ألقية إذا قلت وأكسرت إذا أتت .
 قال أبو إسحاق : ما بعد هذا الكلام كلام) (١٦)

١٦ الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٨٤ ، والبيان والتهيين ، الجاحظ ، الجزء
 الثاني ص ٩١ تحقيق هارون ط ٣ سنة ١٩٦٨
 ١٧ كان ماجنا خليما وكثير العبث متوردا . كما ذكر الجاحظ في البيان والتهيين ص ٩٢ تحقيق هارون .
 ١٨ الحيوان الجزء الثالث صفحة ١١٠

يبلغ ابن هاني في سعة معرفته ، ويدعى تحصيل الحديد من صنوف العلم والشعر ،
 ولكن أبا إسحاق الذي يعرف كذبه وببلاغته ينقض كلامه سخريته بأنه يكسر الشعر إذا رواه
 فكيف يمكنه قولم ابتداءه ❀ ويجيبه ابن هاني مستترا في ادعائه أنها بما يشبه الحجج كبروت
 بها من قبضة أبي إسحاق ، أن طبعه أن يقوله موزونا ويرويه مكسورا ، وتلك سفسطة وتناقض ،
 وحركات عشوائية لفأرفي مصيدة ، وجمع للضدين فإن من لا ينجح في سلامة إنشائه يتعسر
 عليه أن ينجح في سلامة إنشائه ، وهنا يكرأ أبو إسحاق بسخريته أخرى على طريقة التضاه ،

وذكر الشيء والمراد تقيضه ، فيقول ما بعد هذا الكلام كلام .

٣- (رأيت أربعة أشياء لم أر مثلهم ، رأيت سائلا يسأل في الحمام ، ويأخذ مواعيد من فيه
 إلى أن يخرجوا ، ورأيت معلما يعلم الصبيان القرآن والصبا يا الضمير ورأيت جحاما بالكوفة
 وحجم بنسبته إلى الرحمة لشدة إيمانه بها ❀ ورأيت حمالين يحملون جفازة كلما أتوا
 وضوا عن رؤوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر) (١٧) (١٨)

٣- القياس الفاسد .

ومن الجوانب الفنية التي تحقق السخر ، وتمطر اللامعات المنزلة المبهمة ، وتدخل
 في النفس المرع والمتعة أن يقيس المتكلم قياسا فاسدا ، لضعف في عقله أو لجهد
 بهادي المنطق والقياس ، أو لعدم انتباهه أو لوضوحه في خدعة ، ويكون السخر أرقى
 وأتقى إذا كان عارفا متبها ، ولكنه هدف إلى العبث بعقل محدثه واللعب بتفكيره ، ورفب

(١٧) الرحمة عقيدة قوم يقولون بأن الإنسان بعد وفاة لا بد عائد إلى هذه الدار طال
 الزمان أو قصره ، وكان السيد الحميري الشاعر من يقول بهذا القول فجاؤ رجل يسأله
 أن يقرضه ما تم دينار على أن يرد لها عليه بمك الرحمة فقال السيد فومن يضمن لى
 أنك لن تعود حمارا ؟

(١٨) أمراء البيان الجزء الثاني صفحة ٤٨٤ .

في إقناعه بالبرهان الثالث ، وبالجدل الساقط ، وهو يدعي صلاحهما ، وهو موضح بالدليل
لهرب من مأزق ، ويخرج من ضيق ، وقد يؤمن المخاطب بمجته ، ويقع في حبالته ، أو يسأله
وبجاريه لأنه أكثر منه ذكاه ، طمعا في كشف ما عنده ، ونقض كوا من نفسه ، ليتضاف مسخره
ويزيد مرجه . ومن تلك الجوانب في أدب الجاحظ :

١- (قال عباس بن القاسم لأبي عبد الملك الذي كان يقال له عناق : بأي شيء تزعمون أن
أبا علي الأسواري أفضل من سلام أبي المنذر - من أصحاب القراءات غير السبع - قال :
لأنه لما مات سلام أبوا لسندر ذهب أبو علي في جنازته ، فلما مات أبو علي لم يذهب
سلام في جنازته .) (١)

قاس عناق الخائب على الحاضر ، والعاجز على القادر ، والميت على الحي وذلك قياس
فاسد وواضح البطلان ، وإن بدا في صورة القياس الصحيح الذي ينتج الحجة النقص ،
والدليل الرابع ، فرأى الفضل للأسواري حيث قدم مكومة ويبدأ لسلام ولم يقابل سلام مكومته
بمكومة مثلهما فلا رد له ما يوازي جميله - وهذا حدث فعلا - فعق للأسواري الفضل ، وكان
عناق يشترط لكي يكون سلام فاضلا كالأسواري أن يقوم من قبره فيشيع جنازة الأسواري
كما شيع هو جنازته حتى لا تكون له زيادة فضل ، ويكون تشبيها في مقابل تشييع . وهذا
القياس الفاسد الموه بطلاء الصحة ، هو الذي يبعث فينا السخره ويحيل بنا إلى
الضحك .

٢- (روى أن أعرابيا اشتد به البرد ، فأصاب نارا ، فدنا منها ، بصطلق بها وهو يقول
اللهم لا تحرقنيها في الدنيا ولا في الآخرة .) (٢)

أدقأت النار جسدها لظهور ، وأحسن بالانتعاش ، فانفجرت أساريره ، وشكر الله على

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٢٤ هارون ، وشله في أخبار

الحققي والسفليين ص ١٨٢ و ١٨٣ . وفي الحقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ ط سنة ١٣٥٤ هـ

(٢) كتاب الحيوان : الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٤٨٥

نعمة النار ، فطلب منه ألا يحرمه منها ، ولكنه قام بالأخرة على الدنيا فظن النار في الآخرة
 نعمة ، فطلب من الله ألا يحرمه منها في الآخرة أيضا ، وذلك دعا عليه ، صرفه عن الانتباه
 إلى خطر القياس الفاسد حين شعر بلذة الدف ، والبهو من انقاضات البرد ، وارتجاج
 النفس والجسم .

٣- (وحدثني أبان بن عثمان ، قال ابن أبي ليلى ، إن لأسير رجلا من وجوه أهل الشام
 إذ مر بجمل معه رمان ، فتناول منه رمانة ، فجعلها في كفه ، فحجبت من ذلك ، ثم رجعت
 إلى نفسي ، وكذبت بصري ، حتى مر بمائل فقير ، فأخرجها ، فناوله إياها ، قال ، فعلت
 أني رأيتها فقلت له : رأيتك قد فعلت عجبا . قال : وما هو ؟ قلت : رأيتك أخذت رمانة
 من جمال فأعطيتها سائلا . قال : وإنيك من يقول هذا القول ؟ أما علمت أني أخذتها
 وكانت سيئة ، وأعطيتها فكانت عشر حسنة ؟ قال : فقال أين ابن ليلى ، أما علمت أنك
 أخذتها فكانت سيئة ، وأعطيتها فلم تقبل منك ؟)^(٣)

عجب ابن أبي ليلى من الوجيه لسرقته رمانة ، وهي تافهة حقيرة بالنسبة لأنه المؤلف ،
 وجاهته المعروف ، فكان بذلك محطا للسخر ، إلا أن ابن أبي ليلى كذب بصره لعدم
 التماس عقلا عرفا بين جاهة الرجل وسرقته الرمانة ، فلما رآه يعطيها للفقير وعلم أنه
 أخذها ، فحدثه في ذلك منكرا ما خرا ، وسر سخره ، القضاء بين سرقته وتصدق ، ولكن
 الوجيه عد تفكيرا بن أبي ليلى سقيما ، فسخر منه قائلا له ، وإنيك من يقول هذا القول ؟
 ثم أوضع الحجة والبرهان ، وأتى بالقياس والدليل ، لبيان صحة ما فعل ، وفضل
 ما أقدم عليه ، وأنه لم يفعل ذلك إلا لذكائه وفطنته ، وللتقرب إلى الله حتى تضاع حسنة
 فسرقه الرمانة سيئة ، والتصدق بها عشر حسنة ، ولكن ابن أبي ليلى رد عليه سخره ،
 ودفع حجته بحجة أقوى منها نهضت لها فهدمتها ، وصيرت الرجل هزأة في شكوه ومقاله

(٣) كتاب الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ١٧ تحقيق عبد السلام محمد هارون ط ٢

وفعاله ، لا يستطيع بعد ذلك أن يحاول أو يحاول فقد كشف النقاب عن ما بق غافل فاسد
القياس منقوضاً لدليل *

٤- (سرقت نعل عامر بن عبد الله الزبيري ، فلم يتخذ نعلاً حتى مات ، وقال ، أكره أن
أخذ نعلًا ، فلعل رجلاً يسرقها فيأتم)^(٤)
لم يشأ عامراً أن يتخذ نعلًا ، وأراد أن يحللي لذلك ، وأن يأتي بالأدلة والبراهين
على صحة ما ذهب إليه فذكر علة فاسدة ، وقياساً خاطئاً فذكر أن العلة تقواه وورعه ، وخشية
أن يخائب الناس بسببه ، وأن يكون هو الوسيلة إلى تشجيعهم على السرقة وارتكاب الآثام ،
فامتنع عن شراء نعل وتحمل في ذلك المشاق إرضاءً لله ونشراً للفضيلة بين الناس والعلة
القاسدة والقياس الفاسد هما سبب السخر وسحور الهز والضحك .

(٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفة ٣٤٩ تحقيق دارون ط ٢

الفصل الرابع

مخرجة الحركة

الحركة في بطلها وتقلها ، وأسرعها وخفها ، داعية السخر ، ورسل الاستهزاء ، إن خرجت عن المتألف ، وجازت الشارف ، وكذلك هي إن كثرة وتتابعت ، أو طافت وانعدم جدواها ، وينعوا السخر منها ، ويتضاعف الهزء بها ، إذا صدرت من الزيت الركين ، أو الرصين الرزين ، أو سموت إلى من عرف أنها موجهة إليه فتجاهلها ، أو أعلن استجابة مضادة لها تنمى ، أو نغمها على فكن وضعها ، وهي كذلك في شدتها وعتوانها إن رمز بها صاحبها إلى خلاف مضمونها ، والحركة كما تكون موضوع السخر ، وداعيته وسحركته ، تكون رمزه وأمارته ، ولدليله ولفظته ، تألفه بالمهين ، أو تحريك الحاجبين أو مط الشفتين ، أو الإشارة بالأصابع ، أو إخراج اللسان أو غير ذلك من مائر الحركات التي تعبر عن السخر ، وتنفخ عنه ، والسخرية في أدب الجاحظ تشمل كل ذلك - على ما ذكرت في أول الرسالة (1) - بيد أن الحركة التي تفيد السخر وتعبر عنه ، قليلة في أدب الجاحظ بل نادرة ، ولذا لاقه لغاته ، وسطوع برهانه ووفرة بيانه ، فالكلمة في لغاته ، أخف وأسرع من الحركة في عضلاته ، وأصح أدها ، وأقوى تعبيرها ، وهو الجسرى ، المقدم ، الذي يذبح بالكلمة ، ولا يطأى أو يدارى أو يدهن بالأشارة ، وهو رب الكلمة الساخرة ، وشيخ الصهارة إليها زنة ، يقولها ويرويها ، تميمت السخرة بالبكا ، وتحبس الخضور بالضحك **والحركة** .

والحركة كما تكون جسمية عضوية تيمثها على السخر ، تكون نفسية أو عقلية ، كطالات التردد والقلق ، والاضطراب النفسى والعقلى بأنواعه ، فتحنوينا جهة التيهنكوالهزء .
وقد كان الجاحظ النقرى ، الثاقب النظرة ، يستشف حركات النفوس ، وغلجات القلوب ، ووشات العقول ، ويعرف ما يضطرب فيها ، ويضطرب داخلها ، كما يرى الحركات الجسمية ،

(1) الفصل الأول من الباب الأول - السخرية عند الأدباء .

والإشارات المشتملة ، فمنهم من يراها الماخز ، ويبلغ مفزها الهازل ، أو يترك خروجها
 ورواقها ، فيخرج منها ، ويصير بها ، ولو وجدت فيه ، أو حدث له ، وهو في ذلك ينتقى
 الحركات المشوية النادرة ، أو الكسرة المتعاقبة ، أو الوجهة من صخر جفيل إلى عظيم خطوره ،
 لا يستطيع دفنها ، ولا يملك إبطالها ، فيسكنها في اللفظ المبرء ، ويسكنها في العبارة
 الأموة ، وينفي منها القصة متلاحمة الأجزاء ، متشابكة النضج ، وتصبولها النفوس ، وتبش
 الأتفة ، وتنفذ الأبواب ، ولا تملك مع كل حركة الإسخر ، وههههه وضحا ، لا تستطيع كبح جناحه
 أو إخفات نبرته .

ولمستع إلى شيخنا الجاحظ يمرض علينا عبد الله بن سوار الرصين الركين وقد انقلب حاله
 فكثير حركاته عوطا امت شمزاته ، وولد الهزء به التافه الحقيس ، فلم يسطع دفعه وهو العظميم
 الخطير . يقول :

(كان لنا بالبصرة قاض يظال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكما قط ولا زميئا ولا ركيئا
 ولا وثورا حلوما ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك .
 كان يصلى الخداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجد ، فبأن يجلسه ، فيحسب ولا يتكى .
 فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يتحول رجلا من رجل ، ولا
 يمتد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناه مني فأصخره نصوة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى
 صلاة الظهر ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه
 فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم عاد إلى محله ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك
 إذا بقى عليه من قراءة المهود والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء الأخيرة وينصرف .
 فالحق يقال لم يتم في طول تلك العدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ،
 ولا شرب ماء ، ولا غرسه من المشروب .

كذلك كان شأنه في طول الأيام وفي قضاها ، وفي صيفها وفي شتاها ، وكان مع
 ذلك لا يتحرك يده ، ولا يمشي برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يرحل ، ويبلغ بالكلام المومر الممان

الكبير .

فهنا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواله ، وفي الساطين بوسن يديه ، إذ سقط على أنفه
 ذباب ، فإطال الحكه ثم تحول إلى مؤق عنه ، فقام الصبر في سقوطه على المؤق ، وطى
 عضه ونفاز خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غم أن يحرك أرنبته أو يغمض وجهه
 أو يذب بأصبعه . . فلما طال عليه ذلك من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان
 لا يحتمل العنامل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يبهض ، فعداه ذلك إلى
 أن والى يومين الإطهاق والتج ، فتتحى وشما سكن جفته ، ثم طاد إلى مؤقه بأشده من مرتبه
 الأولى ، فشمس خرطومه في مكان كان قد آذاه قبل ذلك ، فكان احتمال له أضعف ، ومجزه من
 الصبر في الثانيه أقوى ، فحرك أجبانه ، وزاد في شدة الحركة ، وفي فتح العين ، وفي تتابع
 التج والإطهاق ، فتتحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه
 حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل ،
 وهون القوم إليه ترفقه ، وكانهم لا يرونه ، فتتحى عنه بقدر ما رد يده ، فوسكت حركته ، ثم
 طاد إلى موضعه ، ثم الجاء إلى أن ذب عن وجهه بطرفه كفه ، ثم الجاء إلى أن تايح
 بين ذلك ، ولم أن فعله كله بحسن من حضره من أمثاله وجلسائه .

فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء ، وأزهى من الفراغ .

وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبه نفسه ، فتأراد الله عز وجل أن يحرقه من ضعفه ما كان

فيه ستورا ، وقد علمت أنى عند الناس من أزم الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقسه

ثم تلا قوله تعالى : " وإن يسلمهم الذباب شيئا لا سيمتقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب " (٢)

فقد تناول الجاحظ ابن سوار القاضى نصوره لنا زميتا كوننا متعلما ، لا يتحرك ولا يشعير

ولو استطاع أن يضع نفسه من الخروج لنعمه ، كأنه تمال حبرى ، أو صورة معلقة على جدار الوجه

والصلب مشار للسخر ، وموضوع للدهز ، ولكن التهمك به يزداد ، والسخرية منه تحنف ، حون يلح

٢ الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٣٤٣ تحقيق عبد السلام محمد هارون وطبعها

عليه الذباب الذي يعلق به ويلين ، وقيل حركته أولا ثم يمشى ويشتد تدريجها حتى يصل
إلى قمة حنقه ، وايدائه ابن سوار ، وخص خرطوميه في مؤق عينه ، وابن سوار يتركه أولا لفأه
ضوره ، ولكنه لا يصبر على ضرره الجسم ، ولجا جه السخيف ، فيحرك عينيه تحريكا خفيفا ثم
عديدا ، ثم يتأبما ، وأخيرا يذبه بيده ، ويكبه ، ثم يكرر ذلك ، وهو الساكن الزيت ،
والرصين الركن ، وما يزيد السخر لظا ، أن الجميع يرتقبونه ، وهو قاض القوم ، وصاحب المكانة
في الدولة ، والمشهور بالركانة والرزانة ، وليس لتلك الحادثة سابقة عنده ، فيخفون معرفتهم ،
ويظهرون جهلهم ، ولكنه يلحظ انكشاف أمره ، وهتك ستره ، فيمتذر عن ذلك وتزداد السخرية
حين يحتد رعا فامل ، وكأنه أتى أمرا إدا ، وذنبا لا كفارة له ، فيقول : أشهد أن الذباب
ألج من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، ثم يحترف بقرته ، وشهرته بذلك بين الناس ، ويقر بحججه
وهو القاض الصهيب ، أما م الذباب التائه الضمير ، ولنا مع كل حركة من الذباب ضحكة ، ومع
كل حركة من القاض سخرية ، وقد عالجنا آفاق السخرية ، فزاد مع وأكثر الحركات ،
وتلاولها من جميع الجهات بالقصى والتدقيق ، يتابع الأعداء ، ويسلم الحركات ، ويضيق
الجزمات حتى يصل إلى المقعدة ثم الحل ، وكأنها مسرحية هازلة ، أو رواية ساخرة يتم قصور الزمن
وضيق فترة العرض ، وفي ذلك شاهد على براءته ، وجود صياغته ، ويدع حكمة لقصه ورواياته
ولنلق مع الذباب مرة ثانية ، وليلق الجاحظ معه كذلك ، ولتكن الطائفة وقمت له ، وجرت فصولها
معه ، وليكن هو موضوع السخرية ، ومسجده ، ومنشئه ، وروايه ، وكتابه :
يقول : (فلما الذي أصابني أنا من الذبان ، فإني خرجت أمثمين عند ابن المبارك ، وأريد
دبر الوبيح ، ولم أقدر على دابة ، فعرفت في عشب ونبات ملتف ، ككبرل لذبان ، فسقط ذباب
من ذلك الذبان على أنفي فخطرت به ، فتحول إلى عيني ، فزدت في تحريك يدي ، فتفتحي
ففي بقدر عدة حركتي وذهي عن عيني ، ولذبان الكلال والفياض والرياض وقع ليس لضميرها -
ثم طاد إلى ، فمدت إليه ، ثم طاد ، فحدث بأعد من ذلك ، فلما طاد امتحمت كس ، فذبيت
به عن وجهي ، ثم طاد ، وأنا في ذلك أحث السير ، أوئل يسرعني انقطاعه عني ، فلما طاد نزعت

طيلمانى من عنقى ، قد بيت به عنى بدل كسى ، فلما طرد ، ولم أجد ثم حيلة ، استعملت المدور ، فعدوت منه شوطا لم اتكلم فيه مثله مذكت صبيا ، فطلقنى الأندلسى ، فقال لى : " مالك يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ " قلت : " نعم أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان " . فضحك حتى جلس وانقطع عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تعاود جدا (٣)

يسخر الجاحظ من نفسه وما حدث له ، ولطالما فعل ذلك ، وسخرية الشخص بنفسه دليل العجز والهطالة ، وعدم التعقيد أو التزم ، والابتعاد من قيود المظاهر والتقاليد ، وهى فى الوقت ذاته برهان الثقة بالنفس ، والاعتراف بالكفاة ، وأمانة السمو ، والارتفاع فسوق مستوى الأحداث ، واتخاذ الناس أصدقا ، وأخدانا ، ينفض إليهم مكنون نفسه ، ويروح لهم بنقاصه ، ويدخل على نفوسهم السرح والابتهاج ، وتلك سمات الجاحظ الذى نراه فى القصة يسخر من حركاته وهياجه وانفعاله ، وقد المرثم عدوه لتسلط الذباب عليه ، وعدم إمكانه الهرب منه ، أو الهمد عن تناوله ، وأساس السخر هنا ومزج ، وجوانبه الفنية التى خلقت ونمت : تغلب الحركات الضعيفة الرقيقة من النافه الذى لا عقل له ، على الحركات القوية المنيفة من العظيم الذكى ، ثم تتابع الحركات وتدريجها من الخفة إلى المنف ، ومن البطال إلى المرمسة لمون جدوى ، ومهطرة الذبان على الجاحظ وإملاك أمره ، وتصرفه فيه كما يهوى ، وكان الذبان هو الأمر الناهى ، ثم استباح حركة الجاحظ حركة الذبان خفة وهدة ، ومطاطا وسرعة ، ثم تنوع الحركات حسب عدة الموقف .

يقف الذباب على الأنف أولا ، فيطرد ، يرفق ، ثم يتحول إلى العين ، فتزداد حركة اليد الطاردة ، ثم يعود الذباب للوقوف على عين الجاحظ ، فيعود الجاحظ للذب ، ثم يلمس الذباب فيمنف الجاحظ ، ثم يزداد عنفه ، ولم تعد اليد كافية فى طرده ، فيستعمل كفه ولكن الذباب يزيد إلحاحه ، فزيد الجاحظ عنفا فى الذب ، واستعمالا لأداة أكثر فاعلية من اليد ، ولكن ، فيتنزع طيلمانه يذب به ويسرم الخطأ ، ويغذ الميسر ، ولكن الذباب يلاحقه ويلحقه

(٣) العيون : الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٣٤٦ تحقيق عبد السلام محمد هارون ومبجدها

فيجري الجاحظ ، ويشدد عدوه ، ويقطع المسافة الشاسعة عاديًا كما لم يفعل مذ شابهه ،
وكان قمرًا يظلمه ، أو أدمى تنساب نحوه لتتمشه ، إلى أن يتلقاه الأندلسى منكراً حالته
جازبًا من صوته التي لا يدرك ما تاتها ، وإن كان يعلم مدى بشاهاها ، من جرى الجاحظ ، واضطراب
حركته ، ووزعة طيلسانه وسوء حالته . فلما أخبره الجاحظ أن الذبان هو المطارد ، سخريه ،
وضحك منه ، وازداد ضحكه وقوى ، فاهتز جسمه ، وارتخت أعضاؤه ، واختلت مفاصله ، حتى
هجزت من حمله ، وترنح فجلس عيالي الضحك ، ورتاب السخر ، والجا حظ لشدة هلمه ، فزاهل
ما حوله ، وحا آل إليه أمره ، يحدو ويحدو ، رغم انقطاع الذبان عنه ، ولم يصدق بانقطاعه
حتى تباعد جدا .

ومثل تلك السخرية ما ذكره الجاحظ عن المراقى مع المروزي ، وقد والى المراقى حركاته
وتابع طرق الاقصاد عن نفسه ، فضاعت محاولاته ، وإن كانت الحركات هنا تتمازجها في السخريتين
المايقتون بأنها صادرة من آدمى إلى آدمى فإن لم تتلق الاستجابة التي يتطلبها العقل
أولم تتلق استجابة أصلا ، تضاعف السخر ، وطلا صوت الضحك . يقول الجاحظ : (ومن
أطجيب أهل صوما معناه من ما يخنا على وجه الدهر . وذلك أن رجلا من أهل صوما كان لا يزال
يخرج ويتجر ، وينزل على رجل من أهل المراقى ، فيكويه ويكفيه مؤنته ، ثم كان كثيرًا ما يقول
لذلك المراقى : ليت أنى قدر أيتك بمرو ، حتى أكافئك لقديم إحصانك ، وما تجدده لسى
من البر فى كل قدمة ، فأما كهنا فقد أغناك الله عنى .

قال . فمضت لذلك المراقى بتمدد هو طويل حاجة فى تلك الناحية ، فكان ما هون
طبه مكابدة السفر ، ووحشة الاقتراب ، مكان المروزي هناك ، فلما قدم ، مضى نحوه ، ونسى
شباب سفره ، ونى عمامة وقلنسوته وكسائه ، ويحط رحله عنه ، كما يصنع الرجل بثفته ووضع
أنفه .

فلما وجد قاعدًا فى أصحابه ، أكب عليه وطبقه ، فلم يره أثنته ، ولا مأل به سؤال من
وآه قط . قال المراقى فى نفسه : لعل إنكاره إياي لكان القناع . فرى بقيناهه وأبتدا

مسأله ، فكان له أنكر ، فقال : لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فنزعها . ثم
انتسب ، ووجد مسأله ، فوجده أشد ما كان إنكاراً . قال ، فلهذه إنما أتى من قبل
القلنسوة .

وعلم المرزوق أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، قال : لو خرجت من
جلدك لم أعرفك (٤)

أكرم العراقى المرزوق ، ووجد له الإكرام في كل قدمه ، حتى صار كما يبدو للعراقى
ولنار من خلصائه وأصفيائه ، فاعترف المرزوق بالإكرام ، وأظهر الخجل من تعداد الضيافة
والعناية في إكرامه ، وتغنى أن يرد بعض هذه الأياتى للعراقى إن حقق حلمه فزاره
في منزله ، وابتسم العظ ، وقرب تحقيق الأمل ، فقد عرضت للعراقى حاجة جهة المرزوق ،
فخرجت نفسه لأنه سلبت بصديقه ، ولما قابلته في أصحابه أكب عليه وعانقه ، فما وجدته تحسرك
له ولا استجاب لمناته ولا أثبتته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط ، فطاشت حركته وضاع عقابته
وأخرج على الملأ ، ولكن العراقى يعرف منزله من المرزوق ، ومكانته في قلبه ، وسابق فضله
عليه ، فحقد تغنى المرزوق رؤيته ، وحببه استضافته . كما ذكر له بالعراقى ، فظن أنه ما
عرفه لقنائه ، فنزع لقنانه ولباه ، وابتدأ مسأله ، فكان الإنكار لثاني مرة أشد ، وليس
تعد حركته يرميه قناعه ، وظن . لوجه المرزوق وتبين صداقته به وسبق إنعامه عليه . أنه لا
يزال به جاهلاً ، فنزع صاعته ، فوجده أشد إنكاراً له ، فطاشت الحركة مرة أخرى ، وفوتها
عليه المرزوق ، فظن أن القلنسوة ربما كانت سبب خفائه وما نرى ظهور ملامحه ، ففهم بها .
ولكن المرزوق علم أن تغافلته وتجاهله قد نضب ، وأن الرجل قد اتضحت قسامته ، فلم يعد
يخفي على من يعرفه ، ولم يبق هناك شيء يتعلق به في إنكاره له ، فجابته ، بأنه لو خلع

(٤) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط العوامى والجامع الجزء الأول صفحة ٥٤ ، ٥٢ ، ٥٤ .

كل ما يلبسه لما أجدها عوحى لوخلع جلده لما جنى فائدة لأنه مصر على إنكاره له .
ومن كثرة الحركات وتواليها ، وتقلب العراق ، وخلعه باللبسه قطعة إثر قطعة ، دون
تحقيق نتيجة . ومن تجاهل المرزى ، وأدعائه الخفلة رغم مبالغة العراق في إطمائه وإيوائه
وأكرامه ، وشكارة ذلك منه مرات عديدة حتى انعمدت صداقة ظنهما وطيدة . ومن التضاد بين
هوقف المرزى من صاحبه عند زيارته العراق ، وهند زيارة العراق له . ومن الأمانى المسهولة
التي تناها المرزى ، وعدم العمل بموجيها عندما تحققت .

من ذلك كله يخضر عود السخر ، وتتضرأرواقه ، وتسقى شجرته ، وتتفتح أزهارها لتمطي
شظايا شمسية ، محيية إلى القلوب ، تسر النفوس ، وتضحك العيون .
واليك سخرى أخرى عما دها الحركة الجسمية المتولدة عن الحركة النفسية ، تثيرها حركات
مثل البهيم ، وافتتانه في الحفظ والنسج ، يقول أبو عثمان .

(ولم أر مثل أبي جعفر الطرسوس ، زار قوما فأكرموه وطيبوه ، وجعلوا في شاره وسبلته
قالية ، فحكته شفته العليا ، فأدخل أصبعه فشكها من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ
أصبعه من الغالية شيئا لهذا حكها من فوق)^(٥)
إن حركة الأصبع التي صدرت عن الطرسوس حين حك به شفته العليا من الداخل هي
التي ولدت السخر ، وأشاعت الضحك ، لغرابتها وندرتها ، والتوائها في إصابة الفرضه
وطرافتها في نيل المقصد ، وقد دفعها إلى ذلك حركة نفسية تتبع من داخل البهيم الذي
يخاف أن يضع شيء من الغالية الموهوبة له ، وحركتها نبضة عقلية التفتت في ذهن الطرسوس
تمكته من حك شفته دون إضاعة ذرة من الطيب ، فالحركة هنا مركبة ، جسمية ونفسية وعقلية
أفصحت عن الطرسوس ، وفرفتتا سلوته وتفكيره ودخيلة نفسه .

(٥) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط المعراوى والجامع الجزء الأول صفحة ١٠٨ ، بتحقيق

الطرموسى بخيل لحزه لا يتطيب إلا هبة من الناس، ثم يحرض على بقاء الطيب فى جسمه أيا ما إلى أن وجود الزمان له بطيبه وقد حكته شفته العليا التى وضع عليها الغالية، فأدت إلى امتياح بشرتها، فوقع بين حجرى رضى، وشقى مقصر، وتنازه علملان متضادان كل منهما يسبب له الأذى: إن حك شفته ضاع جزء من الطيب، وإن لم يحكها استمر تأذ به بها، وهنا تبرز عقيدة البخيل هو ينزل عليه القيض والإلهاام، فيصل إلى الحل الذى يرضيه ويسره، وهو حك الشفة من باطنها، ولكن هذه الحركة الضئيلة أصحمت عن الطرموسى من جميع نواحيه، وصورته فى كل اتجاهاته، وعرفت أساليبه فى الحياة، وترهنت لنا على تقام بخلاف وجهه وتفتيره.

وإذا كنا لا نملك أن نقفنا من الضحك عند سماع هذه النادرة أو روايتها أو كتابتها، فما ظنك بما لوراها عيوننا، وكما حضور الموقف ونظارته، إن ضحكنا حتما سيشتد، وسخرنا قطما سيتضاعف، فإن للمشاهد من الأثر أضاف ما للقصة المكتوبة أو المروية، ولذلك عقب الجاحظ على هذه النادرة لطرا فتبا بقوله: (وهذا وشبهه إنطيطيب جهاد إذا رأيت الحكاية بحينك، لأن الكتاب لا يصورك كل شىء، ولا يأتي على كبد، وطلى حدوده وحفاقة) (٥).

وظلك نادرة أخرى من نوارده أبي عثمان، وسخرية من سخرياته أساسها الحركة غير اللائقة بعد البالغة فى الحركة المناسبة اللائقة ثم التمازج بين الحركتين، يقول:

(أحدثنى العلى قال: بت عند إسعيل بن غزوان، وإنما بيتنى عنده حين علمت أنى تمشيت عند موسى، وحملت معى قرية نبيذ، فلما مضى من الليل أكثر، وركبتهنى النعم، جعلت فراشى النيساط، ورفقتى يدي، وليس فى البيت إلا مصلى له، وورقنة وسخدة، فأخذ السخدة فرشى بها إلى، فأبيتها، ورددتها عليه، وأبى وأبيت، فقال:

(٥) كتاب الخلاء، الجاحظ، ضبط العرامى والجامم الجزء الأول صفحة ١٠٨، بتحقيق

سبحان الله ! يكون أن تتوسد مرفقك وهندي فضل الخدة ؟ فأخذتها ، فوضعتها تحت
خدي ، فمغنى من النوم إنكارى للموضع ، ويسر فراشى .

وظن أنى قد نمت . فجاء قليلا قليلا حتى مل الخدة من تحت رأسى ، فلما رأيت قد مضى
بها ضحكى ، وقلت ، قد كنت عن هذا غنيا ، قال ، إنما جئت لأسوى رأسك ، قلت ، إنى
لم أكللك حتى وليت بها . قال ، كنت لهذا جئت ، فلما صارت الخدة فى يدي نسيت
ما جئت له ، والتبىذ . ما علمت . والله يذهب بالحفظ أجمع ^(٦) .

فكرة الحركات المترددة بين عرض الخدة ، ودفعها ، وتبادل تلك الحركات ، ثم انتصار
الحركات الملحة على قبولها ، تتبعها حركات نوم المكى ، ثم حركة التردد والتلصص ، والعشى
الوهد ، فاستلال الخدة ، والمكى مع ذلك منتبه متيقظ يرقب كل ذلك ، على حين يظن
ابن فروان غفوته ونومه ، ثم تتاقص الحركات الأخيرة مع الحركات الأولى ، هو سر السخر وهاده
فما كان أفناه عن هذه الحركات التى عرض بها الخدة ، وما حدث لها من دفع ورد وإياب ،
بعد العرض والإلحاح ، ثم أخيرا القبول ، وما كان أفناه عما استتبع ذلك ، من تقرب نومه ،
وتبرهن غفوته ، ثم استلاب الخدة من تحت رأسه ، ولكنه أراد أن يفوز بالحسينين : الكم
الذى يريد أن يحترف به المكى بإيثاره على نفسه وتفضيله ضيقه ، والاحتفاظ بمناحه دون أن
يسمه خد غيره .

وقد سخر المكى من تلك الحركات وضحك ، وقد سخرنا نحن وضحكا ، وازداد سخرنا
من الحركات الفكرية ، ولوثيات النفسية التى علل بها ابن فروان تصرفاته ، فقد الحسى
أنه إنما يسأل ليسوى رأسى من المكى فوق الخدة ، فأفحمه هذا بأنه أخذ الخدة وضى بها
ولم ير الأمر تسوية رأسه ، ثم احتج عليه بأن التبىذ والحذر السبب فى نسيان سبب مجيئه ،
فما سخر إلا والخدة فى يديه برض أنه إنما جاء لغير هذه الحلة ، وكأننا ظنه سببا
كأفيا ، وهلة قوية ، وهذرا واضحا يقبله المكى ويرتضيه .

(٦) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط العوامى والنجام الجزء الثانى صفحة ٥٥

ومن الحركات النفسية التي تكاد تخلع قلب صاحبها وتطيرليه وتتخذها المتحدث بامثال ان
السحر وموضوالمه ما حدث به وال كان بفارس قال :

(هنا هو يومنا في مجلسه وهو مشغول بحسابه وأمره بوقد احتجب جهده ، إذ نجم شلمر
من بين يديه ، فأشده شعرا ، مدحه فيه ، وقطره وسجده ، فلما فرغ قال : قد أحسنت ، ثم
أقبل على كاتبه فقال ، أعطه عشرة آلاف درهم . ففرح الشاعر فرحا يستطارله ، فلما رأى
حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموضع ا اجملها عشرين ألف درهم ،
وكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر
تضاعف القول ا أعطه يا فلان أربعين ألفا . فكاد الفرح يقتله . فلما رجعت إليه نفسه قال له
أنت .. جعلت فداك - رجل كرم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا زدتنى فسى
الجائزة وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له ؛ ثم دعاه وخبج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ا هذا كان يرضى منك بأربعين درهما ،
وأمر له بأربعين ألف درهم ا قال : وملك ! وتريد أن تعطيه شيئا ؛ قال : ومن إنقاذ أمرك
يد قال يا أحمق ، وإنما هذا رجل سرنا بكلام وسرنا به بكلام ا هو حين ضم أنى أحسن من
القره وأشد من الأسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أمرى أنفذ من السنان ، جعل
في يدي من هذا شيئا أرجع به إلى شىء ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ا ولكنه سرنا
حين كذب لنا ، فنحن أيضا نسرره بالقول ، وأمر له بالجوائز ، وإن كان كذبا ، فيكسبون
كذب بكذب ، وقول بقول ، فلما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل فهذا هو الخسران
الذى ما سمعت به) (٧)

إن الحركات اللبائية التي فعمت نفس الشاعر ، والفرح اللطيف الذى امتلك قلبه وشاعره
حين أمر له بالواشى بالنسبة ، هى ببعت السخره ومولد الهزء . ويتحقق هزئنا ، ويتضاعف
سخرنا ويبروه حين نعرف أن الوالى لا يريد لعطائه النفاذ ، وإنما هى الهود فحسب .

(٧) كتاب البغلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجامم الجزء الأول صفحة ٩٦ ، ١٠٥

والكلام الذي لن يجاوز الأذان والقول الذي لا يستتبعه فعل وتنفيذ . ثم نلج تلاعب
الروائي بمقل الشاعر وعواطفه ، فيمد الحبل لآماله ويرى له العنان ، ليفرق في خيالاته
وأوهامه ، فإنه حين رأى تضاعف هياجه ، وشدة اضطرابه ، وحركته النفسية المائجة وفورحة
الذي قد يستطارد مسخر منه ، وطمع في زيادة السخر والمرح ، بزيادة الحركة والهيجان
اللائجة من زيادة العطاء ، فضاعفه ، فقطع فخرج الشاعر ، ولم يستطع السيطرة على
حركته وانفعالاته ، فكان أن يخرج من إهائه ، والروائي يسخر في نفسه ، ويضحك مل قلبه
ويطمع في المزيد من السخر والمرح ، فيضاعف الهبة مرة أخرى فتشتد حركة الشاعر النفسية ،
ويتضاعف انفعاله ، ويهيج وجدانه حتى ليكاد الفج يقبله ، فيتضاعف مع الروائي على مقدار
ما تضاعف الهياج ، وتفاقت الحركات في نفس الشاعر ، ويصل السخر أوجه ، على مقدار
ما وصل الفج ، ولا يتهاج في قلب الشاعر .

فحركات الشاعر لنفسه ، واضطراباته الماطفية ، وضاعفة العطاء . - قولا فقط - من أجل
نوعها وإطرادها وهو الجانب الفني هنا في السخر ، والمحرك والمهيج للضحك .

ثم تنتقل إلى شيخ بنى نهمش أبو الأعزمية . بن مرتد ، لثرى قصته مع كلب ونساج الحركات
النفسية للجبان يظهرنا لتجاعة ، ثم يعود إليه قلبه ، فيخنع ويذل ثم يرجع إلى الصنف ثانيا
حين يضعف خصمه ، وأخيرا نرى أن جنبه وفرقه كانا من كلب حبيس .
(قال بشر بن سعيد : كان بالبصرة شيخ من بنى نهمش يقال له عدوة بن مرتد ، نزل بيوتهم
أخت له ، في سكة بنى مازن ، وبنو أخته من قرين ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في
شهر رمضان ، وبقيت لنساء يملين في مسجد من ، فلم يبق في الدار إلا كلب يمس ،
فراى بيتا فدخل ، وانصفق الباب ، فسمع الحركة بحض الإمام . فظنوا أن لصا دخل الدار
فذهبت إحدى من إلى أبي الأعز ، وليس في الحي رجل غيره ، فأخبرته فقال أبو الأعز ،

ما يبتغي اللعنة ! ثم أخذ عصاه فوجأ حتى وقف على باب البيت ، فقال : إيه يا ملأمان !
أما والله إنك بي لمارف ، وإني بك أيضا لمارف ، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن ، شريت
تخافنا خبيثا ، حتى إذا دارت الأقهراج في رأسك فتك نفسك الأمانى ، وقلت : دور بني عمرو
والرجال خلوف والنساء يصلين في مسجد من فأسوقين ، سواة والله ما يفعل هذا الأحرار
لهن والله ما فتك نفسك ، فاخرج وإلا دخلت عليك فصرمتك من العقوبة ، لأيم الله لتخرجين
أولاهن هتنة مشنومة عليك يلتقى فيها الحيان ، عمرو وحنظلة ، ويصير أمرك إلى تباب ، وتجي
سعد بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هكهننا وهكهننا . . . ولئن فعلت لتكون
أشأم مولود في بني تميم . . . فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين وقال : اخرج يا بني وأنت
مستور ، إني والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتنى لقد قنمت بقولي ، واطمأنت إلى أنا صوفة
بن مرثد أهر الأعرس العرندى ، وأنا خال القوم ، وحلدة ما بين أمينهم ، لا يعصوننى في أمر
وأنا لك بالذمة كهيل خفيوه ، أصيرك بين شحمة أذنى وطافى ، لا تضار فاخرج فأنت في ذمتي
وإلا فان عندي قوصرتين إحداهما إلى ابن أختي البار الواصل فخذ إحداهما فانتبذها
حللا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق
وإذا سكت وثب يربخ المخرج ، فتبافت الأعرابى أى تساقط ، ثم قال : يا أأم الناس
وأضعهم ، ألا يا نولك ، أنا منذ الليلة في واد ، وأنت في آخر ، إذا قلت لك السوداء
والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تربخ المخرج ، والله لتخرجين بالمفوضك ،
أولاجن عليك البيت بالمقوبة . فلما طال وقوفه وجاءت جارية من إمام الحى ، فقالت :
أعرابى مجنون . . . والله ما أرى في البيت شيئا . . . ودفعت الباب ، فخرج الكلب شدا
وحاد عنه أهر الأعرس مستلقيا ، وقال : الحمد لله الذى مسخك كلبا فوكفانى منك حربا . . .
ثم قال : يا الله ما رأيت كة لليلة ، ما أراه إلا كلبا ، أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه (١)

تظهر في القصة الحركات النفسية التي تتناوب أبا الأعرز وتتنازع ، وتظهر جهته وشكله الشجاع
 فقد امتشق عصاه ، ووقف على باب البيت ، يهدد اللص ، ويشتمه ، ويمنفه ، وينهى عليه سوء
 خلقه وقماله ، وما منى به نفسه من سرقة البيت حين قاب الرجال والنساء ، فلما مكست
 ولم يجيبها به أبو الأعرز ، وخاف هجمته ، فلبجأ إلى اللين والراودة ، فبعد بالمفروعة ،
 وتكفل ألا يؤذي أحد ، وضاه بهدية من نبيذ ، والكلب يقفز ويب إن سكت أبو الأعرز ، ويمكن
 إن تكلم ، مما جعل المرثدي يتهاوت ، ثم يلجأ إلى العنف ثانية ، حيث لم تجد الملاينة
 ولم تعد الملاطفة ، ولم يظهر اللص بأسه فيرهبه المرثدي ، وطال كلام المرثدي ووقوفه ، وانتظار
 الإمام ، وكثرت حركة الكلب ، يطلب التخرج .

ولا شك أن حركات المرثدي النفسية ، واضطرابات الداخلية التي تهيئ في حمله العصاه
 وفي تهديده ووعيده ، يتبعه لينه ومرا دعته ، ثم عنفه وشدته ، وحركات الإمام حين انصق
 للملابس ما ظننه لصا ، ثم حركته من حول المرثدي ، حين لجأ إليه ، وحين وقف بجانبه
 ينتظر انتقا به من اللص ثم حركة الأمة أخيرا حين فتحت الباب ، ثم خرج الكلب شدا ، وابتعاد
 المرثدي عنه مستلقيا ، ثم الخاتمة التي تثير السخر والليز ، حيث لالص في المنزل وإنما هو
 كلب ، ثم تخلص المرثدي من موقفه المخجل ، واحتشاه بشجاعة المدعاة ، حين أوهمنا أن
 اللص الذي كان في البيت مسخه الله كلبا ، وكفاه حربا ، إكراما له ، ثم تراجع عن دمواه
 واعترافه مؤخرا بأنه كان كلبا ، وتعنيه أن لو عرف حقيقة لهيجم عليه ، فيحمد على ذلك ،
 ويشهر بالشجاعة بين الناس .

تلك كلها حركات حشدتها الجاحظ في قصة ، وسبكنا بفنيه ، فكانت آية الآيات
 في الليز ، وتونج النماذج في سخرية الحركة .

وأسيق أخيرا حركة تجعلنا نسخر من البخيل الشحيح حتى على نفسه التي بين جنبيه ،
 تلك قصة (البل الناعية ، صاحبة الغالية من الشيعة ، فإنها ما زالت ترفق نصيبا لها وتلبس
 حتى صار القميص الرقاع ، وذهب القميص الأول ، ورفقت كساءها ولبست حتى صارت لا تلبس
 إلا الزقوة ، وذهب جميع الكساء . وسمعت قول الشاعر :

الهن قميصك ما احتديت لجيبه فاذا أضلك جيبه فاستبدل

قالت ، اني اذن خرقاء ! أنا والله أحوض الفتق ، وفق الفتق ، وأترقع الخرق ، وخرق الخرق (٩)
 تلك نماذج لسخرية الحركة عند الجاحظ ، عرضتها ، وحللتها ، وحليت الناحية الفنية
 لها ، ووضعت يدي على جانب السخر منها ، والعامل الذي من أجله نضجك ونطرب ،
 وأوضعت كيف ولدت الحركة السخرية ، وكانت مشعل الهز ، ونار الاستخفاف ، وقد وجدنا
 لكن سخرية طعنا خاصا تتميز به ، ونكية محببة تفرد بها ، ولذا معينا لا يشركها فيه غيرها
 وتلك سمات الفنية ، وأمارات العبقرية .

سخرية الكلمة

الكلمة أداة لتصوير السيلة السيالة ، ووسيلة نقل الفكرة من عقل المتحدث والكتاب إلى عقل المستمعين والقرّاء رئين في سلامة ووضوح وهي أخف في الظاهر ، وأقدر على تصوير من الحركات والإشارات ، ولها غير معناها اللغوي ، المعنى البلاغي والمعنى الخاص لها في العبارة ، والمعنى المقصود بها في الموقف العام والخاص ، والإشعارات ~~للغيب~~ ، والإيجازات التي تخالف معناها ، وتكون مدلولها ، والنغمة الصوتية التي تنطق على المعنى صفا ، وتحدث في النفس تأثيرا وهزة .

فليست الكلمة إذن مجرد لفظ ، وإنما موسيقا وفكرة ، وإحساس وانفعال ، هي كائن حي

يعيش في عقلنا ، وتنطق به ألسنتنا ، ويقدر ما نملك الكلمة ، ونحن استعمالها ، تكون قيمتها في الحياة ، وتختلفنا من العاصب والصابغ ، ولا أعدو الحقيقة إن قلت ، إن الكلمة هي الرجل .

والكلمة في فن السخرية لها أهميتها ومكانتها ، وقدرتها على اللذع والإيلاء ، واللامز

والعز ، والتصريح والغمز إن أريد بها ذلك بقصد بها الإيحاء والتفريع ، لها في معناها

من انفساج ، ولها يتلاعب بها صاحبها بالهدف منها ، أو الزيادة عليها ، أو تحويلها

أكثر من معناها ، أو بتحويلها إلى غير المعنى المقصود بها ، أو بتقسيمها ، أو بإبدال

حروفها ، أو بالخطأ في نطقها نحويا أو لفظيا ، أو بالتعمر والتقصح ، والتشدق

بها بتخيير جرسها ، أو بالخلط بين حروفها ، أو بينها وبين غيرها .

والسخرية تحتاج إلى مقدرة لغوية خاصة ، وتفهم لمعاني الكلمات ومرامها ، وخبرة مسعة

باستعمالها ، وإدراك واسع لمقاصدها ومضامينها ، وما يختبئ داخلها .

وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن النفس ، إن السخرية عنوان المرء لغويا ودليل ثقافته ، ورمز

لنفسه ، وكشاف عقليته ، ومقياس رقيه أو تخلفه من جميع نواحيه ، فقل لي من تسخر ؟ أقل لك

من أنت ، وقل لي كيف تسخره ، أدلك على ثقافتك وطبيعتك وبيئتك .

ولقد عرف الجاحظ للكلمة الساخرة - وهورب الكلمة الساخرة - أهميتها ، وإمكانيتها وما في طاقتها من مد السخرية بألوان فنية ، وأنماط مصيبة مطربة ، فنوع فيها وتلاعب بها وصفت بتركيبها ، واتخذها أداة هزئة ، وممول سخرة ، ونقمة شديدة ، وسوط تأديبه ، ومن الأنواع التي شاعت في أدبه ، ولهج بها لسانه ، فأكسبت الكلام سخرا وضحت فيه

ضحكا وطريا ،

١- التلاعب بالألفاظ والمعاني

٢- الخلط في الألفاظ

٣- الخطأ في الحروف والحركات

٤- الاشتقاق

٥- التفسير

٦- أسلوب الحكيم

١- التلاعب بالألفاظ والمعاني ،

من الألوان الفنية التي تلون الكلام بأصباغ السخرية : أن يترك المتكلم اللفظ الكبير الاستعمال ، والواضح المعنى ، إلى لفظ آخر قليل الاستعمال ، يحتاج في فهمه إلى تأمل ، وسخرية بأنبياء الحاضرين ، وتذكرا بسطحيتهم ، أو سخرية بالمرض الذي يحدث فيه ، أو الشخصية التي يتناولها كلامه ، وقد يسع السامع للفظ فيصرفه عن وجهه المراد إلى غيره من الأوجه قصدا للضحك والعبث ، أو الترجيح والنصح أو بسع لفظا على غير ما نطقه صاحبه ، فيجيبه بها سمعه وتوجهه فيأتي الجواب غير مناسب للسؤال .
وسر السخرية واعية ، أن الحضور يتوقعون كلاما غير الذي قيل ، والمتكلم ينتظر جوابا يناسب سؤاله ، وكلاما يلائم كلامه ، وهو يبحث عنه فلا يجده ، وإنما يجسد كلاما مخالفا ليس بينه وبين كلامه صلة ولا رباط ، إذ السائل في واد والجيب في واد آخر

ومن عدم الترابط ، وظهور التناقض ، والمكاس الأمور فتشأ السخرية .
إن الساخر قد يحاول أن يكسب الألفاظ غير معانيها الواضحة ، فإذا اكتشف السامع
أن ما يقصده هو هذا المعنى البعيد الذي لم يتطرق إلى ذهنه في مبدأ الأمر سخر من
فهمه الأول لمعنى الجملة .

وقد يسخر الجيب ، ويتهمك بالسائل ، باستعماله اللفظ في غير معناه المتعارفين
الأذهان ، تهربا من الإجابة ، وخوفا مما يترتب عليها إن كانت صريحة صحيحة ، أو لطمته
في نوال ، أو ليبين منه السؤال ، وقبح موقعه .

وقد يتلاعب بالمعنى عن طريق الطن والنشر ، واللف والتمجج ، والتواء الأسلوب ، وخداع
السامعين ، والإجابة على غير السؤال ، وإيهام الإجابة عنه ، سخرية واستهزاء ، مما
يحتاج إلى غوص للوصول إلى رابطة بين المعنيين وكشف ما يغطى هذه الصلة من غوض أو
إيهام .

إن الساخر قد يكون أسلوبه في الهزئ ، وطريقته في السخرية تحويل الكلمة عن معناها
الأصلي إلى معنى آخر تحتمله ، أو تفسيرها تفسيراً مخالفاً لما يقتضيه السياق والموقف ، بحيث
عما يقصده المستكم ، وما ينتظره السامع واعت السخر في هذا اللون ، وضع الشيء في
غير موضعه المألوف ، وإخراجه في صورة طريقة غير متوقعة ، مع ما فيها من تفسير سليم للكلمة
يراد به الصبغ واللحم ، والمرج والسخر ، وهو وإن كان حقيقياً فيها إلا أنه يعمدها عن
معناها الجاد ، وينحويها ناحية المنزل واليهز ومن أمثله ذلك عند الجاحظ قوله ،

(قال قاسم ذهب والله مني الأطيان قلت : وأي شيء الأطيان ؟ قال : قوة اليمين
والرجلين) (١) ففسر الأطييين بغير معناهما الشائع . والأطييان عند العرب : الأكل

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ص ١٢ الجزء الرابع ، تحقيق السندوسى

والنعم ، أوالأذى والجماع ، أوكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : الأظيان ، التمر
واللبن ، وتفسير الكلام بغير معناه المتعارف تلاعب بالكلمة وهيئ بضمونها يدعونا للسخر
والضحك .

(سئل عن رجل ، فقال : إن له شرفا وبيننا وقدما ، فنظروا فإذا هو ساقط من السفلة
فقال له من ذلك ، فقال : ما كذبت ، شرفه أدناه ، وقلمه التي يمشي عليها حولا يد من
أن يكون له بيت يأوى إليه) (٢) و (هذا مثل قول القائل حين سئل عن رجل في تزويج
امراة . فقال : آزين المجلس ، نافذ الطعنة ، فعمسوه سيذا فارسا ، فنظروا فوجوده خياطا
فسئل عن ذلك فقال : ما كذبت ؟ إنه لطويل الجلس وجيد الطمن بالإبرة) (٣) وهذا
ضرب لطيف من السخر ، يدخل على النفس البهجة والسرور ، حين يفسر الكلام بخير ما يتوقع
وما أشبه هذا بما يشيع بيننا الآن من قولهم : إن أين يرفع الناس ويخفضهم بطرف إصبعه
فلما حدثوا عن منته وجده "علمل مصد" أو قول أحدهم : إن أين يصفق له الناس .
يقصد أنه "جربونا"

وقد يحول المتكلم كلمته إلى معنى آخر غير معناها اللغوي ، فيسمى الشئ بخير اسمه ،
ويخلع عليه غير صفته ، تديكما وسخرأ فو قد يحاول السامع تتهيب هذا الاسم الجديد ، والتعليل
لصحته ، والبرهنة على أن الأول لم يستعمله في غير معناه ، وهدفه من كل ذلك تحملا لسخرية
ومضاعفة الاستنزاء أو صلاح ذات اليبين . . . ولنا حية الفنية في سخرية هذا اللون :
تسمية الشئ باسم شئ آخر أرفع منه رتبة أو أقل ، ثم الإتيان بهرمان مفتعل على أن

(٢) الأظيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ص ١٢ الجزء الأول

صفحة ٢٢٧

(٣) المصدر المذكور صفحة ٢٢٨

هذا الاسم له حقيقة ، تهكما واستمرا ، فيكون موطن سخره كمن ينادى الخاتم بلقب
سيده ويدهى أنه لقب له أيضا ، أو ينقش ريش الضراب بالوان ريش الطائوس ، فإذا ما تبينا
الحقيقة وظهرت لنا الخدعة التي هي مكن السخر ضحكا وطربنا . ومن ذلك قول الجاحظ
(قال ابن خلدون رأيت رجلا رأى معه خفا ، ما هذه القلمسة ؟ فاحتكوا إلى عراضه فقال
عراضه هي قلمسة الرجلين ^(٤) . فقد أتت عراض لفظ القلمسة كما هو ولكنه حوّلها
حين أضافه إلى الرجلين إلى معنى آخر ، بقصد تلطيف حده وواظبا را بن خلدون في
مظهر من لم يهج ، عن طريق استعمال اللفظ استعمالا مدينا أدى إلى سخرية ظاهرها
الإيهام والإقناع بقول الجاحظ وباطنها السخر واللمب بالمقول نتيجة التلاعب بالألفاظ
وقد يكون الكلمة ذات معنى جنس متسع المعنى ، وينفس المدلول ، وتطلق على كل شخص
ثم يعرفها شخص نفسه ويستعملها استعمال العلم . . . والتأحية الفنية للسخر هنا
أن التعريف لا يفيد ، إذ أنه ليس بتعريف ، فالجنس لا يدل على الشخص ، واللفظة
صالحة لكل فرد ، ويزيد السخر إذا جاءت الإجابة هازئة يساير فيها المخاطب المتكلم
وكذا أنها تعريف له ، ولم عليه ، وفي ذلك يقول الجاحظ ، (كان عمرو بن عبديد يجلس
في داره ، وكان لا يدع باه مفتوحا ، فإذا قرعه ابنان قام بنفسه حتى يفتح له ، فأثبت
الباب يوما ، وقرعته فقال : من هذا ؟ قلت ، أنا . فقال ، ما أعرف أحدا يسمى أنا ^(٥) .
وقد يكون مبعث السخر اللفظي المعنى ، والدوران في التعبير ، وهذا الجهد ،
وتعمل الحنت ، لمحاولة إخفاء المعنى المباشر الذي قد يهيج ويجمع . . . واللغة الفنية
الساخر هنا ، التعويه على السامع ، والعيث بحقله ، والتلاعب بالكلام رجاء ألا يفهم
أو يبادر جديّة الأمر ، وفق المضمون ، واحتياجه ، لتدقيق نظره فيؤخذ السخر بذلك

(٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع ، صفحة ٨

(٥) الحيوان ، الجاحظ ، صفحة ٢٢٧ من الجزء الأول ، معاضرات الأديب ، ج ٢ ، ص ١٠٤

ويحدث له ذهنه ، فإذا تبين بعد ، سطحية المعنى ، وأنه كان يمكن أن يؤدي بكلمات قليلة لا تقبل تعباً ولا جهداً ، سخر من نفسه ، ومن كده وجده ، وسخر من التكلم الذي نجشم

اللعنا ، وسخرنا نحن منهما معا ، ومن أمثلة ذلك ما رواه الجاحظ عن أبي الحسن ، قال : وكان رجل من أهل الري يجالسنا ، فاحتبس عنا ، فأتيه ، فجلست معه على يابه وإذا رجل يدخل ويخرج ، فقلت : من هذا ؟ فسكت ، ثم أعدت لمسكت ، فلما أعدت الثالثة قال : هو زوج أخت خالتي (٦)

لم يشأ أن يقول له صراحة : إنه زوج أختي كراهية لذلك ، وأتفه وخجلاً ، فلما اضطر للإجابة ، بعد طول سكوت ، وتكرير السؤال وتكرير الإلحاح ، لف الكلام ، وأظهره في هيئة لغز ، وحدل عن التصريح إلى الكناية ، سخرية من موقفه ، وإيماءاً للقراءة التي بينه وبين ذلك الرجل ، ليروض نفسه ، ويخفف ضياء الآثام ، كما أنه سخر من زوج أخته حين عسده إلى هذه العبادة في الصلاة التي تجمعهما .

وقد يعبّر عن اسم الشيء بصوته فيجعل الصوت محل الكلمة ، ويبدل عليها به ، وهو يلجأ إلى ذلك مرحة وسخرًا ، أو تهزياً من التصريح بالاسم الجهر الذي يهتت السخر والتهزؤ . . . ووجهة السخر الفنية فيه : البروب من ذكرنا لقبيح إلى ذكر ما هو أقمع . وتقليد الصوت الذي يظهر الإنسان في مظهر غير إنساني ، حين يبدو وقد تقمص شخصية صاحب الصوت حيواناً كان أم حشرة فيكون في جسم الآدمي وصوت الحيوان ، وذلك لون من السخ والتشويه الذي يتهر السخر ، ويجلب الضحك . ومن أمثلة ذلك في أدب الجاحظ .

(وكان رجل يسمى كلباً ، وكان له بني يلعب في الطريق ، فقال له رجل : ابن من ؟

قال : ابن (٧)

(٦) البيان والتبيين صفحة ١٦ الجزء الرابع تحقيق عبد السلام محمد هارون .

(٧) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ١٨٦ الطبعة الأولى بتحقيق هارون سنة ١٩٢٨

وقد يكون الحرف في الكلمة موحيا للمتكلم بمعنى من المعاني ، ويعتقد أنه يدور معه وجودا
 وهدما ، لا اشتراكه في العديد من الكلمات تحوي هذا المعنى وتدل عليه . ولكن لما لم
 يكن هناك دليل مقنع ، وبرهان يؤيد هذا الرأي الذي يعتمد على العدم والمصادفة ،
 وكانت القاعدة المخترعة تختم أكثر ما تستقيم ، كان رأيا تفسيرا وفكرة خاطئة تنحصر في
 السخرية من صاحبها ، وثقة عقله . . . وبعث السخرى وسره ، سداجة العقل مسح
 ادما . الحكمة ، وكشف المعنى ، والإتيان بما لم يأت به الأوائل .

(قال الشيخ الأباضي - وقد ذهب عن اسمه وكنيته ، وهو هجرت أبي بكر بن بريدة -

وحري يومئذ عي من ذكر التشيع والشيعة ، فأكثر ذلك ، واشتد غضبه عليهم ، فتوهمت
 أن ذلك إنما اعتراه للأباضية التي فيه ، وقلت : وما علي إن سألته ؟ فإنه يقال : إن
 المسائل لا يعدم أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملحة . نقلت وما أنكرت من التشيع
 ومن ذكر الشيعة ؟ قال : أنكرت منه مكان الشين التي في أول الكلمة ، لأنني لم أجسد
 الشين في أول كلمة قط إلا وهي مسخوطة مثل شوي وشرو وشيطان وشغب وشج وشمال
 وشجن وشيب وشين وشراة . . . قلت له : وما سمعت متكلما يقول هذا ، ولا يلفظه ، ولا
 يقول لهؤلاء القم قائمة بعد هذا (أ) وفيه من السخرى فيما تقدم قول الشيخ نسي
 آخر القصة ، فما سمعت متكلما يقول هذا ولا يلفظه ، وهو هنا يظهر استحسانه لرأي
 الأباضي ، ويظهره ، بأن براعته موثقتك ذهنه ، وصق تأمله وأبصر اكتشافه لا يلفظها غيره .
 وهذا ضد ما يبطنه ، وعكس ما استقر في نفسه ، وضاعف السخرية حين قال : ولا تقم
 لهؤلاء القم قائمة بعد ذلك على طريق ذكرنا ضد وتعجيد الفاسد توكنا وهنأ
 وهو يظهر الموازنة لا اقتناع بما قيل .

(أ) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٢ ، ٢٣ من الإخبار لابن عيينة الجزء

٢- الخلط في الألفاظ :

إذا وضع المتكلم لفظا مكان لفظ فتغير المعنى ، أو قدم لفظا على آخر فأحدث الخلط في الجملة ، أو خلط لفظين ببعضهما ، وصيرهما كلمة واحدة ، فإنيهم المعنى واستغلق ، كسان مطاعة للسخر ، ومحاظ للهنز ، ويحدث ذلك منه عن قلقه أو عن جهل ، أو إلمامه في الكلام أو بسطرة فكرة أخرى على عقله ، غير ما يتحدث فيه ، فيخلط ، ويدهج ، ويبدخل هذا في ذلك ، فيفسخ منه ، ويضحك لكلمات التي يتردد في إطار غير معناه ، ويظهر في غير مكانها ، وعلى غير صورتها ، وكأنها تفكرت لأصولها ، ولتستثاب غيرها التي لا تناسبها ، فبذلك فيه مشوهة فتدعو إلى التعجب ، وتثير التسخر . ومن أمثله ذلك ما رواه الجاحظ :

١- قال نفيس لخلام بن : الناس ويلك أنت حيا ، كدم أقل ، أريد ، وأنت أقل الناس كلام حيا (١) .

ظننا المعنى إذ ضللت الألفاظ طريقها ، وسكنت في غير منازلها ، ومار الكلام لنوا لا محصل له ، ولا دلالة يعطيهما للسامع . إن السامع ليسخر من ذلك اللفظ السندي حفظه ، وألفاظه ، فألفاها كما جرت على لسانه ، ليون أن يراعي بهذا العلاقات والروابط وذلك يشير إلى ارتباك عقليته ، واضطراب ذهنه .

٢- قلت لتفسير ابن بريفة هذا الصبي ، في أي نس ، أسلموه ؟ قال : في أصحاب سنده نعال يريد أصحاب النعال السندية (٢) .

فقد قدم نفيس الصفة على الموصوف ، ووضعها في غير موضعها ، لألوف ، وسر الخسر هنا قلب الأصل فرعا ، وجعل الفرع أصلا ، وكان السند في نظره تصب إلى النعال وتصرف بها .

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ / تحقيق هارون ج ١ ص ٢٦٤ ، وتحقيق السندون ج ٢ ص ٢٢٦
(٢) المهملة المذكور ص ٢٧ تحقيق هارون ، وتحقيق السندون ص ٢٢٦ ج ١ ص ١٦٢ هارون

٣- قال الجاحظ : (وأما نفيس غلامى فإنه كان إذا صار إلى فراشه فى كل ليلة فى سائس
المنة يقول فى دعائه : اللهم علينا ولا حولنا) (٣)

لم تحدث السخرية من التقديم والتأخير فحسب ، وإنما لأن تبادل الكلمتين موضعياً
قلب المعنى ، فصار الكلام دعاءً عليه ، بعد أن كان دعاءً له ، لو أبقاه على أصل وضعه
اللهم حوالينا ولا علينا ، وقد حقق هذا السخرى نقل الكلمات وتحويلها عن مواضعها ، فصارت
السخرية قوية ، ذات طاقين محكى الفطن .

٤- قال قاسم التمار : (قالتوى لى عرق حين قعدت منها فقدم الرجل من الغلام) (٤)
أراد قعدت منها فقدم الرجل من المرأة . فجعل الغلام مكان المرأة ، وأبدله بها ضم
إن هذا الإبدال يضاعف السخرية من قاسم فإنه جعل نفسه محل الشبهات والاتهام بالغلطان
ثم إنه مجاوز للمعتاد من التعبير ، والنفس تسخر من المخالف وبخاصة إذا اتجه ناحية
الضعف ، أو اكتسب الصفة الذميمة . ويتضاعف السخرى إن كان المعنى غير مقصود .

٥- (قلت لغلامى نفيس : بعثتك إلى السوق فى حوائج ، فاشتريت مالم أمرك به ، وتحركت كل ما
أمرتك به) قال : يا مولاي ، أنا ناقه ، وليس فى ركبتي دماغ) (٥)

أراد وليس فى رأسى دماغ فأبدل الكلمة ، فصارت العبارة ضرباً من اللفظ ، الذى يثير
السخرى ، حيث فقدت معناها ، وربما أراد أن ركبته لا تقل فيها مولحله أراد إبدال الكلمة
وقصد ، كما اتهمه سيده بإبدال ما يطلبه منه بما لا يطلبه ، جلبها للمرح وطلبها للسخرى فهو
قلم الجاحظ ، والمعاشرة تعدى .

٦- وقال فى مفضل اسمه كيسان : كان يكتب غير ما يسمع ، ويستعمل غير ما يكتب ، ويقراً غير
ما يستعمل ، ويملئ غير ما يقراً أمليت عليه يوماً .

(٣) البيان والتبيين الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الرابع صفحة ١٩

(٤) الضمير السابق صفحة ١٢

(٥) السعدي المذكور ص ٢٦ ، أخبار الحقيق والمغفلين لابن الجوزى صفحة ١٢٦

(٦) أخبار الحقيق والمغفلين ، ابن الجوزى صفحة ٨١ ←

بمحترم آبا عمرو

مجهت محشر عدلوا

تكتب آبا بشره وقرأ آبا حليصه واستهلى آبا زيد (٧)

فهذا الخلط الكبير والخيوط الشديد ، دليل المغلظة ، وهم استواء الطبقة البهريسة
 فإن بعد ان لفظ بأخر محتمل متقبل ، رغم أنه قد يجلب السخره ولكن تراكم الأخطاء فيسبب
 لا يتأتى في مثل الخطأ عادة ، يورث السخره الشديد ، والضحك العنيف ، والجزء المركب
 لخروج الشخص عن طبيعته الإنسان السوى وعقليته ، وما يضاعف السخرية ، ويطلق الضحك
 أن المغفل السعكيان مع تجرده من الكين غفلته طبقات متراكمة ، وحيلة ظلمات بعضها
 فوق بعض ، ولا سم الشخص بالنسبة لأعماله : إما تلازم وتناصب فيشرح الصدر ، وتمش
 النفس إن كان شريفا كريما .

وإذ تضاد وتعاين (٨) فيتوكل الهزء ، ويتزايد السخره وقد يكون الاسم القبيح مناسباً للفعل (٧)
 القبيح ، غميراً أيضاً ونضحك .

٧- (قال الشاعر ، وراى رجلا اسمه وثاب واسم كلبه عمرو . فقال :

ولو هبياً له اللسه من التوفيق أسبابا

لسوس نفسه عمراً وسوس الكلب وثابا) (٩)

فاجتماع الاسمين في الكلب وصاحبه ، وتسمية كل منها بما يجب أن يكون للأخر ، إيهاماً للكلب

في سمت الأذى ، وللأذى في سمت الكلب ، وإعطاء كل منهما شيئاً من مظهر الأخر

(٧) أ- كعجل ، الذي أراد فقاعين فرسه الذي جاء الأول في السباق ليسميه الأعر .

ب- كلقمان الذي تكبر لقمه ويأكل منها الكبير وسأذ كركك في الاشفاق .

٨- كقفيس فلام الجاحظ الذي يدعو كلامه للسخر منه ، والتكلم به .

ب- وكأبي الأعز الجبان الذي سبقت قصته من الكلب في سخرية الحركة .

ج- ومثل كيسان الذي ذكرنا الآن قصته .

د- ومثل الرجل وثاب الذي سوس كلبه عمراً في السخرية الأتمة .

(٩) للحيوان ، الجاحظ الجزء الثاني صفحة ١٩٤ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ ، وشاه نس

العقد القرني لابن عبد ربه ، المجلد الثاني صفحة ٢٩ .

ومن انحدام التاسب بين الاسم والسوى ، ومن الطرافة ، والخرابة في تبادل الاسمين ، يكون
السخر والاستنزا .

د- (دخل آخر على رجل يأكل أترجة بحمل ، فأراد أن يقول : والسلام عليكم . فقال :
عليكم) (١٠)

فقد أوج الكلمتين في بعضهما ، الحمل ، والسلام عليكم ، فصارا كلمة واحدة مشحونة ، وذلك
حين شغل بالحمل وشغف به ، فسيطرت محمته على لسانه ، وبدل أن يسيطر عليه عقله ، فكان
عقله في محمته ، وكأنه حيوان لا فكر له إلا في الطعام . وذلك محور السخر ، ومدار الير
يحشو في نفوسنا وسببه انه اج الكلمتين الترحى باندماج عقله وخطه .

١- (قيل لطفيل : كم اثنان في ايتين ؟ قال : أربعة أرفقة) (١١)

فسخر الكلمة هنا ناشئ من زيادتها ، فكلمة أرفقة لم يسأل عنها ، ووجودها في الإجابة
كشفت نفسية الطفيل ، وأرانا ما يدور بعقله ، وكيف امتلكت محمته زمام فكره ، وكيف أسلم
لها قياده ، وذلك ذريعة السخر والتكم .

٣- الخطأ في الحروف والحركات :

من الصور العاخرة للكلمات يغير التكلم حرفا من حروفها ، أو حركة من حركاتها
فيخرج بها عن معناها إلى معنى آخر ، قد يقصد ، وقد لا يقصد وسر السخرية أن
الكلمة لم تعد تفصح عن نفسها ، ولم تبقى لها شخصيتها ومقوماتها ، فقد انسلخت عن مفهوميها
إلى مفهوم جديد ، ربما كان عكس مفهوميها الأول ، واتخذ تشبيها من تبدلت بعض أعضائه

(١٠) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق هارون الجوزي الثاني صفحة ١٢٨ .

(١١) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثاني صفحة ١٢٥ السندوي ، ١٢٥ هارون . وفي

أوقعت ، أو زادت ، ولا يخفى ما في ذلك من تشويه ومعنى يؤدي إلى السخرية والاستهزاء
وهي وإن انحرفت بعض الانحراف في مظهرها ، فقد تنيرت كل التغيرات في مدلولها ومضمونها
وإن كان ذلك داعياً إلى السخرية من الكلمة ، لخلل في بنائها ، أو نقصان حروفها أو نقص
لونها ، فإنه أيضاً يثير الازدراء والاستخفاف بالنطق بها ، حيث يظهر مظهر الطفل ،
الذي لا يفهم النطق السليم ، أو الأعجمي الذي يتأخر عليه الكلام المستقيم ، وتكسر بين
شفتيه الحروف ، وتتمثر في منه الألفاظ ، أو يؤديها بلهجة لا يستطيع التخلص منها ، أو ينطق
بعض حروفها أو يبدلها . فيثير السخرية والمعنى ، ويشع الضحك ويعلو ، إذا كان المعنى
الجديد يضاد المعنى الأول ، أو يؤدي إلى التصريح بذكر عورة ، أو إلى إلقاء عيب
خلق بالحدث أو السامع ، أو إلى إيقاعه في مأزق يصعب خلاصه منه . . كما يتضاف السخر
إن أظهر المتحدث تفصحه بما يقول من كلمات خاطئة ، أو حاول أن يقوم به كلام غيره السمع
في نظره ، فإذا لفظه أشد اعوجاجاً ، ومعناه أكثر سقوطاً . وتبلغ السخرية أوجها إذا كان
المتكلم صائب اللفظ والمعنى ، فعدل هذا له كلامه بالخطأ البين . واللفظ المنحرف ، وقد
اعتقد صواب لفظه ، وبراعة أسلوبه ، وأنزل نفسه من المتكلم منزلة المعلم والأستاذ . ومن
أمثلة هذا الجانب الفني للسخرية في كتابات الجاحظ ما حدث به عن نفسه قال :

١- (أتيت منزل صديق لي ، فطرقت الباب ، فخرجت إلي جارية سندية . فقلت لها : قولني
لسيدك ، الجاحظ بالباب ، فقالت : أقول الجاحظ بالباب ؟ - علي لختها - فقلت لها :
قولي الحدوث بالباب . فقالت : أقول الحلق بالباب ؟ فقلت : لا تقولي شيئاً فخرجت)
(١)

فتشير الجارية السندية حرفاً من لقب الجاحظ بحرف قريب منه في الخج والجبس ،
لصحب في نطق الجارية ، أو لخطأ في سماعها ، أو حال الكلمة عن معناها ، وألقى ما بين
بحر صفة خلقية مردولة ، ولواصقت به لأذنته ، ونكمت رأسه ، وجعلته موضع هزء على مسر
الأيلام ، وافتمتها خصومه للتشهير به ونادوه الجاحظ أو الحلق ، وقد شعر بحمية اللقب

(١) أدبنا العرب ، بطرس البستاني ، معجم الأديب ، ما قولك الجزء ١٦ ص ٨٥ طبعة دار

الصرف فولى الأدياءه قائلا للجارية لا تقولى شيئا .

٢- قال فيل مولى زيادله (أهدوا لنا حماروهش، وريد حمار وحش . فقال زياد ما تقول
ويلك ؟ قال : أهدوا إلينا أيرا . يريد عيرا . فقال زياد : الأول أهون عندهم ما أرا (٢)
والخطأ هنا جرأيا إلى اللفظ القبيح ، فقد أبدل الحاءها في الأول فتغيرت سحنة
الكلمة ، وتجردت من معناها ، وصارت بأصوات الحيوان أشبه عوفى ذلك ما يدعو إلى السخر
أما السخر في الثانية التي قلب فيها الصين همزا فأنكى وأبشع ، لأنه ذكر العورة صراحة .
لذلك قال زياد : الأول أهون ، وما يضاعف السخر أن قيل لم يقصد المعنى المضحك ،
وإنما تلك لكته غيراً كعجبي في لسانه قلب بعض الحروف فحقيقة كلامه الجده ولكن مظهر
الكلمة وصورتها بالنسبة للمعربى الذى يسمع همز وهجره تمتحق السخر والوزن وبخاصة
مع كلمة أهدوا .

٣- (وقال بعض الشعراء في أم ولد له يذكر لكتبتها :

أول ما أسمع منها فى السحر تذكيرها الأثنى وتأنيت الذكر

والسوءة السواء فى ذكر التمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر ، قالت الكمر (٣)

ولا زالت السخرية هنا تنبع من تغيير الحرف الذى يؤدي إلى غير العواد ، ونحو جهة
التصريح بالعورة مما هو غير مقصود للجارية ، كما أن هناك سخرا آخر ناشئا من قلبها
النوع الإنسانى فى محادثته أو الكلام عنه يجعل العوئث مذكرا وبالمعنى .

(٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام مارون الجزء الأول صفحة ٧٢ ط مكتبة

الخانجي ومثله فى كتاب الحيوان للجاحظ الجزء السابع صفحة ٢٢٢

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٧٢ و ٧٤

ومن الأخطاء النحوية التي تولد السخرية حين تتغير حركة الاعراب أو حرفه وبخاصة إذا تتابعت التغيرات ، وتوالت الأخطاء ، أو إذا صدرت من يدعي إجادة النحر واللغة ، أو إذا كانت ممن يتفصح ويتحدث ، قول الجاحظ :

حدثني ماسرجويه الطبيب بجد عماد بن سعيد بن حميد الحميري . فقال : يا ماسرجويه ، إنني أجد في حلقى بوحا . قال : إنه عمل بلغم . فلما جازه قال : أنا أحسن أن أقول بلغم ولكنه كلفني بالعربية ، فكلمته بالعربية (٤)

أخطأ ماسرجويه فقال بلغم بضم الباء والهمزة فاعتقد أن تلك لغة عربية فصحة ، ثم جعل لفصي عامية ، فقال بعد أن جازه : إنه يحسن قول بلغم بالفتح ولكنه ضم ليكون كلامه عربيا فصحا كما كان كلام محدثه ، ولو نظرنا إلى كلام محدثه لوجدناه قد فك الإلتصاق وذلك فير فصيح فتحريك الكلمة بغير حركتها ، وقلب لفصي عامية ، والنطق الخاطيء على أنه العربي الفصح سبب السخرية ، وأساس التهمك .

٢- (كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان ، فجملا يلحنان فقال الحاجب : قوما قد أوردتما أمير المؤمنين ! قال عمر : أنت أنتي لي منهما) (٥)

لم يترك الحاجب الرجلين يلحنان ، ولكنه طلب قيامهما ، وكأنه فصيح نحوي ، يؤذيه اللحن ويؤلمه ترك قواعد اللغة ، وكأنه لا يخطئ لغويا ، ولا يتزلق لسانه فلما تكلم ظهر سقطه فكان اللحن منهما وكان أشد إيداء للخليفة . وجه السخر اللحن أولا ، واستكراه الحاجب له مع أنه أشد لحنا ثانيا ، وإسماؤه الفصاحة ، ووقوفه موقف الأشراف ، ثم اتضاح حاجته إلى السخر معلم ومؤذب .

٣- (ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميراك ، فقال : إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال

(٤) المصدر المذكور : الجزء الثاني صفحة ٢١٨

(٥) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٤٠

أبانا فأكله . فأما زياد فقال : الذي أضمت من لسانك أضرت عليك ما أضمت من مالك ،
وأما القاضي فقال : فلا رحم الله أباك ، ولا نبيح عظم أخيك اقم في لعنة الله (٦)

هذه الأخطاء النحوية المتكررة ، والتي لا تطرد حتى في خطبنا تجعلنا نسخر ونهزأ

وخاصة إذا كانت أمم عليه القوم وفصحاءهم لذلك جاء كلام زياد والقاضي ساخرًا من الرجل

ومن أبيه وأخيه إذ لم يقوما على تربيته وتمذيب لسانه فدعا عليهما القاضي ولعن الرجل ،

وسخر زياد من الرجل مبيهاً فحش خطئه ، وعظم جريرته وأن ما ضاع من لسانه أضرت عليه ما
ضاع من أموال .

وأختم هذا اللون من الأخطاء اللغوية والنحوية بسخرية أيشع ، وتمكم أوجع من نوح

بنفسه بين العلماء فأخطأ ، وكلما صوبوا له أخطأ ، وهو في كل توجيه لسانه

يخطئ خطأ مخايلاً ، مع إمكانه البعد من كل هذه الأخطاء ، والضحى من تركيب الومر

باختيار اللفظ السهل فيبعد به عن المبالغة والمزلق .

(قال يوسف بن خالد السعدي لعمر بن عبيد : ما تقول في دجاجة ذبحت من

نقاها ؟ قال له عمرو أحسن . قال : من نقاها . قال : أحسن . قال : من نقاها . قال

عمرو ، ما عناك بهذا ؟ قل من نقاها واسترح) (٧)

•••

•••

•••

٤- الاشتقاق :

إن العبث بالكلمة عن طريق تقسيمها إلى جزأين يحمل كل منهما معنى ، ويتكون معنى

الكلمة منهما معاً ، أو عن طريق التعليل لتسمية الشخص أو غيره تحليلاً لا سندله ، ولا دليل

(٦) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٢٢٢

(٧) البيان والتبيين : لاحظ : تحقيق هارون الجزء الثاني صفحة ٢١٢

عليه . أو عن طريق مشاركة الاسم لصفة من صفاته ، ضرب من الفكاهة والمرح ، ولون من السخرية
سخرية المتكلم من السامعين واللمب بحقولهم وما وقرفيها ، وسخرية السامعين .
يمن يقول ذلك ويدعيه ، مبعثه الاشتقاق وتلمس الصلات بين معنى الاسم وصفات سما ،
وإن نأت وحدت وظهر فيها التكلف والاحتياي .

يقول الجاحظ : (وبعض المفسرين يزعم أن نوحا النبي عليه السلام ، إنما سمي نوحا لأنه كان
ينوح على نفسه ، وأن آدم إنما سمي آدم لأنه حذى من آدم الأرض . وقالوا ، كان لونه نسي
أدمة لون الأرض ، وأن المسيح إنما سمي المسيح لأنه مسح بدهن البركة . وقال بعضهم ، لأنه
كان لا يقم في البلد الواحد . وكان كأنه ما سح يمسح الأرض) (١)

ويقول : (كان عبد الأعلى إذا قيل له : لم سمي الكلب قلطيا ؟ قال : لأنه قل ولطي ا وإذا
قيل له : لم سمي الكلب سلوقيا ؟ قال : لأنه يستل ويلقى ا وإذا قيل له : لم سمي
المصفوعصفورا ؟ قال : لأنه عصي وفر) (٢)

وهذه التؤوللات كلها على سبيل العرج واللمب والدعابة والمزاح (٣) ، والسخرية الآتية من
الاشتقاق ، والصبت بالكلمة ، وحقل السامع بتوجيهه غير رحمة .

وما يبحث السخران يشتق المتكلم صفة فيج من اسم الشخص وتكون تلك الصفة حقيقية
فيه ، فيصير العلم لأنه الصفة تيمنا وهزئا ، وقد روى الجاحظ من ذلك هذه السخرية
(أكل أعراي مع أبي الأسود الدؤلي ، فرأى له لقما منكرا ، وهاله ما يضع . قال له : ما أسك
قال : لقمان . قال : صدق أهلك ، أنت لقمان) (٤) فاشتق من طريقته في الأكل صفة تشترك
مع اسمه في اللفظ ، وكانه إنما سمي لقمان من أجل لقمه ، أو كان أهله عرفوا صفته في قابل
أيامهم فسوه بها .

(١) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٧٥١٤ (تحقيق الحاجر

(٢) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق العوامري والجارم ج ٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، وتحقق الحاجر ١٠٦

(٣) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم نهاية صفحة ١٣ من الجزء الثاني .

(٤) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجر صفحة ١٥٣

هو التعمير

وهو لخصوص وراثة الكلمات الخشنة النخمة ، القلقة في الأكن ، فالندرة الاستعمال ، وجمعها

مع بعضها في عدة جمل ، قصدًا إلى إظهار البراعة اللغوية ، وبدلاً بكرة المحفوظ منها

تعالياً وفخراً ، وفي الوقت نفسه هزاً بالسامع وسخراً بحيث لم يصل إلى هذا المستوى اللغوي

الرفيع ، في نظره - وهذا وإن كان يسبب سخر المتكلم بالسامع فهو أيضاً سر سخر السامع

من المتكلم ، ولهذا أهمية عظمى في مضاعفة السخرية وطرافتها ، لأن كلا منهما يهيئ الثاني

خارجاً عن الحرف والإلف والفكرا لصاب ، وتبلغ السخرية مداها إن ورد السامع على المتكلم

بطريقته تلك ، وتعتمد السخرية على يأتي بالفاظ أشد خشونة من ألقاظه ، وأكثر تنافراً في

حرفها ، وقد يتقريبها لأمعنى لها ، إمعاناً في السخرية والاستمزاز ، ورفعة في مل قلبه

يا لحييرة في تفسيرها ، والحصول على اعترافه بجهله معانيها ، فيضيف إلى سخره منه ،

وسخر السامعين به ، سخره من نفسه ، ويصير أضحوكة الجميع .

وفي كتاب البيان والتبيين للجاحظ أمثلة لذلك ، منها :

١- (قال أبو علقمة النحوي : يا آسي ، أتى رجعت إلى المنزل وأنا سفق لقس ، فأتيت بشنشفة

من لوية ولديك وقطع أقرن ، وقد عذرت هناك من سمن هورفاق شر شضان ، وسقيط عطعط .

ثم تناولت عليها كأساً . قال له الطبيب : خذ خرفقا ، وسفقا ، وحرفقا . قال : ويلك ؟

أي شي ؟ هذا ؟ قال : وآي شي ؟ ما قلت ؟ (١)

٢- (وقال زيد بن كثة : أتيت بني كثر هؤلاء ، فإذا عرس ، وعلق الباب فادرنفق ،

وادمج فيه سرعان من الناس ، وألصت ولج الدار ، فد لظني الحداد دلةمة هوربي على

قمة رأسى ، وأبصرت شيخان الحى هناك ينتظرون المزية ، فحجبت إليهم ، فوالله إن زلنا

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثاني صفحة ٢٧٠

نظار نظاره حتى عقل الظل ، فذكرت أخلاقي من بني تير فقصد تيرم وأنا أقول ،

تركن بني كشم وما في ديارهم عوامد واعصوبن نحوي تيرم

إلى محشر ثم الأنوف قراهم إذا نزل الأضياف من قمع الجزر

وانصرفت ، وأتيت باب بني تير ، وإذا الرجال صفتان ، وإذا أربداً كبيرة ، وطهاة لاتحصى

ولحمان في جثمان الأكلم (٢)

٢- (مرأبو ملتفة النحوي ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مرة ، فوثب عليه ثم منهم فأقبلوا

يعضون إبهامه ، ويؤذنون في أذنه ، فأقلت منهم ، فقال : ما لم تكأ كما تم على كائنات تكون

على ذي جنة ، افرنقوا عني . قال : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية (٣)

٤- (هلج بأبي علقمة الدم فأتوه بحجام ، فقال للحجام ، اشدد قصب الملازم عوارف

ظلمات المشارطه وأسرع الوضع ، وجعل النزح ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تكوهن

أبيا ، ولا ترون أتبيا . فوضع الحجام محاجمه في جونه ثم مضى (٣)

٦- أسلوب الحكيم ،

والمراد به هنا أن يسأل شخص عن شيء ، فتكون إجابته على غير ما يقتضيه السؤال وينتظر

السائل معرفته ، إذ يلوى المخاطب الجواب وينحويه ناحية أخرى غير ما يقتضيه ظاهر السؤال

وفرض السائل ، ومحمور السخرية بعد الجواب عن هدف السائل من سؤاله ، مما يترتب عليه

إهدار السؤال ، وعدم الاهتمام برغبات السائل ، وتركه مهتاج النفس ، حائراً لفكره ، والمخاطب

يتمتع بذلك فيحول إجابته عن القصد السوي استنزافاً بالسائل ، كما لتفه سؤاله ، ولما لإحراج

(٢) المصدر السابق ، الجزء الرابع ، صفحة ١٠٦٩

(٣) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٢٧٩ ، ٢٨٠

السامع ، وإما التوقع عقوبة أو سقوط من كمين ، إن كانت الإجابة صريحة مباشرة فإذا لم يتلق
السائل الجواب المناسب ، اعتقد فساد سؤاله ، أو ضعف تركيبه أو عدم استواء الفاظ ،
فيكرره بطريقة أخرى ، فيكون الجواب على النمط الساخر الأول ، وفي ذلك ما فيه من المصمت
والاستهزاء . • ومن ذلك :

١- ملحدت بين خالد بن الوليد وبين عبد المسيح بن عمرو بن قيس التماري ، فقد (قال له
خالد : من أين أتيت أثرك ؟ قال : من صلب أبي . قال : فمن أين خرجت ؟ قال : من
بطن أمي . قال : فعلام أتيت ؟ قال : على الأرض . قال : فقيم أنت ؟ قال : في نيايسي
قال : ما سنك ؟ قال : عظم . قال : أتحمق ولا عقلت ؟ قال : أي والله وأقيد قال : ابن كم
أنت . قال : ابن رجل واحد . قال : كم أتى عليك من الدهر ؟ قال : لو أتى على شيء لقتلني
قال : ما تزيد في مسألتك إلا عسى ؟ قال : ما أجيبك إلا من مسألتك (١)

٢- (وقال الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعه ، قال :
أشروه ظاهرا ؟ قال : بل أقربوه وأنا أنظر إليه . قال : أقتحظه ؟ قال : ألهشيت قراره
فأحفظه (٢)

٣- (أراد رجل أن يكذب بلالا ، فقال له يوما : يا بلال ، ما سن فرسك ؟ قال : عظم .
قال : فكيف جربه ؟ قال : يحضرم استطاع . قال : فأين تتزل ؟ قال : موضعا أضع فيه
رجلي . فقال له الرجل : لا أتمنتك أبدا (٣)
ونرى هنا كيف سخر بلال من الرجل وأجابه إجابات طير مباشرة ، ونوت عليه قصده (وهو
تكذيبه) ، وأضحك وأخجله ، وجمله هزاة ، وناله بسخرته القارعة ، التي جعلته يقلع صا هو
فيه قائلا ، لا أتمنتك أبدا ، فقد أراد أن يدرجه فأخرج هو ، ونصب له الشباك فوق هوفهيا .

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ١٤٧ ، ١٤٨

(٢) المصدر المذكور صفحة ١٤٨

(٣) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ١٦٨

٤- (قلت لأعرابي : أتدعز إسرأ لعل ؟ قال : إني إذن لرجل سؤ . . . قلت أفترج فلسطين ؟ قال : إني إذن لقوي) (٤)

٥- (قيل لأعرابي : أتدعز الرمح ؟ قال نعم . قيل له : فقلها ميموزة . . فقالها ميموزة . قيل له : أتدعز الترس ؟ قال : نعم . فلم يدع سيفاً ولا تورساً إلا همزه . فقال له أخوه وهو يهزأ به : دعوا أخي فإنه يدعز السلاح أجمع) (٥)

والسخر هنا من إجابة الأَخ غير التعرُّفة التي تجعل الهمزة وتغير المطلوب من السؤال ، وتحموه ناحية التمسك والطنز .

٦- (قدم آخر على صاحب له من فارس فقال : قد كنت عند الأمير ، فأى شيء ولاك ؟ قال : ولاني قناه) (٦)

(٤) المصدر المذكور لجزء الثاني صفحة ٢٢٠ بالأدوية صفحة ١٢١
(٥) المصدر المذكور صفحة ٢٢١ و ٢٢٢
(٦) المصدر السابق : الجزء الرابع : صفحة ٦

وهي إحدى الجوانب - بل أهم الجوانب - التي شاعت في أدب الجاحظ المأخوذ
 وانتشرت في مؤلفاته ، فاحتلت مساحة واسعة من إنتاجه ، تتناسب معه كرجل فكر ، وفنسان
 مخز ، وأمد بهما علم غزير ، ومعروفة بسوطة ، عميقة وثبت جذورها خبرة بالناس وأحوالهم ، وما
 يدور في داخلهم ، وأعطى لها نكهتها ولذعها ، الماحية ونطقها ، وسرعة خاطر ، وحسن
 جواب .

وإذا كان الجاحظ قد اعترف من كل علم ونهل من كل فن ، وأتقن الصناعات البيانية
 والذهنية ، فامتلك زمام الكلام ، وأعد الفكرة ، فلا عجب أن تأتي مخبراته قارعة فارعة ، وأن تكون
 مخيرة الذهن الحاد ، والفكر المحكم ، أهم ما يمتنى به ، لأن الملمأ ، أصفاؤه ، والأدباء ، جلساؤه
 والمتكلمين والمفسرين خلطأؤه ، ومخبراته إنما تكون مع هؤلاء الذين يلتقي بهم ، ويحيا بينهم
 ويناقش معهم ، ويكون موضعها ما أشد من أحوالهم وأفعالهم ، وخلفتهم وخلقهم ، لأنه ما يقح
 تمت حسه ويكون في مجال سمحه وبصره ، ولأن العلم والأدب أكثر ما يجتنبانته ، وأشد ما
 يخاف عليه ويهرب لحمايته ، والذود عنه ، فتأتي مخبراته رقيقة ناعمة ، تتناسب علمهم ، وتتصاف
 مع أدبهم ، عميقة مسترة ، تلائم شغافيتهم وذكاؤهم ، لا تكاد تدرك إلا بعد تأمل وتفكير ،
 وبعد انقضاء فترة على إلقاءها ، يحلل فيها العقل وجهتها ، ويبين تعارضها ، سواء نسى
 ذلك ما ابتدعه ، أو ما ولدته ، أو ما اختاره ليحكوه من غيره ، لأنه أكثر ما يعجب به هذا
 اللون الدقيق .

ولم إذا كان للملمأ في بعض الحالات شهود ، وفي بعض الأوكا جهل وطيش ، ونفسا
 بعض التصرفات حمق ووعونة ، لا يقع فيها النبي المانج .
 وإذا كان للمتكلمين والمفسرين والمحدثين هفوات وتفاهات ، لا يسقط فيها المامى
 والأمين .

هذا النص

وإذا كان للأدباء في مواقفهم - أخطأ - نحوية ولفظية وروائية، وشهادة ممان،
 وخيانة ألفاظ، وقبح نظم، لا يتحدروا إليها العربي السوي.
 وإذا كان للجاهل مدعى العلم، وللليكن مدعى الشعر، وللقدم الفاخر بالشجاعة
 والذكاء، قصص ونوادير، يتضح فيها أمرهم وتظهر للناس حقيقتهم، ويبيد بين غباؤهم وحبرهم.
 فإن ذلك لما يوجب نيران السخرية، ويسمر أتون الهزء في نفس الجاحظ، والفيستور
 على الملم والأدب، ويدفع به دفعات قوية إلى رفع سوط السخر، يؤدب هؤلاء هؤلاء، ويوضح
 لهم المحجة، ويضع على جانبي طريقتهم الصوي لمليهم يوشدون، تبهفوة العالم في علمه،
 وهفوة الأديب في أدبه، وهفوة المتكلم والمفسر والحدث فيما يتناوله ما تخصص فيه، ووقف
 عمره عليه، وهفوة الجاهل والغبى، والأحمق والمبغى، والمتفادح المتحالم، جريمة وجناية،
 وسوء ومهانة في حق العلم والأدب والفن، وفي حق الإنعانية لأنه أحد أفرادها، ولمس
 يكون جزاؤها أقل من السخر المؤذي، والهزء المرهق، وما أحد لمان الجاحظ، وما أقطع
 وأذع الألفاظ السنونة الحماة، وما أهول سخره حين يضح السخرية على سقوده.
 لقد كان للجاحظ في ذلك أفانين، وحيل وألصوب، أضاع بها ما بقى من عقل المقلد،
 وصح ما تناثر من كرامة الوقورين، وأضحك الناس عليهم أهد الدهر، وجعلهم المثل والنموذج
 في هذه الباية.

ومن الجوانب الفنية التي تناولها للبعث بأذهان الظاريجين الطارقين، فنوع فيما
 وألصوب بسخره كرامة أصحابها، وتلاعب بعقولهم وأفكارهم:

- ١- ادعاء الحذق
- ٢- الخفلة والتخاقل
- ٣- الخطأ في البديهي
- ٤- الحل الذي لا يصلح
- ٥- الاحتجاج للبديهي
- ٦- الاحتجاج لمذهب ظاهري



ادب الحذق :

قد يكون المرء عالما في ناحية من المعارف الإنسانية ، مجتهدا المطلقة ، متقنا ، قادرا طويلا
 أن يطبق العلم على العمل ، وأن يبتكرا ما لم يكن له وجود ، وأن يجعل من الأشياء التافهة
 أشياء جليلة ، يرفيعة القدر ، فيخدم نفسه ، ويخدم الإنسانية وقد تمتع به عبيات لا يستطيع
 تدليلها وقد يقع في أخطاء ، ربما لم يدرك ضررها ، وهو مع ذلك يوالي بحوجه ، ويستترشد بأراء
 غيره ، ويعرف لنفسه قدرها ، ولإنسانيته نقصها ، فيحسبها بذلك على احترامه ، ويجبرنا على
 تجميله وإجلاله .

وقد يكون المرء نجي التفكير ، سقيم الرأي ، محروفا بذلك بين الناس ، مشهورا عندهم
 بحماقته ونجائته واقترابه من الهلكة والحقة فتدعونا جميعه الضعيفة إلى الرثاء له ، والشفقة به
 والحذب عليه ، أكثر ما تدعونا إلى السخر منه والتهكم به .

وقد يكون المرء خامل الذكر ، غامد الهمة ، خائر المزاج ، نكسا في التفكير ، يقف في
 الصف الأخير من بنى مهنته ، لكنه يدهى الإتقان والإجادة ، والحذق والنهوض ، والبصير بالصور
 لا يستطيع غيره مهنا بلغ أن يتوصل إلى دقائقها ، ويطلع على خباياها وأعماله وأقواله تدفع من
 عقل خرب ، وتفكير سقيم ، وجبيل وقفل . . . إن رؤيتنا ظاهرا حاله ، وسألتها ادب ، ودقلمه
 مع معرفتنا بحقيقته ، واطلاعا على باطنه ، ووجه لنا بالتناقض الواضح بين الظاهر والباطن
 والحقيقة والخيال ، تدعونا إلى التهكم به ، والسخرية منه ، ولذمه بقوارص الكلم ، وفضه ولزوه
 لأن ندوسنا تفعل لهذا المسلك الترويب ، والمزاج المجيب ، والتناقض بين الواقع والادب .
 انفعال بوج وسرور ، فقرداد السخرية ، وتمتع الابتسامه وتبلغ قمة الضحك ، حين نسايره نسي
 ادبائه ، ونشاركه في كلامه ، ونظهير له الإصفا ، والتلطف على جمع غير حديثه ، ودرر كلامه
 ونظهير له الإصفا ، والتلطف على جمع غير حديثه ، ونوهه أنه الفطن اللبق ،
 والبلوغ المنطيق ، الذي وصل إلى طلم يصل إليه غيره من بنى البشر .

فضل الشيخ على الشاب . شهما بادعائه الخدق ، موصفا بتفاهة معلوماته ، وركوه المحب
فقط لا يستحق شيئا ، وإنما عبره في تعلم مثل هذه الأمور .

لقد رتب الجاحظ السخرية هنا ترتيبا فيها دق ، لتؤدى غرضها ، وتقتل بناؤها :

أ - بدأ بالقسم بالله الواحد ليدل على أهمية القسم عليه .

ب - أكد هذا القسم بأن واللام وأسمية الجملة .

ج - كرر هذا القسم المؤكد ثلاث مرات إيمانا في التأكيد ليصدق السامعون الخبر .

د - أكد في آخر قسمه بجملة يميننا ياتيه يسألني الله عنها يوم القيامة .

هـ - ثم تبدأ سألته تهكمات الجاحظ : أشهد أنك لا تأكله ولا تذوقه : ورغم أن الجملة ضمنية

إلا أنها تجعل السامع يستحضر في ذهنه صورة المبرور وهو يأكله ويذوقه .

و - وفي قوله علمنا ما علمك الله بسخرية عظيمة حيث جعل نفسه طالبا للعلم وأجبا الحصول عليه

وقد جعل معرفة هذا من الأسرار الإلهية التي يهبها الله لعباده المخلصين بالإلهام

والفيض والكشف .

ز - وأخيرا يختم هزيمه بقوله منة : بهيئنا وشبهه . يحرف فضل الشيخ على الشاب ، وكان المبرور

ما ظهر إلا ليحصل هذا العلم ويقضى عني في معرفته .

٢ - (ادعى الكنى البصر بالبراذين ، ونظر إلى برذون واقف ، قد ألقى صاحبه في فيه اللجام

فراى فأس اللجام ، وأين بلغ منه ، فقال لى : المصعب . كئيبا يذره القى ، وأنا لو أدخلت

أصمى الصفرى في حلقى لما بقى في جوفى شئ ، إلا خرج ؟ قلت : الآن علمت أنك تصوم .

ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه ، فأقبل على وقال لى : كئيبا يبرد أسنانه ؟ قلت :

إنما يكون علم هذا عند البصراء ، مثلك . ثم رأى البرذون كلما لك اللجام والحديد ، سأل لجامه

على الأرض ، فأقبل على ، وقال : لولا أن البرذون أفسد الخلق مثلا لكان ذهنه قد صفا . قلت

(٢)

له : قد كنت أشك في بصرى بالدواب ، فأما بعد هذا فلمت أشك فيه)

(٢) المصدر المذكور صفحة ٣٢٦ ، أخبار الحقى والمنفلون : ابن الجوزى : صفحة ١٤٨

هذا هو المكي الذي يدعى معرفة كل شيء ، وهو صان الناس يعرفون جلوس قدره ،
 وعظيم قيمته ، فيخبطونه ، نعمة الذكاء ، يدعى المعرفة بالبراهين ، ثم يفضح نفسه
 بأسئلة تفصح عن سرط جهله ، وتنبس من ادعائه وكذبه ، والجاحظ ، الخبير به ، يتخذ من
 ادعائه المعرفة طريقا للسخرية منه ، فيلذقه اللذعة تلوا للذعة ، وهو - لجهله - لا يلح سخريته
 ولا يفهم هزاء ، ويظنه يمدحه حين يقول له : (الان طمت أنك تبصر) وحين يقول : (انما يكون
 علم هذا عند البصراء مثلك) وعندما قال : (كت أنك في بصرك بالذواب ، فأما بعد هذا
 فطمت أنك فيه) وانما تعد الجاحظ هذا الإطراء ^(٤) ليؤيد المكي من أسئلته ولو فصح من
 بخطيا فكره ، وليدفعه إلى التفتيح والتفكير ، وساطولة الاكشاف والاستنباط والاستدلال ، ووضع
 القواعد الكلية ، ولينفضها بداخل نفسه من تفاهات يظنها العلم الغامض على الأذهان ، فتعريف
 السخرية ، وتنتلج نفس الجاحظ وتفوس قرائنه بالمسرح والجمهور .

يقول الجاحظ في سخر موير : (كان المكي طويلا ، وطيب الحجج ، وظرفا الحيل ،
 عجيب العلل ، وكان يدعى كل شيء على غاية الإحكام ، ولم يحكم شيئا)^(٤)
 ٣ - (قعد قدام زياد رجل ضائع - من قربة باليمن يقال لها ضباع - وزباد هي دارة
 يقال له : أيها الأمير ، ولو كت غلت باب مشرقها قبل مغربها ، وباب مغربها من قبل مشرقها)
 فقال : أئى لك هذه الفصاحة ؟ قال : إنى لو ست من كتاب ولا حساب ، ولكنى مسمن
 " ذكوة " العقل . فقال : وملك الثاني سر)^(٥)

فهذا الضائع يدعى العلم والفهم - وتيه بأرائه وأفكاره ، وهى ليست وليدة تعلم ،
 ولا نتاج مهارة ، وإنما هى دليل الذكاء الفطرى ، وأمارة العقل النهر الطيب وهو هنا ينقصد
 هندسة الدار ، وينقض أوضاع أبوابها ، فباب المشرق يجب أن يكون قبل المغرب ، ويحل مكانه

(٤) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث ط سنة ١٩٢٨ بتحقيق عبد السلام هارون ص ٣٢٥ ٣٢٦

(٥) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثالث صفحة ٢٤٠

في المشرق باب المغرب . وبلغ زياد خلطه وخبطه ، فمخرضه على طريقة قلب الصمغ
وعكسه ، قائله : أنى لك هذه الدصاحة ؟ ووطن الخائض لدرط شفته بنفسه ، أنه ينظره
حقيقة ، فيزداد غروره ، ويهاهن بنفسه وذلكه ، وأن هذا العلم الحقن والرأى الياهر ،
لم يتعلمه من كتاب ولا حساب ، ولكنها الذكارة ، فخطى ، خطأ لغويا شموما يجمع فيه مع
غناه هجنة الفاظه ، وذلك أفرطه من رأيه الفطور الذي يهاهن به .

٤٤ وقد يعيب الجاحظ بالتكذلقون ويزداد افتقاره في المخرضهم ، فيدبر لهم الحصل
وينصب الفخاخ ، ويضع لهم بداخلها حلوا الحديث ، وهجيب الخبر ، لينجذبوا إليها ، وينخدعوا
فيها بما فيها ، فيسقطون لغفلتهم ، وتطبق عليهم طائفاها ، فتري القوم فوسيا صوي كأنهم
أعجاز نخل خاوية . وقد وقع المكي في تلك الحالة التي يروى لنا الجاحظ أن رتبها قائملا :

(قلت مرة للمكي : علمت أن الهاري حدث أن المخلوع بحث إلى المأمون بجراب فيه سم ، وأنه
يشبهه أن عنده من الجند بحدود ذلك الحب ، وأن المأمون بحث إليه بمديك أعور ، يريد أن

طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كليم كما يلقط الديدان الحب . قال : فإن هذا الحديث أتاولته
ولكن انظر كيف صار في الآفاق) (٦)

لذا بدأ الجاحظ حديث المكي بكلام اخترعه ولفقه ، يهين الميث بالمكي ، والمخرضة
منه وما شهرته من ادعائه الحديق ، والفخر بعلمه ومحرفته ، فكانت إجابة المكي كما توقعها
الجاحظ ، فخرا بالعرفان ، وادعاء السبق ، وإبراز نفسه في مكان الراوية الثقة ، والذي تسمى
أجاديته ، وتتناقل رواياته ، وتدور في الآفاق ، ثم ترجع إليه ثانية ، ولم يكف المكي بأن يندى
أنه أول من روى القصة ، بل ادعى أنه ولدها واخترها ، دون أن يكون شيئا منها قد وقع .

هـ (خطب إلى الإمامة فقال : إن الله لا يقر ما دعه على الماصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة
في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم . نفسي : بقوم ناقة الله) (٧)

(٦) الحيوان : الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثالث صفحة ٢٢٧
(٧) البيان والتبيين : الجاحظ : ج ٢ ص ٢٢٦ ، المقصد الفريد : ابن عبد ربه : ج ١ ص ٢١٥ ،
وأخبار الحقق والمفلقين : ابن الجوزي ص ٩٦ .

فقد ادعى معرفته الناقة ، وكأنه طينها ما توقف على خصائصها ، وسواها ، وهو ضيق ، وكأنه
 غير في تقويم النوق ، حاذق في تحديد أثمانها ، فكانت ناقة صالح هذه ، نضبا أقل ممن
 ما تقي . درهم . ولقد سخر منه الحضور واعتبروا بالحد لقة بين الناس ، ولصقت به حد لفته في
 هذه النادرة ، نضبا باسمها ، ونسب إليها : مقوم ناقة الله .

٦- ومن ادط الحذق لون يعالج فيه صاحبه ، ويدقق أشد التدقيق ، ويغوص وعمق ويحشم
 نفسه المناه ، ويلزم عقله الكلف ، ليؤدي المعنى على حقيقته ، دون زيادة أو نقصان ،
 والمعنى لا يحتمل كل هذا التحنت ولا يستحق كواب تلك المخاطر ، ولا يمكن للعقل معرفته
 على التحديد ، والفرق بينه على التحديد ، هو أنه على التقريب سهل مقبول ، لا يضر ولا يفيد .
 فهذا الجهد الضائع ، والتعب المهذور ، والثورة النفسية التي تضطرب وتتفعل ، وتبهر صاحبها
 هذا للوصول إلى الحقيقة بخذافيرها ، هي التي تميزنا لسخر ، وتجذبنا لتبهم ونهزأ ، ونضغط
 على رءيتنا ضغوطات متلاحقة ، لنواصل الضحك والقهقهة ، ومن أمثلة هذا اللون :

أ- (قال قاسم التمار : بينهما كما بين السماء إلى قريب من الأرض) (٨)

ب- (قال قاسم التمار : رأيت إيوان كسرى كأنها نعتت عن الأيدي أول من أمس) (٨)

ج- (قال الفتي : أنطرت النارجة على زئيف وزيتونه ونصف ، أو زيتونه وثلاث ، أو زيتونه ،

وثلاثي زيتونه ، أو ما أشبه ذلك ، هل أقول : أكلت زيتونه وما علم الله من أخرى . فقال موسى

إن من الورع ما يخضه الله - علم الله - وأظن ويرك هذا من هذا الورع) (٩)

٧- ومن ادط الحذق لون يخطئ المتكلم في معاني عباراته ، ونسب الأشياء إلى غير ما

هي له ، ويتضارب كلامه حتى ليكاد يلتحق بكلام السويين ، وما يره السامع في ذلك وجاربه

وهو مستغر في حد لفته ما يباه بمعرفته ، صلف بالسميته رغم الرخز الخفي ، والسخر العسفر

الذي يلذعه به السامع ، ولكنه عن غا غفل ، هل يظنه الإطراء والتشريط ، والمديح والإدجاب

ومنه :

(٨) البين والتميز : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١٢٠

والنظن الثاني في ثمار القلوب في الضاف والنسب : الشمالي صفحة ١٤٢

(٩) العيون : الجاحظ : الجزء الثالث : صفحة ٤٣ ٤٤

(قال الجاحظ : حدثني ثمامة بن اشرس قال : شهدت رجلا يوط من الأيام ، وقد قدم خصما له إلى بعض الولاة ، فقال : أصلحك الله : ناصبي راضى جبهى مشبه مجبور قد رى ، يختم الحجاج بن الزبير الذى هدم الكعبة على علي بن أبي سفيان ، ولمن معاوية بن أبي طالب . فقال له الوالى : سم أتعجب (من علمك بالأنساب ؟ أم من معرفتك بالمقالات ؟) فقال : أصلحك الله ، ما تخرجت من الكتاب حتى تعلمت كل هذا) (١٠)

٢- الغفلة والتفائل :

المغفل يرى ما ليس موجودا ، ويفترض فى نفسه أشياء يناقضها طبعه ، وتتناقض مسيح جبلته وخلقه ، ويرى للنفس علة هي أبعد ما تكون منه ، ويرى ما لا يراه الناس ، ولا يصر ما يصررون لا يراعى المقام ، ولا ما يناسب الحال ، يتكلم حين يجب السكوت وينسكت حين يجب الكلام ، فإذا تكلم جاوز الموضوع واقترح الحلول التى تكون سببا فى زيادة التحقير ، فهو فى واد والناس فى واد آخر ، هو فى ظلم الخيال والأوهام ، وهم فى ظلم الحقيقة والواقع ، فهو إذا فى مجتمعهم وتصرفاته نابية عن تصرفاتهم ، وكلماته تنمى تهم ومخوياتهم ، فيضحكك الناس منه امتهزا ، وهو يظنه إكبارا وإعجابا ، فيتكبر ضحكهم ويمتق ، وتتوالى مخوياتهم وتضخم ، وهذا فهو بذلك بين الناس ، فتصير رؤيته باهضة على السخوية جالبة للضحك والتهم ، وهو لا يعلم حقيقة أمره ، ولا مقدار فجائه وجهله ، بل ربما ظن نفسه ، ظلم الملأ ، وذكى الأذكيا ، هو من المسمى هلاجه ، واطلاعه على فاحش دائه . وفيه يقول بطون المعتز : ر

(١) أخبار العشى والمغفلين لابن الجوزى ص ١٥٠

وإذا النبي رأته مستغنيا

أعيا الطوبى وحيلة المحال (١)

ويقول صالح بن عبد القدوس :

وإن فناء أن تفهم جاهلا

وحصب جهلا أنه منك أنفهم (٢)

أما المتفائل : فعاقب لحيق ، وكس فطن ، يتخذ ثياب النملة ، ويرتدي إهاب السمكة ليصل إلى غايته ، ويحقق أماله ، وهو يستطيع بتفائله أن يحرف أقدار الناس ، ويخايا نفوسهم وقد اتخذ الجاحظ التفاؤل أداة للمعرفة وحث عليه فقال : (إذا أردت أن تعرف مقدار

الرجل العالم ، وفي أي طبقة هو ، وأردت أن تدخله الكور فتفتخ عليه ، له ظهير لك فيه الصحة

من الفساد ، فكن عالما في صورة متعلم ، ثم أسأله سؤال من يطع في بلوغ حاجته منه (٣)

كما اتخذ سلمة للفكاهة ، وأبا للعزاج ، وكما جعله بابا فدحا من أبوابها المسخر الصخر ، يلججه في رفق وأناة ، ويسير منه على حسب رغبة الصخرة وهواه ، وهو أفقه من رأيه ومداه ، لينفض ما أمثله عقله من تفاهات ، وما اكتظ في نفسه من متناقضات ، قال الشاعر :

ليس النبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتفائسين

ومن أمثلة الفعلة والذوق في أدب الجاحظ الداعية إلى السخر ، والعبية له :

بـ (إن رجلا قال لصاحبه : أبوك الذي جهل قدره ، وتعدى طوره ، فشق العصا ، وفارق الجماعة ، ولا جرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم صلب قال له صاحبه : دعني من ذكر هزيمة أبي ومن أسره وقتله وصلبه . أبوك هل حدث نفسه بشئ من هذا قط) (٤)

(١) البيان والتبيين : الجاحظ الجزء ١ ص ٢٤٥ ج ٤ ص ٢١

(٢) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٢٤٦ ج ٤ ص ٢١

(٣) العيون : الجاحظ : الجزء السادس صفحة ٣٦

(٤) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ١٠١ ، وفي البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٠ موعون

فقل الرجل الثاني عن أن هذه صفات دم ، واحتقد أنها صفات يدح بها الرجل ، وما هي
الإنسان بوجودها في أبيه ، فما خربها الرجل الأول ، وبغيره بتفاهة أبيه ، وأنه لا يرتقى إلى
المحالي ، ولا يطمح إلى نيل المجد كما فعل والده .

٢- (حدثني ثامة قال : مررت في غب مطر ، والأرض قديرة والسما مغيمة ، والريح شمالية ،
وإذا شئخ أصغر كأنه جراحة ، وقد جلس على قارعة الطريق ، وحجام زنجي يحجمه ، وقد وضع
على كاهله وأخذ يديه محجمة لأنها قصب ، وقد حس دمه حتى كاد يستفرغه . قال : فوقف عليه
وقلت : يا شيخ ، ألم تحتجم في مثل هذا اليوم ؟ قال : لكان الصغار الذي في) (٥)

الجورطب والأرض قديرة والسما مغيمة ، والريح شمالية وليس ذاك يوم حجامه لأنها تكون
من احتياج الدم ، وهذه اندفاعه في الشرايين ، وذلك أغلب ما يكون في الحر الشديد ، فأكثر
ثامه على الشيخ : احتجامة في مثل هذا اليوم ، وصغرت الشديدة ، والدم الغزير الذي
انصرفت فيه ، وسعة المحجمة التي كأنها قصب ، وهذه العوامل كلها تدعو إلى الإغماء والوفاة
وتحجب السخر والبرج ، لأنها تؤدي إلى موت الرجل ، ولكنها ستكون معونة على السخر ، وستكون
كل جزئية منها مشيرة للسخر ، حين نصح الرجل يضح عن سبب احتجامة قائلاً : لكان الصغار
الذي في ، فتتضح غفلته وجهالته وضحالة تفكيره ، وأرتكابه ما يزيد اصفراره ويهدى أجله ،
وهو يظنه دواء ، وموانع داءه ، ورويتنا إياه يتداوى من دائه بما يمكن لهذا الداء ، وهو يولد له
في جسمه وهو قافل عما هو فيه ، ويرى الأمور معكوسة ، والأوضاع مقلوبة ، ويجعلنا نسخر من قفله
ونزقه ، فهو ليس مريضاً بالاصفرار وإنما مرضه جهله وحققه :

لكل داء دواء ، يستطب به
إلا الحماة أهمت من دوائها .

(٥) جمع الجواهر : المصري : تحقيق البجاوي الطبعة الأولى سنة ١٢٧٢ هـ صفحة ١٨٧ ، ١٨٨
والحيوان ، الملاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٢ تحقيق هارون .

٢- (قال الجاحظ ، مررت بحمص ، فمرعتر يتيمة جبل ، فقال رجل لرجل معه ، هذا الجبل من هذا الحتر؟ فقال له لا ، ولكنه يتم في حجرها) (٦)

ومن الجمل الشديد ، والغيا المتراكم ظن العترة من الجمل ، وذلك بعد وثا إلى السخرة وتزداد السخرة وتغز حين ينكر عليه صديقه قوله فنظنه ماطلا زكا ولكن حين ينظر يدلي برأيه تتبين سقطه ، وأنه ليس أقل جملا من الأول ، فنضحك عليه أضغاث ما ضحكنا من الأول لأنه حاول تبيان ذكائه فكان غيا وسفيا .

والجاحظ يطرب لهذا اللون ، ويستظرفة ، ويقول : (وأنا أستظرف أعرين استظرفانا

شديدا ، أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الثاني احتجاج متازين في الكلام ،

وهما لا يدستان منه شيئا ، فإنيهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل شكلان وإن تشده

وكل غضبان وإن أحرقه لثيب الغضب) (٧)

٤- وهذا آخر يظهر في سمت العالم المنطوق ، فتركب الأتمية ، ويأتي لها بالقدمات ،

والنتائج ، ومقدماتها وهم ، ونتائجها خلط ، واستفهامات جملة وخبط ، فتسخر من هامة

عقله ، ومزيد جدله ، ومنطقة الكاذب ، وعلقه الخادع وكما في السخرة التالية ،

(كان عندنا واحد يتكلم في البلافة ، فسمعتة يقول : لو كنت ليس أنا ، وأنا ابن من أنا

منه ، لكنت أنا أنا وابن من أنا منه . فكيف ؟ وأنا أنا وابن من أنا منه) (٨)

هـ (كان واحد يسخر بنا للناس ، ويدعي أنه يرقى الضرس إذا ضرب على صاحبه ، فكان

إذا أتاه من يشتكى ضرسه قال له إذا رقا ، إياك أن تذكر إذا صرت إلى فراشك القرد ،

(٦) أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزي : نسخة بيروت ، صفحة ١٧٦

(٧) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون : الجزء الثالث مط ٢٠١٦٥ .

(٨) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثاني ، صفحة ٢١٥ تحقيق هارون مط ٢٠٢٢ : ٢٢٢ .

تحقيق السندون ، وفي أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزي مطبعة ١٧٥ ، ١٧٦ .

الاستظرفة
تعبارة
الاستظرفة

يقصد السخرية ، فهو قاض إذا ذهب الناس من عنده فليس يقص . وحقاً السخرية هنا ،
التفاضل ، وادعاءً أنه يحمل لصالح الرجل ، ويريد راحته وسعادته على ما يشاء ، وأنه يمدحه
ويطري صلاحه ، وهو يعلم أنه يضره ويؤذي به ، وينفر منه صيده ، ويحبط عمله . فقد ليس الجاحظ
ثوب راحته ، وإن كان مخطوباً عن خبث وخذاعه ، وتقى بهى حبله ، وإن كان له ريفان ثعلب
ولدغ وساس .

٧- (قال الجاحظ ، قلت للمكي ، ما بال الفرس يكون في هذه الطيور فرسخين ، والفرسخ
يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ؟ ففكر طويلاً ثم قال ، كان كسرى يقطع للناس الفراسخ ،
فإذا صنع صاحب القطيعة زادوه ، وإن لم يصنع نقصوا) (١١)

ابتدأ الجاحظ حديثه للمكي بمسألة فيه التفاؤل ، وادعاء الجهل بمسألة يريد من
المكي أن يوضحها له ، ورغبة في السخرية ضده ، فلم يقطن لذلك المكي ، بل صدق أنه يسأل
له صرف أمراً يجعله وشراً من أن يتخذها الجاحظ حجة في الإجابة على سؤاله ، ثم صدق -
لخفته - القضية ، وأن الفرس يزيد وينقص ، ثم أجاب إجابة خاطئة ، وكان تعليلاً فاسداً
فجعل جهلاً مريباً ، وجعل السخرية منه تؤدي غايتها وتصل إلى مداها ، فيضحك الجاحظ
بل قلبه ، وسارخ إلى أنه كانتا قول الشاعر العربي :

ولما رأيت الجاهل في الناس فأنهيا تجاهلت حتى ظن أني جاهل

جم الخطأ في الحديث .

إذا جاوز الشيء حده ، وخالف طبيعته ، وفقد امتداده ، كان طاراً للتعالق ، ووجالاً للبهت
من كوامنه ، ودواعي مخالفته ، فإن عظم ، أو اتجه مخالفتها نحو العظمة ، انفعلت النفس
بالإكبار والإعجاب ، وإن انحطت من درجته واتجه إلى ناحية النقص ، وهما النفس السسي

(١١) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٢٢

السخرية منه ، والتبكم به ، أو رحمة والإشفاق عليه ، أو النفور والاشمئزاز منه ، على قدر نوع
النقص ، ودرجة المخالفة .

فالطالب الصغير الذى ينظم الشعر يدعونا نهوضه إلى الإعجاب به ، والعرض الذى يجهل
لأنه لا يستطيع السير بثبر نينا الشفقة والرحمة ، والطبيب الذى يضرب المريض يدفعنا إلى
النفور والاشمئزاز من فعله ، والذى يخطئ فى الهدديات ، ويتناقض مع أسرار المملوبات
يكون مجالاً للسخرية والتبكم ، حيث يظهر فى مظهر النفسى الخامد الذهن ، فنضجك
من مقالته ، ونسخر من ثقافته . ومن أمثلة ذلك فى أدب الجاحظ .

١- (قال الجاحظ : نسيت كيتى ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى ، فقلت لهم : هم أكنى ؟
قالوا : بأى عثمان) (١)

وهل هناك أمر يدعى أوضح من كنية الشخص حتى ينساها ثلاثة أيام ! إن ذلك
لا يتأتى منه إلا إذا ذهل أوجن ، أما أن يكون فيه بعض العقل ، فإننا لا نملك غير
السخرية ، والاشمئزاز به ، ورواية نادرته لمن يعرفه ومن لم يعرفه طلباً للضحك ، وجلباً
للسرور والمزح ، وطرباً للأمر الغريب ، والخبر العجيب .

٢- (خطب عتاب بن ورقاء : فحث على الجهاد ، فقال : هذا كما قال الله تبارك وتعالى :
كتبنا لقتل والقتال علينا) (٢)

فالمصعب الذى يعرف القرآن ، ويعرف الشعر ، ويفرق بينهما الأول وهلة ، كيف يخلط
بينهما فيقول الشعر على أنه قرآن كرم ، إن ذلك يدعو إلى السخرية ، بل إن غير المصعب
لو خلط بين الشعر والقرآن لضحكنا وسخرنا ، لأن أمر القرآن أشهر وأجل من
أن يخفى ، ولا يخلط بينه وبين الشعر لا يكون عند من له أدنى إلمام بلغة العرب .

(١) مجمع الأدباء / ياقوت : الجزء ١٦ صفحة ٢٥ ، تاريخ بغداد : الجزء ١٢ صفحة ٢١٤

(٢) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق هارون : الجزء الثانى صفحة ٢٣٥ ، ٢٣٦

وهي الأخبار : ابن قتيبة ج ٢ ص ٤٩ ، العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥

٣- (كما في منزل صاحب لنا) إذ خرج واحد من جماعتنا ليقبل في البيت الآخر ، فلم يلبث ساعة حتى سمعناه يصيح أوه . أوه . قال : فنهضنا بأجمعنا إليه فزومين . قلنا له : مالك !! وإذا هونائم على شقة الأيسر وهو قائم على خصيته بيده ، فقلت له : لم صحت ؟ قال : إذا غزت خصيتي اشتكيتها ، وإذا اشتكيتها صحت . قال : نقلنا له : لا تغمزها بعد حتى لا تشتكي . قال : نعم إن شاء الله (٣)

فإذا يغمز خصيته بيده ، فيصيح ، ثم يدود إلى غمزها ، فيعود إلى صراخه ، دون قاعدة تعود عليه من الغمز أو الصراخ ، وهو لا يعرف أن الغمز سبب الصراخ ، ويخطئ فيظن له سببا آخر ، فلما عرف بأنه يجب أن لا يغمز خصيته حتى لا يصيح ، ابتهجت نفسه ، وسكن جأ شه ، وكانه إنما وقع على مفتاح سر عجيب ، وفهم طلسم أمر فريب ، لكنه لا يزال يشك في فاعليته ، فقال : نعم إن شاء الله .

٤- (أعطى المحلول ابنه درهما ، وقال : زنه ، فطرح وزن درهمين ، وهو بحسبه وزن درهم فلما رفعه وجدته زالا ، فألقى معه حبتين فنقال له أبوه : كم فيه ؟ قال : ليس فيه شيء ، وهو ينقص حبتين) (٤)

فقد أخطأ في الأمور الديدية عدة مرات : ١- طرح وزن درهمين . ٢- ألقى معه حبتين حين وجدته زالا . ٣- قال عن الدرهم ليس فيه شيء . ٤- اعتقد أن الدرهم ينقص حبتين . فإذا كان الدرهم أمامه ، وقد أمسكه بيده ، ووضع في الميزان فكيف يكون لا شيء أوليس له وزن ؟ لهذا سخر منه الجاحظ ودعانا للسخرية منه ، وما عمق السخر وقواه أن هذا الابن لم يكن يتوله إن الدرهم ليس فيه شيء ، بل قال : وهو ينقص حبتين . وتلك جهات فنية دقيقة في السخر قام بحبكتها أستاذنا الجاحظ .

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزي ، ص ١٩٠ ، الحيوان ، الجزء الثالث صفحة ٢١

(٤) البيان والتبيين : الجزء الرابع صفحة ٢٥ ، ٢٦

الحل الذي لا يصلح ،

قد يقترح الرجل لأمر من الأمور حلا يرى فيه صلاحه ، فإذا فيه فساد ، أو يراه منكسرا
تحقيقه ، فإذا بعسير كل المسر ، أو محال الوقوع ، وقد يكون الحل سبلا ميسرا ، والأمر
عاديا بسيطا ، ولكن أحدهم يقترح حلا يعقده ، ويخلق منه مشكلة يصعب الخلاص منها
وتلك الحلول التي لا تصلح ، تسخر منها ، وتنتقم بها ، لها فيها من مجافاة العرف
ومجانبة الصواب ، وظهور المرء بمظهر مقبل العثرات وكاشف الكريات ، ونزيل النكبات ، فإذا
به يوقع فيها ، أو يزيد الأمر سوءا وتعقيدا .

ومن أمثلة هذا اللون الفني الساخر في كتابات الجاحظ اللادعة ،

١- (مرض فتى عندنا ، فقال لعمه : أي شيء تشتتى ؟ قال : رأس كيشين . قال : لا يكون
قال : فإني كيش) (١)

والجانب الفني هنا للسخر طلب المحال ، ثم اظهار التنازل عن كثير من الشروط ، وتفسير
الطلب بما يمكن ، فإذا به لا يقل عسرا واستحالة عن الأول .

٢- (أتى قوم عباديا فقالوا : نحب أن تسلف فلانا ألف درهم وتؤخره سنة . فقال : هاتان
حاجتان ، وسأقضى لكم إحداهما ، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت ، أما الدراهم فلا تسول
علي ، ولكني أخره سنتين) (٢)

وذلك لا يصلح ، لأنه ليس يحل ، ولقد سخر بالقوم حين قال : وسأقضى إحداهما ، وإذا
فعلت ذلك فقد أنصفت ، وسخر ثانيا حين اعتذر عن ما يقصدونه وهو المال . وسخرية ثالثة
هي التأخير سنتين . فأى شيء يؤخر ؟ وإنما كانت تلك سخريات لأنه اقترح حلا غير
صالح للتطبيق العملي ، ولا يمكن إبدازه إلا في الوجود الخارجي ، ولأنه يني أمرا على غير

(١) البيان والتبيين : الجزء الثاني صفحة ٢٤١ ، المقعد الفريد : ابن عبد ربه : ج ٤ ص ٢١٥
(٢) البيان والتبيين : الجزء الرابع ص ٦٦ تحقيق هارون ج ٣ ص ٢١٥ تحقيق حسن السندوي

شئ

٣- (أرسل ابن لعجل بن لجم فرماله في حلبة فجاه سابقا ، فقال لأبيه بما أبت ، بأى شئ أسميه) فقال : اقلأ إحدى عينيه ، وسه الأمور (٢)

لم يجد في الفرس علامة مميزة حتى يسديه بها الأدهم أو الأصيب أو غير ذلك من أسماء تطابق لونه أو بعض سمات فيه مما تخرج فقأ عينه ثم يسديه الأمور - ذلك الاسم السدي أعجبهم لطابق الاسم مساه . وذلك الحل غير صالح في الصرف والمقل ، وهل تكون

مكانة السابق بفق عينه إلا في نظر عجل ١٤

∴

∴

∴

٥- الأحتجاج للبيدي

الأمر البيدي معروف ، مسلم به ، لا جدال فيه ولا نزاع ، ويجب أن يلقى إلى المخاطب دون تأكيد ، ولا احتجاج ولا دليل .

فإذا أطل المتكلم الاحتجاج عليه ، وأتى بالبراهين له ، كان في ذلك السخرية بالسامح ، كان المتكلم اقترض جهله وغبائه ، وقصور عقله عن معرفة البيديات ، والمتكلم أيضا يدعونا بذلك إلى السخرية منه ، لأنه لا يعرف الأمور ، ولا الناس ، ولا يدان أحوال المخاطبين ، ومقامات الكلام .

وقد سخر الجاحظ من هؤلاء ، وروى نواترهم واحتجاجاتهم ، ومنها :

١- (خطب قبيصة - وهو خليفة أبيه على خراسان وأناه كتابه فقال : هذا الكتاب للأمير وهو والله أهل لأن أطيعه وهو أبي وأكبر مني) (٤)

فالطامة واحدة للأمير سواء كان أباً أم غير أب ، أكبر منه أم أصغر . ثم إن الجميع

(٢) المذكور تحقيق السند في الجزء الثاني صفحة ١٦٣

(٤) البيان والتبيين ، ١ لجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٤١

فالكلمة واجبة للأبير سواء كان ~~أباً~~ ~~أخاً~~ ، وأكثر منه أم أخيراً . ثم إن الجمع يعرفون

على الهداية أن قبضة ابن الأثير ، وما دام ابنه فهو أصغر منه فاحتجاج قبضة لذلك

الهدى هو الجانب الفنى الذى من أجله صار الكلام سخرة .

٢- (ذلك لم يكن أباً ، وإنما كان والداً) (٥)

(قال أبو دينا هو وإن كان أخا فقد ينبى أن ينصف) (٥)

إن الهدى أن ينال الأخ ، وأكثر من الإنصاف ، فتتجزله عنعطيه فوق حقه ، وتنصره ونعيته

ولو كان هو الباقي ، وهذا لا يحتج له ، لأنه مسلك فى غريزة الإنسان وجيلته ، ومن الخرابية

أن تحتج له . إلا إذا تجردنا من عواطفنا وأردنا العدل والإنصاف والحق فإن التحيز

حينئذ يحتاج إلى الحجج والبراهين .

وقد احتج أبو دينا لما لا يحتج له ، وذلك منبج السخرة ، وقد اختار لذلك كلمات منها :

(وإن كان أخا) وهى التى أعطت السخرة مغزاها ولدعيا . ومنها (فقد) التى للتقليل ،

ثم كلمة (ينبى) ولم يقل يجب مثلاً ، وكل ذلك جعل للسخرة مذاقها ، وحثنا على التمسك

بمن يحاول أن يعطى الإنسان بعض حقه ، وأن ينصفه من المعتدين عليه ، على الرغم من

أنه أخوه . وكان الأخوة عنده موجبة لظلم الأخ ، والحمد عن إنصافه ، والتعصب ضده .

والأول يفرق بين الأب والوالد ، وكأنهما متضادين وإن كان أحدهما ذم وسوء والثانى مدح

وإطراء ، أو كان الشخصيتين متساويتين متناقضتين .

∴

∴

∴

٦- الاحتجاج المذهب فاسد ،

وكما أن الشئ إذا كان بديهياً فاحتجنا له ، وأدى ذلك الاحتجاج إلى السخرة

والتمسك بالمعنى والمعج له ، فكذلك إذا كان المذهب فاسداً ، والرأى خاطئاً فإن الاستدلال

على صوابه ، والبرهنة على صحته ، مع ظهور سقطها ، واتضاع ولها شوقنا إلى السخره ،
وتحتنا على التيكم والاستنزا ، وللجاحظ سخريا ، من المذاهب الفاسدة التي برهن
عليها أصحابها من المفسرين والحدثين والحلما ، ببراہین جدلية واستدلوا لها
بأدلة سنسبية ، تحمل معها دليل بطلانها ، وأمارة نساها . . . ومنها :

١- (وزم بعض المفسرين : أن السنور خلق من عضة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة
الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفأر ، وشكوا
إلى نوح ذلك سأل ربه الفج ، فأمره أن يأمر الأسد فيمطس ، فلما عطس خرج من منخرة
نوح سنابير ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخرا الأيمن ، والأنثى من المنخرا الأيسر فكفياهم
مئونة الجردان ، ولما تأذوا برج نحوهما شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره
أن يأمر الفيل فيسلج ، فسلج زوج خنازير فكفياهم مئونة رائحة النجوة وهذا الحديث
نافق عند العوام ، وعند بعض القصاص (١)

(لذلك كان السنور أشبه شيء بالأسد . . . وكان الخنزير أشبه بالفيل ، قال كيسان ، فينبغي
أن يكون ذلك السنور آدم السنابير وتلك المنورة حواوما) (٢)

لما رأى بعض المفسرين التشابه بين الأسد والسنور ، وبين الفيل والخنزير فاختروا القصة
واحتجوا لها بوجود التشابه ، ووجدتهم واهية ، ودليلهم إنما ينفق عند العوام وبعض القصاص
وعلى ذلك فهذا السنور آدم السنابير ، وتلك المنورة حواوما - كما روى الجاحظ من كيسان
وهذا سخر منه بفتح تفكيرهم ، وفساد مذهبهم ، كما أن رأيه في روج هذا الكلام عند الجاهل
من العوام وبعض القصاص سخرية لاذعة للمذهب والاحتجاج له .

(١) الحيوان الجاحظ ، الجزء الخامس صفحة ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٢) ج ١ ص ١٤٦ من المرجح المذكور .

٢- (ومعنى أهل التفسير يزعم أن الله عز وجل عاقب الحية - حين أدخلت إبليس نسي
جوفها حتى كلفه آدم على لسانها - بمشرك خصال ، منها شق اللسان ، قالوا ، فلذلك ترى
الحية أبدأ إذا ضربت لتقتل كيف تخرج لسانها تلويه كما يصنع المنرحم من الناس بإصبعه
إذا ترحم أو دعا لترى الظالم عقوبة الله تعالى لها) (٢)

وذلك أنهم رأوا لغاتها المشقوق ، فاخترعوا مذهباً يبين علمهم وفوقهم ، فقالوا ما قالوا
وأثرو بما يشبه الدليل على رأيهم واعتقادهم ولما كان رأياً ناسئداً ، وذهبها لا سند له
كان رسول السخر مرفأئذ البزء .

٣- (ويزعم زياد شت ، وهو مذهب الجوس - أن الفأرة من خلق الله ، وأن السور من
خلق الشيطان ، وهو إبليس ، وهو آهوس ، فإذا قيل له ، كيف تقول ذلك ، والفأرة مفسدة
تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأراضى
الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال وتعرض فقار العلم وكتب الله ودقائق الحساب
والصداق والشروط ، وتعرض الثياب وربما طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللحاف غرباً لا
وتعرض الجرب وأكبة الأسقية ، والأزقاق والقرب فتخرج جميع ما فيها . . . والناس ربما اجتلبوا
السنانير ليدفعوا بها بواقي الفأرة ، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله هو خلق النافع من
الضرر من الشيطان ، والسور يهدى بعلى كل شيء خلقه الشيطان من الحياة والمقابر
والجملان ونبات وردان ، والفأرة لانفع لها ، ووجتها عظيمة . قال ، لأن السور لو يال في
البحر لقتل عشرة آلاف سمكة ، فبذل سمحت بدجة قط ، أو بحيلة أو بأضحوكه ، أو بكلام
ظهر على تلقيح حرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال ، فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم
واختيارهم) (٣)

(٢) ج ١ ص ١٤٦ من المرجح المذكور

(٣) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء السادس صفحة ٧٤ ، ٧٥ الجزء الرابع صفحة ١٦٤

وتلقى سخيرة الجاحظ من هذه القصة وحبره في تسميتها حجة أو حيلة أو أضحوكة ،
أو كلاما تكلف صاحبه المؤن الثقال للاقتلال له والاحتجاج لإثباته مع نسائه وخطئه ،
ثم قوله ، فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم ، وفيه سخيرة بتفاهة هذه
العقول وصفارها وشكر لله على ما خلقهم عليه من ضلالة حتى لا يطيقون مناهضة الدين
الإسلامي .

الباب الخامس

دلالة سخرية الجاحظ على عصره

.....

لم يتعمك الجاحظ بالاختصاص بقدر معينه ، أو يقصر نفسه على علم بذاته ، أو يضع عقليته في دائرة محصورة ، كما فعل علماء زمانه ، وأدباء عصره ، وإنما كتب في كل فن هو خاض بحمار كل علم ، وأبت عليه نفسه الطلعة ، ونقله الموانى ، إلا أن يكون أمة أو أن يكون مصراة وأن يحوى في داخله جيلا من الزمان ، ومن المجهوب أنه رغم هذه السيادة الواسعة في العلم والامتداد غير المحدود في الأدب والفن ، كتب أجود من المتخصصين ، وأرقى من ضيقوا على أنفسهم المجال ، وانتحوا زاوية من المعارف لا يجاوزونها ، خوفا من العثار وطلبها للإجادة ، ورغبة في التدقيق والتحصيل .

وما أدى أسلك الجاحظ في سبط علماء الحيوان فيكون واسطتهم بكتابه "الحيوان" أم في سبط علماء الدين فيكون إمامهم في كتابي "حجج النبوة" "والرد على النصارى" أم أجمله في مصابف الأدباء فيكون رأسم في كتابه "البيان والتبيين" أم أنسبه إلى المتفنيين المتفكرين الساخرين فيبذلهم بكتابه "البخلاء" ورسالة "التبريع والتدوير" أم أصنعه مع علماء الكلام فيكون الدررة والخرقة ، وشيخ الاسترغال ، وإمام الطائفة الجاحظية أم أجمله ناقدًا من الناقدين فينقدهم ويخطهم ، كما في سائر مؤلفاته ، ويجوز لي أن أضمه إلى كتاب الديون فقد مارسها مهنة ثلاثة أيام ملأ فيها الروح روح زعيمهم سهل بن هارون فرقا من أقول نجم الكتاب ؟ ويصح لي أن أجمله من الكتاب فيرد البيهقيين على نحو ما رأى عليه في صحاف بن سليمان فأصيب كبدا لحقيقة ، ولا أبعد عما أجمعت عليه الخليفة .
والحق الذي لا هراء فيه ، والرأى الذي يخرجني من هذه الضائفة ، أن أضفه بكل ذلك وأن لا أجعله أسير علم معين ، وأقن محدد ، إذ خرج بكتابه من الحدود والقيود ، وحقق الحرية بكل معانيها ، فكتب في جميع محارف زمانه ، وما قبل زمانه ، وفي سائر فنون عصره وما قبل عصره ، وقارن ووازن وبحث وفضح ، واستدل واستبسط ، وحرب وحقق ، وما ريس بنفسه الأعمال اليدوية ، ولكن الذي يجمع ذلك كله على اتساعه ، ويشترك فيه رغم امتداده وانفساح

بأنه هو " فن السخر" ، فما من كتاب من كتبه ، أو رسالة من رسائله ، في جد أو هزل ،
إلا وللسخر منها نصيب ، حتى آراءه مفسرى القرآن ، وشارحي أحاديث الرسول ، وفتاوى
فقهاء الشريعة ، لم تخل من ساخر هجمات ، بل لعلها كانت أعنف الهجمات ، ذيادة
عن الإسلام وحفاظا على حرية الفكر الديني فيقاله فيه مجال .
ونستطيع من خلال سخرات الجاحظ ، المبتوتة في كتبه ، والتي تحسوى ما كان نسي
مجتمعه الذي طيشه ، واخلفط بطبقاته ، ورفههم عن كتب ، أن تكون صورة واضحة من عصره
ومصره ، وأن نستلهم رسائله ومنازله الكشف عن نواحي الحياة التي سادت مجتمعه ، اجتماعية
أو سياسية ، علمية أو أدبية أو ثقافية ، وأن تبرز الأخلاق الشائعة في زمنه ، والمعتقدات
السيطرة على أذهان محاصره ، وأن نتبين مقاييس الحسن والقبح في نظرهم ، فلأدب
اللبازل مجال يعجز عنه الأدب الجاد ، وللفن الساخر رجال يملكون بالكلمة والحركة
والإشارة ما لا يملكه الموضح ، والمدقق ، والعالم المحقق .

..

..

..

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية ، والأوضاع السياسية

أ- الحياة الاجتماعية ،

إذا تقرينا سخريات الجاحظ ، وتبعنا مراميها ، واستبطننا مدلولاتها ، أمكننا أن نقف ضاماً على ما يبرز للنواحي الاجتماعية ، التي صبغت عصره بمهفة خاصة ، وتركست بصانها واضحة في أدبه فتدل علينا ، وتشير إليها ، وتبين لنا الطريق ، نستشف ما كان عليه المجتمع في تلك الحقبة من الزمان .

ونحن حين نتأمل ذلك ، ونستوحى السخر كشفه ، تتضح لنا حقيقة الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، ونعرف مظاهرها .

أ- فنعرف أن الثروات قد تضخمت ، وتجمعت في أيدي فئات من الناس بثمت هذا خزائنهم وضانت عنها دورهم ، منهم الطبقة الحاكمة ، من الخلفاء والوزراء ، وعمال الخلافة على الأقاليم ، والطبقة المساندة لهم ، من رؤساء الجند ، وكتاب الديوان والقضاة ، ورجال الضرائب ، والطبقة التي تحطل على تثبيت الملك ورقي الدولة ، ونهضتها الفكرية والأدبية كالعلماء والمترجمين والكتاب والطبقات التي تمت إلى رجال الحكم والرياسة بها شجعة كالنصرانيين والمغنين ومن يدخلون البهجة والسمر في قلوب الخلفاء وحاشيتهم ، من ممدوحين ومضحكين وممقاة ، كما كان للطبقات التي تتحكم في أقوات الشعب من كبار التجار والصيارفة ثراء عريض ، فامتلكوا الأموال الطائلة ، والجياد الفارمة ، والضياع الواسعة .

وسخر الجاحظ الذي أخذ بيدنا إلى تلك الحقائق كبير موفور فمته .

(١) حدثني المصري ، وكان جار الدار دريشي ، وماله لا يحصى . . . (١)

(٢) قال المكي ، كان لأبي عم يقال له سليمان الكندي ، مئتي ألف دينار ، وكان له مائة ألف دينار . . . (٢)

حدثني أحمد بن العثني عن صديق لي وله ، ضم المئتي ، كثيرا لمعلم ، فاشيها لثقة
عظيم الولايات . . . (٣)

فهؤلاء من بلغت أموالهم حدا لا يستطيع حصره ، واتسمت ضياعهم ، وعظمت ولاياتهم
فما يمكن الوقوف على حدودها .

وهناك من كان واغرا الثراء إلا أنا نستطيع حصر أمواله ، وتحدثت ثروته منهم أبو قطيبة
فقد كان أبو قطيبة يستغل ثلاثة آلاف دينار . . . (٤)

(وأما زيدة بن حميد الصيرفي ، فإنه استلف من يقال كان على باب داره درهمين
وقروا ظا ، فلما قضاها بعد ستة أشهر ، قضاها درهمين وثلاث حبات شعير فاعتاظه يقال .
فقال : سبحان الله أنت رب مائة ألف دينار ، وأنا يقال لا أملك مائة فلس . وإنما
أعيرتكدي ، وباستفضال الحبة والحبتين . . . (٥)

(ومن طياب البخلاء أحمد بن خلف اليزيدي ، ترك أبوه في منزله يوم مات ألفي ألف
درهم ، وستمائة ألف درهم ، وأربعين مائة ألف دينار ، فاقتمسما هو وأخوه حاتم فبسل
كفنه ، وأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم ، وسبعمائة ألف دينار ذهبها
عينا مئتا قيل وأزنة جيا دا سوى الحروض . . . (٦)

(١) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجامع الجزء الثاني صفحة ٦٠

(٢) المصدر المذكور ، صفحة ٤٣

(٣) المصدر المذكور ، الجزء الأول صفحة ١٠٤

(٤) المصدر المذكور ، الجزء الثاني صفحة ٢٦

(٥) المصدر المذكور ، الجزء الأول صفحة ٧١

(٦) أعتقد أنه أحمد بن خلف المذكور في رسالة الترمذي والتدوير في قول الجاحظ (لكن نهضت
بصالح بن علي لأنفض بأحمد بن خلف) وعلى ذلك لدور من مشاهير رجال الدولة

وذوي السلطة والتفرد الذين يستعان بهم ويحتسبون
(٧) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجامع الجزء الأول صفحة ٧٨

وكان البعض يمتلك الأراضي الواسعة المساحة ، الكريمة التربة ، الجيدة الخلة ، الواثرة
 الفنتاج ، (قال الخليل السلولي ، أقبل على يربا الثوري ، وكان يملك خمسمائة جرسب^(٨)
 ما بين كرسى الصدقة إلى نهر مرة ، ولا يشترى إلا كل فورة ، وكل أرض مشهورة بكرم التربة
 وشرف الموضع ، والغلة الكبيرة)^(٩)

ومن اقتنى الجياد الوافرة لعدد سلم بن قتيبة^(١٠) ، وكان سلم بن قتيبة يركب بغلة
 وحده ، وصحبه أربعة آلاف رابطة ورأه الفضل بن عيسى على حمار وهو أميره فقال ، بذلة
 لبي وقعود جبار ،^(١١)

وقد حصل الجاحظ نفسه على الأموال الطائلة مما كتبه للخلفاء والوزراء والقضاة
 ووجهاء الدولة ، ويروي ذلك عن نفسه قائلا ، (أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عيسى
 لملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي
 لؤي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والتخل إلى إبراهيم بن العباس
 الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فأصرفت إلى البصرة ومضى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد
 ولا تسيب)^(١٢)



٢- ونعرف أن البخل قد تمكن من نفوس كثير منهم ، وأن الشح ضرب قبا به ودق أوتاره ،
 وأقام معهم ، وملك على بعضهم عقله وحسه ، فلا يفكر إلا في المال ، ولا يتصرف أو يتحرك

(٨) أبو عبد الرحمن الثوري وكان تاجرا من تجار البصرة وسريا من سواها .

(٩) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط الموازي والجام الجزء الثاني صفحة ٥

(١٠) كان أبوه من أمراء الدولة مروانية ، وكبار القاتحين فيها ، وثولي هو البصرة في
 آخر عهد ها . وفي عهد العباسيين ولاه أبو جعفر المنصور عليها .

(١١) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط الموازي والجام الجزء الثاني صفحة ١٦٥

(١٢) مصحح الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس من عشر صفحة ١٠٦

المصدر
المصدر

إلا لجمعه و خزنة ، و حبسه حتى عن عياله و نفسه ، و بدأ و أمة مرضه ، مع وفرة ماله ، و كثرة ناطقه
 و ضامته ، و قد ألف الجاحظ كتابه البخل ، و صرح فيه بأسماء بعض مشهورين في عصره بخاص
 في أصفهم فاستخرج مكونات نفوسهم ، و كشف مدعى السخا ، و أصحاب النفع منهم ، و قد
 استغلطنا بما كتب في ذلك السفر الجليل أن تقف على هذا اللون من الميوس الاجتماعية
 في عصره ، و تعرف مدى تنقله في أبنائه جيله ، وما كان لهم فيه من فنون ، و بلغت حد الجور
 فهذا أحمد بن خلف الذي ورت آلاف الدراهم و آلاف الدنانير سوى العروض يتحدث عنه
 الجاحظ قائلا : (نقلت له و قد ورت هذا المال كله ، ما أبطأك الليلة ، قال : لا والله ،
 إلا أنني تعشيت البارحة في البيت ، نقلت لأصحابنا ، لولا أنه بعيدا لعبد بالأكل في بيته ،
 و أن ذلك غريب منه ، لما احتاج إلى هذا الاستثناء ، و إلى هذه الشريطة) (١٣)

و هذا أحمد بن المشي الذي حدثنا عن صديقه و صديق الجاحظ و كان فاضل الخلة ،
 عظم الولايات يقول عنه : (إنه إذا دعا على ما كده بفضله دجاجة أو بفضله رقائق ، أو غير ذلك
 رد الخادم مع الخباز إلى القهрман ، حتى يصك له بذلك إلى صاحب المطبخ) (١٤)
 و خالد بن يزيد مولى المالكية - هو خالون المكدي ، و كان قد بلغ في البخل و التكدية
 و في كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد) (١٥)

و لتورى تاجر البصرة لوافر الثراء ، و الذي كان يملك خمسمائة جريب من أجود راضي
 البصرة ، و أكثرها غلة يحدثنا عنه الخليل السلولى قائلا : (أقبل على يومنا فقال لسي
 هل اصطبحت براء الزيتون قط ؟ قال : قلت ، لا والله ، قال : أما والله لو فعلت ما نسيت
 قال : قلت : أجل ، إني والله لو فعلت ما نسيت) (١٦)

(١٢) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط العوامى و الجاهم الجزء الأول صفحة ٢٨

(١٤) المصدر المذكور صفحة ١٠٤

(١٥) المصدر السابق صفحة ٨٥ و تحقيق العاجرى ص ٤٦

(١٦) كتاب البخل ، الجاحظ ، العوامى و الجاهم الجزء الثاني صفحة ٥٥

وقد (كان أحمد بن الخاركي بخيلا ، وكان نفاعا - وهذا أهم ما يكون منه - وكان يتخذ لكل جبة أريضة أزراء ، يرى الناس أن عليه جبتين ، ويشتري الأعداق والمراجين والسلف من الكلاء ، فإذا جاء الحماة إلى بابها تركه ساعة ، يوهم الناس أن له من الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها) (١٧) ^(١٧) كان أبو سميت المداقني إماما في البخل عندنا بالبصرة وكان من كبار العيينين ومياسيرهم (١٨)

فقد احتكر موا المال ، وعظموه وقد سوه ، حتى صار سمعهم ويصرهم تنق قلوبهم على أنعام بنوعه وتتردد ، أنفاسهم في صدورهم مع تردد الدراهم والدنانير في خزائنهم ، واعتبروه كما قال الجاحظ ، (الدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا) (١٩) وكما (قال حمدان بن صباح ، كيف صار رباح يسمحن ولا أسمعهم أفردوا أكثر ما لاني) (٢٠) واعتبروا الدرهم أسرار الثروات (وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم من ههنا ، ودرهم من ههنا) (٢١) وإن الدرهم يرتفع إلى دية مسلم ، (سأل خالد بن حفوان رجل فأعطاه درهما ، فاستقله السائل ، فقال : يا أحمق ! إن الدرهم عشر العشرة وإن العشرة عشر المائة ، وإن المائة عشر الألف ، وإن الألف عشر العشرة الآلاف أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم) (٢٢) وإن في تعظيم الدرهم تعظيم للإسلام فكان الدرهم عندهم هو الإسلام

تعظيم الدرهم هو الإسلام

(١٧) المصدر المذكور صفحة ٤٩ .

(١٨) البخلاء ، تحقيق الحاجري صفحة ١٣٢

(١٩) المصدر المذكور صفحة ١١٦ الجزء الثاني ، ضبط الموازي والجام

(٢٠) المصدر المذكور صفحة ٤٨ الجزء الثاني ، ضبط الموازي والجام

(٢١) المصدر المذكور ج ١ ص ٦٥ ، تحقيق الحاجري ص ٣١

(٢٢) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط الموازي والجام الجزء الثاني ص ٨٦ ، وفي المنصر في علم اللغة لجلال الدين السيوطي الجزء الثاني ص ١٧ مطبعة محمد علي صبيح

والدين ، (إني لما غلبتني يوما شهوتي ، وأخرجت يوما درهما لقضا وطري ، ووقعت هين
علي سكتة ، وعلى اسم الله المكتوب عليه ، قلت في نفسي : إني إن لم ألتاخرين الصالحين
لئن أنا أخرجت من يدي ومن بيتي شيئا عليه " لا إله إلا الله " وأخذت بدله شيئا
ليس عليه شيء ، والله إن المؤمن ليتزع خاتمه للأمر يريد ، وعليه "حسي الله" أو "توكلت
على الله" فيظن أنه قد خرج من كف الله "جل ذكره" حتى يرد الخاتم في موضعه ! وإنما
هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهما عليه الإسلام كما هو ! إن هذا
لمعظم (٢٣)

∴

∴

∴

٢- وحرف أنه إذا كان هؤلاء قد ضيقوا على أنفسهم وفي أموالهم فضل ، وقد هم نفس
العالم والمتاع ، والضياح متمتع ، فإن غيرهم ممن حاز الثروات ، وملك الأموال ، قد سخا
وجاد ، وأنفق الأموال في الحلال والحرام ، وتمتع بها ، ولها ، حتى وصل إلى الخسوف
والسقم وقد اتسم المصركله بالسرف والترف ، وامتلأ بمظاهر الفخامة والأبهة ، والمتسع
الحسية التي عبوا منها ، وانغمسوا فيها ، فأكثروا من الجوارى والقيان ، واتخذوا الإماء
والغلمان وانتشرت تجارة الرقيق ، وكان لهم الخصيان الذين يقومون بخدمة متمم الخاصة
وخدمة نسلتهم وإمائهم ، حيث فيهم القوة والجلد ، والائتمان على النساء ، وانتشر الخنا
واهتم النخاسون بالجوارى اللاتي يصلحن للرقص والألحان ، فعلموهن ، وأكدهوهن ، وظالوا
في أئمانهن ، واشتد إقبال الخفاة وعلية القوم على اقتنائهن ، وقد أفرغ سراة القوم ووزراؤهم
بالصيد والقنص وتربية البزاة والصقور والكلاب ، واتخذوا الحمامات في الكور ، وأقاموا عليها
وظائف الثلج ، وما كتبه الجاحظ من سخريات مبثوثة في كتبه الحديثة قد أرشدنا إلى هذه
الألوان من حياتهم الاجتماعية . يقول : (باع نخاس من أمراء بني غلاما ، فأراد أن يتبرأ
من صبيته ، قال : أعلم أنه يبطل في القراش . قال : إن وجد فراشا قليلا فيه (٢٤)

(٢٣) البخل : وتحقيق الحاجري صفحة ٥١ ، شرح السوامي والجزء الأول ص ١٦

(٢٤) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٥٩

(وكتبت يوما ما عند التهنئة إذ جاءت جارية أمه) ^(٢٥) وكان العمدي يحب القيان وساع

الغناء، وكان معجبا بجارية يقال لها جوهي ^(٢٦).

وليس أهل علي اتخاذا الإمام والجواري والقيان وانتشار ذلك في العصر العباسي

ما كتبه الجاحظ في رسالة كاملة سماها ^(٢٧) رسالة القيان وما جاء فيها (لم ينزل للملوك

والأشراف إماء يختلفن في الحوائج، ويدخلن في الدواوين، ونساء يجلسن لنا من مثل خالصة

جارية الخيزران، وعتبة جارية ربيعة ابنة أبي العباس، وسكر وتركية جارية أم جعفر

ودفاق جارية المباسمة، وظلم وقسطنطينية جارية أم حبيب ٠٠٠ ومندونة أمة نصر

بن السندی بن شامك ٠٠ ولقد نظر العأمون إلى سكر فقال: أحررة أنت أم مملوكة؟ قالت

لا أرى إلا أنا غضبت على أم جعفر قالت: أنت مملوكة، وإذا رضيته قالت: أنت حرة ^(٢٨)

وقد راجت تجارة الرقيق (فإن الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومة والمنازاة بالثمن

وححتاج البائع والمبتاع إلى أن ينقيا الحلق ويتأمله تأملا بينا يجب فيه خيارا للرؤية ^(٢٩))

وامتلك أفضياء الدولة آلاف منهم فقد (أهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران

مائة وصيفة في يد كل واحدة مئتين جام من ذهب وزنه ألف مثقال مملو مسكا ^(٣٠))

(وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة، فكم يكون لبيت شعري غيرهم

من البيض ومن الإماء ^(٣٠))

٢٥) البخلاء، الجاحظ، شرح العوامي والجامم الجزء الثاني صفحة ٢٢

٢٦) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق هارون الجزء الثالث صفحة ٣٧٠

٢٧) ثلاث رسائل من ع ٥٢ إلى ٧٦

٢٨) ثلاث رسائل ص ٦٤

٢٩) المصدر المذكور ص ٦٥

٣٠) رسائل الجاحظ، جمع حسن السندوي ع ١١٥ من كتاب الجاحظ فضل هاشم علي عهد

عاد عليه بالإثارة والصب ، وكان يقول : خيمتى أرض وهما خيمتى من بئى ، وبئى أبوه ،
ومضى أخف ، وأنا أفضلهم أيضا بفضل الحكمة ، وجودة الآلة (٣٦)

١- ونحرف أن حدة الدين قد فترت ، وأوامره قد تركت ، ومن أهم مظاهر ذلك : تعاطى
التبذير والخمور ونحوها ، وشرائها ، وانتشار ذلك بين طبقات المجتمع تامة ، وعلى رأسهم

الخلافة والوزراء والقضاء ، وانتوا في صنعها وتخميمها وتحقيقها وشربها صاحبا وهما

وقبل الأكل وحده ، وفي أثنائه ، وحتوا على شربها ، فقد قال الجاحظ ، (عدل عادل شبيب

بن زياره على شرب التبذير فقال : لا أتركه حتى يكون شرعيا) ، (وقال العامون : اشربه ما استهشعته ، فإذا سهل عليك فتركه) (٣٧) قال ابن جهانة الثقفية : عجبت من يمنع

التبذير طالبه لأن التبذير إنما يطلب اليوم فصد ، أو يوم حجابة ، أو يوم زيارة زائر ، أو

يوم أكل سنك طرى ، أو يوم شربة دواء ، وهو شئ يحسن طلبه ، وتحسن هيبته ، ويحسن

موقفه (٣٨) . ويحدثنا الجاحظ عن ثعلب بن جعفر فيقول : (وشرب مرة التبذير ، وفناء

المنقى ، فشق قيصه من الطرب ، فقال لعولى له يقال له التحليل وهو إلى جنبه ، شق

أيضا أنت سويلل أنعمك (٣٩) . وقول : (كلان كثيرا ما يقول لنساءه : إياكم والأكل على

الخباز فإن دواء الخمار الشرب) (٤٠) (وسكر زبيدة ليلة فكسا صد يقاله قيصا) (٤١) .

(٣٦) كتاب البخل ، صفحة ٣ ، ٤ ضبط المواصى والجامم الجزء الثانى .

(٣٧) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثانى ص ٨٢ .

(٣٨) البخل ، الجاحظ ، ص المواصى والجامم الجزء الثانى صفحة ٥٨ ، ٥٩ .

(٣٩) المصدر المذكور صفحة ٢٧ .

(٤٠) المصدر المذكور صفحة ٣٤ .

(٤١) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٧٢ .

(يقول المروزي للزائر إذا أتاه وللجليس إذا طال جلوسه ، تغديت الهم ؟ فإن قال : نعم قال : لولا أنك تغديت لغديتك بغدا* طيب ، وإن قال : لا . قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح) (٤٢) .

وكان أحمد بن البخاري (يكثرى قدور الخمارين التي تكون للتبذ ، ثم يتعدي أعظمها ، ويرب من الحملين بالكرا*) (٤٣) وكان محمد بن أبي العول (كثيرا ما يقول لأصحابه إذا بكروا عليه لم لا نشرب أقداحا على الريق فانها تقتل الديدان وتحقق لأنفسنا قليلا فانها تأتي على جميع الفضول ، وتشمس الطعام بعد ساعة) (٤٤) .

بل لقد كتب الجاحظ رسالة في معج التبذ بحث بها إلى الحسن بن وهب ومنها : (إن التبذ إذا تمشى في عظامك ، وألتبى بأجزاءك ، ودب في جنانك فحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وحطك رضى الهال ، مخلص الذرع ، قليل الشواغل قديد الصين ، واسع الصدر ، فسج الدم ، حسن الظن) (٤٥) . ورسالة أخرى في الشارب والمشروب (٤٦) .

وغيره من سخريات الجاحظ ، وأدائهم في ما كلفهم ، وأطعمتهم المحبة إلى نفوسهم وآداب الموائد في مجتمعهم ، ومدى احتفاء العباسيين بالأكوان وتفننهم في صنعها ، والمناسبات التي يطعمون فيها الناس ، ويجمعونهم على مرائدهم ، ويخون فيها بالطعام ،

(٤٢) المصدر السابق صفحة ٤٥

(٤٣) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٤٩

(٤٤) البخلاء : تحقيق المروزي والجاسم ص ١٨٤

(٤٥) رسائل الجاحظ : جمع حسن السندون من صفحة ٢٨٥ إلى ٢٩٢ المطبعة الرحمانية

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢ هـ .

(٤٦) المصدر المذكور صفحة ٢٨٨ .

(٤٧) رسائل الجاحظ : جمع حسن السندون من ص ٢٧٦ إلى ص ٢٨٥

يتفقون فيه الآلاف .

فمن منا سيات لإطعام ما ذكره الجاحظ في قوله ، (وربما كان إلتلافه في العرس والخرس

و لولية هو إسرافه في الإعتداف في الحقيقة والوكورة) (٤٨) ومن إسرافهم قوله ، (وقد رأيناها ينفق
على ما تدعى فأكبره ألف درهم في كل يوم ، وعندة في كل يوم عرس) (٤٩)

وقد يتفقون في الموائد ، ويتأفقون فيها ، فتأني على هيئة تشريح الصدور ، وتفتن النفوس
جمالا ول بداعا ، محتوليا التي الجالس القم أن يمد يده إليها خشية إفساد تلك الروعة ،
وتقتض هذه الهندسة ، والجاحظ يروي عن واحد من هؤلاء أنه كان يتأني في الكلام ،
(ويصعبه صنعة ، ويبيته تهيئة من لا يريد أن يمسه فضلا على غير ذلك ، وكيف يجترى الضرس
على إفساد ذلك الحسن ، وتقتض ذلك النظم ، وعلى تفريق ذلك التأليف ، وقد علم أن حسنه

يحدثه بأن جماله يبيبه منه) (٥٠)

وقد كانوا يحبون السمك ، ويخربون به هؤلاء يصبرون على بعده من طعامهم وبخاصة أهل
البصرة ، ومن أنواعه البني ، والزجر ، والشميط والجوافة والشلاي ، ويقص علينا الجاحظ
قصة لمحمد بن أبي المؤمل فيقول ، (اشترى مرة شبوطا ، وهو يهداك ، وأخذها فاقعة
عظيمة ، وقال بها ، وارتفع في ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ، وهو يصري

لا يصبر عنه) (٥١) وكان الجاحظ في صباه يبيع السمك بسبحان بالبصرة .

(٤٨) كتاب البخل ، ضبط الصوامري والجرام الجزء الثاني صفحة ٩٩

(٤٩) المصدر المذكور صفحة ١٠٠

(٥٠) المصدر المذكور ، الجزء الأول صفحة ١٣٠

(٥١) المصدر السابق صفحة ١٨٦

ومن ألوان الأطعمة المحببة إلى نفوسهم ، والتي يتساقون إلى التهامها من على صدور
المرائد ، ما تحدث عنه الجاحظ بقوله ، (وإن الطباخ ربما أتى باللون الطريف ، وربما
قدم الشيء الضريب ، والمادة في مثل ذلك اللون أن يكون لطيف الشخص ، صغيرا لحجمه
وليس كالطهيشية ولا كالبريسة ، ولا كالعجلية ، ولا كالكرنية) (٥٢)

ومن أجزاء الحيوانات والطيور التي يفضلونها في الأكل على غيرها ، ويمدونها
أطيب ما فيها اللحم وكبد الدجاجة ، وكلية الجدى ، وفانصة الكركي ، وبيضة البقيلة ، وصدور
الدجاج ، وشاكلة الحمل ، وسرة النخصر ، وأسقاطا لفراخ ، ودماع رأس السلاء (٥٣)

ومن آداب الموائد التي تجب مراعاتها ، وآداب من يشاركك في المائدة أن لا يستأثر
باللحم ، ولا ينتز ببيضة البقيلة ، ولا يلتهم كبد الدجاجة ، ولا يمد يده إلى دماغ رأس السلاء
ولا يختطف كلية الجدى ، ولا يزدرك فانصة الكركي ، ولا ينتزع شاكلة الحمل ، ولا يقتطع
سرة النخصر ، ولا يحرض لميون الرأس ، ولا يستولى على صدور الدجاج ، ولا يسابق إلى
أسقاطا لفراخ ، ولا يتناول إلا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره ، ولا يتشبه الضرائب
ولا يمتحن الإخوان بالأمور الثمينة ولا يمدك أستا ر الناس ، بأن يتشبه ما عسى أن لا يكون
موجودا) (٥٣)

ومن النصائح التي يأخذ بها الآباء ، والمديون صبيانهم وفتياتهم لاحترام من يؤكلونهم
ما ذكره الجاحظ في قوله ، (أي بني ، عود نفسك الأثرة ، ووجاهة همة الهوى والشهوة
ولا تشبه نوح الأفاعي ، ولا تخص خصم البراذين ، ولا تدم الأكل إدامه النجاج ، ولا
تلتم لقر الجمال . . . واحذر سرعة الكظة ، وسرفا لبطنة) (٥٤) وفي قوله للأكل ، (إياك

(٥٢) المصدر السابق صفحة ١٢٤ ، ١٢٥

(٥٣) المصدر السابق صفحة ١٢٣ ، ١٢٤

(٥٤) المصدر السابق الجزء الثاني صفحة ١٩ ، ٢٠

ولهم الصبيان موشره ا لزراع ، وأخلاق النوائح ، ودع عنك خبط الملاحين والفحلة ، ولبش
 الأعراب والمهنة ، وكل ما بين يديك ، فإنا حقتك الذي وقع لك ، وصار أقرب إليك (٥٥)
 وفي نهيه عن فيج المحاكمة على لسان أبي فاتك ، (الفقى لا يكون نشافا ، ولا نشالا ،
 ولا مرسالا ، ولا لكأما فولا مصاصا ، ولا نفاضا فولا دلاكا ، ولا مقورا ، ولا مخربلا ، ولا معلقا
 ولا مسوقا ولا مبلحما ، ولا مخضرا) (٥٦)

تعليل
 في
 الجح

١- وضرف ملاهيم وأنواعها كما أخبرنا الجاحظ في تضاريف سخره حين قال : (يظنوا
 كل شيء لكر ، فانه أبقي . . . ربما رأيت الميطنة الواحدة تقطع أريحة أقمصة ، وا لعامة الواحدة
 تقطع أريحة أزر) (٥٧) حين قال : (ومن الإصلاح الواجب قلب خرقه القنصوة إذا اتسخت . . .
 واجملوا حبرة فإنا ما له مرجوح) (٥٨) ويقول : (واشترت ملاءة مذارية فلبستها ما شاء
 الله رداء ، ولمحفة ، ثم احتجت إلى طيلسان فقطعتها - يعلم الله - فلبستها ما شاء الله ، ثم
 احتجت إلى جبة ، فجعلته - يعلم الله - ظهارة جبة محشوة) (٥٩) وفي قصة الصراقسى
 مع المرزى يقول الصراقسى : (لعل إنكاره إياى لكان القناع ، فهو يقتاعه وابتدأ مسألته ،
 فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنما أتى من قبل الصماعة ، فنزها ، ثم انتسب وجدد
 مسأله فوجده أشد ما كان انكارا . قال : فلهله إنما أتى من قبل القنصوة) (٦٠) (وسكر زبيدة
 ليلة فكسا صديقاله قميصا . فلما صارا لقميصه على التذم خاب الهدوات ، وعلم أن ذلك من

(٥٥) المصدر المذكور صفحة ١٧
 (٥٦) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ١٢٢
 (٥٧) المصدر السابق الجزء الثاني صفحة ٨
 (٥٨) المصدر المذكور صفحة ١٠
 (٥٩) المصدر المذكور صفحة ١٠ و ١١
 (٦٠) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٥٤

هفوات المكر، فمضى من ساعته إلى منزله فجمعه بزوجته (٦١) .

(والخلفاء عمة ، وللقضاة عمة ، وللبقالين عمة ، والأعراب عمة ، وللأهلباء عمة ، وللدم والنصارى عمة ، وأصحاب التشاخي عمة . . . ولكن قوم زي ، فللقضاة زي ، ولأصحاب القضاة زي ، وللشرطي ، وللكتاب زي ، ولكتاب الجند زي ، ومن زعم أن يركبوا الحوربان كانت الدمالج لهم ممرضة . . . وأصحاب السلطان ومن داخل الدار على مراتب ، فبعضهم من يلبس الميظنة ، وبعضهم من يلبس الدراعة وبعضهم من يلبس القبا ، وبعضهم من يلبس البازيكند ، ويعلق الخنجر ، ويأخذ الجزء ويتخذ الجبة . . . زي مجالس الخلفاء في الشتاء والصيف لورش الصوف . . . وكانت الشمرات تلبس بالورس ، والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهور فقد عهد الجاحظ من أنواع ملابس رجال ونساء عصره ، القميص ، والمعامة ، والإزار ، والقنسوة ، والحبرة ، والملحفة ، والرداء ، والطهلسان ، والجبة والقناع ، والبرنكان ، إلى غير ذلك مما كان يستعمل في عصره من خفاف ونعال مندية ، وبازيكند ودراعة وقبا . . .

٢- الأوضاع السياسية :

عاش الجاحظ في العصر العباسي ، وامتدت حياة قباة قون من الزمان شهد فيه لدولة العباسية إبان نهضتها ، ونفوس مجددها ، وقد جلس على كرس الحكم فسي حياته اثنا عشر خليفة ، فقد ولد في خلافة المهدي ، وكان صبياً في خلافة الهادي ، وشاباً في خلافة الرشيد حيث رأى مصارع الهرامكة ، وشاهد الصراع بين الأمين والعماد ومصر عصر المعتصم الذي قوى فيه نفوذ الترك ، وحدث الواثق الذي أهدى الاعتزال وناصره والعتوكل الذي ضمقت به قتلة قوة الخلافة وهيمتها ، وسيطرة بني العباس عليها ، ثم

(٦١) المصدر السابق صفحة ٧٢

(٦٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثالث صفحة ١١٤ ، ١١٥

بعض الأوصاف السياسية

خلافة المنصور والمستعين والمستره وما تفي خلافة الممتدى .

ولقد كان للجاحظ شأن في الدولة ، ومكانة لدى حكامها ، فقد جالس القضاة والوزراء ،
وقد ت بينه وبينهم صداقات وكما جالس الخلفاء ، وصار مقربا منهم ، وأثرا عندهم ، يكتب
لهم الكتب التي تولد ملكهم ، وتثبت دعواته ، ويحضر مجالس أنسهم وطربهم ، ويشارك فيها بمخبره
ومفاحيكه ، واختلاطه هذا بالطبق والحاكمه ، فخرج عنه على أمور الدولة ، ففهم كثيرا من
شئون الحكم والسياسة ، وشاهد انقلاب الحال بولاء السادة القادة ، ورأى الفتن تشيع
والدسائس تحاك ، والتكليل يكال ، وقد بنا له منه جانب .

ومن ثانيا سخريات الجاحظ نستطيع أن نستبطن ما كان عليه عصره من أوضاع سياسية ؛
أ- كان كبار رجال الدولة يثقون في منا صلبا ، لا يثبتون على حال ، ولا يطمئنون لما تجي
به الأيام ، فلم يكن أحدهم يأمن على نفسه الحزل ، وعلى أمواله المصادرة ، وعلى جسمه
التعذيب والتكليل ، فقد ابتكروا آلات التعذيب ، التي تطمس في المعبذب إنسانيته ، وتجرده
من الرحمة والشفقة وتطمس في المعبذب هيئته وصورته ، بل تسحقه رماذآ تذرره الرياح .
وكيف يأمن ؟ ومن أين له أن يطمئن ؟ وهو يرى في كل يوم حادثة وكارثة ، وشهد مصرع
صديق أو عدو ، وسجن قائد أو وزير ، والثوب على خليفة أو وال ، وقتله ليحل غيره محله
واستباحة أمواله وأملاكه بولكلما تغير الخليفة تغيرت حاشيته ، واستبدلت بطانته ، وطرد أتباعه
من ديارهم ، ومزقوا كل منق . وشاهدنا على ذلك توربين الزيات ،

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً للمحتصم ثم للواثق من بعده ، وكان محمد
صديقا للجاحظ ، فقد اتصل به ، ومدحه ، وأهداه كتابا لحيوان ، ولما مات الواثق ،
وتولى المتوكل الخلافة ، وكان في نفسه شيء من ابن الزيات كما كان عدوا للمحتزلة ،
استطاع أحمد بن أبي دؤاد القاضي أن يستغل الموقف ويورث نار الشيطان ، ويسمى

أثنى الضيب ، بين الخليفة والوزير ودفعه إلى ذلك كراهيته ابن الزيات ، لما كان بينهما من منافسات ، فأوفر صدره لتوكل ، فأسقطه ابن الزيات ، وقتك به ونكل ، بإدخاله تنورا بداخله مساهير محباة ، كان ابن الزيات قد أمده ليحرق فيه خصومه ، فكان جزاؤه ما تضمنت يداه .

ويذكر ياقوت في كتابه معجم الأديبا * طرفا من القصة فيقول :

حدث إسحاق الموصلي ، وأبو العينا ، قال : كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات ، فجيء بالجاحظ مقيدا ، وكان من أصحاب ابن الزيات وفي ناحيته ، فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلامتا سيات للثمة ، كقورا للضيعة محفينا للمساوي ، وما فتني باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، وردامة داخلك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك . فقال له الجاحظ : خفف عليك - أيدك الله - فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسوء وتحسن ، أحسن منك من أن أحسن نفسي ، وأن تصفو عنى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى . فقال له ابن دؤاد : قبحك الله ، ساعلمتك لإكثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمم قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ماتأويل هذه الآية : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذها ألم شديد ؟ قال : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى . فقال : جيئوا بحداد فقال : - أعز الله القاضى - ليفك عنى أو ليزيدنى ؟ فقال : عمل ليفك عنك ، فجيءوا بحداد فتمزق بعض أهل المجلس أن يحفف بساق الجاحظ ، ويظلم أمره قليلا . فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهرنى يوم ، وعمل يومى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس يجذع ولا ساجة ، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه (١) وكان الجاحظ قد هرب قبيل ذلك خوفا من أن يناله ما نال صديقه ابن الزيات ، فلما قبض

(١) معجم الأديبا ، ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ٧٩ ، ٨٠

عليه (قيل له: لم هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إلهما في التور) (١) يريد
 توراً ابن الزيات وشيخ الجاحظ إلى ما وقع لأحمد بن حنبل من الخليفة المعتصم في مسألة
 خلق القرآن فيقول: / فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل التدعة،
 وليس كشف التمس من التجسس، ولا امتحان الظن من هتك الأستار ولو كان كل كشف
 هتكاً، وكل امتحان تجسساً، ولكان لقاض أمتك الناس لستره وأعد الناس كشفاً لمورة
 ولذنب خالفوا في العرش إنما أرادوا نفي التصفيه فخلطوا، والذين أنكروا أمر الميزان
 إنما كرموا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً فلا ظناً فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل
 عليهم، وأن كانوا قد أخطئوا فإن خطأهم لا يتجاوزهم إلى الكفر، وقولهم وخلافهم
 بعد ظهور الحجة تشبيه للخالف بالخلق، فهين التهمين أبين الفسق (٢)

مأخذ هذا القول

٢- وكان للخلفاء والحكام أعداء يكيدون لهم، ويتبهنون أخطائهم، ويحرضون عليهم
 لضراً كما بهم، أو للزم في طمأنينة، وقد يكون السلطان عادلاً، رحيماً برفيته،
 ولكن رجالاً منهم يريدون الحصول على غير ما يملكون، ولا استيلاء على ما لا يستحقون،
 يرفسون أنفسهم فوق قدرها، ويحسبون أنهم همصوا بمقوقم، فيتأولون على السلطان
 وينقمون ويسخطون ويشتمون، وقد بين الجاحظ ذلك في رسالة إلى الفتح بن خاقان حين
 قال: (إن السلطان لا يخلو من متأول ناظم، ومن معكم عليه ما خط، ومن معدول عن الحكم
 زار، ومن متعطل متصفح، ومن محجب براء به، ذي خطل في بياضه، مولع بتنجيس الصواب
 والاعتراض على التدبير، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ووكيل لسكان المملكة، يضع نفسه في
 موضع الرقيب، وفي موضع المتصفح على الخلفاء والوزراء، لا يحذر وإن كان مجال الضرر

(١) معجم الأدباء: ياقوت، الجزء السادس عشر صفحة ٢٩، ٨٠
 (٢) أمراء البيان ج ٢ ص ٢٦١

واضحا ، ولا يقف فيها يكون للشك محتلا ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب
 وأنه لا يعرف ما درأ لأى من لم يثبت مواده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن
 محروم قد اضطفته العيوب ، ومن لثم قد أفسده الإحسان ، ومن مستبطن قد أخذ أضاف
 حقه ، وهو لجدله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن
 حقه لوجب ، ومن مستتردد كما لو ارتجع السلطان سالف أيامه البيض عنده ، ونعمه
 السالفة عليه ، لكان لذلك أهلا ، وله مستحقا ، قد غره الإملاء ، فأبهره دوام الكفاية ،

وأفسده طول الفراغ ، وصاحب فتنة خامل فى الرجوع . . . (٣)

وكان الخليفة يقف حائرا فى موقفه من هؤلاء ، ومن وزراءه وبلطانته وصنائعه ، وقد تكون
 هناك خيانات فى قلب الملك لا يستطيع الخليفة كشفها ، فيكون موضع سخط ومضطرب لقد من
 الرعية ، مع بره ساحته ، وعبابه شئون دولته ، (حدثنا أحمد بن أبى داود قال لى
 المؤمن ولا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزراءهم هؤلاء يستطيعون أن ينظروا بالعدل
 بين الملوك ورجالهم وقواتهم ، وبين صفاتهم وبلطانتهم ، وذلك أنهم بدون ظاهر حرمة
 وخدمة ، واجتهاد ونضحية بدون إيقاع الملوك بهم ظاهرا ، حتى لا يزال الرجل يقول ،
 ما أوق به إلا رغبة فى ماله ، أو رغبة فى بعض ما لا تجود النفس به ، ولعل العمد والبلالة
 وشبهة الاستبدال انتزعت فى ذلك . . . وهناك خيانات فى قلب الملك ، أو فى بعض
 الحرم فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع الصورة فى الملك ، ولا أن يهتج لتلك العقوبة
 بما يستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما فى ذلك من الفساد ، على علمه بأن

طوره غير مهبوط للعامة ، ولا معروف أحد أكثرا لخاصة (٤)

(٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ٢٠

(٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٧٧ .

ما عدا ذلك هو باب الزينة

٣- وكان جند الدولة المدافعون عنها خليجاً من أجناس متعددة ، فضم العرب والتركي والهندي والخراساني والمولى ، وكانوا متحدين متضادين حين كانت الخلافة قوية ، فقبض على زمام الحكم ، وتصرف شؤون الجند بحزم وصلابة ، ويقول أبو عثمان في كتابه " مناقب الترك وجماعة جند الخلافة) .

وذكرت أيضاً ك الله - أنك جالست أخطا من جند الخلافة وجماعة من أبناء الدعوة ، وشيوخا من جلة الشيعة . . . وأن رجلا من عرض تلك الجماعة . . . زم أن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام ، خراساني وتركي ومولى وهندي وبنوي ، وأنه أكثر من حمد الله وشكره ، على إجماعه ووفائه . . . حين أفعال الطاعة هذه ، لقلوب المختلفة ، والأجناس المتباينة ، والأهواء المتفرقة (٥)

وكان الجند في مبدأ الأمر لا يلتفتون إلى هذه التفرقة كثيرا ، ولا يؤثر فيهم اختلاف الجنس تأثيرا يؤدي بهم إلى التماس أو الخيانة أو القتل ، وإنما كان وكدهم الدفاع عن الإسلام ، وعن خليفة المسلمين ، بل لقد حاول كثير من مفكري الأمة ، وندم الجاحظ ، أن يهدم هذه الفوارق أو يخفف من حدتها ، أو يقرب بين هذه الأجناس ، ويوجد الصلات والوشائج التي تجمع شتاتهم . يقول الجاحظ مخاطبا ابن خاقان : (إنك اعترضت على هذا المتكلم المستبد ، وعلى هذا القائل المتكلف ، الذي قسم هذه الأقسام ، وخالف بين هذه الأركان ، وفصل بين أنسابهم ، وفرق بين أجناسهم ، واعد بين أنسابهم ، وأتسك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقدمته أشد القذع ، وزعمت أنهم لم يخرجوا مسن الاتفاق أو من شيء يقرب من الاتفاق ، وأنت أنكرت التباين في النسب ، والتباين في السبب . . . وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني . . . كالاختلاف ما بين الطائفتين الجهلي والظاني السهلي . . . وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة ، وشارك

بعضهم بعضا في بعضا لصوره فقد تخالفت عليها تعم وسفلى قهمن وهجره مؤانن ونصحاء الحجاز

في اللغة . . . وزعمت أنه أراد الفرقة والتخريب . . . وأنك أردت الألفة والتقريب وزعمت أيضا أن

البنوي خراساني . . . وأن نسب الأبناء نسب آبائهم . . . وأن العوالي بالتعريب أشبه . . . وبولسي

القوم من أنفسهم . . . ولولا لجة لجمة للنسب . . . ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا هؤلاء القوم في

النسب . . . وصاروا من العرب بهذا السبب . . . على أن ولاد الأتراك للباب قريش ولصاحبه

متاف (٦)

ما الملاحظة؟

٤- وكان للدولة عدة دواوين لتتظم شؤونها السياسية . . . وتصريف أمورها الحربية بتوجيه

المكاتب . . . وتنظيم الحساب . . . ومقديرا لأرزاقها . . . ديوان الإنشاء . . . وديوان الجند . . .

و ديوان الخراج . . . ولكل ديوان رئيس يتولى تنظيمه . . . ويشرف على إدارته . . . وتحت يده عدد من

المكاتب يوجههم ويرشدهم . . . وينقادون له . . . وتصرفون بأمره . . . يقول الجاحظ . . .

(ومن كتاب الجند محمود بن محمد الكرم) (٧) . . . وسندهم زيد بن أيوب الكاتب . . . عمل في ديوان الجند

أربعين سنة . . . ثم صار في آخر أيامه قواد الجيشين بن أكرم القاضي (٨) . . . واستكتب الرشيد يزيد

بمادان على ديوان الخراج (٩) . . . (ثم لم يبقوا يذكر كاتب حتى ولي المأمون . . . فقدم بمسحه

ابن أبي الجباص الطوسي . . . فبه انتشرت السعاية بالعراق . . . واستخلف حفص بن علي

ديوان الخراج . . . وكان ركبها لسعائته . . . وكتب لهم عمرو بن مسعدة وكان رسائلها فقط (١٠)

(٦) المصدر السابق صفحة ٢٣ و ٢٤

(٧) ثلاث رسائل الجاحظ . . . نشر بوضع فنك . . . الطبعة الثانية سنة ١٢٨٢ صفحة ٤٩

(٨) المصدر المذكور صفحة ٥٠

(٩) المصدر السابق صفحة ٤٧

(١٠) المصدر السابق صفحة ٤٧ و ٤٨

(واستقصى على ديوان الخراج والجند إبراهيم الحاسب ، والعمري بن أبي المشرف فلحق
إبراهيم من سائر الآداب والعلم علم الحساب فقط ، ولم يفتح إليه في قضية ولا رأي حتى
هلك (١١)

وأشهر كتاب الجند بالشراء والطبخ ، وغالبا ما يكون ذلك بسبب خفتهم ، والمعظم من
أقوالهم ، يقول الجاحظ من إبراهيم الحاسب كتب ديوان الجند ، (فكان الذي وضعه
وأدناه ، شرحه ، وهي علة قائمة في كتاب الجند خاصة) (١٢) . على أنه كان نبيهم من نبلت
أخلاقه ، وارتفعت همته ، واشتهر بين أصدقائه ورؤسائها لعفة وكلم الصحبة ، وارتفاع البهجة
وطارت شهرته حتى وصلت إلى الخليفة ومن تلاه من خلفاءه ، وذلك مثل المصلي بن أيوب يقول
فيه ابن بحر :

(ولم يبلغني أنه كان في ولاية ديوان الجند ولا في كتابهم مثل المصلي بن أيوب في
نبله ، وارتفاع همته ، وكلم صحبه بك ، وفأفه وجعل مذهبه ، وشدة حمايته في صحبة وتحميم به
فكان الناس من يعرف له ذلك ، ومن بعده من الخلفاء ، فثبتت وطأته ، ودانت ولايته ،
وحمد أنه) (١٣) .

وقد كان صاحب الخراج ينال رزقه أضعاف أضعاف ما يناله صاحب ديوان الرسائل
كما كان رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج أضعاف ما يوزقه المصدر لكتب الخليفة ، ومع
نيل الكتابة الرسائلية ، وعظم فوائدها ، وأهميتها عند الخلفاء ، ولحاجتنا إليها ، إلى المكابدة
والمحاناة ، وبذل الجهد ، والتأنيق والافتنان . يقول أبو عثمان ، (وسيك يتم أنبلهم
أخسهم في الرزق مرتبة ، وأعظم غناء أقلام عند السلطان عقلا . يوزق صاحب ديوان
الرسائل - ويلسانه يخاطب الخلق - المشرمين رزق صاحب الخراج ، ويزق المصدر -

(١١) المصدر السابق صفحة ٤٨

(١٢) المصدر السابق صفحة ٤٨

(١٣) المصدر السابق صفحة ٥٠ ، ٥١

خطه يكون جمال كتب الخليفة - الجزء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج ، لا يحضر
 كتاب الرسائل لثابتة ، ولا يفتح إليه في حادثة ، فإذا أبطأ الزيادة التدبيره وقرأ منها
 على التقديره طرحت إليه رقعة بسماني الأمر لتسقى فيها القول ، فإذا فرغ من نظامه ،
 واستوى له كلامه ، أحضر له محبراً ، فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأصبح المنازل من
 المختلفة ، فإذا انقضى ذلك فهما والموام سوا (١٤)

وفي عهد المأمون نال بعضاً لجند أرقا نسبة لا تناسب ما يقدمونه من خدمات و
 ما يبذلونه من جهد ، ودخل فيهم من ليس منهم من الأعراب والأعجماء فعهد المأمون
 بتصنيفهم إلى حميد بن عبد الحميد ، ولكنه حكم بالهوى والعصبية والضعف - فتعاضل
 عليهم ، وخفض أرقا بهم ، ولكن المأمون تدارك ذلك ، وأمرهم بأعطياتهم تامة ، وقد دلتنا
 الجاحظ على ذلك في قوله .

(وكان حميد بن عبد الحميد - عند دخول المأمون مدينة السلام - وجد سكان الهج
 وخمسة الثائرة - رفع إلى المأمون ، يذكر أن في الجند مثلاً كثيراً ، من دخل فيهم
 بسبب تلك الحروب فسبب أيام الأجناب ، وهم قوم من غير أهل خراسان من
 تشبه بهم ، وأدى إليهم من الأعراب والجملة ، ومن لا يستحق للديوان وهم من أهل خراسان
 صارت لهم الخواص المنية ، لم يكن لهم من المنايا ما يستحقون به مثلاً ، وذكر أن بيت
 المال لا يميل ذلك . وسأل المأمون أن يوليّه تصنيف الجند ، ولم يكن له ذهب حميد
 في ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ، ولكنه تمصّب على أبناء
 أهل خراسان ، واضطفن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع وكه محمد بن
 أبي خالك وغيرهم ، وما كانوا قد انتحروه به من تلك الوقائع واللمزائم ، وما ذهب له حسن
 الأموال بذلك السبب ، فولاه المأمون التصنيف ، وأمر للجند بدقيق شديدين ، فولى
 حميد الحطاب ، والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب ، وهرف محمود ماضي حميد فتعاضل

على الناس ، وامتثل فيهم الاحقاد والايمان ، وخفض الازالي ، وأسقط الخواص ، وبعث
 في الكره ، وأبى على أهل الشرف والهيئات ، حمد الله ، وشفا لخليل صاحبه منهم ، وأبى
 على أهل الشرف والتبيلات ، حمد الله ، وشفا لخليل صاحبه منهم ، فبعد لهم بالكفر
 والتعت ، فاستمت طائفة من الناس من التقدم إلى العطاء ، وتركوا أسماهم وطاقمهم
 انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراين ، ونقط بذلك السبب بشركين ثم إن المؤمن لم
 للناس يتم اعطياتهم ، واكتب محمود بن عبد الكريم الذميمة ، وبارك لعنة من حال
 بخداه وفي مجالسها وطوقها (١٥)

ف وقد اتخذ الخلفاء والوزراء ، واكتتاب رجال السياسة في الدولة العجائب ، يتقون على
 أبوابهم ، يمنعون الدخول إلا بإذن من صاحب المجلس ، وقد اكتسبوا ذلك من الفرس ،
 الذين أتوا العجائب ، إتماما لمظاهر الضامة والمنظمة ، واعطوا للحكم حين عزته وطلب
 للراحة والاستعجال ، والتمس للنظرى شعب الدولة ^{وتباط} والتمس على أنفسهم أن
 يفتالهم مفتال ، أو ينالهم أحد بضره

وفي أدب الجاحظ الساخر ما أرشدنا إلى هذا ، وأطلعنا عليه ، يقول : (خبرت
 أن أبا المتاهية أتى يحيى بن خاقان يوما ليسلم عليه ، فلم يأذن له حاجبه ، فانصرف
 وأتاه يوما آخر فصادفه حين نزل ، فسلم عليه ، ودخل يحيى إلى منزله ، ولم يأذن له ،
 فكتب إليه أبو المتاهية من ساعة رقعة فيها :

أراك حين ترى خيالي	فما هذا يروك من خيالي
لعلك خائف مني سؤلا	ألا لك الأمان من السؤال
كفيتك إن حالك لم تعلم	لاطلب مثليما بدلا بحالي
وإن اليسر مثل اليسر عندي	بأيما شئت فما أبالي

قلنا لرا يحيى بن خاقان رفته ، ووثق بأمانه إياه من السؤال ألذ له ونخرج العاجب ،
فوجده قد انصرف ، ولم يبق إليه ، ولا التقي بعد ذلك (١٦)

وقد ألف الجاحظ كتابا كاملا في هذا الشأن سماه (كتاب العجائب) وما جاء فيه ،
(عجيب ابن أبي طاهر باب بعض الكتاب) (عجيب أبو المتمازية باب أحمد بن حسن
يوسف الكاتب) (١٩)

(قلل أبو هذيل لعلي بن يحيى بعلمه من سجنه ،
أبا حسن رفا حقا ، بحق مكارمك المواتية ^{مكارمك}
أحجب دونك شر الحجا ، ب وتدخل دون بنو العافية) (٢٥)

وقد كان للبرامكة وزراء الرشيد والأبدي الطولي في ازدهار الدولة ، وجم الرخاء
وازدهار الحياة ، بما وهبوا الناس من مساحتهم وكوهم ، مما أنشأوا على الأنفس
خير ، حتى لقد كانت أيامهم رياض الأرزنة كما يقول الجاحظ في قصته مع واحد من أئمتهم
للبرامكة حيث قال له : (رحم الله أسلافك ، وآبائك المسماة ، فقد كانت أيامهم رياض
الأرزنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيرا كثيرا ، فسقاهم روي) (٢١)

(١٦) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوثق فنقل صفحة ٤٥

(١٧) رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندوس ، كتاب العجائب

(١٨) المصدر السابق صفحة ١٦٤

(١٩) المصدر المذكور صفحة ١٧٤

(٢٠) المصدر المذكور صفحة ١٧٠

(٢١) مآذرك القصة في الفصل الأول من الباب السادس

بالخدمة التي كانت تؤديها في الجاهلية أسواق عكاظ و بجنة و ودي الجار .
و كانت الوراقة صناعة رائجة ، و لوراقون علماء أديبا مهردون و رومون .
هذا الى مجالس الأئمة و المناظرة ، و مباريات المناظرة و المعارضة .

و كان السجند معدا علميا أدبيا ، تشج فيه الملم اللغوية و المتعلقة الى جانب الملم
الدينية ، و صدارين فيه الأدب و الشعر ، و تتخذ فيه حلقات للمقاصد و الرواة .
فإذا أضفنا إلى هذه الثقافات العربية الأصيلة ما وفد إليها من الثقافات الأجنبية :
اليونانية و الفارسية و الهندية و غيرها ما وصل إلى أيدي المباسمين و قولدم ، أدركا
المدى الواسع ، و الأثر الرحيب ، و الانطلاق الذي نغم به الفكر و الأدب و الفن في ذلك العصر
ما كان له الأثر الفعال في غزارة الإنتاج و صفه ، و حسبنا الجاحظ مثلا على ذلك بملفاتنه
المتعددة التي تناولت شتى الصارف و الآداب في إجادة و أحكام .

و كان لملم الكلام الأثر الذي لا يمحى في النهوض بالدين ، و تصحيح العقيدة ، و تثبيتها
في القلوب ، حيث يعتمد على البرهان و الإقناع ، كما كان المشهد الذي أرفق قواعد المنطق
و الاستدلال ، و ارتقى بآداب البحث و المناظرة ، و انتهى بها الى التقنين و التعميد .
و لم يمنع ذلك من بقاء طبقة من الأئمة ترتع في جملها ، و تتميز في مذاقتها و ثقافتها ،
و تكون بالخراقات و الأوهام ، و تنقاد للزيف و الأباطيل ، و إن كانت سمة المصراعلية ،
و أريد به أدبية فنية ، إلا أن هذه الطبقة كان جملها نسبيا ناضجات الملم من حولها
تلقى عليها بصيصا من نوره ، و يجعلها في منطقة الظل ، لا منطقة الإظلم .

و قد انتدز جماعة من الناس هذه القفلة و الجمالة ، فعملوها مصدر رزق لهم ، فاحترقوا
الشعيرة ، و اتخذوها بضاعة رائجة ، و يبيعونها في سوق الجهل ، و يبيعون و يشرون ، و لجا
بعضهم إلى الحيل و الخدع ، و يحطف بها قلوب الناس نحو ، و يخشى نفوسهم بالهزل و المطا
فإنال منهم أضعاف ما يناله من حرفة يحترفها ، و مهنة يمتدنها .

المصر

ولم يقع الثائلون والجهال في الخرافات وحدهم ، بل وقع فيها العلماء والفسور ،
 والمحدثون والمتكلمون ، وذهب هؤلاء أجمع ، وحريرتهم أوسع وأشجع ، ومقيدهم الجاحظ بسخره
 وسلط عليهم شعاع هزته ففضحهم وأحرقهم .

وقد آن لي بعد هذا الإجمال أن أعود إلى التفصيل والاستدلال ، وأدلى التي
 أستضيء بها في هذا الباب وفي الباب الذي يليه من نسج الجاحظ ، وما ذكره في سخره
 قد يقصد به ما إليه قصدت ، وقد يذكره وصلة إلى غيره ، وقد يجيء به عرضا واستطرادا ،
 إلا أن منهجى - كما أسلفت - أن أستدل بسخره على عصره ، ولذا لوضع الباب الخامس
 كما أستدل به عليه ، وذلك موضع الباب السادس .

فهيا بنا إلى سخره الذي استبطننا منه ونشتقها ما كان عليه عصره من علو ومخارف
 وثقافات وآداب .

كان الكتاب المدرسة الأولى لتعليم الطفل وتربيته في العصر المباسي ، وكانت الكتاب
 منتشرة في القرى تعلم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن وهو ذلك من المبادئ التي
 تتناسب وعمر الطفل ، وكان يشرف على الكتاب معلم ، يقوم بتعليم تلاميذه وتوجيههم ، وقد
 ألف الجاحظ كتابا في نوادر المعلمين (١) وجاء في كتابه البيان والتبيين باب ضوايف (باب في
 ذكر المعلمين) (٢) وباب ثان جعل عنوانه (باب منه آخر) ، ونقل من الحكم والشعر ما
 يلزمهم به ، ويحط من أقدارهم ، ويتهدم في قولهم وكرامتهم (٣) . فقال : (ومن أشمال

(١) المستطرفج احرا ٢٤ وما بعدها ، ثمرات الأوراق ١٨٠ ، الجاحظ في البصرة وفداه
 وسامرا ١٠٥ ، ١٠٦ ، أمراء البيان الجزء الثاني ص ٤٦٦ ، ٤٦٢
 (٢) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٢٤٨

(٣) المصدر السابق صفحة ٢٥٠ (٤) هما توسع في الحملة على المعلم ، وفي نفس نفس
 بصورة واضحة

لعمامة وأحرق من معلم كتاب ، وقد ذكرهم صلاب فقال :

وكيف يدعى الرأى والحقل عند من يدعى على أنتى ويندو على طفل

(٤)

وفى قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راى غم ، ولا كثيرا القمود **بج النساء** (٤)

(وقد سمعنا قول بعضهم ، الحق فى العاكة والمعلمين والخزاليين . قال : **والعاكة أقل وأسقط**

من أن يقال لها حق ، وكذلك الخزاليون لأن الأحمق هو الذى يتكلم بالصواب الجيد ، ثم

يجىء بخطأ فاحش) (٥) وعلى ذلك فى المعلمين من يتكلم بالصواب الجيد وتكون له فى بعض

الأحيان أخطاء فاحشة . وهذا هو رأى الجاحظ ، وقد استنظت من كتابه من معلم صبيان

فى كتابه ، ولا أرى بأسا من إيرادها هنا ، قال : (دخلت يوما مدينة ، فوجدت فيها معلما

فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد على أحسن رد ، ورحب بى ، فجلست عنده ، وبحثت فى

القرآن ، فأزاد هو ما هرفيه ، ثم فاتتته فى الفقه والتحرر علم المحقول وأشمار العرب ، فإذا هو

كامل الآداب ، فقلت : هذا والله ما يقوى عزى على تطيق الكتاب (٦) ، فكت أختلف إليه

وأزوره ، فجلت يوما لزيارته ، فإذا بالكتاب مخلق ، ولم أجده ، فسألت عنه ، فقيل : مات له ميت

فكهن عليه ، وجلس فى بيته للحزاء ، فذهبت إلى بيته ، وطوقت الباب ، فخرجت إلى جارية ،

وقالت : ما تريد ، قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله فدخلت إليه ، وإذا

به جالس ، فقلت : اعظم الله أجرك ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، قل نفس

ذاتقة الموت ، فعمليك بالصبر . ثم قلت له : هذا الذى توفى ولك ؟ قال : لا ، قلت :

فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا ، قلت : وما هو

فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا ، قلت : وما هو

(٤) المصدر السابق صفحة ٢٤٨

(٥) المصدر المذكور صفحة ٢٤٩

(٦) يقصد كتابه فى نوازل المعلمين الذى كان قد ألفه على ما قدمت ، وعلى ما سياتى

فى ختام القصة .

قال احيوتى . قلت : في نفسى . هذه أول المناجحة قلت . سبحان الله والنساء كثيرة
 وتستجد فيهما . فقال : أتظن أنى رأيتها ^{قلت} هذه منجحة ثانية ثم قلت . وكيف مشتت من لم
 ترا ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالسا في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا
 عليه يد ، وهو يقول :

يا أم عمر في جزاك الله مكرمة
 ردى على فرادى أيها كانا

لا تأخذين فرادى تلعبين به
 فكيف يلعب بالإنسان إنسانا ؟

قلت في نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ، ما قيل فيها هذا ! لشعر
 فمشقتها ، فلما كان منذ يومين هو ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأمر عمرو
 فلا رجعت ولا رجح الحمار .

فعلت أيها ما نت ، فحزنت علينا ، وأغلقت المكيب ، وجلست في الدار ، قلت يا هذا ،
 إني كنت ألفت كتابا في نوا دركم مشرا لمسلمين ، وكنت حين علمتكم عزمت على قطيعه ، ولأن
 قد قويت عزى على إبقائه ، وأول ما أبدأ بك إن شاء الله تعالى)

وقد قسم الجاهظ مجلسى زنه إلى ثلاثة أنواع : أحصلوا أيها الخاصة : - معلوم

أولاد والملوك ، وهم جميعا في الطبقة العليا ثقافة وأدبا ولما لا يتصفون بحماقة ، ولا تموزهم
 ثقافة ٢- أما النوع الثالث فمعلوم كتائب القرى ، وفي هؤلاء حطب ، كما أن فهم ثقافة ، شأن

كن طائفة ، وكل أبناء مدينة . يقول : (والمطلوب عنى على ضربين ، منهم رجال ارضعوا عن
 تعلم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارضعوا عن تعلم أولاد الخاصة
 إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل على بن

حمزة الكاشي ، ومحمد بن المستير الذي يقال له قطوب ، وأشباه هؤلاء يقال يقال لهم حطب ؟
 ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم ، فإن ذهبوا إلى مجلس كتائب

١٢٧

القوى ، فإن لكل قوة حاشية وسفلة ، فما هم في ذلك إلا كغيرهم ، وكيف تقول مثل ذلك في هولا ، وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء (٧)

وعلى ذلك فإن أجنم أن كلامه السابق عن حيف المعلمين إنما يقصد به من ندر منهم ومن شد من معلمي أولاد الجامعة فحسب ، الذين يخلطون في بعض الأحيان ويسفون . أما الضياع اللذان ذكرهما في القمة والسنام ، ويلحق بهم غالب معلمي أولاد الجامعة فحسب

الشعراء والفقهاء ، والخطباء كما يقول . وقد أعجب الجاحظ كل الإعجاب بمعلمين بالمعزة لا يزال يذكرهما منذ صباه ، ويكتفد انكفاً تاماً بتعليمهم حداثةً صغراً حيث كان صبياً نسي كتابهما . يقول : (ويذكرنا بالبصرة رجلان أروى لضوف العلم ، ولا أحسن بياناً ، من أبي البرزخ ، وأبي عدنان المعلمين ، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا) (٨)

وكما كان الكتاب المدرسة الأولى للتعليم والتثقيف في العصر العباسي ، كان المسجد المدرسة الثانية ، يرتقى إليها من الطلاب من جاوز المرحلة الأولى (٩) فيجد فيها شفاة نفسه وغاف ثقله ، والمديد من الأساتذة ، الذين يدرسون شتى العلوم وألوان المعارف ، فيختار الأساتذة كما يختار المعلم التي يرغبها ، والآداب التي تصادف من نفسه هي ، ثم ينظم نفسه في حلقة من حلقات المسجد بين ، يسمع منهم ويناقشهم ومارسهم حتى يحلب عوده ، ويمتلك زمام نفسه .

وقد أرشدتنا سخریات الجاحظ إلى هذه المدرسة وما تدور به من علم في قوله : (قال الخليل ، جلسنا لتوري إلى حلقة المعلمين في المسجد ، فسمع رجلاً من مياسيرهم يقول ، بطنوا كل شيء لكم ، فإنه أبقى ، ولأمر جعل الله دار الآخرة باقية ، ودار الدنيا فانية) (٩)

(٧) البيان والتبيين ، الجزء الأول صفحة ٢٥٠ ، ٢٥١

(٨) المصدر السابق صفحة ٢٥٢

(٩) البهلاء ، الجاحظ ، شرح المعاني والجامع الجزء الثاني صفحة ٤٤ البهلاء ، تحقيق

من هنا هي صفحة ٢٥٤
ما علاقتها بالخرقة

وقد عكس الجاحظ فصلا طويلا من كتابها ليعلا جعل عنوانه ، (قصة أهل البصرة من المسجدين) (١٠)

وقه يقول (قال أصحابنا من المسجدين ، اجتمع ناس في المسجد مسن

ينتحل الإقتضاء في الثقة ، والتمية للطلال من أصحاب الجمع والفتح . . . وكانوا إذا التقوا

في حلقهم تذاكروا وهذا الباب ، وتطارحوه وتدارسوه) (١٠) ويقول في قصة عهد النور كاتب

إبراهيم بن عبدالله بن الحسن . (ثم صلى معهم في مصلاتهم ودخل ، ثم صلى بهم ذلك

وجلس ، والقوم عرب ، وكانوا يفتخرون في الحديث عن كرون من المشركين الشاهد والمثل ، ومن

الخير الأيام والمقامات) (١١)

ويقول ، (وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن في مسجد

البصرة) (١٢) (ومن القصص حوس بن سوار الأسوي وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته

يا لفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به . . . ثم قص في مسجد

أبو علي الأسوي وهو عربي فلك ستا وثلاثين سنة فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة فما

ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسراية واحدة

في عدة أسابغ كان الآية ذكر فيها يو بدر وكان هو يحفظ ما يجوز أن يلحق في ذلك من

الأحاديث كثيرا ، وكان يقص في فنون من القصص ، ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك) (١٣)

وحدثنا عن أبي وائلة (إيا من معاوية العزبي القاض القائف ، وصاحب الزكن ، والمصروف

بجودة الفراسة) (١٤) يقول ، (أني حلقة من حلق في ثري في مسجد دمشق فاستولى علي

(١٠) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٦٢

(١١) المصدر السابق الجزء الثاني صفحة ١٦٠

(١٢) البيان والتبيين ، شرح هارون الجزء الأول صفحة ٣٦٧

(١٣) المصدر السابق صفحة ٣٦٨ ، ٣٦٩

(١٤) المصدر المذكور صفحة ٠٩٨

الجلسه و رآوه احمد دميما باد الميهة نَشَقَانَا سَتِيَا نَوَابِه ، فلما عرفوه اعتذروا اليه وقالوا له : الذئب فمسم بهننا وبينك و آتيتقاني زي مسكين تكلنا بكلم الملون (١٤) . وقال رجل من أهل الشام : كنت في حلقة أبي سهر في مسجد دمشق فذكروا الكلام وراعه وبالضمست وبنالته (١٥) . (ومن القصاص : عبد الله بن عراوة بن عبد الله بن الرضين ، وله مسجد في بني شيان) (١٦) . وقال شيخ من أهل المسجد : ما كنت أريد أن أجلس في قسم إلا وفيهم من يحدث عن الحسن ويشتد للقرنوق (١٧)

وإذا كانوا يتلقون المبادئ الأولية للمعلم والثقافات والكتابة الخطية في الكنائس ويتلقون المعارف وحفظ القرآن وتفسيره ، والأخبار والمير والقصص في المسجد ، فقد كانت هناك مدرسة ثالثة لتعليم اللغة العربية نطقاً وإنشاداً ، وتدريباً للسان على تجنب الزلل والعتارة وتمويد الانطلاق ، وتقوية من نوائب الألفاظ ، ومن اللحن والتحرير ، تلك هي مدرسة المرید ، وهو سوق من أسواق المغرب بالقرب من البصرة ، على فرار عكاظ في الجاهلية وكان الأعراب يقيمون به ، قال الجاحظ : (جن أعرابي من أعراب المرید) (١٨) ، وكان يقصد المتأدبون ليتلقوا الفصاحة مشافهة من المراب الخضر ، ويطلبون على جيد الشعر ، ورائع الخطب ، ويتألمون فيما يكون من نقد وتوجيه ، فتطبخ العربية في آذانهم ، وتستقيم في ألسنتهم .

يذكر لنا أستاذنا الجاحظ هذا في قوله رواية عن الجارود ، (قال : علمكم بالمرید ما به يطرد الفكر ، ويجلوا لبصره ، ويجلب الخبره ، ويجمع بين ربيعة ورض) (١٩) . ومن أمثلة

(١٤) المصدر المذكور صفحة ٩٨

(١٥) المصدر السابق صفحة ٢٦٤

(١٦) نفس المصدر صفحة ٢٦٨

(١٧) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٢٠

(١٨) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٢٥٤

(١٩) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ٢٤٥

ما يرويه الجاحظ لنا من نقد حدث في المرید قوله ، (قاتل العجاج ابن الأشعث في المرید ،
نخطب ابن الأشعث فقال : "أيما الناس : إنه لم يبق من عتوكم إلا كما يبق من لنسب
الوزفة ، تضرب به يميننا وشمالا ، فما تلبث أن تموت " . نمره رجل من بني قشير ، فقال
"قن الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عتوهم ، ويهدم الأضاليل ، ويضيق
الأبصار " . وناس كثير يرون أن الأشعث هو الحسن بن القشيري (٢٠) ويقول الجاحظ
عن نفسه (قد أدركت رواية المسجد بين المرید وبين لم يرو أشعار العجاجين ، ولصوص
الأعراب في نسب الأعراب ، والأرجاز الأعطرية القصار ، وأشعارا لم يرو وأشعار المصنفة فلم يرو
كانوا لا يمتدونه من الرواة ، ثم استبرأوا ذلك كله ، ووقفوا على قصار الحديث واقتضات
والفقير والمنصف من كل شيء ، ولقد شئتكم وما هم على شيء . أحرض منكم على نصيب العباس
ابن الأحنف ، فها هم إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نصيب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر
العباسي بقدر فضولهم في نصيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سنين وما يروى عنهم نصيب
الأعراب إلا حدث السن ، قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتيا في متفزل (٢١) . وهذا
عرضنا الجاحظ المسجد والمرید ، وما كان يدور فيهما ، وكيف تطورت المادة التي تشهد
وقال : عبر قن من الزمان ، هو حياة الجاحظ ، الذي لاحظ هذا التطور ، وسجله في بيانه
وقد سمعت المناظرات العلمية في هذا المصير ، وكانت وليه العلم وكثرة الاطلاع ،
وكان يهدف بنا إلى الوصول للحقائق ، وتجميع الآراء في رأي ، وقد دعا المؤمن إليها ،
حيث علمها ، وشارك بنفسه فيها ، وكانت له قدم را سخة ، وذهن وقاد . . . وقد عرض الجاحظ
لنا إحدى مناظراته مع لمرید الخراساني فأحضر وأجبه وأرسلنا إلى الإسلام مناظرة أخرى

(٢٠) المصدر المذكور صفحة ١٥٥

(٢١) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ٢٣ .

(٢٢) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٢٥ ، ٢٢٦

مع الزنديق الذي أخرسه قال يحدثنا عنها (وسؤاله أخرى سأل عنها أمير المؤمنين بالزندق
الذي كان يكنى بأبي علي ، وذلك عندما رأى من تطويل محمد بن الجهم ، وجز
المتبى ، وسوء فهم القاسم ابن سيار ، فقال له التأمون : أسألك عن حرفين فقط ، خبرني
هل ندم ميسر قط على إسمائه ؟ أو يكون نحن لم نندم على شيء كان مناقضاً ؟ قال : بلى
ندم كثير من المسلمين على إسمائهم . قال : فخبرني من الندم على الإسماء إسماء أو
إحسان ؟ قال : إحسان قال : قال ، فالذي ندم هو الذي أساء أفضله ؟ قال : الذي
ندم هو الذي أساء . قال ، فأرى صاحب الخير هو صاحب الشره وقد يظن قولكم : إن الذي
ينظر نظراً الوعيد غير الذي ينظر نظراً الرحمة . قال : فإن أزم أن الذي أساء غير الذي
ندم . قال : فندم على شيء كان منه ، أو على شيء كان من غيره ؟ فقطعه بمسأله ، ولم
يكتب ، ولم يدع حتى مات (٢٣)

وكان للترجمة دورها الخطير في نقل الحضارات ، وإثراء الأفكار ، وتلاقح الآداب
ومعرفة الكثير من العلوم والفنون ، والوقوف على عادات الأمم المنقول عنها ، وطباعها ،
وثقافتها ، والاستفادة من كل ذلك ، وقد صدرت اللغة العربية الكتب المترجمة ، وصيبتها
في قالب الحقلية العربية ، وأضافت إلى هذه المجينة المصدرة ، تجارب العرب وحضارتهم
وزكائهم ، وتركت عليها من بصائرتهم ، وصوره قولهم ، وألفاظ لغتهم ما جعلها تنسب
إلى العرب من استحقاق ، وتلحق بهم لحاق الولد بأبيه ، وورث هيئته وسمته ، وطباعه
وروجه ، فنصار صورة منه ، ونحو ذلك .

وقد كثر المترجمون في العصر العباسي نتيجة الإثابة على ما يترجمون ، فنقلت
العلم والفنون والآداب ، وترجمت عن الهندية والفارسية واليونانية ، وإن كانت الترجمات

قد بدأت بخطى وثيدة وحلة في العصر الأموي ، كما يقول الجاحظ في البيان والتبيين (وكان
خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحا جامعاً ، وجيد الوأى كثير الأدب ، وكان
أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء)^(٢٤) فقد انفتح باب الترجمة في العصر المباس
على مصراعية ، بسبب هذا الاختلاط والامتزاج بين العرب وسائر الأمم ، واجاءه لغتين فأكثر
ورغبة في معرفة ما عند الأمم الأخرى من ثقافات ، يحفزهم في ذلك الرغبة في رفق الدولة
ورفق لواء حضارتها وتمشياً مع ما غيرها من ترف ورفق ، ثم ما أهاج الترجمة فوشد من عزائمهم
من قامر النعم التي تقيم عليهم ، ووافر الأموال التي ينالونها جزاء الترجمة والنقل ، يقول
الجاحظ : (وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آدابنا الفرس ، فبعضها
ازداد حسناً ، وبعضها ما انقص شيئاً)^(٢٥) . وقد قرءوا بالكتب المترجمة وعرفوا لها
تقدمها وفوقها ، وأنها المصراع الذي يصمد عليه البلخ والحكم والخطوق ليصل إلى
الكمال . يقول أبو عثمان ، (من أحب أن يبلغ في صناعة الهلافة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر
في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروت . ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب
والعبر والمثلاث ، والألفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فلينظر في سير الملوك ، وهذه
الفرس ومثاليها وخطبها وألفاظها ومعانيها ، وهذه يونان ومثاليها وخطبها ومثاليها
وحكمها وهذه كتبها في الخطوق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف العظم من الصحة ،
والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند في حكمها وأسوارها وسورها ومثاليها ، فمن قرأ
هذه الكتب ، عرف هو تلك العقول ، وفرائب تلك الحكم ، عرف أين البيان والبلاغة

^{البيارة} (٢٤) الملوك والتبيين ، الجزء الأول ، صفحة ٢٢٨

(٢٥) الحيوان / الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٧٥

(٢٦)

وأين تكاملت تلك الصناعة)

وقد كان أكثر النقلة والمترجمين من لا يدمن العربية ولا يتقنها ، وكانت ترجمته
إما ترجمة حرفية وهي لا تؤدي المعنى في استقامة وسلامة ، وأما ترجمة المعاني بحد
ثوبها واختيار الألفاظ العربية التي تؤدي هذه المعاني في وضوح ودقة ، وهذا النوع
من الترجمة هو الذي يجب أن يكون - على أن مهمة المترجم شاقة صعبة تتطلب معرفة
اللغتين واللسانين معرفة جيدة وذلك لم يكن متوفرا إلا في النادر كما يقرب أبو عثمان ،
(إن المترجم لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق
اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيهما حقوقهما ، ويؤدي الأمانة فيها ، ويقصر
بها يلتم الوكيل ، ويجب على الجري ، وكيف يقدر على أداءها ، وتسلم معانيها ، والإخبار
عنها على حقا وصدقها ، إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها
وأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب رواقه ، فمضى كان ابن البطريق ، وابن نعمة ،
وأبو قرة (ابن قرة) وابن نصر ، وابن وهيب ، وابن العلقم ، مثل أرسطاطاليس ، ومضى
كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولا بد للمترجم من أن يكون بهانه في نفس الترجمة في وزن
صله في نفس المحرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والفقول إليها حتى
يكون فيها سواء رفاة ، ومضى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علما أنه قد أدخل الضمير
عليها ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها ، وتمتدح عليها ، وكيف
يكون تمكن اللسان منها مجتمعين فيه كتمك إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوة واحدة
فإن تكلم بلغة واحدة ، استغرقت تلك القوة عليها ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين على
حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أوسع وأضيق

(٢٦) البيان والتبيين ، الجليل ، تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثالث ص ١١

والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم ، وأجدد أن يخطئ فيه ، ولكن نجد البهت مترجماً
في بواحد من هؤلاء العلماء ، هذا قولنا في كتاب الهندسة والتنجيم والحساب واللحن ،
فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين (٢٧) وهذه الآراء تتطابق من أحدث الآراء وأهمها
في ترجمات الكتب في عصرنا الحالي .

على أن هناك من الأفاضل المدودين من كان يؤدي الترجمة على أحسن ما تكون
وكانت فصاحته في اللغة العربية المترجم منها توازن فصاحته في اللغة الفارسية المترجم إليها
وقد عد الجاحظ من هؤلاء موسى بن سيار الأسواري قال عنه (ومن القصاص موسى بن سيار
الأسواري ، وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ،
وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتعقد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره غيباً الآية
من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية
فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة
منهما الضم على صاحبتها ، إلا ما ذكرنا في لسان موسى بن سيار الأسواري) (٢٨) .

وكما كان المترجمون يحصلون على الجوائز السنية والأعطيات البهية ، فقد كان
كتاب العربية وشعرائها ، ونوماً الخليفة ، يحظون بالجاه والمال معه وينعمون بقدم
من الخليفة ورجال الحكم في الدولة ، كما كانت مجالس العلماء والأدباء حافلة بأطباء
الأدب ، وشبه المتأثرين الروحية والجمدية . يقول الجاحظ عن نفسه (أهديت كتاب الحيوان
إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف ديناراً وأهديت كتاب البيان والتبيين
إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف ديناراً وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم

(٢٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٢٥ و ٢٦

(٢٨) البيان والتبيين ، الجزء الأول صفحة ٢٦٨

رومان المهدي يحب لقيان وسماخ الثناء ، وكان مهجيا بجارية يقال لها جوهرة
وكان اشتراها من مروان الثاني ، قد دخل عليه ذات يوم مروان الثاني وجوهرة تغنية فقال
مروان :

أنت يا جوهرة عهدي جوهرة في بياض الدرة المشهورة
فإذا غنت فنار ضرمست قدحت في كل قلب شرة
فأنت يا جوهرة المهدي ، وأمر به فدع في عنقه ، إلى أن أخرج ، ثم قال لجوهرة : أظريني . فأنشأت
تقول :

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلم
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضا أرى وأنت سليم
فلو أن قولاً يكلم الجسم قد بدا بهجسي من قول الوشاة كل

قال المهدي :

ألا يا جوهرة القلب لقد زدت علي الجوهرة
قد أملك الله بحسن الدل والنظر
إذا ما صلت يا أحسن من خلق الله بالزهرة
وضيت ففاح الهيب لك من ربحك بالمنبر
فلا والله ما المر أولي ملك بالنسب
فإن شئت ففي ك لك خلق ابن أبي جعفر (٣٢)

وكان الخلفاء أنفسهم علماء أئمة ، وخطباء نصحاء ، ومناظرون بارعون ، وشعراء
مجيدين ، وفقهاء يزنون ما يسمعون بميزان قريحتهم الحسان الذي لا يخطئ ولا يحيد
وكانوا يتفهمون على مقدار الإجابة يقول المنصور ابن محمد فأعطاها فاستقر الأقطاب لما
نحن فلا تكلفي إلا بالتي هي أحسن (٣٢) وقد رأينا من قبل مناظرتين للعلماء آخرين أحسن منهما

مناظره وألقه الجنادل . كما رأينا نقد المنصور للشاعر ابن هرة ، كما سمعنا شعر المهدي في جاريته جوهر ، وإليك رأي الجاحظ في المنصور . قال ، (كان المنصور داهيا أربيا مصيبا في رأيه سيديا ، وكان مقدما في علم الكلام ، ومكرا من كتاب الآثار ، وللكلام كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف عندهم) (٣٣)

وقد انتشرت العلوم في العصر العباسي نتيجة النقل والترجمة ، وتشجيع المؤلفين بالمال الوافر ، ولما صب الرقيعة ، فكتبوا في الطب والكيمياء والحيل والنجم والفلك والهندسة ، وتناولوا جميع المعارف الإنسانية بالبحث والدرس والتدوين . ومن حديث خالد بن يزيد يروي الجاحظ بعض هذه المعارف ، (عرفت خدع الكائن ، وتدسيس العراف ، وإلام يذهب الخطا والعياف ، وما يقول أصحاب الأكتاف ، وهرقت التجيم ، وانجره والطق والفكر ، إن هذا العالم لا يجمع مثله أبدا إلا من مماناة ركب البحر ومن عمل السلطان ، ومن كيمياء الذهب والفضة ، قد عرفت الرأس حق معرفته ، وفهمت كسر الإكسير على حقيقته ، ٠٠٠ سألقن إليك علم الإدراك ، وسبك الرخام ، وصنعة الفسيفساء ، وأسرار السيوف القلعية ، وعقاير السيوف البيانية ، وعمل الفرعوني ، وصنعة التلطيغ على وجهها) (٣٤)

(وسمعت أبا حاتم الكيمياء وهو يقول لثمامة بن أشوس ، قلنا لكم إننا ندلكم على الإكسير ، فاستقلتم الخمر) (٣٥)

وفي كتاب الحيوان للجاحظ تعدد لبعض الكتب والمعارف والعلوم التي شاعت في عصره . قال ، (ها هنا كتب هي بينا وبينكم مثل كتاب إقليدس ، ومثل كتاب جالينوس ، ومثل الإجمطي ٠٠٠ وسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والنطق والهندسة

(٣٣) المصدر المذكور ج ٣ صفحة ٢٦٧

(٣٤) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجارم ، الصفحات ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ الجزء

الأول

(٣٥) الحيوان والجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٦٠

وصرفه اللعون والفلاحة والتجارة ، وأبواب الأصباغ والحصار والأطعمة والآلات ، وهم أتواكم
 بالحكمة والمنفعة التي في الحمامات وفي الأضرلابات ، والفوسطونات والآلات معرفة الساعات
 وحلقة الزجاج والفسيفساء ، والاسرنج والزنجفور واللازورد ، والأشربة والأنهجات والأيا رجات
 ولكر المينا والنشادر والشبه ، وتعليق الحيطان والأساطين ، وهذا ما مال منها إلى التتويم
 ولهم صبا للزجاج ، واستخراج النشاستج ، وتعليق الخيش ، واتخاذ الجمازات ، وصل
 الحراقات (٣٦) .

واهتموا بالكتب ، وشدوا في طلبها ، وحشدوها في خزائنهم وتنافسوا في اقتنائها ،
 ثم غلب سحرها في ذلك الزمن الذي كان يعتمد على النسخ ، وانتشرت الوراقة ، وراجت سوقها
 بين الوراقون من مستخدم طائل الأموال ، يقول أبو عثمان : (حدثني موسى بن يحيى قال ،
 ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدارسه كتاب إلا وله ثلاث نسخ) (٣٧)

وقد برعوا في الطب ، وتقدم على أيدي مشاهير رجاله في ذلك العصر ، ولاقتس رواجها
 وانتشارها ، واستخرجوا الحقاير من الأشباب وغيرها ، واستنبطوا الأدوية بالخلط والتقطير
 والتخمير ، واتخذوا الصيدليات معامل لأدويتهم ، وتاجر لبيعها ، وقد كان النصارى من
 غير العرب كسلوبية ، وابن ماسويه ، ويختيش بن جبريل وشعثون ومنك وبازيكو قد اتخذوا
 الطب حرفة لهم ، ووقفوا عليهم ، ومن كان مسلما وامتنع الطب كسدت مدينته ، وساءت حاله
 يقول أبو عثمان عن أسد بن جاني : (كان طبيبا فأكد مرة ، فقال له قائل : ا لسنة وبينة
 والأمر غر فاشية ، وأنت عالم بولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين توش نفسي

(٣٦) الحيوان ، الجاحظ : تحقيق هارون ، الجزء الأول ، الصفحات : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢

(٣٧) الحيوان ، الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٢٨٥

هذا الكلام ؟ قال : أما واحدة فإني عندهم سلم ، وقد اعتقد القم قبل أن أطلبه ،
لاهل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون في الطب ، واسم أسد ، وكان ينبغي أن يكون
اسم صليبا ، ورايل ، ويوحنا ، وبيرا . وكيفية آ بو الحارث ، وكان ينبغي أن تكون أهرميس
وأبوزكريا ، وأبو إبراهيم . وعلى ردنا قطن لبييض ، وكان ينبغي أن يكون ردنا حور أسود ،
ولفظ لفظ عيسى ، وكان ينبغي أن تكون لفتى لفتة أصل جنديسا بون^(٣٨) ومن المشاهير
كما ذكرت وكما ذكر ابن بحر في سخرياته شتون . قال : (حدثني شتون الطبيب قال : كنت
يوما عند ذي اليميين طاهر بن الحسين ، فدخل عليه أبو عبد الله المرزوق ، فقال طاهر
يا أبا عبد الله ، مذم دخلت المرزوق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة
فقال : يا أبا عبد الله ، سألتك من مسألة فأجبتنا عن مسألتين^(٣٩) وما سر جوابه . يروي
الجاحظ (وما سر جوابه الطبيب يفتي معاذ بن سعيد بن حميد الحميري . فقال يماسر
جوبه . أني أجد في حلقى بيجا . قال : إنه عدل يلغم ، فلما جازوه قال : أنا أحسن أن
أقول يلغم ، ولكنه كلفني بالحرية ، فكلته بالحرية^(٤٠) ويختيشوع بن جبريل وسلموه وابن
ماسويه . يقول الجاحظ : (خبرني ثمانية من أميرا المؤمنين الأمويين أنه قال :
تسائل لسي بختيشوع عن جبريل وسلموه
وسلموه وابن ماسويه ، إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن^(٤١) وقد بحثوا
وقد بحثوا في الأظفنة ومكوناتها وطبائعها ، وألفوا في ذلك الكتاب يقول الجاحظ : (وما
أشبه قولنا هذا يقول ما سر جوابه فإنه وصف في كتابه طباع جميع الألبان^(٤٢) . كما كان

(٣٨) كتاب الخلافة ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجام ، الجزء الثاني صفحة ٤٤ .

(٣٩) الحيوان الجاحظ ، ج ٣ ص ٥٨ ، أخبار الحنف واليهن ، ابن الجوزي من ١٢٧ .

(٤٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق دارون ، الجزء الثاني صفحة ٢١٨ .

(٤١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق دارون ، الجزء الخامس صفحة ٢٦٤ .

(٤٢) الحيوان ، الجزء الثالث صفحة ٢٧٥ .

الهنديون يشتهرون بالصيدلة . يقول ابن بحر : (واشترى محمد بن السكن أبا ربح نرجسا

الهندي فكسبه له ا لعال العظيم ، نقل صيدلاني عندنا الا وله غلام هندي) (٤٣) وقد اجتلب

المهاجرين من الهند الأطباء يقول الجاحظ (قال معمر أبو الأشعث : قلت لهنيلة الهندي أيام

اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند مثل منكبوازيكرو وقليبرقل وسعد باذ وغلان وغلان . (٤٤)

ومن مخريات الجاحظ عرفنا طبائغ الأمم بمواداتهم ومقاليدهم ولغاتهم وأدايمهم وطولهم ،

نتيجة اختلاط الصرب بهم في مصر المباشرة ، والاحتكاك معهم في المعاملات ، والاطلاع

على علومهم ومعارفهم وآدابهم ، ومشافهتهم ، والرحلات المتبادلة بين بلادهم فعرفنا الكثير

من الفرس والروم والهند والزنج والترك . يقول الجاحظ نقلا عن راشد الأعور : (لم أنتفع بأكل

التمرقط إلا مع الزنج وأهل أصبهان ، فإما الزنجي فإنه لا يتخير وأنا أ تخير ، وأما الأصهباني

فإنه يقبح القهضة ولا يأكل من غيرها ولا ينظر إلى ما بين يديه حتى يفرغ من القهضة) . (٤٥) ونقل

الجاحظ : وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس مرة وروية ، وأدملهم عن معرفة العاقبة ، ولو

كان سخا وهم إنما هو لدلال حدهم ، ونقص عقولهم ، وقلبت معرفتهم ، وكان يتخفى لفارسان

تكون أبخل من الروم ، وتكون الروم أبخل من الصقالبة) (٤٦) وما يدل على أن الروم أبخل

الأمم أنك لا تجد للجود في لغتهم اسما ، يقول : إنما يسمى الناس بما يحتاجون إلى

استعماله ، ومن الاستخفاف يسقط التكلف . وقد زعمنا أن ما يدل على فضل الفرس اسمه

ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الاسم . (٤٧) وقد ذكرنا

أن الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع ، وهي : العرب والهند وفارس

(٤٣) المصدر السابق صفحة ٤٣٥

(٤٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٩٢

(٤٥) البهلاء تحقيق الحاجي ص ١٩٦

(٤٦) كتاب البهلاء ، الجاحظ ، ضبط المعايري والجامع الجزء الثاني صفحة ١٠١

(٤٧) البهلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجي صفحة ١٩٥

والهم (٤٨) (إن الزنج مع الغثارة ، ومع فطرط العبارة ، ومع كلال الحد ، ويغلف الحس ، وفلسد
 العزاج لتطيل الخطب ، وتفق في ذلك جميع العجم ، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ ،
 وألقا طربا أخطى وأجمل ، وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس ، وأخطب الفرس أهل فارس
 وأعددهم كلاما ، وأسهلهم مخرجا ، وأحضرهم دلا ، وأشدهم قوة تحكما لأهل عرب وأنصحهم
 بالفارسية الدرية ، وباللغة الفهلوية أهل قصبة الأهواز ،

آثار لغة العرب

ولغة المرابذة فلصاحب تفسير الزمزمة (٤٩) (جملة القول ، أنا لا أعرف الخطب إلا للعرب
 والفرس فأما الينك فإنما لهم معان مدونة ، وكب مخلدة ، لا تضاف إلى رجل محرف ، ولا عالم
 مصروف ، وإنما هي كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، وللبرهان فلسفة
 وشاعرة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه يني اللسان ، غير موصوفا لبيان مع علمه
 يتميز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخاصته ، وهم يزعمون أن جالينوس كان أتطق الناس ، ولم
 يذكره بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفي الفرس خطبا (٥٠) (ولكن لغة
 حروف تدور في أكثر كلامها ، كبحوا استعمال البرم للسمن ، والجراحة للصين ، وقال الأصمعي ،
 ليس للبرم ضاد ، ولا للفرس ثاء ، ولا للمصريان ذال (٥١) وكان للمنول صحيفة في البلاغة
 توضح قواعدهما ، وتبين حدودهما ، وتدرس صفات الخطيب البليغ ، قال محمر ، أهر الأشعث ،
 قلت لبلغة اليندي . . ما البلاغة عند اليندي ؟ قال بلغة ، وعندنا في ذلك صحيفة مكتوبة . .

البرم

(٤٨) البيان والتبيين ، الجلد ١ ، تحقيق عبد القلم حارون الجزء الأول صفحة ٢٨٤

(٤٩) المصدر السابق ، الجزء الثالث صفحة ١٢ و ١٣

(٥٠) المصدر السابق ، صفحة ٢٧ و ٢٨

(٥١) المصدر السابق ، الجزء الأول صفحة ٦٤ و ٦٥

لقلت بملك الصحيفة المتراجعة فإذا فيها (٥٢) لا قيل للفارسي ما الهلابة؟ قال: محروسة

الفصل من الوصل • وقيل لليوناني ما الهلابة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام •

وقيل للروم ما الهلابة؟ قال: حسن الاقتطاب عند البتاحة • والخزارة يوم الإطالة • وقيل

للخندي ما الهلابة؟ قال: وضع الدلالة واختصار الفرص • وحسن الإشارة (ص ٤)

والى جانب هذه العلم الوفيرة • والعارف الخزيرة • ورقى الفكر وحدة الذهن

وجلى العميات • وكلف المبهمات • وحدت فئات من المجتمع • لسياسي لا زالت تعيش قسسى

جهالتها • وظنن بالخرافات والشعوذة • والرقى والعزائم • ويستغل أدهم الطب والدخلاء

على العلم جهلهم وقفلتهم فينج الدم الكخيد حولهم شباك • ويقضى منهم القرائن فيخفي

ويخري • ويملك العقار والضياع • أو يستحوذ على عقول العامة والفقهاء • وينال الجاه

والشهرة • ولديلاء • نماذج في سخر الجاحظ منها • (كان رجل يرقى الضرس بسخر بالناس

ليأخذ منهم شيئا • وكان يقول للذي يرقيه • إياك أن يخطر على قلبك الليلة ذكرنا لقرن • فسيبت

وجعل • فيكر إليه • فيقول • لملك ذكره القره؟ فيقول • نعم • فيقول • من ثم لم تنفج (لوقية) (٥٣)

ومنها • (تعول أبو عبد الله الكرخي اللحيانى إلى الخزيرة • وأدعى أنه نقيه • وظن أن

ذلك يجوز • لكان له حيته وسمته • فألقى على باب دار الهوى • وحلس • وحلس إليه

بعض البيران • فأثاه رجل • فقال • يا أبا عبد الله • رجل أدخل أصيحه في أنفه فخرج

عليها دم • فأى شى • يصنع؟ قال • يحتجم • قال • فحدث طبيها • وقحدث نقيها • (٥٤)

وطها • (خبرني جماعة عن أمير المؤمنين المؤمن • أنه قال • قال لي بختيشوع بن جبرئيل

(٥٢) المصدر المذكور • صفحة ٩٢ (٤٩٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٨

(٥٣) الحيوان • الجاحظ • تحقيق عبد السلام هارون ج ٤ ص ١١٤٠ طبعه عام ١٩٤٠

(٥٤) ولاد كيا • ابن الجوزي • تحقيق أسامة عبد الدم الرضا • طبعة دمشق صفحة

(٥٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١٢ • الحيوان ج ٢ ص ٨٥٧ • عمون الاخبار ج ٢ ص ٥٤

وسلموه وابن ماسويه / إن الذباب إذا ذلك به موضع لسعة الزنبور سكن و فلمنى زنبوره
 فحككت على موضعه اكثر من عشرين ذبابة و فط سكن إلا في قدر الزنجان الذي كان يسكن
 فيه من غير علاج و فلم يبق في يدى منهم إلا أن يقولوا و كان هذا الزنبور حقا قاضيا و
 ولولا هذا الملاج لقتلك (٥٥) و بعض مفسريه لقرا بنهموا به عن ظاهريه عن و مفسرا
 وفسره حسب أحوائهم و (وقالوا في قوله ويل للمطفلين و المويل وادنى جهنم و ثم قدوا
 يصفون ذلك الوادى و معنى الويل في كلام العرب معروف و كيف كان في ا لجاهلية قبل
 الإسلام و هو من أ شهر كلامهم) (٥٦)

ومن الخرافات التي شاعت بينهم منذ القدم أن لكل شاعر شيطانا يلقي إليه الإلهام
 ويقول على لسانه وإن الجن تنظم الشعر قال الأصمسي و (ومن أ لفاظ العرب أفساظ
 تنافروا لأن لا يبروه الشكر لسانها البركاه في ذلك
 تنافروا في بيت شعر لم يستطع المشرك لسانها إلا يوحى لا يحركها من فؤادها
 قول الشاعر :

وغير حرب يمكن قصير وليس نوب قهر حرب قصير

ولما رأى من لا علم له أن كسرا لا يستطع أن يمشد هذا البيت ثلاثا عرأ نفسه
 نعل واحد و فلا يتمتع و ولا يتلجج وويل له و إن ذلك إنما اعتراه إذا كان من أ شمار
 الجن و صد قوادك (٥٧)

قال أبو حية (وكان يكلم العماره وخبير عن مقارضة للجن) (٥٨) و (رسمت والله ظبية
 فلما نفذ السهم ذكرت بالظبية حبيبة لي و فشدت وراء السهم و حتى قبس على قذما (٥٩)

(٥٥) المصدر المذكور في الجزء الخامس صفحة ٢٦٤

(٥٦) المصدر المذكور في الجزء الاول صفحة ٢٤٤

(٥٧) البيان والتبيين الجزء الاول صفحة ٦٥

(٥٨) المصدر المذكور في الجزء الثاني صفحة ٢٣٠

(٥٩) المصدر السابق صفحة ٢٢٩

وهو القائل : (من لم يظن قوميته فواجب عن سواها فمأرضه والله المسموم ثم راجع فمأرضه
حتى صوره ببعض الخبرات) (٥٩) هـ أليس هذا ما يشهد في عصنا الصابغ المرحه الذي

يتبين ا لطائفة في علوها واسفانها وانحنائها حتى يصورها ببعض الأجزاء .

عصمت وبعضه علامته في عصبها

وهذا هو الجاحظ يظهر من جهال عصبه عن حركته وفي حاشيته الخفايا حسن

الجن هـ واستدواتهم الإنس وقتلهم وهو كد لهم هـ أن هذه خرافات ملأت أذهانهم هـ

فما يستطيعون شيئا فكألا هـ وأنهم لأغراض في تفوسهم يردون الصحيح هـ ويصححون السقيم هـ

فيقول هـ (وزعمهم أن الجن خنفت حربين أسية هـ وخنفت مردا منهن أهن طامره هـ وخنفت الخريف

المغني هـ وأنها قتلت سعد بن عباد هـ واستنوت عمرو بن عدي هـ واستنوت عمارة بن الوليد هـ

فأنتم أعلما ^{أعلماء} بالخرافات هـ أقول هـ على رد السقيم وتصحيح السقيم هـ وقد تطويل الحديث

المشهور إلى أ هوائكم (٦٠)

٥٩ المصدر السابق صفحة ٢٢٩

٦٠ الحيوان : الجزء الاول : صفحة ٢٠٢

واحدك جبينك للقضاء يتم

شمر قميصك واستعد لنا بل

حتى تصيب وديحة ليعتم

واخض جناحك إن مشيت تخشعا

وحين أكلت الأمانات الأضياء والأوصياء ، ورتع فيها المعدلون والصراخون ، وجب حفظها وقدما

وكان أكل الأرض لها خير من أكل الخئون الفاجره واللحم الغادر وأنا اليوم أنسى

عن العارية والوديعة ، وعن القرض والقرض ، وأكره أن يخالف قولى فعلى . . . إن الناس

فاغرة أفواههم نعو من عنده درا هم ، فليس يعضهم من النهم إلا اليأس ، وإن طعموا

لم تبقى رغبة ولا ناغية ، ولا سبد ولا لبد ، ولا صامت ولا ناطق إلا ابظموه والتموه (١)

ويصور ما كان عليه الصبايون وغير الصبايين في عصر من استئانة بأمر الدين ،

والحكم بالدموى ، والرغبة في القلج والنفع بقوله ، (وقد ترك هذا الجمهور الأكبر ، والسواد

الأظم ، لتوقف عند الشبهة ، والتشبث عند الحكومة جانبا ، وأعرضوا عنه صفحا ، فليس إلا ، لا

أ ونعم ، وإلا أن قولهم لا ، موصول منهم بالنضب ، وقولهم نعم ، موصول عنهم بالرضا

وقد عزلت الحرية جانبا ، ومات ذكر المسحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن . قال

عصوين العارث : كما يكفئ من الرجال ذا الرياء والنفع ، ونحن اليوم نتناها (٢)

ثم يصور طائفة أخرى من اللثام الطغام ، الذين فسدت أخلاقهم ، ونكبت عن الصواب

طبا نعمهم ، فيقول ، (وضرب آخر من الناس ، هج هاج ، ورتاع منتشر ، لا نظام لهم عولا

اختيار عندهم ، أصليب أجلاف ، وأنباه الأعراب لا يفترون ، لا تدفع صولتهم إذ اهاجوا ،

ولا يؤمن . . . هيجانهم إذا سكنوا ، إن أخصبوا طغوا في البلاد وإن أجدبوا آتروا العناء ،

ثم هم موكلون ببعض القادزه وأهل الدرا ، والنعمة ، يمتنون النكبة ويشتون بالعمرة

(١) كتاب البخل ، الجاحظ ، في العوامى والجمام الجزء الثاني صفحة ١٧٠ ، ١٧١

(٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ٨

فج الأمة في العارية كحكم الخدمة وأن الزوجة في كثير من معانيها كالأمة وأن الأمة مال كالذهب

والفضة وأن الرجل أحق ببيتته من الضرب وأولى بأخته من الهميد ، وأن الهميد أحق بالنيرة

والقريب أولى بالأنفة ، وأن الاستزادة في النسل كالأستزاه في الحرب (٥)

أما الأدهاء ، والسرقه والاحتياي ، والكديه والتسول ، في عصر الجاحظ ، فقد

أطلعنا عليها في بخلاتم ، وأرانا إياها على صفحات سخره ، فعرفنا شدة التصاقها بأخلاق

عصره ، وشيوعها في أبناء جيله ، وأنهم كانوا يتباهون بها ، ويجعلونها من أبواب الظرف

واللباقة . قال علي لسان (خالد بن يزيد مولى الممالكة ، هو خالو المكي وكان قد بلغ في

البخل والتكدي في كفة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد) (٦) (أنا لو ذهب مالي لجلست

قاصاً ، أو كلفت في الآفاق ، كما كنت - مكدياً ، اللحية وافدة بيضاء ، والحدائق جدير طل ،

والستحس ، والقبول على واقع ، إن سألت عوفى الدنيا أجابته ، وإلقليل من رحمة

الفا من خير من المال الكثير ، وصرت محتالاً بالتمار ، واستعملت صناعة الليل ، وأخرجت قاطع

طريق ، وأصرت للقمع عينا ، وليس مجهداً . سل عنى صحاليك الجبل ، وزواقيل الشام ،

وزبط الأجام ، ورموس الأكراد ، ومردة الأعراب ، وقتاك نهر بطء ، ولصوص القصر ، وسل عنى القيقانية

واقطرية ، وسل عنى التشبية ، ودياحى الجزيرة ، كيف بطش ساعة البطش ، وكيف حيلتى

ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة . . فكم من دينا سرقت نقتبتم فوكم من مطبق قد أفضيته ،

(٧) (وكم من سجن قد كابدتم)

وع أن خالويه هذا كان عالماً قصاصاً بليغاً داهياً متكلماً وكان أبو سليمان الأعمور

وأبو سعيد المداينى القاسان من علمائه ، إلا أنه كان مكدياً كما رأينا - مدحلاً موهماً ،

(٥) البخل : ١٠٠ الجاحظ : تحقيق طه العاجزى صفحة ٤

(٦) المصدر المذكور صفحة ٨٥

(٧) المصدر المذكور صفحة ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥

(٨) المصدر السابق صفحة ٨٧

شعيها ، مع كثرة ماله ، ووفرة غناه ، قالوا له : (إنك لتعترف بالكثيرين) قال : وكيف
لا أعرفهم ألم يبق في الأرض مخطرانى ، ولا مستعرض الأتربة ، ولا شحاذة ولا كاخنى ، ولا
بانوان ، ولا قريسي ، ولا عوامه ، ولا مشعب ، ولا مزيدى ، ولا اسطبل ، وإلا وقد كان تحت
يدى ، ولقد أكلت ا لذكورى ثلاثين سنة ، ولم يبق في الأرض كعبي ، ولا مكذ ، إلا وقد
أخذت العرافة عليه (٩)

ويقول عن بعض سكان ا لدور في زمنه من فسدت أخلاقهم ، وكثرت خدعهم ، فأضروا
بالدور وبأصحابها ، وبجيرانهم ، وأعملوا فيها ا لسرقة والتخريب ، وأتلفوها بإهمالهم ،
ورقة دينهم ، (ثم لا يدع مترسا إلا سرقة ، ولا سلما إلا حمله ، ولا نقضا إلا أخذه ، ولا برادة
إلا مضى بها معه ، ولا يدع دق الثوب والدق في المارن والميجان في أرض الدار) (١٠)
(ثم إن كانت الفلة صحاحا دغج أكثرها مقطعة ، وإن كانت أتصافا أو أرباطا دفمها قراضة
مفتتة ، ثم لا يدع مزابقا ، ولا مكعلا ، ولا زائفا ، ولا دينارا يهرجا ، إلا يسه فيه ، ود لسه
عليه ، واحتمل بكل حيلة ، وتأتى له بكل سبب . فان ردها عليه بعد ذلك شيئا ، حلف
بالضموس ، أنه ليس من دراهمه ، ولا من ماله ، ولا يآه قطه ، ولا كان في ملكه ، فإن كان الرسول
جارية رب الدار أفسدها ، وإن كان ظلاما خدعه هذا مع الإشراف على الجوران ، والتعرض
للجارات ، ومع اصطيات طيورهم ، وتعرضنا لشكايتهم ، وربما استضعف عقولهم ، وطمع نسي
فسادهم ، وبثهم ، فلا يزال يضرب لهم بالأصلاف ، ويخربهم بالشهوات ، ويفتح لهم أبوابها
من التفتات ليغيبهم ، ويربح عليهم حتى إذا استوتق منهم ، أهجلهم ، وحرق بدم ،
حتى يتقوه يهين بعض الدار ، أو استرحان الجميع وربما استأجر إلى جنب سجن

(٩) المصدر السابق صفحة ٨٦

(١٠) المصدر السابق صفحة ١٥٠

لينقب أهله إليه ، وإلى جنب صراف لينقب عليه ، طلبا لطول العيلة والستره ولطول
المدد والأمن (١١)

ومن مظاهر الاستبانة بالدين والمقدسة ، والانغماس في الطذات والشهوات ،

والغيب من الخبث الحسية ، التي نفرت منها الأديان جميعها ، بل نفرت منها الطباع

المستقيمة ، والفطر السليمة ، والمقول الذكية الحسيفة ، انتشارا لزنا والخلاعة ، والمطارحة

والتجميش ويل وصل بهم الانحطاط الخلق ، والدناءة النفسية ، والطبع الساذج ، إلى اتیان

الذکران والبهائم ، بل إن هناك من الخلعان من عرف بين الناس وشهرياً أن فلانا يتعشقه

ويهم به ، وأنه مختص به ، أتوردية ، يفضل على تسائه وجوارية ، في قضا شهوته ، والاعتصاف

به . ومن سخريات الجاحظ التي أوضحت لنا ذلك قوله في الخمر : (هجا حماد بن الزرقان

حماد الراوية ، قال :

نعم الفتى لو كان يعزفه
ونعم وقت صلواته حماد

هدلت مشافره الدنان فأنفه
مثل القدم يستها الحداد

وابيض من شرب العدامة وجهه
نهباضه يوم الحساب سواد

.. فقد رأيت جماعة من يعاقرون الشراب قد عظمت آفهم ، وصارت لهم خراطيم

منهم ، روح الصائغ ، وبعد الواحد صاحب اللؤلؤ .. (وأم كثير) (١٢)

وكانوا يطحنون النهيد وشاربه ، ويكثرون من الشرب وإن كان على الريق ،

ويكثرون عليه ، ويحتمون الشرب على الريق دليل الفتوة ، وإدمان الشراب مع ما نفسه

من دواء . قال الجاحظ في روايته عن محمد بن أبي المؤمل : (ومن لم يشرب على الريق

(١١) المصدر المذكور صفحة ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥

(١٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٤٤٥ ، ٤٤٦ تحقيق عبد السلام هارون ط

فهو يفسد في القوة ، وليس في أصحاب النبوة ، وإنما يخاف على كبد من سوء الشرب
على الرقي من بعد عده ، بالحم ، وهذه العصبة تفسد عنكم الأضرار ، وتنفى التخم ،
وليس دواء الخمار إلا الشرب بالكبار ، والأعشى فإن أعلم به حيث يقول :

وكأن شربت على لذة
وأخرى تداوتها بها (١٣)

ووضعوا القواعد التي تجعل الخمار والزمار والمض في أكمل ما تكون الصناعة
التي يتولاها : (قال إبراهيم بن هانئ : . . من تعلم آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء
ومن تعلم آلة المض أن يكون فاره البرذون ، وبراقي الثياب ، وعظم الكبر ، وسبي الخلق ،
ومن تعلم آلة الخمار أن يكون ذميا ويكون اسمه أدنين فأوشلوما أو ما زارآزدا نقاذار أو مينا
ويكون أرقطاً ثياب مختم الحنق) (١٤)

وكانت الجوارى والقيان تملأ أرجاء المدن والقري ولهن سوق في بغداد يسمى سوق
الخامسين يحرصن فيه للبيع والشراء فيحدث اللبس والتقليب في هذه السلع وتكثر المنازلة
والمطاردة ، وقد رأينا من قبل حكاية الجاحظ لجارية السوداء مكة ، ورفيت في الحج
وتقبيل العجرا الأسود ، كما دلنا الجاحظ على أخلاق القيان وتعرضن للفساد حتى صار
فيهن طبعا وخلوة يقول في رسالة القيان (وأكثر أمرها قلة الناصحة ، واستعمال الفساد
والعديلة في استنطاق ما يحويه المربوط ، والانتقال عنه ، وربما اجتمع عندها من مروطيسا
ثلاثة أو أربعة ، على أنهم يتحاضرون الاجتماع ويتفاهلون عند الالتقاء ، فتبكي الواحد
بصين ، وتضحك للأخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذلك ، وتعطي واحدا سرها ، والأخر ثلاثتها
وتوهم أنها له دون الأخر ، وأن الذي تظهر خلاف صورها ، وتكتب لهم عند الانصراف
تبا على نسخة واحدة ، تذاكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقيين ، وحرصا على الخلوة

(١٣) كتاب البخل ، الجاحظ ، تحقيق الصوامي ، ولبان الجزء الأول صفحة ١٨٥

(١٤) الهانئ والتهيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الأول صفحة ٩٢ ، ٩٤

دوهم ، فلو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو له ، فلا فتنة يستهوى بها إلا القيان
لكفاه ، وليس هذا يتم ، ليس بهل من فرط المدح (١٥) ويقول : (وكيف تعلم القينة من
الفتنة ، أو يمكينا أن تكون عفيفة ، وإنما تكسب الأموال وتتعلم الألسن والأخلاق بالانشاء
وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أو أن وفاتها بما يصد عن ذكرها لله من لهو الحديث ،
وصنوف اللهب والأخا نيت ، وبين العلماء والجان . . . وتروى الحادثة منهن أربعة آلاف صوت
فصاعدا . . . بنيت كلها على ذكرا الزنا والقيام والعتق والصبوة والشرق والخلة ، ثم
لا تنفك عن الدراسة لصناعتها ، منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحتهم كلسه
تجيشه ، وإيشادهم مراودة) (١٦)

ولم يقتصر الأمر على القيان بل تجاوزهن إلى الحرائر بل كلنهن ونهن ، وانتقل
الزنا إلى اللواط وإلى إتيان الحيوانات ، وقد أرشدنا الجاحظ إلى هذا الشذوذ الذي
كان في عصره ، من خلال تلكمة وسخره . قال حكايمة عن قاسم ، (فالتوى لي عرق حوين
فعدت فيها مقعد الرجل من الخلام) (١٧) (وقال في غلام له رومي ، ما وضعت بيني وبين
الأرض أطيب منه) (١٧) . (وكان قاسم التمار عند ابن أحمد بن عبد الصمد بن عيسى ،
وهناك جملة ، فأقبل وهيب المعتصم يمرضه بالخلمان . فلما طال ذلك على قاسم أراد
أن يقطعه عن نفسه بأن يهرقه هو أن ذلك القول عليه فقال : اشهد واجمعا أني . . .
العلمان ، واشهد واجمعا أني أعجج الصبيان ، والفتنة الفتاة تراه الأخوين المذكورين
وكان يهاديا نظيب الاعترال . فقال : عهنت بقولي ، اشهد واجمعا أني لوطي ، أي أني
على دين لوط ، قال القم بأجمعهم : أنت لم تقل اشهدوا أني لوطي ، وإنما قلت :

(١٥) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكر ، رسالة القيان صفحة ٧٢ ، ٧٣

(١٦) المصدر المذكور ، صفحة ٧٣ ، ٧٤

(١٧) إلبان ، والتجهين ، تحقيق عبد السلام دارون ، صفحة ١٣ الجزء الرابع .

اشهدوا جميعاً أني ... (الصبيان) (١٧) . ومن عليه الناس وأولى المناصب والرأى نفسى
الدولة من شأن يحمل تواذا ، ومن رجالات الدولة المدودين من كان يحثق الفلمسان
ويبدل لهم العنج ، وأمر لهم بالقروض والموائع جمالهم وبراعة صورهم وحسن قدودهم فيقول
أبو عثمان إن (زيد بن أيوب الكاتب) عمل في ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار نفسى
آخرأ ياص قواداً لبحى بن أكرم القاضي . وذلك أن الأأمون أمره بفرض نصير يحسى
بن أكرم أمر ذلك القرض إلى زيد بن أيوب ، وأمره ألا يفرض إلا لأمريء بأمر الجمال ، وحسن
القد والصورة فكان أمر ذلك القرض مشهوراً متعالماً ، ففى ذلك يقول الحسن بن عيسى
الحدادى لزيد بن أيوب :

أكل هذا طلب للمعاش	يانيد ياكا تيب فرض الفراش
(١٨) يشبت فى القرنين قبل الكباش	مالى أرى فرضك حملانهم

(وكان رجل ... الهفلات ، تجلس يوماً يخبر عن رجل كيف ... بخلة ، وكيف انكسرت
رجله وكيف كان يخالها ، قال ، كان يضع تحت رجله لبنة فينما هو ينسى فيها إذا انكسرت
اللبنة من تحت رجله ، وإذا أنا على قفاى) (١٩)

(... رجل كلية ، فحقدت عليه ، فلما طال عليه الهلأ رفع رأسه فصار فرجلا يطلع عليه من سطح
فقال له الرجل : أ ضرب جنبها فلما ضرب جنبها ، وتخلص قال : قاتله الله أى ... كلبات
هو (٢٠)

(١٧) البيان والتبيين الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون صفحة ١٢ الجزء الرابع .
(١٨) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فذلك صفحة ٥٥ .
(١٩) المصدر المذكور صفحة ١٤ .
(٢٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٥ .

والخرافات في العصر الحباسي تصيب راف وافر ، نتيجة العلم المنقول ، والمعارف
المتحولة من لغتها إلى العربية بما فيها من خير وشر ، زيف وأباطيل ، وأكاذيب وأساطير
ثم بما يضيفه العرب إليها من معتقداتهم الخرافية ، وقصصهم الوهمية ، وما يخترعون ويولدون
لأغراض اجتماعية أو سياسية ، دينية أو دنيوية ، وكان الكيريمون يبا ، ويجنم بصحتها
وسدادها ، وقد كشف لنا سخر الجاحظ الكور من الخرافات التي كان يعيش فيها عصره ،
فقال حكاية عن بعضهم : (إني قد بيت في القفر مع الغول ، وتزوجت السحلاة ، وحاويت
الهامات ورفقت عن الجين إلى الحن ، واصطدت الشق ، وحاويت النسناس ، وصحبتى الرقى) (٢١)
(وأما قول النساء وأشبه النساء في الخفافيش ، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عصى
الضبي ، لم ينزع منه من لحمه وحتى يسمع نقيق حمام روحش ، فما أنسى فزى من سن
الخفاش ، وروحش من قومه ، وإيما تأ بذلك القول ، إلى أن بلغت) (٢٢)

ومن الخرافات المزروعة المتقنة الصنع من بعض الحواة في خلافة المنصور هو التي
اكتشفها السامع فخرى بها وسخر من المتحدث بها ما يهويه الجاحظ في كتابه الغد
"الحيوان" قال : (زم ابن أبي المجوز الحواة أن الاناس صم ، فلذلك لا تجيب الرقى
ثم زم لي في ذلك المجلس أن أمير المؤمنين المنصور أراد امتحان رقى حية ، وأن يتعرف
صحتها من سقمها ، وأنه أمر فاصوا له أنقى من رصاص قباة ولا يشك الناظر فيها ،
وأنه أمر بالزناد في موضع من السقف ، وأنه أحضره ، وقال له : إن هذه الأوكسي
قد صارت في هذه الدارة ، وقد كرهتها لمكانها ، فإن احتلت لي برقية ، أو بما أحببت
أحسن إليك . قال : إن أردت أن آخذها هربت ، ولكن إرقبها حتى تنزل ، فوقاها
فلما رأها لا تتحرك زاد في رفع صوته وألقى قناعة ، فلما رأها لا تتحرك نزع صامته وزاد

(٢١) كتاب الخرافات ، الجاحظ ، ضبط المراسم والجوامع ، الصفحة ٨٨ .
(٢٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، الصفحة ٢١٧ .

في رفع صوته ، فلما رأها لا تتحرك نزع قلبه وزاد في رفع صوته ، فلما رأها لا تتحرك نزع
ثيابه وزاد في رفع صوته ، حتى أزيد وتصرخ في الأرض ، فلما فعل ذلك سأل ذلك الوصاح
وذا اب حتى صار بين أيديهم ، فأقر عند ذلك المنصور بوجوده رقيه . فقلت له ويحك لا زمت قبيل
أن الأفاعي لا تجيب الرقى لأنها لا تسمع وهي حيوان ، ثم زمت أنها أجابت وهي جماد (٢٣)
ولم تقتصر الخرافات على عامة الأمة وجهالها ، ومن لم يتوا إلى العلم والدين
بسبب وثيق ، وهرق عرقه بل امتدت إلى العلماء ، ووجدت لها في نفوسهم ركا تأوى إليه ،
وتفتت سمومها من خلاله ، فيما يكتبون ويفسرون ، وامتد تأثيرها إلى خاصة المتكلمين والمفسرين
والحدثيين ، وأهل الرأي والتدبير ، يقول الجاحظ متأخرا من مزاج بعض العلماء : (وزعم
لي بعض العلماء من قدروى الكتب ، أن حية يقال لها الداس من تدولا ثيبض ، وأن أنثى النمر
لم تضع نمرقاط إلا ومعه أفسى . والأعراب قرع أن الكأة تبقى في الأرض فتعظم مطرة صيفية
فيتمتدحيل بعضها أفاع ، فسبح هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائنين ، فزعم أنه عاين كأة
ضخمة فتألمها ، فإذا هي تتحرك ، فتمض إليها فتلقها فإذا هي أفسى ، هذا ما حدثته
عن الأعراب حتى برئت إلى الله من عيب الحديث) (٢٤)

(وما لا أكذب لك من الأخبار المجيبة التي لا يجسر علينا إلا كل وقاح ، أخبار
بعض العلماء ، وبعض من يولف الكتب ، زعموا أن الضيق يكون عاما ذكرا وهاما أنثى . وقال
الفضل بن إسحاق : أنا رأيت العفس واليلوط في فسن واحد ، ويزعمون أن النمر تضع في مشية
واحدة جبروا وفي عنقه أفسى قد تطوقت به) (٢٥)

(٢٣) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ٤١٩ ، ٤٢٠

(٢٤) المصدر المذكور صفحة ٢٥

(٢٥) المصدر السابق الجزء السابق صفحة ٤٩

(وزعم بعض المفسرين أن المنور خلق من عطسه الأسد ، وأن الخنزير خلق من

(٢٦)

سلحة الفيل) وسئلوا عن قوله تعالى قل أموذ برب الفلق قالوا : لا لويل واد فسى

جدهم ، ثم قعدوا يصفونوه (٢٧) . (وكان أبراسحاق يقول : لا تستر سلوا لي كثير من المفسرين

وإن نصبوا أنفسهم للامة ، وأجابوا على كل مسألة ، فان كثيرا منهم يقول بخير رؤية ،

على غير أساس ، وكلما كان المفسر أقرب قدهم ، كان أحب إليهم (٢٨) .

كان المصرا العباسي يمج بمختلف المذاهب ، وشق النحل ، وأنباط من الحصبيا

وألوان من الديانات ، وعديد من الطوائف ، كل يحاسن عن رأيه ، ويدافع عن مذهبه ، ويتعصب

لأبنا جلدته ، ويضع غيره ، ويحاول إخماله .

وقد كان للشعرية شأن وخطر ، فهي الوسوس الذي ينخرق عظام الأمة العربية ،

والدولة الإسلامية ، وهي كما أعطانا الجاحظ صورة عندها ، تهافت الحرب والإسلام يقول :

(والشموية والآزلية ، المهنضيون آل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ومن فتح

الفتح ، وقتل الجوس ، وحاه بالإسلام ، وتزيد في جشوة عيشهم وخشوة ملابسهم ، وتقتس

من نعيمهم ، ورفافة عيشهم (٢٩) . ويقول : (اعلم أنك لم ترقوا قط أنتق من هؤلاء الشموية

ولا أمدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لمرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل قنبا من أهل

هذه النحلة ، وقد شق الصدور منهم طول جنم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنتان

في قلوبهم ، وغلبن تلك الرجال الفائرة ، وتسمرت تلك الثيران المضطربة (٣٠) .

(صار ولا أمونا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استهصارا في التشبيه بين

(٢٦) المصدر السابق ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٤٧

(٢٧) المصدر السابق الجزء الأول ، صفحة ٢٤٤

(٢٨) المصدر المذكور ، صفحة ٢٤٢

(٢٩) انبغاط الجاحظ ، تحقيق طه الجاجدي ، ص ٢٨٨ ، من المواضع والجانب ٢٠٦

(٣٠) البيا نوال تبين ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٩ ، ص ٣٠

عليقنا ، وأعلم بما يلحق فيه منا ، واكشف للقناع عن رؤسائنا ، وصادقوا الناس وقد انتظموا معاني
 الفساد أجمع ، ولفوا غايات البدع ، ثم قرنوا بذلك المصيبة التي هلك بها عالم بعد عالم
 والحمة التي لا تبقى دينا إلا أنسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من
 مذهب المشوية ، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب (٣١)

أما الديانات غير الإسلام فمتعددة فبجانب المسيحية واليهودية وجدت الزرادشتية ،
 والمانوية ، واللتوية والدهرية ، والجوسية ووجدت الفرق المتعارضة ومنها الديسانية
 واللابتية ولكن مذهب أتباع وأنصار ويويدون يدافعون عنه ويحارون وكثرت المذاهب فسي
 كل دين حصار الخلاف بينهم شديدا ، وكثر الجدل والخلاف ، وهم جميعا يكتفون للإسلام
 ويخصون له التحقير ..

قال الجاحظ في النصارى : (ودينهم يرحمك الله - يضاهاى الزندقة ، ويناسب
 في بعض وجوه قول الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة ، والدليل على ذلك أنها
 لم تر أهل ملّة قط أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر تحميرا أو مترنحا منهم ، وكذلك شأن
 كل من نظرفى الأمور الغامضة بالحقول الضيقة ، ألا ترى أن أكثر من قتل فى الزندقة ممن
 كان يحتل الإسلام ويظهره ، وهم اللثمين آبا وهم وأما نهم نمارى (٣٢) على أن هذه
 الأمة لم تتبدل باليهود ولا الجوس ولا الصائين كما ابتليت بالنصارى وذلك أنهم يشعرون
 المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا ، والتمشابه من آى كتابنا ،
 ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عننا عوامنا ، مع ما قد يحملون من مسائل الطلحين ،
 والزنادقة اللاميين ، وحتى مع ذلك ربما تبرءوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشغبون
 على القوى ، ويلبسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه يتكلم

(٣١) رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، جمع حسن السندون صفحة ٢٩٩

(٣٢) ثلاث رسائل الجاحظ ، طبع يوشع فنكل صفحة ١٧

وأن ليس أحد أحق بمحاكمة الملحدين من أحد (٢٣) ، وقال عن معتقدات اليهود ساخرًا :
 (لهم علق أن النظر في الفلسفة كفره والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شهرة ، وأنه
 لا علم إلا ما كان في التوراة ، وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب وتصديق الشجون من
 أسباب الزندقة ، واخراج إلى الدهرية ، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة ، حتى أنهم
 لم يخرجوا المشهور بذلك ، ويعرّمون كلام مالك سبيل أولئك (٢٤)

وقال في الزنادقة : (والزندقة لم تكفأمة فولا كان لها ملك ولا ملكة ، ولم تنل
 بين مقتول وهارب ومنافق) (٢٥) . (وليس في كذبهم مثل سائر ولا خير طرف ، ولا صنعة
 أدب ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آله ،
 ولا تعلم فلاحتا ، ولا تدبير حرب ، ولا مناوذة عن دين ، ولا مناوذة عن نحلة ، وحل ما فيها
 ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين وتساعد المقاربت وكله هذرون وخرافة وسخرية
 وتكذب) (٢٦)

وتكلم كثيرا عن المجوس وفرقتهم ومذاهبهم وسخر من مبادئهم ومقائدهم مؤكدة كلامه
 عن أنفسهم وذريعتهم ، دليل اطلعه عليها ، وحرقه بها ، وانتشارها في عصره ، وبين
 أنها جهلاء ، ولا غرابة فهو دين الفرس الذين مكوا للصائسين ، وتمكوا من المبشرين ،
 وصارت لهم الدمية والصلوة والمشورة والوزارة .

يقول عن اعتقادهم في مبدأ خلق الإنسان : (وهم المجوس أن الناس من ولد مدينة
 ومدينة ، وأنهما توالدا فيما بين أرحام الأرضين ، ونظفتين ابتدرتا من هوى ابن هرمز حين
 قتله هرمز ومخافات أصحاب الاتيين كثيرة في هذا الباب) (٢٧)

(٢٣) المصدر السابق صفحة ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

(٢٤) أمراء الهبان ، محمد كرد علي ج ٢ ص ٣٦٤

(٢٥) الحكيان ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٣٨

(٢٦) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٥٧

(٢٧) المصدر السابق صفحة ١٩٠

وكما زال الناس كافة ، و لأمر قاطبه حتى جاء الله بالعق مولمين بهتظيم النار

حتى ضل كثير من الناس ، ولا فزا طهم فيها أنهم يمد ويداً (٢٨) (والمجوس تقدم النار في

التمظيم على الماء ، وتقدم الماء في التتمظيم على الأرض ، ولا تكاد تذكر الأعراف) (٢٩)

(وزعم أصحاب الكلام أن زياد شئت - وهو صاحب المجوس - جاء من بلخ وأنه أن الوحي

نزل عليه على جبل سيلان . . . وكانه إذا قيل له أنت رسول إلى من أقال لأهل البلاد

الباردة ، الذين لا بد لهم من عهد ولا عهد لهم إلا الثلج وهذا جعل منه وسن

استجاب له أجهد منه) (٤٠) . . . ويؤمن زياد شئت وهو مذهب المجوس أن النار من خلق الله

وأن الشجر من خلق الشيطان (٤١) . . . وقد كان المجوس ينكحون أمهاتهم بدوى الجاهل

في سخرية ، (استعمل معاوية رجلاً من كلب ، فذكر يوماً للمجوس ، وندبه الناس فقال

لهم والله المجوس ، ينكحون أمهاتهم ، والله لو أخطبت ما نكحني ألف درهم ما نكحت أسى ،

فبلغ ذلك معاوية ، فقال ، قاله الله ، أتقوه لو زناهوه على مائة ألف ففعلوا فتمزله) (٤٢)

وقيل من الدهرية ، (قال أبو إسحاق ، قالت الدهرية في حالنا هذا بأقارب ، فنفسم

من زعم أن مالنا هذا من أربعة أركان ، حرور ، وحرور ، وسائر الأشياء نتاج وشركب

وتوليد ونفسم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان ، من أرض وهوا ، ويا ، ونا ، و

وجعلوا الحر والبرد واليس والبلية أركاناً في هذه الجواهر) (٤٣) . (الدهرية ليس يرى

لأن في الأرض دينا أو نحلة أو شريحة أو ملة ، ولا يرى للحلال حمة ولا يعرفه ، ولا للمعاصم

نباية ولا يعرفه ، ولا يتوقى العقاب على الإساءة ، ولا يترقى الثواب على الإحسان ،

- (٢٨) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٤٧٨
- (٢٩) المصدر المذكور صفحة ٤٨١
- (٤٠) المصدر المذكور والجزء الخامس صفحة ٦٧
- (٤١) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٢٦٨
- (٤٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٦٠
- (٤٣) المصدر المذكور الجزء الخامس صفحة ٤٠

وإنما الصواب عنده ، والحق في حكمه ، أنه والبدوية سببان وأنه والسبب سببان ، ليس
القبح عنده إلا ما خالف هواه وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك ، وعلى اللذة والألم
وإنما الصواب فيما نال من المنفعة ، وأن قتل ألف إنسان طالح لعائلة الدرهم الردى^(٤٤)

ومن سخرياته تتضح عقائد المانية أتباع ما نرى . يقول (إن المانية تزعم أن العالم
يما فيه من عشرة أجناس : خمسة منها خير ونور ، وخمسة منها شروط ظلمة ، وكلها حاسة وحارة
وأن الإنسان مركب من جميعها على قدر ما يكون في كل إنسان من رجحان أجناس الخير
على أجناس الشر ، ورجحان أجناس الشر على أجناس الخير)^(٤٥)

ويضرب بهم المثل الساخر يشبههم فيه بمن عصى بصره وقلبه بحسب الخطأ والجهد
في غيره ، وإنما هو متأصل فيه ونابع منه يقول : (إن أنا سألهم جهلوا الأسباب والمعاني
وقصروا في الخلق عن تأمل الصواب والحكمة فيها فخرجوا إلى الجحود والتكذيب ، حتى أنكروا
خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها بالاحمال لا صنعة فيه ولا تقديره فكانوا بمنزلة عميان دخلوا
دا را قد بنيت أثنى بنا ، وفرشت آحسن فرض وأعد فيها من ضروب الأطعمة والأشربة

والآداب ، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقديره فجهلوا بسخون فيها محجوبة
أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها ، وربما عند الواحد منهم بالشئ ، قد وضع
في موضعه ، وأعد لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتدبر وتخطه وهم الدار وباطنها)^(٤٦)
وفسر معتقد الديمانية وهم فرقة من الجحور ، (زعمت الديمانية أن أصل العالم

إنما هو من ضياء وظلم ، وأن الحار والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي
نتائج على قدر متراجحها)^(٤٧)

(٤٤) أمراء البيان ، محمد كرد علي ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٤٥) الحيوان ، الجزء الرابع صفحة ٤٤٢

(٤٦) أمراء البيان ج ٢ ص ٢٦٨

(٤٧) الحيوان ، لاحظ ، الجزء الخامس صفحة ٤٦ .

أما المذاهب الكلامية في الإسلام فكثيرة كثيرة ، وبين أربابها تعارض وتضارب ، حتى
 ليكفر بعضهم بعضا ويزنقه ، وعلو أنهم جميعا ممن بدع في الفلسفة واللسان ، ومارس المفاخرة
 والمعاورة ، وهرقا لحجج والبراهين ، والفسطة والجدل ، ونال من العلوم النصب الأوفى
 يقول الجاحظ مينا ما يجب أن يكون عليه المتكلمون من علم وفقه ، (ولا يكون المتكلم جامعا
 لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة ، يصلح للبراسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين
 في فن الذي يحسن من كلام الفلسفة هو العالم عندنا هو الذي يجمعهما) (٤٨)

ثم يرفع المتكلمين مرتبة سنية لجودة الأصل التي يبنون عليها ، وصحة القاييس التي
 يقسمون بها ، ويتنى أن يكونوا أصحاب المهن والفنون حتى يأتي نتاجهم لأصداق فيسه
 ولا تلمة فيقول وكلامه ينطوي على السخر بأطباء عصره ، (ما كان أخرجنا ، وأحق جميع المرضى
 أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، والى أن يكون المتكلمون علماء ، فإن الطب لو كان من نتاج
 حذاق المتكلمين ، ومن تلقب ^{تلقبهم} لهم ، لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد) (٤٩)

ثم يرفع المعتزلة على سائر المتكلمين ، وإبراهيم بن سيار البلخي الشهير بالنظام
 "أستاذ" على سائر المعتزلين فيقول ، (لولا مكان المتكلمين لميلت المواج ، من جميع
 الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لميلت المواج من جميع النحل ، فإن لم أقل ، ولولا أصحاب إبراهيم
 وإبراهيم لميلت المواج من المعتزلة ، فإنني أقول ، إنه قد أتبع لهم سبلا ، وفقى لهم
 أصولا ، واختصر لهم أبوا با ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة) (٥٠)

ولو ذهبنا نعدد المذاهب والنحل ، وننتج المعتقدات والطل في سخر الجاحظ
 لكان بنا النظام ، ولأسلمنا هذا المبحث إلى التيه اللجن ، والذي فيه تفرق ، ويشرق بحثنا
 مينا ، وإنما اكتفينا بالمذاهب المشهورة ، والمعتقدات السائدة في عصره ، وأجملنا في
 قولنا إن لكل مذهب مسالك وشعاب ، واتجاهات وانقسامات تهمدنا عن موضوعنا ، ونحن في
 حاجة إلى البقا ، فيه حتى نؤخيه حقه إن شاء الله

(٤٨) المصدر المذكور ، الجزء الثاني صفحة ١٢٤

(٤٩) المصدر السابق ، الجزء الخامس صفحة ٥٩

(٥٠) المصدر المذكور ، الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

الفصل الأول

خلقتة وأخلاقه

إذا تجرد المرء من النوى ووجد عن التحيز، وتأى عن النج والتزده، وتخذ الصدق رائده، والصراحة مسلكه، ثم نظى بحسن عقله إلى هيئته وصورته، فشدها، وليس خلقه وطباعه، فأبرزها وأوضحها، فإنك لن تجد كاتباً يبلغ ما بلغه، ولا مؤرخاً أراد بها يصل إلى عمق ما وصله، ولن يعرف حقيقة الإنسان أكثر من نفسه، ولن يفرص في أخواره ويطلق ما فيها على السطح غير غواص ما هو، يعرف حناياها وخفاياها، لأنه ما يشأ عند نشأتها عرشها أطوارها، ونورها، وصحبها، فن يقطبها ونومها، وفردتها وكتابتها، يعرف ما انطوت عليه من عيوب وحسنات، وما تولد فيها من هياج وانفعالات، وما استكن داخلها من آلام وآمال، وذلك الغواص الطاهر الخبير الذي تتوافر فيه هذه الصفات هو الشخص نفسه، الذي يريد أن يكشف نفسه بنفسه، وقد يكون ردى العبارة، فج الأسلوب بدائى التمييز، ولكنه مع ذلك قادر على الإفصاح عن نفسه، وذكر حقيقة خلقه وتصرفه أكثر من رهب البیان، فربق الفصاحة ورافة اللسان، وأنا لا نريد التزوير والتزييف، والطلاء والتزيين، وإنما رائدنا إيضاح الحقيقة، وكشف المستور، وإبرازها كما هو، غير مشوه، فإذا كان هذا المرء لصيحاً، بارج الأداة، وذكر القلب، فطن العقل، فقد اجتمعت الآدوات، واكتملت الخطوط، وبرزت الصورة واضحة، وناطقة، لا ليس فيها ولا غرض، وأستاذنا الجاحظ خبير من توفرت لديها الشروط، واجتمعت فن واحتجبه الخطوط لوبرز لنا حقيقته، ويجلى واقعته، ويصيب من نفسه مؤرخاً لنفسه، ومن غلر حاكماً على عقله، فن حياء، ورجابية، وساطة ربيع، نستشفها من سفره، ونقتصبا من فكاوته وطقزه، فيرشدنا بنفسه إلى نفسه، وتستدل به عليه.

كان الجاحظ قصيرا القامة ، واسع الحدقتين ، قبيح الشكل ، مستوحش الخلقه .

أما نقرة عينيه وجووظهما فلأنه إنما لقب "الجاحظ" لذلك ، كما لقب بالحدائق للسبب

نفسه . يقول ياقوت في كتابه معجم الأديباء : (روى أصحابنا أن الجاحظ صار إلى منزل بعض

إخوانه ، فاستأذن عليه ، فخرج إليه فلم يجبه ، فقال : من أنت ؟ قال : الجاحظ .

فدخل الخلام إلى صاحب الدار فقال : الجاحظ علي الباب . وسميها الجاحظ ، فقال صاحب

الدار للخلام اخرج فانظر من الميول ، فخرج يستخبر من اسمه . فقال : أنا الحدائق .

فدخل الخلام فقال : العائلي . وسميها الجاحظ فصاح به في الباب : ردنا إلى الأول (١)

وأما قصرتا منته فلما رآه في قوله : (رأيت بالبحر امرأة طويلة القامة جدا ، ومن على

طعام ، فأردت أن أمارحها ، فقلت : انزلي حتى تأكل معنا . قالت : وأنت فاصعد حتى

تري الدنيا) (٢) وهذا دليل قصره والنصافه بالأرض .

أما قبح خلقته ، وشناعة هيئته فنستدل عليها من سخرياته بنفسه قال : (ذكرت للعثوكسل

لثأديب بمخزولده ، فلما رأيته استهشع نظري ، فأمرني بمشروه آلاف درهم وصرفني) (٣)

وقال : (ما أخجلني أحد مثل امرأة تون . . . وأما الأخرى فإنيما أفتنى وأنا على باب دارى

فقلت : لي إليك حاجة وأريد أن تمشى معي ، فقمت معها إلى أن أتيتني إلى صانع

يهودي ، فقالت له : مثل هذا . وانصرفت . فسألت الصانع عن قولها ، فقال : إنيما أتت

إلى بنفسه وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان . فقلت : يا سيدي ما رأيت الشيطان .

(١) معجم الأديباء ، ياقوت ج ١٦ ص ٨٥

(٢) الأذكياء ، عهد الرحمن بن الجوزي صفحة ٢٦٢

(٣) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ج ٣ ص ١٤ ، شعرات الأرواق ، ابن حجة العمري ، هامش

الاستطرفة ١ ص ٩٢ .

كأنت بك ، وقالت ما سمعت^(٤) ويروى (أنه) اشترى جارية تركية جميلة رجاء أن يفتق منها ولدا يكون بحسبها ، ودكائه ، فولدت له ولدا ، جاء يقبضه ويحملها^(٥)

ويجز هنا سؤال ، يستدعيه الموقف ، ويتطلبه المقام ، ويصل بموضع البحث أرقى أعمال .
وما الذي يدفع الإنسان إلى أن يسخر من نفسه ، وما الأسباب التي جذبت الجاحظ إلى السخرية من شكله ، وإضحاك الناس من خلقته ، ومن بعض تصرفاته ؟
وأجابني عن هذا السؤال تكون بتعداد الدواعي ، وذكر الأسباب التي من أجلها يكسف مسأله ونفاقه ، ويفضح عن غيره وسقطاته ، ويدعو الناس إلى السخرية منها ، والتمسك بمراقبه .

وأول تلك الأسباب في السخرية ، خفة روحه ، ونشاط نفسه ، ومداه عن القوت ، وهله
في الضحك والإضحاك محبه للسخر مع احترامه شعور غير وأحاسيسه ، تسري من غيره أن
جعل موضوع سخره ، فيضحى بنفسه ويسخر منها ، فربما يما يتركه في حق نفسه وما
قصه من كرامته ومروحه جلبا للضحك ، ورفية في التفكه والامتناع ، ومن أمثلة ذلك عند الجاحظ
نصته مع الذبان ، وقصته مع القصيرا الهلطين الألسي ، ومع المرأين اللتين كتبا لغيره
جائبه وهو يركب حماره^(٨) .

وقد يقصد بسخره التفتيس عن فيض مكبوت ، وألم دفين ، وكبح حويوسه فطلب المسح
ن طريق السخرية ، عليها تخفف لواجه ، وتبدى تآكده وصبرها على نفسه وهيمته ومواقفه ،
خرا من الزمان ، وهزءا بالأحداث ، وكأنه بذلك يتمالي على كوارث الأيام ، وهزءا بمخارقاتها
بما وقع له فيها ، كقصته مع الثوكل حين صرفه عن تأديب ولده لهشاعة خلقته^(٩) .

(٤) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ج ٢ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥

(٥) المرجع المذكور صفحة ٤٥٨

(٦) لقصص ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٤٦

(٧) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء الثاني عشر صفحة ٢١٦

(٨) الأذكياء ، ابن الجوزي ، صفحة ١٢٤

(٩) النظر للصفحة السابقة رقم (٣) بالهامش .

قد يكون سخره من نفسه لفرغ حفيف ، وفكرة مائة ، يرس من ورائها إلى صرف الناس
من عبود ومن الهمز بنقصه ، إلى الضحك من كلامه ، والتكلم بقصته ، فيتبدل السخر منه استظانا
لحدوثه ، وإعجابا بما يرويه ، كما روى الجاحظ في قصته مع الظلم المجنى وسيد .
(١٠)

وقد يسارع بها لسخر من نفسه ، ويأثر بذكر ما وثه ، فلا يدع لخصه مجالاً يطعمه فيه
لا يترك مخمرا يشق منه حقد قلبه ، وفل نفسه ، وهو بذلك يكتب عدوه ، ويسد عليه المنافذ
التي قد تخرج شيئا من ألمه ، فيظل مرجل الفيظ يخلو في قلبه ، لأنه كان يريد امتلاك
نظام العبادة ، وتعداد الصيوب بنفسه ، وتنسيق الكلام حسب إرادته ، ولكن السخر سبقه
إلى ذلك فألجمه ، وكان سخره من نفسه انتقاما من خصه ، وتغريضا له ، ومن ذلك عند
الجاحظ حكايته التي يروي فيها ما حدث له مع المرأة التي أخذته إلى الصائغ ، وقصته
مع امرأة الطويلة التي كادت بالمسكر .
(١١)
(١٢)

وقد يسخر من نفسه ، قبل أن يسخر منه غيره ، ومع أنه إفصاح عن عبود ، وإيداز لتقائمه
إلا أن فيه حفظا لشيء من كرامته التي تسقط لوعابه غيره ، لأنه هو الذي لمزكرامة نفسه
وأوضح الخلل في قوله وتفكيره ، وأظهر التشويه في خلقته وتركيبه ، وكأنه يقول : يهدى لا
يهدى صرو فينضح نفسه في جرأة وشجاعة قد يحمد عليها ، ومن هذا اللون سخر الجاحظ
من نفسه لتسميته كنيته وسؤاله عنها في ورأيه القاسد فيما فعله الخفافيش .
(١٣)
(١٤)
٦- وربما كان سخر الإنسان من نفسه مخرجا له من مأزق ، أو جأ لها له خيرا ، أو دافعا
عنه ضرا ، حيث يعمل المرح في نفس من أراد ضربه محل الغضب والانتقام ، فيجد برد الراحة

(١٠) انظر الصفحة السابقة أو التي قبلها رقم (١) بالهامش .
(١١) انظر الصفحة السابقة رقم (٤) بالهامش .
(١٢) انظر الهامش السابق رقم (٢) .
(١٣) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء الثاني عشر صفحة ٢١٢ .
(١٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ١٦٢ .

البيان قسا

التي يجعلها الضحك ، مكان نار الحقد الذي يدفعه إلى التشنج فيعقرو ويضع ، وقصة تور
ابن أبي داود الذي أحرق فيه ابن الزيات ثم هرب الجاحظ خوفاً من أن يكون ثلثي
اتمن إذ هما في التور ، كما ذكر حين سأله ابن أبي داود ، لم هربت - شاهد طاق
على هذا الضرب من سخر الشخص بنفسه ، فان ابن أبي داود علمه المشاشه ، وضع عنه ،
وقد عهد ، وكما ، وأجله في مجلسه ، وأقبل على حديثه وطلاطقه .
عل أن ضحك الإنسان من نفسه ، وسخر من خلقه كخلقته أو تصرفه ، تبعته فيه ، ومع النفس
وهشاشة الطبع ، ولباقة وكياسة ، وسرعة خاطره ، وبعد نظره واستمالة بالحياة ومطاميرها ، وذلك
يقوى السخرونيمة ، ويجعل له طعناً عنكبة ، لأن الماخخر هو موضوع السخرية وأصلها ،
ومشيتها ، والمككة هذا عوالضاحك والمضحك ، ويطل القصة والفتوح بها .
أما أخلاق الجاحظ فأول ما يطلعنا منها تكلفه بالفكاهة والبرج ، وولعه بالضحك والسخر
وذلك شائع في جل تصرفاته ، ومنتشر في سائر مؤلفاته عند أن تجد له كتاباً أو رسالة أو حديثاً
ظاهراً ، خلوا من نكمة من مزاح ، ولذع سخره ، ولم يكن الجاحظ بالكثير العائس
والقطب الكالم ، وإنما كان متفائلاً بالحياة ، محباً لها ، مقبلاً عليها ، مستبشراً بأبرزائها ، خبيرها
وتعقبا ، لعرف لها طبيعياً المتقلب ، من ليونة وقساوة ، وكلاوة ومراة ، فاتخذ من المزح
تزياناً يلطف به شربها ، ومن السخر دواءً يطيب به أدواها ، حتى ليضحك إبان شيخوته
ورضه ، ويولع بالناس ، ويركبهم بسخوه ، مع فالحة ونقرسفة ويتهم حتى يصل تمكته إلى أخلاق
شيخه وأساتذته ، بل يصل تمكته إلى سلوكه هو وأفكاره وتصرفاته ،
لقد ضحك الجاحظ ما أمكته ، وضح الضحك ، ودعا إليه ، وحث عليه ، يقول : (وأنسنا
استظرف أمرين استظرفنا شديداً : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر
احتجاج متازعين في الكلام ، وهما لا يحسنان منه شيئاً ، فانهما يثيران من غريبت

باب سائل ، ولون حائل ، فقلت للجارية : لا بد من النظر إليه ، فقال : هذا رجل ورد
صرة ، وسبحي ، ويريد أن يقول ، رأيت الجاحظ ، فأذن لي ، فكشكت وسلمت ، فوردنا
بلا هو قال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله أسلافك وآباءك السحابة
كانت أياهم رباح الأزمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيرا كثيرا ، فسقيا الدم ورعبا ، قد هوت
وقلت له : أنشدني شيئا ، فقال :

مشيت على رسل فكتبت المقدما

لئن قدمت قبل رجال فطالما

فتبهم منقوضا وتقفض مسسبرا

ولكن هذا الدهر تأنى صروفه

تهدت ، فلما قرئت من الباب قال : يا فتى ، أرايت مفلوجا ينغمه إلا هليلج ؟ قلت : لا

ل ، إلا هليلج الذي معك ينغمس ، فابحث إلى منه . فقلت : نعم وجيت من وقوه على

بيري ، من كفى له ، وبحثت له منه شيئا (١٩) ونحن أشد تعجبا من وقوع الجاحظ على هذا

لغيره ، ولا تفسير له ، إلا ما وصفت به الجاحظ من تقير وتنقيب .

أحب الجاحظاً سادته وأصدقاه ، ومدحهم ، ووفى لجهنم ، وحفظ لهم واجبات الاستاذية

بالصدقة ، فأعجب بالنظم أنبيا إعجاب وقال عنه (إن لم أقل : لولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم

لملكت السما من المحترلة ، فإني أقول ، إنه قد أتبع لهم أمورا ، واختصر لهم أهوايا

ظهرت فيها المنفعة ، وشغلتهم بها النعمة (٢٠) كما قال عنه ، إن الأرائل يقولون

في كل ألف سنة رجل لا نظيره ، قرن كان ذلك صديقا فهو أبو اسحاق النظام (٢١)

كما مدح أبا عبيدة بأنه (لم يكن في الأرض خارجي ولا جصاص أعلم بجميع العلم منه) (٢٢)

(١٩) جمع الجواهر ، الحصى ، صفحة ٢٠٣ ، زهر الآداب ص ١٩٨

(٢٠) ١ لحيوان ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

(٢١) أمراء الهبان ، الجزء الثاني صفحة ٣١٧

(٢٢) ١ الهبان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٢٤٧

كما أعجب به موسى بن سيار الأسارى وقال عنه (كان من أعجب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية
 في وزن فصاحة بالعربية) (٢٣) فقد كان يعرف لكل ذي حق حقه ، ولكل عالم فضله ، ولئن تناول
 البعض بسخره ، فانما ذلك دليل الحب ، وطلع العنسة فلهذا الكلفة ، واللصوق بالقلب
 لأنه لا يسخر إلا لمن لا تفضيه السخرية بقول : (ولمنا من تسمية الأصحاب العزيمتين
 ولا فبرهم من المستورين في شيء ، أما الصاحب فانما لا تسمية لحرمة ، وواجب حقه ، والآخر
 لا تسمية ليستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نسي من خرج من هاتين
 العالمين ، ولربما سمينا لصاحب إذا كان ممن يحتاج بهذا ، ورأى بناء يظرف ، ويجعل ذلك
 الظرف سلماً لشيء) (٢٤) ، أليس ذلك دليل المحبة والوفاء ، والاحترام وحسن الصحبة
 وقد كان يتحجج عن ذكر ما يسروهم لأنه يحترم العلماء ، ولا يجب أن يذكر صيورتهم وإن كانت
 فيهم ، إذا كان ذلك يفضيهم ، يقول : (ولولا أن أكون غياها باسم للعلماء خاصة ، لصورت لك
 في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبدة ، ومن هو أهدى في وصفك من أبي عبدة) (٢٥)
 وقول في كتابه الخلاء : (إن هينا أحاديث كثيرة من أطلعنا منها حرفاً عرف أصحابها ،
 وإن لم نسمع ، ولم نورد ذلك بهم) (٢٦)

كان يرى أن الإنسان يجب أن يلقى جزءاً من علمه ، فلا يلقى به أن يدرسه ولا يصح
 أن يرفق علمه في قدره ، أو يكون حمة تمنع من دماغه ، أو عبقرة تلف على غيرها
 لترقى وتسمى ، فكذا الملتصقين بالأدب ، والمتفلقين على العلم ، والوصوليين ، وكان يفت
 الشفاعة لأحدهم لأنه يعتبرها شأناً ، ولا يستخف منها ذن السوء ، ولا تقبلها نفسه ،
 (حدث أبو المينا ومحمد بن القاسم قال : صرت إلى الجاحظ ، فقلت له : جئتك مسلماً

(٢٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ج ١ ص ٢٦٨ .
 (٢٤) الخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامي والجام الجز الأول صفحة ١٠٧ .
 (٢٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الرابع صفحة ٢٤ .
 (٢٦) كتاب الخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجام الجز الأول صفحة ٢٠ .

وقاضيا للحق ، ولن حاجة لبعض أصدقائي ، ومن كذا وكذا . قال ، لا غشغلنا الساعة من
 العادة ، وتصرف أخيرا بنا ، إذا كان في غد وجهت إليك بالكتاب ، فلما كان من غد وجه
 إلى الكتاب ، وقلت لابني ، وجه هذا الكتاب إلى فلان ، وفيه حاجته . فقال لي ، إن أبا
 عثمان يبيع الفهر ، فيبغض أن تفضه ، وتظنر ما فيه ، ففعل ، فإذا في الكتاب ، هذا
 الكتاب مع من لا يعرفه ، وقد كلفني فيه من لا أرجح حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحسنه
 ولن رده له لم أذمك (٢٧)

من أئمة أخلاق الجاهل (والمعالي النقد) ولو ذهبنا بعد نقده لعجزنا ، لأنه في كل
 صفحة كتبها ، وفي كل مجلس تكلم فيه ، وهو نقد العالم العجيب ، العجيب الشجاع - وسنقد
 فصلا خاصا لجزء من النقد هو الفصل الرابع من هذا الباب - وبكيفية الآن أن نقول إنه لم
 يجد شيئا في غير موضعه إلا نقده ، وإن كان ممن لم يعرفهم ، ولم يحدتهم ، ولا قابلهم من
 قبل ، وقد أشرت في أوائل هذا الفصل إلى قصته مع البطين الأحمى ، ومع العواتين
 اللتين سخريا منه وهو يركب حمارته ، ومع المرأة الطويلة جدا التي قابلها بالمسكرة
 فما بالك بمن عاشرهم ، ودام لقاءهم بهم ، وخبر سلوكهم ، وعرف على هفتهم .
 كان مضطرا بالمرح ولتقتدم وأنا بهم ، مجلا للإسلام ، ماضلا منه ضد أمراءه ، وقف حياته
 على خدمة العرب ولتقتهم ، والإسلام بها دته ، وحمايتهم من كل نفي ونف ، وكتب
 الكثير الشيرة دليل صدق على ذلك ، فقد ألف كتابه الحيوان ، لإظهار ما في الحيوان
 من الحجج على حكمة الله المحيية ، وقدرته الباهرة . وألف كتاب البيان والتهوين وحشد
 فيه الكثير من خطب العرب وأشعارهم ، وأمطلمهم ، وتناول الهلافة والبيان إيجابا بالعرب
 ولتقتهم وفصاحتهم ، كما ألف كتب : (الاجتجاج) لنظم القرآن ، ويخلق القرآن ، الرد على من
 أهدى كتاب الله ، فرق ما بين النبي والمتمين ، كتاب القرآن ، الرد على النصارى والمعتدل

(٢٧) مجمع الأدب ، ج ١٦ ص ٨٣ ، جمع الجواهر من ٢٠٤

تكملة عند الصبح

على حكمة اللامعجية ، وقدرته الباهرة . وألف كتاب البيان والتبيين وحشد فيه الكثير من
 خطب العرب وأشعارهم وأمثالهم ، وتناول البلاغة والبيان بإيجازها بالمعرب ولغتهم وفصاحتهم
 كما ألف كتب (الاحتجاج لنظم القرآن ، خلق القرآن الرد على من أهدى من أهدى في كتاب الله
 وفق ما بين النبي والتبني) كتاب القرآن ، الرد على النصارى ، حجج النبوة) خدمة للإسلام
 ودفنوا لشبهتهم . وإذا نظرنا إلى سخره في أغلب مواطنه ، فإننا نجد سجايا شائكا يقى
 به الدين من أعدائه ، واللغة العربية وآدابها من كل منس نطفه . معجزة عن الحق .
 فقد سخر من أقوال المفسرين ، البعيدة عن العقل ، الجانبية الصواب ، ليبين لهم
 خطأ كلامهم وخطره ، واليتهدوا وعمامة الناس إلى الرأي السلم ، المناسب للدين والعقل .

يقول : (وقد زعم ابن حائط ، وناس من جبال الصوفية ، أن في النحل أنبياء
 لقوله عز وجل : " وأوحى ربك إلى النحل " . . . قلنا وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء ؟
 بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على السخج العام : " وأوحى ربك
 إلى النحل " وبعد ، فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد المسلمين ، ولا تكونوا
 مسلمين فلم تجعلوا الحجة على نبوة النحل كلاما هو عندكم باطل (٢٨) . . . يقول : (لا
 تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وكون نصيبا أنفسهم للعامية ، وأجابوا في كل مسألة
 لأن كثيرا منهم يقول بخير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسر أعرب ضدهم ، كان
 أحب إليهم) (٢٩)

وسخر من الديانات الأخرى ، لما فيها من تخليط ، وخطأ ، وشرع ، وفساد ، ولبس من
 للإسلام هو الدين الحق ، والشريعة السليمة ، التي مدت كفل تفرقة ولا تمت كل
 ثلثة ، وأنها تناسب هذا العصر ، وما بعد هذا العصر إلى يوم العشرة ، يقول حسن
 المسيحية ، (ودينهم - يوحىك الله - يضاها الزندقة ، ويناسب في بعض وجوهه

(٢٨) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق هارون الجز ، الخامس صفحة ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦
 (٢٩) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ١٦٨ .

قول الدهرية ، وهم أصحاب كل حيرة وشبهة (٣٠) . ونحو الهم السبب في انتشار البدع
والفكر الذي يهدم الإسلام يقول : (فلولا متكلموا النصارى ، وأطهارهم ونجوها صار إلى أغنيائنا
وظرفائنا ومجاننا وأخذائنا شي . من كتب المتانية والديمانية والعرفضية والفلانية ، ولما عرفوا
غير كتاب الله تعالى ، وستة نبيه صلى الله عليه وسلم) (٣١)

وسخر من الشعوبيين ، لطمعنهم على العرب ، وفضهم من لغتهم ودينتهم ، ووضعهم
العرب في درجة أقل من درجتهم ، وفضهم الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام يقول ابن بحر :
(وقد طمعت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها المعصية والقناة والقضيب) (٣٢) . اعلم
أنك لم ترقوا قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ولا أشد استيلاكا
(لرضه) (٣٣) . والشعوبية والآراء مديئة المهضون لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (٣٤)

وسخر من بلاغات الأمم الأخرى كالهند والفرس واليونان والزيج ، وأوضح مكانة اللغة العربية
المعلقة بين هذه البلاغات الأقزام التي تحبب وتمتدح . يقول : (كل كلام للنفس ، وكل معنى
للمجم إنما هو من طول فكرة ، ومن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مناصرة ومناورة ومن طول
التفكير ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت
تار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شي . للحرب فإنما هو يد يده وأرجال ، وكأنه إلهام ، وليست
هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجمالة فكر ولا استماعة) (٣٥)

وتبكم بخير اللغة العربية من لغات رآها لاني بنحاجات الحياة ، ومتطلبات التقدم

(٣٠) ثلاث رسائل : الجاحظ مشريوشن فننل صفحة ١٧

(٣١) المصدر المذكور صفحة ٢٠

(٣٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٢٨٢

(٣٣) المصدر السابق ، الجزء الثالث صفحة ٢٩

(٣٤) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط الصوامري والجانم الجزء الثاني صفحة ٢٠٢

(٣٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٨

ولفظها قد خلت من بعض حروف الجاهلية التي ابتدتها لعربية ، فلا يستطیع أبنا هذه اللغات المختلفة نطق هذه الحروف (قال الأصمعي ، ليس للمعرب ضاء ولا للفرسيات) ولا للسرياني (قال) (٢٦)

وهنرى بالخرافات التي شاعت في أمة ، ورضية في ردها إلى الصواب ، وحفاظا على أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، تتمسك بدينها الإسلام ، ولتحتوا ولتقتد "العربية" ومن تلك الخرافات ما رواه الجاحظ في الحيوان ، (قد سمعت من يذكر أن كبراً من الإنسان دليل على طول عمره ، حتى زعموا أن شيخاً من الزنادقة - لعنهم الله تعالى - قد صوره لتضرب عنقه ، فمضوا إليه فلام سندی كان له عقاب ، أليس قد رقت يا مولاي أن من طالت أذنه طال عمره ، قال ، بل ، قال ، فبها هم يقتلونك ، قال ، إنما قلت ، إن تركوه) (٢٧) ولئن سخر بخرافات عصره وما قبل عصره ، فإيما فعل ذلك حتى لا يلصق بأبنا "أمة العرب" المسلمون من ضلالاتهم وأباطيلهم ، ولينبههم إلى استخدام العقل والنطق ، وعدم أخذ الأقوال قضايا لا تتدخل النقاش ، وإن شبر صاحبها بالملم والعرفان ، فالعالم يخطئ ، وخطؤه أشد من خطأ الجاهل وأبعد أثراً .

ذكر الخرافات
التي سخر بها
عصره
على سبيل
المقابلة

وهذا تكون قد أكدنا أن الجاحظ وضع نصب عينيه خدمة اللغة العربية وآدابها ، وخدمة الدين الإسلامي وأهله ، وأن جميع نتاجه ، وكل سخرياته كانت من أجل هذا الهدف التي تتطامن دونه الأهداف ، ولعل في ذلك الدليل البين على أنه عربي أصلي ، وأن الدم العربي الفوار يملأ صرقة عزه وإياحه فهداف من لغة آباءه وأجداده ، عربيه ودين قومه وعشيرته .

ومن أخلاق الجاحظ ، بعده عن التقليد والاحتذاء ، واستقلاله بنفسه ، فما سلم بخير من الأخبار ولا ارتضى رأياً من الأراء ، قبل أن يعرضه على عقله فيقده ، ويحل فيه فكرة فينتبه ، ولو كان رأياً دينياً عقائدياً ، لفتيه جمل ، أو عالم مجرد .

(٢٦) المصدر السابق ، الجزء الأول صفحة ٦٥

(٢٧) الحيوان ، الجاحظ ، وتحقيق هارون الجزء السادس صفحة ١١٧

وما تروى في كتابه وتأليفه خطأ من سبقه ، أو عاصره ، وإن أجمع الناس على براعته
وفوقه ، بل كانت له طريقة خاصة ، وأسلوب معين ، يتميز عن كتابه غيره ، وغير عصره ،
وبهذا وضع بين مشايبه فإنه يشير إلى النسق الجاحظي ، والأملح المنطقي ، ويدل على ابن
بهر أوضح دلالة .

وما نهج في مذهبه الكلاسيكي نهج آساتذته الاعتزاليين ، بل اختص بآراءه ، وانفرد
بأقواله ، جعلته متميزاً عنهم ، واعتقت آراءهم جماعة ، نسبت إليها ، وتسمت باسم صاحبها ،
وهفت بين المتكلمين باسم " الجاحظية " . . .

لقد كان يشك حتى يصل إلى اليقين ، فيعتقد بكل وجدانه ، وينتهي به لا يرتد عنه ، ولا
ينتهي ، وكان يعتبراً لشك المرحلة الأولى للوصول إلى الحقيقة ، ويقول في ذلك (اعرف
مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، تعرف بهذا مواضع اليقين ، والحالات الموجبة له) (٣٨)

لم يكن الجاحظ بالزاهد المتسك ، ولا بالمتحلل المتدك ، وإنما كان معتدلاً قسماً
دينه ، معتدلاً في دنياه ، أدى واجبات دينه ، وفروضه ، ودعا المسلمين إلى الشكر في
ملكوت السموات والأرض ، وأمنى ما عات حياتهم الكثرة في الدفء من الإسلام ، وإعلاء
شأن المسلمين ، ومناظرة الجاحدين ، وهداية المارقين ، وحبب إليهم دينهم ، كما
حبب إليهم دنياهم ، ثم تمتع ببهاج الحياة ، وزينة الدنيا ، والطيبات من العرق ، فأكل
وشرب ، ولها ولعب ، وضحك وسخر ، وسبح الخنا ، ومضرباً على الطرب والموسيقا ،
فقال حظه من الدنيا ، ولم يقصر في حق الآخرة ، وذلك هو الاعتدال ، والحد الوسط
المدون بين التفريط والإغراط . يقول : (ولا تنهى بالخناء ، بما ساء إذا كان أصله شراً
مكسراً نهما ، فما كان منه صدقاً فحسن ، وما كان منه كذباً ففساد) وقد قال النبي صلى
الله عليه وسلم : " إن من الشعر لحكمة " ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه " الشعر
كلام ، فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح " فإن كان إنما يحرم لأنه يلبس عن ذكر الله .

لقد نجد كثيرا من الأحاديث والمطامير والمشارب، والنظر إلى الجنان والبراهين، واقتناص
 الصيد، والتشافل بالجماع وسائر اللذات، تصد وتلقى من ذكر الله تعالى، فيعلم أن
 قطع ما ذكره ذكر الله من أمته ذلك أفضل، إلا أنه إذا أدى الرجل الفرض فبذره الأمور
 كلها له مباحة، وإذا قصر عنه يلزمه البائم، ولو سلم من اللذات عن ذكر الله أحد يعلم
 الاتبياء عليهم السلام. هذا سليمان بن داود عليه السلام ألماه مرض الخيل عن الصلاة
 حتى غابت الشمس فحرقها، وقطع رقبتها (٢٩)

(حدث أبو الزيال الحديث بغير من رأى، قال: حضر عولبية حضرها الجاحظ، وحضرت
 صلاة الظهر فصلينا وما صلى الجاحظ، وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ، فلما
 عزمنا على الانصراف، قال الجاحظ لوباء المنزل، إني ما صليت لذهب - أو لسبب - أخيرك
 به. فقال له: - أو ثقيل له - ما أظن أن لك مذهباً في الصلاة إلا تركها) (٤٠)

ونفس الكلام عن أخلاق الجاحظ، بصفة حار مؤرخو الأدب في نسبتها إليه ونسب بينهم
 خلاف من أجلبوا، هي صفة "البخل" والسبب في حده يندم عنها كتابه "البخل" وما ذكر
 فيه من نوادرهم ومجاوهم، وإجاءته ذلك فهل كان الجاحظ بخيلاً، وهو من أجل هذا
 يحتاج للبخل، ويحلل للشح، فيذكر الأدلة والبراهين على صحة هذا التذم به، ويحتمل للنفس
 ويحتمل للقلب، فيسميه بأسماء مدروحة، لا اقتصاد، والتدبير، والحزم، والإصلاح، ويضيف
 أحاديث نفسه، وخطبات فواده، إلى غيره من الرجال فيتكلم بلسانه ونسب لهم ما يدور في
 فمخهم، وهو بين أن وآخر يلزم البخل، ويحتمل به، وسخر منه، وبلونه، وحتى تتوهم الحقوقه على
 القارئ، ويبتهم الأمر، فيخيل إليه أنه إنما تحدث عن غيره، وروي قصص من رأى يخلم
 ولحزم، من ذكر أسماهم، وإن كان لا يحجب بهم، ولا يذهب مذهبهم، فيحققه القارئ

(٢٩) ثلاث رسائل، الجاحظ، نشر يوشع فنكل، صفحة ٦٤.

(٤٠) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٧.

أنه مؤلفهم ومحققهم ، وهو في واقع الأمر يعلمهم الجراح ، ويوسم لهم طرق الدوايح
التي تهطل آراء الكرام الأسخياء

بني هذا الرأي جماعة من أستاذان الفاضلان ، أحمد الصوامي ، وعلي الجارم في
تقديمهما لكتاب "البخلاء" ويؤيدانه بقولهما : (لأن الولوج بالشيء يوجب إلى النفس التحدث
عنه ، والإفاضة فيه ولأن من عرف الجاحظ وأن من أبرز صفاته ، أن يستعمل حسب أحيانا
بإعلان ما لا يجب ، رجع أنه كان بخيلا ، وأخرى ، أنه حينما نقل في الكتاب رسالتين ،
إحداهما لأبي العاص بن عبد الوهاب ، في ذم البخل والأخرى لابن النعمان ، في مدح البخل
ونجح أن الرسالتين بقلم الجاحظ لأن الأسلوب أسلوبه والبرق روحه ، والتصور تصويره ،
ولأننا لم نمتنع عليهما في غير كتاب البخلاء - أسهب في الثانية وأجاد ، وصال فيها رجال ،
وأفاض وأطال ، وأكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث وأقوال الحكماء ، وتقل فيها من
فن إلى فن ، فيها الإسراف والإعطاء في مزينا البخل والإكداء) (٤١) وقولهما إن غناه

وابتسام الدهوله وما كان فيه من ثروة لا يثنى من أن يكون بخيلا (فإنه هو نفسه يرى في كتاب
البخلاء أن كثرة المال وكثرة الإنفاق ، لا تمنع المرء أن يكون بخيلا ، صفة الكفاة من سبل
المرء) (٤٢) ثم يقولان : (وقد وقفنا بعد هذه المظنون على خير بين أن أبا عثمان كان

بخيلا مشهورا بما لبخل في عصره ، فقد جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي والجزء ١٢
صفحة ٢١٧ : "سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق يقول : قال لي إبراهيم بن محبوب ونحن
ببغداد ، ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت مالي وله ؟ قال : إنك إذا
انصرف إلى خراسان سأ لوك عنه ، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه أتم لم يزل بن حسني
دخلت عليه يوما ، فقدم إلينا طبقا عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث وطبات وأمسكت ورفقه
إبراهيم فأشرف عليه أن يمسك . فرمقني الجاحظ ، فقال لي : دعه ياتق ، فقد كان

(٤١) كتاب البخلاء : ضبط وشن ، والصوامي والجارم تأليف الجاحظ بالجزء الأول صفحة ١٦٥
(٤٢) المرجعها لسابق صفحة ١٦

عندي في هذه الأيام بحضرة اخواني ، فقد كنت اذ لم اليه الربيع ، فاستمع ، فحلفت عليه ، فأبى إلا أن يبرقسي بثلاثمائة وطية * وفي هذا الخبر دلالة على شهرة الجاحظ بالبخيل ، وذلك لأن إنسانا لا يمتنع بعد ثلاث رطبات ثم يشير كل صاحب بالامتناع ، إلا إذا عرف أن صاحب الرطب بخيل . ثم إن قول الجاحظ : دع يا فتى ، يحمل معنى كبيرا من الاستسلام ، والصبر على العصية ، لمن يفهم أسلوب الجاحظ ، وطرائق تحبيره ، وأحد إخوان الجاحظ هذا والذي أبى أن يبرقسه إلا بأكل ثلاثمائة رطبة ، إنما كان يقصد إغاظته ، والتكافؤ به ، ولا يكون ذلك إلا إذا عرفه بالبخيل ، والرطب رخيص في بغداد ، وإن رجلا يحتاظ لأن يصاب في ثلاثمائة رطبة لبخيل (٤٢)

ومعارض هذا الرأي ، لكثرة طه الحاجري ، فيقول (وهذا كله كلام ملق على عوامهم ، ولا ندري كيف ذهب عن الأستاذين الفاضلين أن يستشفا هذه السخرية التي تشبه نفسى كلام الجاحظ ، وما يرسل من القول على ألسنة البخلاء ، بل كيف قاب عنهما أن أول ميزة لرجل الفن وأظهرها أنه يستطيع أن يتكلم بكل لسان ، ويصطنع كل هيئة ، ويتغافل إلى السى بواطن النفوس المختلفة ، فيشرف عليهما ، ويخالطهما ويصورا لمركات المختلفة التي تدخلها ويبرز الشخصيات المختلفة بجمع مشخفا تبا ، من السمات والحركات والكلمات ، فإذا كان الجاحظ قد أجاد في رسم شخصيات البخلاء في كتابه ، وفي إنطاقها بما هو أشبه بها فإنما ذلك في حقيقته مظهر من مظاهر تلك العموية الفنية القوية ، لا أثر من آثار ربحه وكرازة يده ، وإن لا يجب أن نخلع على رجل الفن الواحد جميع الصفات المتناقضة التي وصف بها شخصياته ، وأبرزها فيها) (٤٣)

(٤٢) المرجع السابق صفحة ١٦

(٤٣) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، المقدمة ، صفحة ٢٤

ولي بعد ذلك أن أقول :

إن ما كتبه الأستاذان ، العوامى والجامى فى مقدمتهما لكتابتنا لبخلاء ، وما كتبه الدكتور
ظهرا لحاجرى فى مقدمته لكتاب البخلاء ، لا سند له عولا دليل عليه ، وإنما هى شكوك وظنون
لا تنهى نصوص الدليل القطع ، والحجة القارعة ، فكلام الأستاذين منقوض لأسباب :
١- إن الجاحظ يشتم بالفكاهة والعمى ، والدعابة والسخر ، ويشتمر بين أديب عصره وغير
عصره ، بالاحتجاج للشئ ، وضده ، ومدح الشئ ، ثم ذمه ، لإظهار البراعة البيانية ، والقدرة
الذهنية ، والذخيرة المنطقية ، وقد فعل ذلك فى عدة مواطن ، فتلحج الكتاب ودميم ، ومدح
المعلمين ودميم ، ومدح اللواتين ودميم ، ومدح العلم ودميم ، وما لتالى مدح البخلاء
وذمه ، وقد كتب فى تصنيف حيل لصوص النهار وفى تفصيل حيل سراق الليل ، فوفى الموضوع
حقه ، وبين من لطيف الخدع ، وفرايب الحيل ما لا يبلغه كيد . فبطل كان الجاحظ بذلك أحد
لصوص النهار ، أو زعيم سراق الليل حتى نمنه إلى البخلاء إن كتب فيه إلا ، قطعا
فإن ميزة الأدب أن يجول فى كل فوض ، ولا يعجز عن تناول أى موضوع ، وأن يستطيع
الأمور ، ويتعمق الشخصيات ، يتكلم عن البخلاء حتى نظمه بخيلا ، وهن الكرم حتى نصبه
كريم ، وهن اللصوصية حتى نخاله لرئيسا لعقد فى السطو والنهب وذلك دليل الاقتدار
وأمانة الموهبة الفنية ، والسيطرة القلمية .

ولما كان رحمه الله يشعر بما ستأتى به الأيام من معارضين ينسبون إليه اعتناق المذاهب
والأخلاق التى يتحدث عنها كما فعلوا فى عصره ، تسجل لهم ذلك فى كتابه الحيوان فقال :
(وهبتى بحكاية قول العثمانية والضرارية ، كما سمعتنى أقول فى أول كتابى وقالت العثمانية
والضرارية كما سمعتنى أقول قالت الراضية والزيدية فدكت على بالنصب لحكايتى فبدلت حكمتى
على بالتشيع لحكايتى وهلاكت عندك من الخالية لحكايتى حجج الخالية ، كما كتبت عندك
من الناصبة لحكايتى قول الناصبة (٤٤) . وكأنه من برزخه يقول للأستاذين : وحكما على

يا لبخل لحكايتي أ توال البخله وطلبهم وأ سائدهم ، فبلا حركتها هل بالكم لحكايتي فضائل

الكرما ، وبرايم الأجاود الأسخيا .

٢- إنه كتب كتاب البخله لواء من رجال اتعصه كما بقول في مطلقه ، (قلت اذكر لس
نوادرا البخله ، واحتجاج الأسماء ، وما يجوز من ذلك في باب البخل وما يجوز منه
في باب الجد) (٤٥) فكتب له ما أراد ، ووفى الموضوع حقه ، كما كتب له الكتاب من قبل
قوما ما حقا ، وقد كان معروفه عنه أنه يكتب كبه استجابه لوفيات رجال من عليه عصوره
ويدينا لهم ، وينال جزاء كل منها آلاف لدنانيره فكان من الهدى أن يكتب من استجباب
الأسماء في رساله ابن التوام في مدح البخل ، وأن نواه قدأ سبب وأجاد ، وحال وحال
وأ فاض وأطال واستكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، وانتقل من فن إلى فن فطرحا
الإسراف والإعطاء ، مزينا البخل والإكثار ، كما ذكر العوامى والجام - لأن هذه طبيعة
الكتاب ، ووفية من تقبله ، والسبب الذي من أجله أنشئ .

٣- أما تلقين الجاحظ بخله العجج على حسن الاتصاف بأدخار المال ، وتسمية الصلح
والحزم والتدبير الذي هو عا د الحياة المستتره الفاضله ، فإنه أرق أنواع السخسبر
والهز ، من طريق ذكر الضد ، ولتقيض ، والدم في صورة المدح ، والثائب والتشهير ،
في صورة النصح والإرشاد ، وللجاحظ في كتابه ولوع بخل هذا اللون الأدبى الهلالي
ملأه رساله الترسيع والتدوير تكما بأحمد بن عبد الوهاب .

٤- إن إجادة الجاحظ كتابته عن البخل ، وحسنه الملل والبراهين في مدحه ، في
الرساله التي كتبها على لسان ابن التوام ، يدل على أن البخل ليس من طبيعه أكثر ما
يدل على أنه من صفاته لأن العره لا يتكلف العجج والبراهين ، ويتأنق فيها ، ويعنى
نفسه شقتها إلا إذا أحسن ما يحتاج له ليس في طبيعه ، فهو يحاول بما أوتي من جوده

أن يثبت ويؤكد ، فهو يكثر من الأدلة ، ويلجأ إلى الجدل والسفسطة لعلها تنهد وتجدي
هو ويحترف الأستاذان بأن رأيهما في بخل الجاحظ يقيم على الظن - وهو كذلك فعلا -
ولكنهما يستدلان بقصته مع ضيفيه ، وقد أطمعهما الرطب على بخله .

وأرى أن في القصة لونا من فكاهة الجاحظ ، التي ما كانت تفارقه حتى تفارقه روحه ،
وليس فيها دليل بخله وشحه ، فقد قدم طبق الرطب وكان يحكه الأيقدم ، أو يقدم رطبات
محدودات ، على مقدار شحه . وإمسك أبي بكر بعد ثلاث رطبات لا يدل على بخل صاحب
الرطب . فربما أمسك وقارا واحتشاما وهو بحضرة الشيخ الجليل ، وربما أمسك لينصرف
إلى محادثة الشيخ والأخذ عنه ، فكره انشغاله بالأكل ، ولعله أشار إلى صاحبه بالإمسك
لما أمسك من أجله ، أو لسوء فعاله وتناوله الرطب في شراقة ، ألا تشعر عبارة (ورزقه
إبراهيم) بسوء الأكل وقدر المأكلة ؟

وروق الجاحظ أبا بكر ، وقوله له : دعه يافتي ، أن ذلك دليل على البخل أم دليل على
الكرم ؟ إنني نأعتبره دليل الكرم ، فقد كان يوسع الجاحظ أن يتخاض عما كان بين الرجلين
ولا يتكلم ، وكأنه لم ير شيئا ، ويحدث الامتناع من الأكل بأيسر طريق ، ولكن نظرة الجاحظ

لأبي بكر ربما كانت نظرة عتاب ، أتمعها بقوله أما ، دعه يافتي ، أما بقية القصة فمن باب البخل
والإضحاك ، والسخرية من الرجل الذي امتنع عما عن تناول الرطب ، وأبدي تعفقه وتأففه

ثم التزم ثلاثمائة رطبة ، أليس في ذلك ما يدعو إلى رواية قصته والتعدير بها ؟

وكلام الدكتور الحاجري في نقض رأي الاستاذين مقبول مستجاب ، مع عدم الدليل المستقيم

لكنه نقض بخله ، ولم يثبت صفة بدليا ويرهن عليها .

ولن أصف الجاحظ بالاعتدال ، فلا هو والشيخ الكره ولا بالسرف المتلاف ، فصفته

هنا محتدلة لا تتصل بأحد النقيضين ، ولو أنه كان بخله أو كرمه لما سكت المؤرخون

الفصل الثالث

علمه وأدبه

رغم فقر الجاحظ ووزره ، وصغره وبنه ، وبشاعة خلقته ، وقاقر بلهيه ، وسحقه للمصطلح
منذ نمومة أظفاره ، مندرجا في هذا المجتمع المائج ، قطرة من مهبطة ، ليكسب قوته وقوت
أمه ، مما يفضل عليه بيع الخبر والسك في سبحان ، فقد كاد يهلك الدلائل تشر بهولند
مهقرة فريدة ، وترشد إلى قرب ظهور عالم فذ ، وأدهب حلاق ، وكان الترنين يشرح بأصمته
إلى هذا الصبي ، أليزي الهيئة ، ألهش الخلق ، الذي لا يحس أحد بوجوده ، وينظر إليه
نظرة خاصة ، على أنه سيكون في قابل أيامه ذا شأن وخطر ، فقد كانت آيات النجاة
تبدو عليه ، وبخايل الذكاء تشع عن عينيه ، ورضته في القراءة والمعرفة لا تعترف بالحدود
والقيود ، فبدأ يتعلم القراءة والكتابة وما دى ، الدين والمعلوم في كتاب أبي الزير وأبي
عدنان ، وكان عالما من نصيحين قال عنهما الجاحظ ، (وما كان عندنا بالبصرة رجلان
أروى لصنوف العلم ، ولا أحسن بيانا من أبي الزير وأبي عدنان المصلحين ، وهما من
أهل ما أذكر من أيام الصبا) (١) ، وفتحت عليه علوم العلم ، فعمق الكتب ، ولزمها يرتشف
من رحيقها ، إلا أنه كان صديقا لا يرتوي من هذا اللطيل الذي يحسن في نفسه وقلبه
بالظلم الكائم إليه ، فكان يطلبه في أماكنه ومظانحه ، لا يفتحه من ذلك فقره ، ولا يعرفه
سعيه في الحياض ، بل كثيرا ما جاء وأهل عمله في سبل الكتب ، ومن ذلك ما يروى
أنه طلب الطعام يوما من أمه نجاة ، فطلبه فبكتها ، فقال لها ، ما هذا ؟ قالت ، هذا
الذي تجي به . (٢)

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول ، صفحة ٢٥٢

(٢) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، الضية والأمل للبرهاني ، ص ٢٨

ولقد وجد في الكتاب يلسم نفسه و همزاً قلبه ، فاستعاض من النظر إلى ما في أيدي الأقبية
 بما لنظر إلى ما في الكتاب من درره وانصرف عن البحث فيها يذهب لغيره إلى البحث عما يذيب
 جده ، وأراك أن يكون وراء الشكل القوي ، الذي تزديه الأيمن ، وتزوجه ، نفس مشرقه
 وحقل نير ، يسعى لهما الناس ، ويلحون في نيل ما عنده منهما ، فجعل الكتاب سهواً إلى
 ذلك ، وصديقه ومرشده ، وجماله وقوامه ، به بنا فمن فاخره فأقبل عليه ، وجماله عدل نفسه ،
 وقرب روحه ، وكانت له في قلبه منزلة أمان عينا في قوله ، (الكتاب وما ملأ من علما ، وظرف
 حشى ظرفا ، وإنما شجن مزاجا وجدا ، إن شئت كان أبلغ من سبحان وائل ، وإن شئت كان
 أعين من بأقل ، وإن شئت ضحكك من نوادره ، وإن شئت عجبت من فرائب فرائده ، وإن شئت
 ألهمت طرائفه ، وإن شئت أشجبتك مواظمه ، ومن لك بواظمه ، وما جرد مغرر وناسك فانتك ،

وبنا طق أخسر ، وبهارد حاره ، وفي البارد العا ريقول الحسن بن هانئ ،
 قل لزهير إذا انتهى رشدا
 أقلل أو أكثر فأنت مهذار
 سخنت من شدة البرودة حــــــتى صوت عندي كأ نك النسيار
 لا يعجب السامعون من صفــــــتي
 كذلك الثلج باره حار (٣)

ويقول : (وهبت الكتاب ولا أعلم جارا أبوه ولا خليطا أنصفه ، ولا رفيفا أطوعه ولا معلما
 أخضع . . .) (٤)

ولم يكن ليصره وإملاقه - يستطيع أن يشترى الكتب التي تشبع به ، لغلأ أسرارها ،
 ولكثرة ما يقرأ منها ، فتفتق ذهنه عن اكتراء ، كما كمن الوراقين ليلا ، بهبت فيها للقراءة والنظر
 لأن (من أحتاج تحركت همته ، وكثر تفكيره ، وصوب الفنى أنه يوث الهلافة وفضياله

(٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق حارون ، الجزء الأول ، صفحة ٢٩٥ ، ٢٩٦ الطبعة الأولى
 (٤) المصدر السابق ، صفحة ٤١

المقرانه يبعث الفكر (٥)

ورأى القراءة وحدها غير كافية في تكوين العقل ، وتوجيه الفكر وأحسن حاجته إلى السماع
والنقاش ، فجلس في حلقات المسجد بين ، وشارك فيها ، وأراد تقويم لسانه ، وتعديل لهجته
في دولة حوت العديد من أجناس البشر ولغاتهم ولهجاتهم ، وتوسيتاً لفاظتها إلى
لسنة العرب الخالص ، وانتشر اللحن ، فسعى إلى العرد - عكاز الإسلام - يتلف الفصاحة
بمشاهدة الأعراب المقيمين حوله ، وقد قال في ذلك : (وقد أدركت رواة المسجد بين والعربيين)
وهو مع ذلك لا يكتف عن القراءة ، ولا يبل الاطلاع ، ثم اتصل بمشاهير عصره علماً وفقهاً وأدباً
واعترافاً ، وجالسهم ، وبحثهم ، وأخذ عنهم ، وروى لهم ، وقد كانوا فترة في جبين الزمن
وتاجاً على هام العلم والأدب ، وشموساً تشع نقداً ولساناً ومكماً ، منهم أبو يوسف صاحب أبي
حنيفة ، والنظام ، وثامة ابن الأشرس ، والسرى بن عبد الوهيد ، وهنيد بن حارون والأصمى وأبو
عبدة مصر بن العثي وابن كوكرة ، ورحبى بن نجيم وغيرهم ، يقول (وقد جلست إلى أبي
عبدة والأصمى ورحبى بن نجيم ، وأبي مالك عمرو بن كوكرة مع من جالست من رواة البغداديين
فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعرني التسيب فأشده ، وكان خلف يجمع كل ذلك) (٧)
ويقول عن أبي عبدة : (لم يكن في الأرض خارجي ولا جملني أعلم بجميع العلم شئ) (٨)
ويقول عن ثامة بن الأشرس : (ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي ، كان يبلغ من
حسن الإتيان مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان
يلخه ، وكان لفظه في وزن إشارته ، ومناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمك

(٥) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط المواضع ، الجزء الثاني صفحة ١٢٦ .

(٦) البيان والتهنئ ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٢٢ .

(٧) المصدر المذكور صفحة ٢٣ ، ٢٤ .

(٨) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٧ .

يأسر من معناه (إلى قلبك) (٩) . ويقول عن النظم : إنه (ما رأى أحدا أعلم بالكلام والفق
 منه) (١٠) (وإن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا يظهر له ، فإن كان ذلك صحيحا
 فهو أبو إسحاق النظام) (١١) .

ولما توسعت الدولة في الترجمة ، ونقلت العلم والآداب والثقافات الأجنبية إلى اللغسة
 العربية ، وصار هذا الفيض من المعرفة في متناول العرب ، هب الجاحظ يقرأ ويستويج ،
 ويتدفق فوله جديدة من مجامع العلم والأدب ، ويقارن يوازن ، ويبحث وينقد ويثأر ويثبته
 الثقافات ، فأفادته أيضا فائدة ، وبخاصة النطق والفلسفة اللذان أحدهما الأثر الكبير
 في تعليمه واستدلاله ، وآرائه ، ومذهبه الكلاسي ، وسفسطه وجدله في بعض الأحيان ، وما
 أخافه من معلوماته من الحيوان من كتاب أرسطو كما ذكر في مقدمة حيوانه .

وهذا يتم نضج الجاحظ الذهني والأدبي والعلمي والثقافي ، ويتجه إلى التأليف
 والتصنيف ، وخدمته الدولة واللغة والإسلام ، وهو في هذه الرحلة العلمية الأدبية الثقافية
 التي بدأت بمعرفة القراءة ، وانتهت بسقوط أجلاء الكتب على رأسه فأخذت أنقاسه - مما
 على أحكم ما تكون - لمصامية الفكرية ، من نفسه بنفسه ، وهذب عقله ووصل لسانه ، ووسم
 لنفسه المخططه وتبع خطوطه ، فما أنه حتى كان ما أراد قد تحقق ، وارتقى من بائع
 خبز مسك إلى جلس أئمة وخلفاء ، ورئيس طائفة اعترالية تسمت باسمه ، وصاحب ضيعة لا تحتاج
 إلى تجليل ولا تسميد ، ودعوات جوهرة إليه من الخلفاء ، ملحة في الكتابة لدم ، والشخص
 إليهم ، وظهر فخر ، ينام على العرش ، وليس أجود الطير وألينه ، سأل رجل عن
 حاله فقال : (حال أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويؤثر الخليفة الصلات إلى لسي

٩ المصدر المذكور صفحة ١١١

١٠ البراء البهاني ، الجزء الثاني صفحة ٢١٧

١١ المروج نفسه والصفحة نفسها

وأكل من لحم الطير أسفها ، وأليس من الثياب البيضاء وأجلس على ألين الطيرى ، وأكنى
 هلى هذا الرش، ثم أسير على هذا حتى يأتى الله بالفج . فقال الرجل ، الفج ما أنت
 فيه ، فقال : هل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى
 فهذا هو الفج (١٢)

وكان وكده دائما فى رحلة حياته مع العلم والأدب ، أن ينتقى الأجود ، ويختار الأمثل ،
 فانقى من الكتائب ، كتاب أبي عدنان وأبي الزيد ، واختار للسمر والأخبار رواية الآثار ،
 المسجديين ورفق لتقوم لغته ولسانه ، المرید ، حسن اللغة وشجدها ، وارتضى من علماء
 الكلام النظم ونظامه بن الأشرس ، ومن اللغويين الأصمعي وأبا عبيدة ، ومن الحكماء ابن
 جناح ، ومن الفقهاء أبا يوسف ، ومن القصاص الفصحاء موسى بن سيار الأسوارى ، فترس
 على أيدي كل هؤلاء فخرجوه نا بقة عصره ، ووحيد دهره ، حتى فاق أساتذته وبذهم ، أضاف
 إلى ذلك تربية الزمن له ، وكثرة رحلاته ، واحتكاكه بصنوف الناس ، ومواكبه أحداث أمته ومشاركته
 فيها زهاء قرن من الزمان ، وصادت لتربية تربة طيبة ، ونبتت أصيلة ومددًا من أسباب النسر
 والسوق ، أدى بالجاحظ إلى أن صار قمة عصره وما بعد عصره إلى اليوم

ولقد ساعده على ذلك ذكاء لمع ، وقريحة مواتية ، ورفية فى التلم والتفوق صادقة ،
 وقوة حافظه ونقرسة ، وتذكر لما مر به منذ طفولته حتى كهولته ، ولو كان ثانيا دقيقا يقول فى
 كتابه الحيوان رواية قصة رآها فى طفولته با لكتاب : (وأنا حفظك الله - رأيت كلبا مرة فمس
 الحى ، فمرض لى صبي يسكن مهاديا من أولاد القضايين ، وهو قائم يمسو لوجه ، فمض
 وجهه ، ففقع ثنيتيه دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فحقق اللحم الذى دون المظم إلى
 شطر خده ، فمضى به مقلعا لى وجهه ، وجانب شدة ، وترك مقلته صحيحة فخرج منه من الدم

(١٢) أدب الجاحظ : حسن المتداول ص ٢٤ ، الجاحظ : جورج غريب صفحة ١٧ و ١٨

ما ظننت أنه لا يمشي معه ، وفق الغلام مهدورا قائما لا ينس ، وأسكتة ا لفرع وفق طائر
القلب ، ثم خيط ذلك الموضع ، ورأيت بعد ذلك بشير وقد عاد إلى الكتاب ، وليس في وجهه
من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيطه فلم ينجح إلى أن يرى عولا هره ولا دعا بما حتى إذا
راه صاح ردهه ، ولا بال جهوا ولا علقا ، ولا أصابه ما يقولون قمل ولا كبره ، ولم أجد أحدا
من تلك المناجح يشك أنهم لم يروا كلها قط أكلب ، ولا أفسد طبعها منه ، فهذا الذي عاينته (١٤)

ولعن نبي في هذه القصة دقة لتصويره وجودة التفصيل ، وا لبسط وتذكر كل ما حدث وقدره
وفقه ومكانه وأثره ونتيجته وكأ نما يروي لنا الجاحظ حادثة يقع أمامه الآن ، لاحادثة مضي

عليها نحو ثمانين عاما من عمره خليف بها أن تضع في زوايا ا لتسيان والإهمال .

تكلم الجاحظ من الثقافات التي سادت عصره ، وتحدث عن النقل والترجمة في زمنه ، وذكر
بعض الكتب ، وا لعلم التي انتقلت من الفارسية أو اليونانية أو الهندية إلى العربية .
ونلمح في كلامه معرفة بهذه اللغات ، قد تكون قليلة ضئيلة ، وقد تكون واسعة غزيرة ، لعلمها
وصلت من صحبته لمارفي هذه اللغات ومشافقتهم ، فقد كان يتحدث إلى معلمه وابن
ماسويه ، وحنون بن إسحاق ، وشمثون الطيب ، وقد تتلف كل هؤلاء بالثقافة اليونانية ،
وعرفوا لغتها ، كما كان ينقل عن ابن المقفع الفارسي الأصل ، وتكلم كثيرا عن العنوية
وهي دلتهم ، ونوران الجوس ، وفقا دهم وطوائفهم ، وهي كلها فارسية ، كما تكلم عن بلاغة
الهند وشيئا من حكمهم .

إلا أنني أعتقد أنه كان يعرف الفارسية ، بل يجيدها ، وأبني اعتقادي على عدة شواهد
ودلالات .

١- كانت طلة العرب وأرضياتهم بالفرس ، أكثر من صلتهم ورابطتهم بالأجنا من الأخرى
كالهندية واليونانية .

فبلادهم جزء من أرض الدولة ، خاضعة للخلافة العباسية . . وهم الذين مكوا للمعك

العباس وأسلموا في سنة ٣١٠ لدولة ورقميا . . وهم الذين تولوا رفيع الناصب التي لم يتولها

أحمد من غير الحرب سواهم ، ثم هيئت الوظائف في الدولة - بحكم وضعهم - للكثيرين من

قبائلهم . . ولأن الجنس الفارسي في الدولة العباسية كان أكثر الأجناس أعداء أحمد

الحرب . وهذا صارت الدولة عربية في خلافتها ودينها ، فارسية في كل شيء بعد ذلك .

فلا عجب أن تنتشر الفارسية وتشيع وتدخل في لسان العرب وخاصة الجاحظ الذي يديم

القبائل والاطلاع والبحث ، كما يديم الاتصال بالوزراء والأدباء والتراجم .

٢- وجدت بعض جمل فارسية في مؤلفات الجاحظ منها قوله في قصة الحراق : (لو خرجت

من جلدك لم أعرفك . ترجمة هذا الكلام بالفارسية : "اكرار پوست بارون بياهي نشناست" (١٤)

٣- بحثه في اللغة الفارسية ، ومعرفة الاشتقاقات فيها فهو يقول : إن الفرس تسمى الأشياء

بالاشتقاق كما تقول للنعامة : أشتر مرغ ، ولأنتهم في التقدير قالوا طائر جميل . وهم يسمون

الخنير المر الحلو ، قوش شيرين ، وهو في التفسير حلوا حتى . والجاموس في الفارسية

كوايش ، وطأ وبله ، ضاني بقري لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكهش وكثيرا من مشابهة الثور .

ورجعه الضبع ضدهم روى گنتار . والديك في لغتهم شاهرك (١٥)

٤- حديثه من موسى بن سيار الأسواري ، يقول عنه (كانت فصاحته بالفارسية في زمن فصاحته

بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور ، فتتعد العرب من بينه والفرس من يسانه ،

فبقراً الآية من كتاب الله ، ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرهما

لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هوأ بين ، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد

(١٤) البخل : الجاحظ ، تحقيق طي الحاجري صفحة ٢٢ .

(١٥) الحيوان : الجاحظ ، صفحة ١٤٣ ج ٦ ص ٤٥٢ ، ج ١ ص ٤٢ ، ج ٤ ص ٢٤٢ ،

أدخلت كل واحدة منهما الضم على صاحبتهما ، إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار
الأسوي (١٦)

إن هذا النحلا يعرفنا إلمام الجاحظ بالفارسية فحسب به بل يبين لنا أنه أجادها
وهرفه بلاغتها ، وخباياها فكفى صار ميزانا ، وجهذا ، من فصاحة العربية ، وفصاحة
الفارسية وبين الرجحان أوالساواة ، فحكم للأسوي بأن فصاحته فيهما على قدم المساواة
وأن بيانه في كل منهما بلغ الغاية .

ص روايته شعرا فارسيا (كما قال يزيد بن زبيدة بن مفرغ ،

آب است نهيدا ست عصارا زيب است

(١٧) سلية روسيدا است

أوشمرا أكونا رسو كقول أسود بن أبي كريمة :

(لنم الغرام نوسى بكرة في يوم طيب

لتنايلت عليها مثل زنى بعلى

قد حنا الدانى صرفا أوعارا يا حمت

ثم كتم دوياد ويحك أن خو كفت

إن جلدي ديفته أهل صنعا بهفت

وأبرعتة عندي أن كوريد نمت

جالس أندر مكساد أيا عمد بهشت (١٨)

لما تأتى بالثقافة اليونانية ، فبيد وواضا في نقله عن أرسطو ، واعتراه بهذا النقل
والله له ، وتلقيه " صاحب المنطق " وجعله أحد الأركان والصادر التي استند عليها
في تأليف كتابه الحيوان ، إذ جعل كتاب الحيوان لأرسطو مرشدا له وهاديا ، وإن كان

(١٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول / صفحة ٢٦٨

(١٧) المصدر المذكور صفحة ١٤٣

(١٨) المصدر المذكور صفحة ١٤٣ و ١٤٤

قد تقدم منه ما لا يرقه ، وشك في بعضه ، وتوقف عند أخبار منه ، ووافق صاحبه في كثير من آرائه
ولكن بعد التحقيق والمشاهدة والتجربة ، وتواتر أخبار الثقات على ما سيأتى .

كما تأثر بالمنطق في أسلوبه وتقسيمه ، يقول : (إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة
أنحاء ، متفق ، ومختلف ، ومتضاد ، وكلها في جملة القول ، جمال ، ونام ، وكان حقيقة
القول في الأجسام من هذه أن يقال : نام ، وغير نام . . . ثم النام على قسمين حيوان ونبات
والحيوان على أربعة أقسام : شئ ، يعنى ، وشئ ، يطير ، وشئ ، يسبح ، وشئ ، ينساج . إلا أن
كل طائر يمشى ، وليس الذى يمشى ولا يطير يسمى طائرا . والنوع الذى يمشى أربعة أقسام
ناسي ، ونباتي ، وسباح ، وحشوات) (١٩) .

ويقول : (ويجدر بالحكمة على ضربين ، شئ ، جعل حكمة ، وهو لا يحقل الحكمة ولها قهقهة
الحكمة ، وشئ ، جعل حكمة وهو يحقل الحكمة وعاقبة الحكمة ، فاستوى بذاك الشئ العاقل
غير العاقل في جهة الدلالة على أن الحكمة ، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل
والآخر دليل يستدل ، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدل ، فشارك كل حيوان سوى
الإنسان جميع الجواد في الدلالة وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للإنسان أن كان دليله
مستدلا) (٢٠)

وقد قرأ كتاب الحيوان لأرسطو ونقشه ونقبا فيه يقول : (وقد أكثر في هذا الباب أرسطو

ظا ليس في ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه) (٢١)

اتسمت ثقافة الجاحظ ، وازدهرت في رأسه العلم والفنون ، فقد أحاط بأراهم عصره
وما قبل عصره ، وأتقن كثيرا من الصناعات ، فصار دائرة معارف تمشى على قد بينه وهذه
المعارف التي اخترنها في ذاكرته ، قد فحصها من قبل بمجهود عقله ، ووزنها بميزان نقده

(١٩) الحيوان الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٤٦ ، ٢٧ .

(٢٠) الحيوان ، ج ٦ ص ١٧ .

(٢١) الحيوان ج ١ ص ٢٢ .

فما ثبت خطره منها انفاه وطرحه هوالم يثبت خطره وضعه على منفذة الشك و شرحه يتاقب نظره
 وأخبر منه ضلالتة ، ثم احتفظ بما سلم منه في خزانة عقلم ، يأخذ منها عند الحاجة و علسي
 قدر هذه الحاجة ، وهوالم يحتج لشيء إلا وجد في الخزانة ما يسد الخلاء و في الطلب
 على أم و حمراً حسنه : (قيل ، لأبي العيينة : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟)
 فقال : ليت شعري وأي شيء كان الجاحظ لا يحسن ؟ وفيه يقول الشاعر .
 ولقد رأيت العلم يسو
 حتى أقام طريقه
 ما ما حواء اللاقظ .
 صروبن بحر الجاحظ (٢٢)

تتقف بكل علم و مشارك في كل فن ، حتى المتكاملات اليدوية كانت له بها معرفة و إجادة
 والقصة التالية تبين حذقة صناعة النجر ، قال : (و مثل ذلك قول نجار كان هندي ، دعوتة لتعليق
 باب ثمين كرم فعلقه ، فأحكم تعليقه ، ثم لم يكن هندي حلقة لوجه الباب إذا
 أردت إصفاقه ، فقلت له : أكره أن أحبسك إلى أن يذهب الفلام إلى السوق و يرجع ، ولكن
 اثقب لي موضعها ، فلما ثقبه ، وأخذ حقه ، ولأني ظننته لا يصراف ، والتفت إلى ،
 فقال : قد جودت الثقب ، ولكن انظر أي نجار يدق فيه اليزة ، فإنه إن أخطأ بضرمة
 واحدة شق الباب ، والشق عيب . فعملت أنه يفهم صناعتة فهذا تام) (٢٣)

و اهتم بتأليف الكتب ، وتصنيفها ، لأنها أبقى على الزمن ، ولأن ما فيها ثابت مشهود
 لصاحبه أو عليه ، فلا يمكنه إنكاره ، أو تزويره ، كما أن غيره يصدر عليه تحريفه وتبدله
 يقول : (وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري ، فالكتاب أحب إلي من الحفاظ
 لأن الأعرابي ينسى الكلمة ، وقد سهر الشاعر في طلبها ليئله ، فيضع في موضعها كلمة
 في وزنهما ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام) (٢٤) .
 (لولا الكتب المدونة ، والأخبار المخلدة ، والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب وفور الحساب

٢٢٢ جيج الجواهر : المصري ، صفحة ٢٠٤
 ٢٢٣ الحيوان : الجاحظ ، تحفة يقي هارون ، الجزء الثالث صفحة ٢٧٦ ، ٢٧٧ طبعة ١٩٣٨ م
 ٢٤ المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٤١

لهطل أكثر العلم ، ولقلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس منزلة في موضع
استذكاره ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع (٢٥)

ويروي من ابن عمرو بن العلاء قوله : (ما دخلت على رجل قط ولا مررت بهاه فوأه ينظر
في دفتره ، وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أفضل منه) (٢٦)

(وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء ، فكنت أكتب عنهم حفظاً ، وأدع بعضاً ، فقال
لي ، اكتب كل ما تسمع ، فإن مكان ما تسمع أسود خبير من مكانه أبيض) (٢٧)

ولأنه لو اعتمد على محاضراته الناس ، وما يليقه من دروس ، لاستفاد منهم عدد ضئيل
من الناس ، لا يقاس بجانب قراء كتبه بولتعرض للباراة والجدل من بعضهم ، فيضيع الوقت

هباءً ، ولتحمل من سخفهم ، وتفهمهم ، وتضليلهم ، ما يضيق به صدره ، ولأنه أراد

بالكتاب إثبات حججه ، وإبطال آراء خصومه ، وكشف الموهين العزيفين ، والمدجلين

المخترفين ، فلا عجب أن رأينا من يذكر أن كتبه قاربت الأربعمائة كتاب ، ومن يذكر أنها

ثلاثمائة وخمسين ، ومن يعد الثمانين منها ، الذي وصل إلينا مع ما ذكره الجاحظ منها في

مقدمات كتبه مائة وثلاثة وسبعين ، أو مائة وثمسة وخمسين كتاباً . وعلى أية حال فقد خلف

لنا المدد الوفير ، والإنتاج الخير في جميع أبواب العلم والأدب والمعرفة والفن ، ذكر

كثيراً منها في مقدمات كتبه ، وبين أيدينا الآن عدد ما ذكره ومن غيره ما ذكره .

أما مصادر هذا العلم الغزير ، فأشعار العرب ومروياتهم ، وقصصهم ، وعلومهم

وأخبار حياتهم ، وما نقل من كتب فارسية وهندية ويونانية ، ثم ما ذاع في عصره من ثقافات

وما كان عند علماء عصره من معارف ، ثم اجتهاده وبحثه وملاحظته وتجربته ، وشاهدته

وما استخلصه من حياته الطويلة ، ورحلاته العديدة . وقد كان يعتمد في آرائه على

(٢٥) المصدر السابق صفحة ٤٧ .

(٢٦) الحيوان ج ١ ص ٦٠ .

(٢٧) الحيوان ج ١ ص ٥٨ .

العقل يقول : (فلا تذهب إلى ما ترك العين ، واذهب إلى ما يترك العقل ، والأمر حكمان ، حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للمقول ، والعقل هو الحجية) (٢٨) . ويقول : (ولعمري إن العين لتخطي ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم لقاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، وإن كان زماما على الأعضاء ، وما را على الحواس) (٢٩) . ودعوى السبب البحث والتفتير واستيطان الأشياء ليعرف كنهها وزيفها ، وهم الاقتصار على الكتب فإن فيها الصحيح والمكذوب كما رغب في تحكيم العقل فيما يقرأ الإنسان وما يرى ، فلم يكن الجاحظ صغيا يحشو عقله بما في الكتب كيفما كان ، ويرويه علما وفكرا دون تحقيق وتمحيص ، بل كان بحثا نظارا تقريرا ، يجعل عقله في كل شيء ، وليؤكد ما تدله عليه حواسه بأولئقيه ، فوسيلته في المعرفة العقل يؤكد ما ترشد إليه الحواس ، أو يستقل بالحكم وحده إن لم تلذذه الحواس يقول : (ليس يشفيني إلا المعانيه) (٣٠) . ويقول : (كل قول يكذب الحيوان فهو أتمش خطأ وأسخف مذهباً ، وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة) (٣١) . لأن العقل قد ينحرف كما تنحرف الحواس ، فالمعرفة الحققة من العقل تلذذ الحواس وتسانده .
فقللاً : مورحكان كما يقول .

وكان يشك في الشيء وينقب في جوانبه وخفاياه حتى يصل إلى اليقين ، وقد سبق في كتابات إلى مذهبه " الشك طريق اليقين " يقول : (اعرف مواضع الشك ، وحالاتها المرجية لها ، تعرف بها مواضع اليقين ، والحالات المرجية له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن ذلك إلا لتعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك ما يحتاج إليه ، ثم اعلم أن التسلسل في طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف) (٣٢) . وينقل

(٢٨) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ٨٩

(٢٩) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ٨٩ .

(٣٠) الجاحظ ، جورج غريب صفحة ٦٠

(٣١) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٣٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء السادس صفحة ٣٥

من أستاذة النظام ، (الشكك أبصر بجواهر الكلام من أصحاب الجعدي ، والشك أقرب إليك
من الجعدي ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك) (٣٣) وكان يدعو إلى النظر والاستنباط
واستخراج القاعدة بعد التأمل فيها بالنظر والتأمل والاستنباط يقوى الذهن ويشدب العقل ،
أما الحفظ فليس الفطنة ، ويوثق للركود الذهني يقول ، (وكبريت الحكماء الراساء أصحاب
الاستنباط والتفكير ، جودة الحفظ ، لكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، حتى
قالوا ، الحفظ مذق الذهن ، لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو
الذي يقضي بصاحبه إلى برد اليقين ، وحرارة الثقة والقضية الصحيحة ، والحكم العمود) (٣٤)
ويصعب من لم يبحث ولم ينظره ، ويحط من قدره بقوله ، (إذ إن الناس قد استغنوا عن التدبر
وكنوا مثونة البحث والتفكير ، لقله اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه قل فضله
ومن قل فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أئامه ، ولم يذم على
شرجاءه ، ولم يجد طعم المرء ولا سحر الظفر ، ولا ريح الرجاء ، ولا يره اليقين ،
ولا راحة الأمن) (٣٥) .

وإذا كان الجاحظ قد سبق ، ويكارت إلى نظرية الشك العوض إلى اليقين ، فقد سبق
فرنسيس بيكون إلى منهج البحث والتجربة ، والاستقراء والتتبع ، وتخذ الملاحظة والمشاهدة
برهاناً ودليلاً ، ومن ملاحظاته ومشاهداته مخلق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم
يستعين به على مقادير حاجاته (٣٦) وتلون كل صنف من الحيوانات بألوان بيئته حفظاً لحياته
بالتصويه على عدوه (٣٧) وما نقله عن أرسطو من أن لكل طائر عشاً يتخذ على شكل يناسبه

(٣٣) المصدر المذكور صفحة ٣٥ ، ٣٦

(٣٤) أمراً البيان ، محمد كرد علي ، الجزء الثاني صفحة ٣١٦

(٣٥) المرجع نفسه صفحة ٣١٢

(٣٦) الحيوان ، الجزء السادس صفحة ١٢٥

(٣٧) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٢٨

وأن ذلك يختلف باختلاف المواضع وعلى قدر اختلاف صورتك القراميس والأحافيس (٣٨) . (أما
 أذنان الأفاعي فإنها تثبت ، ومن عجيب ما فيها من هذا الباب أن ما يراها يقطع فنيته ، حتى
 يتم نباته في أقل من ثلاث ليال) (٣٩) (والأفعى لا تدور عينها في رأسها) (٤٠) و (الخطاف إذا
 قلمت إحدى عينه رحمت) (٤١) (والأيل إذا ألقى قرونه علم أنه قد ألقى سلاحه فهو لا يظهر .
 كذلك إن سم علم أنه يطلب فلا يظهر ، وكذلك أول ما ينبت قرنه يمرضه للشخص ليصلب ويهبط (٤٢)
 أما تجاربه فكثيرة ، فقد قطع أعضاء الحيوان وشوحه ، وجمع بطنه ، ودفنه حيا ، وتدق بيضه
 وأعطاه السم ، وجمع الأضداد مع بعضها ، يقول : (وقد رأيت بيض الحيات وكسوتها لأتصرف
 ما فيها ، فإذا هو بيض مستطيل أكثر اللون أخضره وفي بعضه عش ولع ، فأما ما دخله
 فلم أرقبها قطه ولا صديدا خرج من جرح فاسد ، إلا والذي في بيضها أسج منه وأقذر (٤٣) .
 (وناب الأفعى يحدث له بأن يدخل في فيها حماض أتج ويطلق لعينها الأعلى على الأسفل
 فلا تقتل بعضها أيا لها له) . وقد ذهب إلى مصر وأجرى فيها بعض التجارب على
 حياتها ومقارنها ، قال : (كنت بعجت بطن عقرب - إذا كنت بمصر - فوجدت فيه أكثر من سبعين
 عقاب صفارا كل واحدة نحو أرنبة) (٤٤) يقول الدكتور فوليب حتى : (ومن أقدم من صنف
 في علم الحيوان والأنثروبولوجيا أهر عثمان عسويين بحر الجاحظ ، وتأثر ولع في البصيرة
 وصنف كتاب الحيوان . . وفيه بعض مبادئ نظريات النشوء الحديثة ، والتكليف ، وسيلوجيا
 الحيوان ، وقد عرف الجاحظ طريقة تحضير الأوميا من سقط الحيوان كالقشر وغيره ، بواسطة
 التحطير الناشف) (٤٦)

(٣٨) المصدر المذكور ، الجزء الثالث صفحة ١٦١

(٣٩) الحيوان ، الجزء الرابع ، صفحة ١١٢

(٤٠) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١١٢

(٤١) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١١٢

(٤٢) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٢٢

(٤٣) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٧٠

(٤٤) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١١٢

(٤٥) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٥٦

(٤٦) المصدر المذكور ، الجزء الرابع ، صفحة ١٦١

والأخبار العلمية لا يعلم بها الجاحظ قبل عرضها على ذهنه ، أو على أذهان الأخصائيين
 وحلل لها ، أو يجرى عليها تجاربه ، ثم يحكم بعد ذلك بصحتها أو بطلانها أو بتركها
 لامتنع ولا منفية يقول عن النمل رواية من غيره (وتقتل بأن يصب في أفواه بيوتها القطران
 والكبريت الأصفر ، ويدس في أفواهها الشعر ، وقد جربنا ذلك ، فوجدناه باطلا) (٤٧)
 ويقول عن الأفاعي : (والأفاعي تكو ریح السذاب والنسج ، وتستريح إلى نبات العرول ،
 وأما أنا فإني أقتيل على رأسها وأنفها من السذاب ما ضرها ، فلم أر على ما قالوا دليلا) (٤٨)
 وما يدل على تلصصه الدليل قبل التسليم بما يسمع قوله عن المصانير (والذين ذهبوا أن
 ذكورتها لا تعيش إلا سنة يحتاجون إلى أن يعرفوا الناس ذلك ، وكيف يستطيعون تصريفهم ،
 وقد تكون القرى بقرب المزاع والبيادر مطومة مصانير ، مطومة من بيضها وفراخها ، وهم مع
 ذلك لم يروا عصفورا قط ميتا) (٤٩)

وقال : (وأما الذين ذكروا في أثمارهم السبع والعسيارة فليس في ظاهر كلامهم دليل على
 ما اتفق عليهم الناس من هذا التركيب المختلف ، فأدينا الذي قالوا وأمسكنا عن الشهادة
 إذ لم نجد عليها برهانا) (٥٠)

لقد كانت وسائل الجاحظ إلى المعرفة الحقة ، والشهيد الحلي ١- الشك الموصل إلى
 اليقين ٢- المشاهدة والملاحظة والبحث والاستقراء والتجربة ٣- الآراء الموثوق بها
 بعد عرضها على الحس والعقل ومطابقتها لهما ٤- ولا يقدح في ذلك قوله بالشك وضده ،
 وطرحه الشك ثم ذهنه ، ولا يؤدي هذا إلى وصفه بالسفسطة ، وحق الجدل ، لأن هذا
 إنما كان منه على سبيل إظهار الفصاحة ، وإبراز القدرة اليبانية ، أو السخرية والهنز

(٤٧) الحيوان ج ٤ ص ٣٦ طبعة عام ١٩٤٠

(٤٨) الحيوان ج ٦ ص ٢٩٩ ، ومثله في ج ٥ ص ٣٦٥

(٤٩) الحيوان ج ٥ ص ٢٢٣

(٥٠) الحيوان ج ١ ص ١٨٥

بصاحبه ، وثقه تفكيره ، ولم يكن الفرض منه التحديق الملقى ، أو البحث الأدبي وقد فعل ذلك في كتابه المختار ، وفي رسالته " الترميز والتدوير " وفي رسائل آخرها .

كان الجاحظ يميل في كتاباته إلى الوضوح ، ويرى أن المقصود بالكتابة الإقناع ، ويفضل التشبيهات الصلبة القريبة ، وينصر الحقيقة على الخيال ، لأنه يخاطب العقل ويكره وحشي الكلام وضربه ، لأنه يعرقل الفكر ، ويوقف اندفاعه حيث يشتغل القارئ بفهم المقدمات ، بدل الانصراف إلى فهم المعاني . يقول : (ليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إقناع معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلا الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار ما يرتفع به عن ألقاظ المسئلة والحشوة ويحطه من غريب الأعراب وحشي الكلام ، وليس له أن يمد به جندا ، وينقده ويصغبه ويروقه ، حتى لا ينطق إلا بلب اللب ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله ، وتصرفه وأسقط زوائده حتى ياد خالصا لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه ، إلا بأن يجد له إقبالا مرارا وتكرارا ، لأن الناس كلهم قد تعودوا البسوط من الكلام ، وصارت أقبالهم لا تزيد عن عاداتهم ، إلا أن يحكم عليها ، ويؤخذ بها) (٥١) . ويقول : (وأحسن الكلام ما كان قليلا يمشي من كثير ، ومثما في ظاهر لفظه) (٥٢) .

وما هوذا يمشي على مؤلف عصره التعمية في كتبهم ، وسيلهم إلى الإفلاق ، وقد كان شائما في كتابا تسم ، ويتساءل ساخرا من الأسباب التي تدفعهم إلى هذا الضوض ، يقول : (قلت لأبي الحسن الأخفش ، أنت أعلم الناس بما لنحوه فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالتأنيب بعضها ولا نعيم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض المويض ، وتؤخر بعض المشتم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعون إليه ، قلت حاجاتكم إلى فيها ، وإنما كانت غايي الناله ، فأنا نسا

(٥١) العيون ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٨٩ ، ٩٠

(٥٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول ، صفحة ٨٣

هذه الطريقة ، ولم يرقبها ابتعاداً عن القضية -- مخالفاً ما عليه مجتمعنا الآن -- كثير من

كتاب العرب السابقين كالراغب الأصفهاني ، والقاضي الشنوشي والجرجاني الذي يقول :
(وقد استشهد العلماء لضرب القرآن وإعرابه بالأهيات فيها الفحش ، وفيها ذكر الفم
التيج ، ثم لم يعبهم ذلك ، إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك لئلا يفتخروا به ، ولم يدروا
شعرهم من أجله) (٥٦)

وهو من كتاب الضرب يسلك هذا السبيل ، (قال مونتين وهو من أعظم من اشتدوا
بالمفاضل من المؤلفين الفرنسيين ، ماذا كان عمل الفعل القاسي في الناس وهو طبيعي
وضروي حتى شجبهوا وابتعدوا عن ذكره ، فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشيء من
الخجل ، ويتمدون عنه في أحاديثهم ، الناس يجزؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة
والخيانة والزنا ... الخ ولا يجزؤون على التلطف بالعمل الذي يرب الحياة للمخلوق .
باللغة للكثرة ، وبالتناق الخجل ، الآتون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على
العمل الذي يخلق الإنسان أحرياً ، بأن يطلق عليهم اسم هذا ثم ويروا أن) (٥٦) قال
القديس كليم ، أنا لا أخجل لقائدة القراء من الكلام على الأعضاء التي يخلق بها الإنسان
لأن الله تعالى لم يخجل إذ خلقها) (٥٦) ، ولم يرد الجاحظ بهذه الألفاظ فحشاً ولا هجراً
ولا عبثاً بالأخلاق ، ولا استهانة بدين أو عرض أو عفة ، ولم يكثر منها ، وبطريق الحديث
منها ، وإنما كان كل هذه الإفصاح والإيضاح واختيار اللفظ المناسب للمعنى الذي إليه
قصد .

وما يتاز به أدب الجاحظ ، الواقعية ، وما قدمناه من ميله إلى الرضوخ وذكره الأعضاء
اللقائية وأعمالها بالألفاظ الصريحة المكشوفة لون من ألوان الواقعية ، و (الواقعية نفس
الأدب هي أن ينتج الكاتب من الحقيقة الراهنة ، والحياة الواقعية عناصر موضوعه ، ولا يشترط
في الواقعية أن يكون واقفاً بالفعل ، بل يكفي أن يكون للمعنى الحياة نظائر بأن تستمد عناصره

وتؤخذ تفاصيله من الحقيقة الواقعة ، وإن لم تكن هذه العناصر والتفاصيل مجتمعة في الحقيقة على الشكل الذي جعلها الكاتب فيه (٥٧) وقصص الجاحظ من هذا اللون ، فهي ولادة الواقع

وليست من نسج الخيال ، وإن الجاحظ عالم ، مدقق مدقق ، ينبغي أن ينجاز إلى الحقيقة ولا يسهل إلى الخيال إلا بقدر ما يخدم به الحقيقة ، بتوضيح فكرة ، أو إبراز معنى ، أو تسهيل معاني أو التأنير في السامع وحتى تكون المعاني في نفس لائحة ، وفي صدره حائكة ، فنجد في كتابه الحيوان يرفض كل خيالي ، بعيد عن العقل فلم يبق دليل على وجوده أو إمكانه ، وما كانت أسانيد ، وما بلغ من العلم قائله ، وقد رفض لأرسطو كثيراً من آرائه ، وهزى بها ، وسخر منها ، لبعدها عن منطق العقل والواقع . وحتى في كتابه البخل ، وهو قصص وقصص ، مزج وسخر ، فلا مانع من أن يستولى الخيال والخرافة منه على مساحة واسعة ، نجد الجاحظ فيه مقيداً ببعده ، ملتزماً ما اعتاده من الحقيقة والواقعية ، فأبطال قصصه أناس من لحم ودم وليسوا شياطين أو ملائكة ، أو ركاب خيول مجنحة ، وهم يعيشون على أرض الدولة العباسية وليسوا في القصر أو المريح ، ويعرفهم الجاحظ لأنهم أساتذته وأصدقائه وخلطاءه من براهم ويتحدث إليهم ، والنزاع محدود بمصر الجاحظ ، والمكان بالبصرة أو بغداد وقد يتجاوزهما إلى مكان آخر ولكنه من أرض الدولة العباسية ، وأهم من ذلك كله في الواقعية الأحداث . وهي في قصصه قد وقعت فعلاً ، أو وقع مثلها ، أو يمكن لها أو لعلها أن يقع ، والعقل يفر ذلك ، والمصر لا يضعه ، والمكان يميزه . بل إن الجاحظ لواقعيه يرفض ما خرج عن الإلزامية وسخر من كل ما شذ عن المادة ، وابتعد عن الواقع . يقول بعد أن روى قصة رجل يخيل أرادوا له أن يشير باللقمة إلى قطعة من الجبن عن بعد ثم يأكلها ، (ولا يمجبن هذا الحرف الأخير لأن الإفراط لا غاية له ، وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن

(٥٧) من القصص في كتاب البخل للجاحظ ، محمد المبارك صفحة ٢٤ الطبعة الثانية ، دار

يكون لهم مثله ، أو حجة أو طريقة ، فأما مثل هذا الحرف فليس ما نذكره (٥٨) وهو في هذه الكلمة يدعو إلى الواقعية ونهذ ما لم يكن في الناس مثله ، ما يفتح مع الخيال ، ويميل إلى الأوهام وينتسب إلى الخرافات . يقول الدكتور محمد المبارك الجاحظ والواقعية (ولا ينبغي أن ننسى عند الجاحظ وحدانية هذا المذهب أن نجعل أدبه من هذا النوع إذا كنا قد وجدنا شروطه وقيوده مستوفاة برهنية في كتاباته ، وإن لم يسع هو بهذا الاسم المستحدث وإنما ذهب إلى أبعد من هذا فأقول : إن الجاحظ وضع في كتاب البخلا قواعد وأساسا تشبه قواعد المذهب الواقعي ، فهو لم يسلك هذه الطريقة عقوا ولكنه تعمد ما وحدها (٥٩) والجاحظ يسلك في التأليف مسلكا خاصا ، يستعمل به عيولته وحتى عرف عنه ، وشهر به ، وصار سمة من سماته ، وقاسما مشتركا في جميع مؤلفاته ، وهذا حدوه كثير من كتاب عصره ، فشم شاع ذلك النمط وذاق ، ووجهه الأدبي ، وغير الأدبي وأعني بذلك المسلك :
 * النوع :

١- منح العلم بالأدب : ففي علمه الأدب ، وفي أدبه العلم ، فإن حدثنا من الحيوان والطيور والحشرات ، حديث العالم المحقق ، وجدنا هذا الأسلوب العلمي يقطر أدبا ، كما نجد أحاديثه عن تجار يوحونه وملاحظاته ، قد اتهمت بتأدية أدبية ، أو أبيات شعرية ، أو قصص ساخرة ، أو فكاهات مضحكة وإن تكلم عن الأدب تخلله حديث عن الحرب ونظمها وشد الأسنان بالذهب ، وما يشترط للمادة ، واداءات الناس في لباس العمائم والنحال ، مما ينتسب إلى العلم وفنون الحرب ، واداءات الناس ، ومستلزمات الرياسة ، فكما منح العلم بالأدب في عقلية الجاحظ ، فزجا معاني نتاج هذه العقليته مؤلفاتها .

٢- ومنح الموضوعات ببعضها ، فأبو عثمان عمرو بن بحر يحرر في الموضوعات كلها ، تتباين أوجها من حوله ، فيتناول بيده هذه الموجة ، ويديه الثانية موجة أخرى ، ونسم

(٥٨) البخلا ، الجاحظ ضبط العوامي والجامع ٢ ص ٥٨ ، تحقيق طه الحاجري ص ١٢٢
 (٥٩) فن القصص في كتاب البخلا للجاحظ ، محمد المبارك صفحة ٢٢

يخلطها ببعضها ويطول سباحته في موضوعاته ، ويتقدم فيها ، بمقدار ما خلط ونج ، وهو
في مزجه موضوعاته ، وانتقاله بينها ، قد يجد رابطة قوية تربطها ، وقد يكون الانتقال مجرد
خاطرة سبغت له وجهته إلى موضوع آخر ، يشار إلى تناوله ، فإسما أو مقامها موضوعه الأول ،
وكثيرا ما يتفزع قفزات فجائية من كلام سابق إلى كلام لاحق ، دون رباط أو صلوات بينهما وقد
يتحدث في موضوع ، ثم يطويه فجأة منتقلا إلى غيره ، ثم يعود إليه ثانية من مودة بالرجوع إليه
أو من غير مودة ، فيضمه في أي مكان ، دون مراعاة ما جاؤوا ، وما تأسبه ، في كتابه الحيوان
مثلا ، نجد العياض في الحيوان مقترنة بالمباحث الدينية واللغوية والاجتماعية والأخلاقية
يتخللها أخبار وتوارد وسخریات ، وفحش وجون ، وفي كتابه البيان والتهذيب ، يخرج ما فيه من
خطب وأشعار وأدب ، بمحادثات الأمم ، وطعامهم وأخلاقهم ، وهو لا يراعي الوحدة التأليفية في
كتبه ، وإنما يتصرف منه إلى إرضاء قرائه ، وإشباع رغباتهم ، ودفع الملل عنهم ، بالانتقال
من فن إلى فن ، ومن موضوع إلى موضوع كما قال (ليخنج قارىء) هذا الكتاب من باب إلى باب
باب ، ومن شكل إلى شكل (٦٠) ، وأن كتابه عدة كتب ، تعوي العديده من الموضوعات
والجاحظ يعترف بذلك قائلا في كتابه الحيوان ، (لأنه وإن كان كتابا واحدا فإنه كتب كثيرة ،
وكل مصحف منها فهو على حدة ، فإن أراه أحد قراة اليوم لم يطل عليه الباب الأول حتى
يخرج من الثاني ، ولا الثاني حتى يجمع على الثالث ، فهو أبدا مستفيد ومستطرف ، ومغضد
يكون جماعا لبعضه ، ولا يزال نشاطه زائدا ، وفي حين من أي القرآن صار إلى الآخرة حتى
خرج من آخر صار إلى خيره ثم يخرج من الخبر إلى شعره ، ومن الشعر إلى نواذره ، ومن
النواذره إلى حكم عقلية ، ومقاييس شذاه ، ثم لا يترك هذا الباب ولمه أن يكون أتم ،

٦٠) الحيوان ، الجاحظ ، وتحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفة ٧ ط ١ عام ١٩٤٣

والجلال إليه أسرع ، حتى يفيض به إلى منج وفكاهة ، وإلى سخر وخرافة ، ولست أراها سخرًا

والجاحظ يعرف ما في كتبه من اضطراب التأليف واضطراب الموضوعات فيقول عندئذ من

ذلك في كتابه الحيوان : (فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظه ومن سوء تأليفه ومن

تقطيع نظامه ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد أن صورت عندك حال التي ابتدأت

عليها كتابي) . . . ويقول في كتابه البيان والتبيين : (وقد طمعت المشهورية على أخذ المرء من

خطيبها المحضرة . . . بكلام مستكروه ، سنذكره في الجزء الثاني إن شاء الله) . . . ولقته مع

ذلك لم يذكره إلا في الجزء الثالث . . . ويقول في كتابه البيان والتبيين : (وكان في الحق أن

يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب ، ولكننا أخرناه لبعض التديين) . . . ويقول مصححا

ما وقع فيه من منج الشيء بخير جنسه ولقته (وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان) . . . كتاب

الحيوان) وفي فصل ما بين الذكر والأنثى تماما ، وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان

والتبيين) . . . مع أنه ذكره في البيان والتبيين . . . ويقول بعد أن ذكر أبيات : (وهذه أبيات

كتبناها في غير هذا المكان من هذا الكتاب ، ولكن هذا المكان أولها) . . .

٢٣ - ومنع الجدل بالمثل ، وهذه أبرز صفات المنج في أدهم ، وأكثرها انتشارا وشعرا ، فإن

بعضنا في كتبه ، وفتننا مسائله ، فإننا لن نجد جدا معسكا ، ولا هؤلاء صرفا وإنما هو لغات

منج منها ، ينحرف في أعق المسكلات العلمية ، وأخذ التجارب والبحوث ، ويوجد ما شاء

من جد ، ثم يفجونا بفكاهاته ونزحه ، وسخره وضحه ، وهو لا يفتح ذلك قطوا ، أو تصدأ إلى

عدة أمور جادة ، وإن كانت وسيلتها الفكاهة والضحك (ولم تدر أن العلاج جد إذا اجتلب

ليكون علة للجد ، وأن الهطالة وقارورانة إذا تكلفت لظك العاتية) (٦٧) . . .

(٦١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ صفحة ٢٠٩

(٦٢) المصدر المذكور . الجزء الأول بين صفحة ٢٠٩

(٦٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الأول صفحة ٢٨٢ .

(٦٤) المصدر المذكور صفحة ٧٦

(٦٥) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ١٨٦

(٦٦) المصدر المذكور الجزء الأول بين صفحة ٢١

(٦٧) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٢٧

١- الاستجابة لغريزة الضحك المعاصرة في الإنسان والتي لا تقاوم له غشاؤه وهي مع ذلك صحيحة
مدرجته ، يقول عن الضحك : (وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع
كبيراً ، وهو شيء في أصل الطباع ، وفي أساس التركيب) (٦٨) . ويقول : (ومن فراسة الرجل
الصالح أن تراه سهلاً طلقاً له ، منظره يمس ، وكلامه شدي ، سهط الجبين ، غير منقبض ، ولا
نفق غلق قلق ، وغير كاره للدماغة والمزاج) (٦٩)

٢- التخفيف من ثقل الدرس ، والاستراحة من عناء المكدر ، والترويح عن النفس ، وإمتاعها بما
يسرها يقول في ذلك : (ولا بد لمن استكد الجد ، من الاستراحة إلى بعض النازل) (٧٠)
ويقول في كتابه الحيوان : (على أني ربما شجعت هذا الكتاب ، وفصلت فيه بين الجزأين والجزء
بنوادير كلام ، وطرف أخباره ، وفوراً شعاره مع طرف مضاحيك ، ولولا الذي نحاول من استعطاف
علي استتلم انتفاك لقد كما تسخفنا ، وسخفنا شأن كتابنا هذا) (٧١) . ويقول في إحدى
رسائله : (فجملت النزل بعد الجد جمالاً ، واللمعة بعد الحجة مستراحاً) (٧٢)

٣- تشييط القارئ والسامع ليقبل على الكتاب ، ويخف لاستيحاب ما يحويه وبخاصة إذا كان
دسماً ، يستكد الذهن ، وفي ذلك يقول ابن بحر : (وليس ينبغي للكتب الأدب والرياضيات
أن يحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى
المناني الصعبة التي تستكد النفوس ، وتستفرغ الجهود ، وللصبرقاية ، وللإحتمال نهاية
ولا بأس بأن يكون الكتاب موشعاً ببعض النزل . . . ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض

(٦٨) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق علي الجارم ، صفحة ٢٨ ، الجزء الأول

(٦٩) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، الجزء الثاني ، صفحة ٤٥٧

(٧٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٢٢

(٧١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء السادس ، صفحة ١٥

(٧٢) رسائل الجاحظ ، جمع السندوي ، صفحة ٢٨٤

ما ينشط القارىء ، وينفى النحاس عن المستمع ، فمن وجد في كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ،
فليعلم أن قصدنا في ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء للقلبه ، والاستهالة لسمعه وبصره (٧٣)
ويقول : (وإن كنا قد أملناك بالجد ، وبالاحتجاجات الصحيحة والبرهنة ، لتكثر الخواطر ،
وتشدد العقول ، فإننا سننشطك ببعض هذه الهطالات ، وبذكر الملل الظرفية ، والاحتجاجات
للخيرية) (٧٤) . ويقول : (تغلظت لك جدا بدخل ، وقرنت لك حجة بطاعة لتخف مشقة الكتاب
على القارىء ، ولا يزيد ذلك في نشاط المستمع) (٧٥) .

٤- الانتقال من باب إلى باب بتخيير النعمة ، وتوزيع الضروب والأشكال . يقول : (على
أني قد عزمت - والله الموفق - أن أوسع هذا الكتاب ، وأفضل أبوابه بنوادره من ضروب
الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى
شكل ، فإني رأيت الأسماع تهل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار النضيفة
إذا طال ذلك عليها) (٧٦) .

لقد فتح الجاحظ للأدباء في عصره ، الباب الفسيح على مصراعيه ، فولوجوه إلى ساحة
الإضحاك ، وساحة العبي والفكاهة ، وتنافسوا في ذلك أيضا تنافس ، ووشعوا كتهمس ومجالسهم
بالمضاحيك ، أدمجوه في أبوابه ، وأخصصوا لها أبوابا من الكتاب وشهر منهم في ذلك ابن
قتيبة والتوحيدى وابن زيدون وابن عبد ربه ثم خصصت كتبهم للفكاهة والإضحاك ،
والسخر والتكم ميثا : الأذكياء ، أخبار الحقق والمنغلطين أخبار الطراف والمتاجنين ،
وكلها لعبد الرحمن بن الجوزى ، والمستطرف في كل فن مستطرف للأبشيهي ، والكشكول

(٧٣) رسائل الجاحظ : الجاحظ : جمع حسن السندون من ٢٧٥ ط ١ عام ١٣٥٢ هـ .

(٧٤) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون : الجزء السادس من صفحة ٥ ط ١ عام ١٩٤٣ .

(٧٥) رسائل الجاحظ : الجاحظ : جمع حسن السندون صفحة ٢٨٤ .

(٧٦) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء السادس من صفحة ٧ .

للعاقل ، وشراء الأوراق للحموي ، وجمع الجواهر للحموي ، والموشى للوشاء .
وللفكاهة والإضحاك في أدب الجاحظ مبادئ وقوانين ، وضع أسسها ، وضمت عندها ورفع
لواعيها أروعها ، وتكاد تنحصر في عدم الاسترسال في الضحك والسخره ، ووضع المنهج والاضحاك
في مكانه المناسب بقول : (وللمن موضع ، وله مقدار ، متى جازهما أحد ، وقصر منهما أحد ،
صارا لناضل خطلا ، والتقصير نقصا)^(٧٧) . وقول : (ولكن لكل شيء قدر ولكل حساب
شكل ، فالضحك في موضعه كالملك في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطر في موضعه)^(٧٨)
كما لا يصح أن يؤذى بضحك وسخره غيره من الناس ، ولا يضحك أو يسخر إلا من لا يرى
في ذلك فضاذه ، يقول : (ولربما سمينا الصاحب إذا كان من يمانح بهذا ، وأما يناه يتظرف
ويجعل ذلك الظرف سلما لفتح شينه)^(٧٩)

(٧٧) البهلاء ، الجاحظ ، ضبط المواضع والجامع ، الجزء الأول صفحة ٢٩ .

(٧٨) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٠٩ .

(٧٩) المصدر السابق صفحة ١٠٧ .

الفصل الثالث

مكانته الاجتماعية

لم أجد كاتباً أدبياً بلغ من رفعة الدرجة ، وعلو المنزلة ، وزيوع الصيت ، وانتشار المؤلفات ، والقدرة على استيعاب العلوم ، وحذق الصناعات والفنون ، والتميز على عرش القلوب وامتلان
أبهة الحقول ، مثل وابلغة أستاذنا الجاحظ .

وما أقبل الناس على كعبه فلاطت بقلوبهم ، والتفتت عقولهم ، وهشت لها نفوسهم ،
وامتلات بها خزائن كتبهم ، وكر حولها الجدل والنقاش ، أكثر مما فعلوا بكتب الجاحظ
وإذا كانوا يقولون : إن الرجل العظيم لا تظهر عظمته ، ولا يعرف الناس مكانته
وقيته ، ولا يكون خلوه ، ومجده ، إلا لا بعد موته ، وربما بعد نفاذ جيله ، حين يهلك حسابه
ومن يشعرون عليه ، فيكون الحكم عليه من بعدهم في يد العدالة ، ويزان الحق ، وحيث
لا تحيز ولا محاباة ، ولا غل ولا كراهية . . . وإن هذا العظيم يعيش حياته معدماً مطلقاً ،
ومظلوماً مضطهداً إلا ينتفع بجهوده ، ويحظى ثمار فرائده ، إلا أبنائه ، وأحفاده ، والأجيال من
بعده . . . فإن الجاحظ العظيم يرتفع من هذه القاعدة ويجل عنها ، مكرماً ممن
نفسه قاعدة ، فقد عرفوا الناس عظمته في حياته ، فطلبوا كتبه ، وتعجلوا كتبها ، وأكفروا
في مسائلم إياها ، وترقبوا صدورها ، كما تنتظر في عصرنا الصحف السيرة ، والمجلات
الأسبوعية أو الشهرية بصبر نافذ ، وتشوق وتشوق تطلع فيها على الجديد ، ونرى نفس
صفحاتها ذاتاً ومجتمعنا ، ونلقفها لثقافة والمعرفة من نافذتها المضيئة ، كما عرفوا قيمته
بعد فقده ، فأقبلوا على تراثه دارسين باحثين ، وطلد ين محترمين .

شهدوا الجاحظ في مجتمعه ، وطار صيته ، وسما ذكره ، فحرفه سراة القوم ، وعلماء لهم
وأدباؤهم ، والقضاة والوزراء ، والخلفاء ، وصحبه ، وصار من خلطائهم ، وصفوة أصدقائهم ،
وخلصة جلسائهم ، صاحب الأمان الخليفة ، وابن الزيات وزير المعتصم ، والفتح بن خاقان

وزير المتوكلا بن أبي دؤاد القاضي ، والأخفش شيخ النحاة وقطرب النحوي ، والنظام رأس الاعتزال ، والأصمعي عالم اللغة ، وأبا عبيدة الذي فاج عصره علما وفقها ، وفهرهم من رجالات الدولة ، وأهل العلم والأدب ، وأصحاب العمل والمعقد ، وأرباب الفكر والفقه ، والكلام والأدب . يقول الجاحظ : (وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، وقطرب النحوي ، وأبو الفتح مؤيد منصور بن زياد علي خزان فلان بن فلان ١٠٠٠) (١) وكنا عند داود بن أبي نوارك بواسطة أيام ولايته كسكره فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق وليس تقسمها بيننا) (٢) (أكل الجاحظ مع محمد بن عبد الملك الثيات) (٣)

وكان الخلفاء وكبار رجال الدولة يتسابقون إلى الجاحظ يطلبون منه كتابة الكتب والرسائل يدافع بها عنهم ، ويحسب بها عصيا تهمه ويؤيد بحجا جما مذاهبتهم ، وآراءهم ، فيلبي طلبهم ، ويحبيبتهم إلى رعايتهم ، فإذا كتبه تفرغ شأنهم ، وتجمع الرعية حولهم ، وتقود العقول خاضعة لسيطرتهم ، فيحمدون له ذلك ، ويعجزون عطاءه ، ومن هذه الكتب : المباسية والعثمانية ، وكتاب مناقب لترك ووطلة جند الخلافة وغيرها من الكتب والرسائل ، وقد طلبه الخليفة المتوكل على الله لتعلم بعض أولاده فلما حضر إليه استبشع منظره وصرقه ، يقول : (ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأى استبشع منظري ، فأمر لي بمشرة آلاف درهم وصرفتي) (٤) وقد وجه الخليفة المتوكل إليه من يحملوه من البصرة إلى مقر الخلافة فلما أتاه الرسل وطلب منه ذلك أجابه : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ، وعقل زائل ، ولون حائل (٥)

(١) كتاب البخلاء : الجاحظ ، ضبط الصوامير والجانم الجزء الأول صفحة ١٠١

(٢) المصدر المذكور صفحة ١١٥

(٣) تاريخ بغداد المجلد الثاني ، ح ٢١٨

(٤) وفيات الأعيان : ابن خلكان الجزء الثالث صفحة ١٤١ نشر مكتبة النهضة ١٩٤٨

وتحقيق محمد محي الدين

(٥) أمراء البيان ج ٢ ص ٣٢٥ ، الجاحظ لجون فريب ص ١٦

وقول مفاخرها بما كانته الاجتماعية ، وعظمته الأدبية ، ووجاهته الفكرية ، ونزلته عند الخليفة
 المأمون ، (ولما قرأ المأمون كتبى في الإمالة ، فوجدها على ما أمر به ، وصرت إليه ، وقد كان
 أمر يزيدى بالنظر فيها ليخبر عنها ، قال لى ، قد كان بعض من يرتضى عقله وتصدق خبره ،
 خبرنا عن هذه الكتب يا حكام أصفه وكرة الفائدة ، نقلنا له ، قد تيسر الصفة على
 العيان ، فلما رأيتها ، رأيت العيان قد أمرى على الصفة ، فلما غلبتها أمرى الفيل على
 العيان ، كما أمرى العيان على الصفة) (٦)

وقد أصبح الجاحظ في غنى وثروة ، في دولة مجدت المال ، وقدست الثروة ، وأحنت رأسها
 للفقير الموسر ، فصار له سلطانه ، وهزه وجاهه ، وأصبح يرمى للعلمة ، ويطلب للشفاعة والرؤية

(حدث أبو العينا محمد بن القاسم قال ، صرت إلى الجاحظ ، فقلت له ، جئتك مسلماً ،

وقاضيا للحق ، ولى حاجة لبعض أصدقائى ، وهى كذا وكذا . قال ، لا تشغلنا الساعة عن

الحادثة ، وتحرف أخبارنا ، إذا كان فى غد رجعت إليه بالكتاب) (٧) ، وحدثنا الجاحظ عن

ثرائه وبعاره ، وما كتبه للوزراء ، والرياس من كتب فيقول ، (أهديت كتاب الحيوان إلى

محمد بن عبد الملك الثيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين

إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب النزع والنخل إلى

إبراهيم بن الصبان الصولى فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فأصرفت إلى البصرة ، وبمضى

ضبعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد) (٨)

وامتلك الخلمان فكان له غلام يسمى تقيما ، وغلام آخر وهو يشير إلى ذلك فى بعض

(٦) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

(٧) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٢ ، جمع الجواهر فى الملح والنوادر ص ٢٠٤

(٨) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ١٠٦

سخرياته يقول : (قلت لفلامي نفيس . . .) (٩) (وقال نفيس لفلامي . . .) (١٠)

مكرر

ويصف لنا جاهه ، وهزة سلطانه ، ونفاذ كلمته في شئون الدولة بقوله وقد سئل عن حاله :
(حالو أن الوزير يتكلم برأى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلوات الي وأكل من لحم الطير
أسننها ، وأليس من الثياب أليهما ، وأجلس على ألبين الطيرى ، وأتى على هذا الرئيس ،
ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال الرجل : الفرج ما أنت فيه ، فقال : بل
أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا
هو الفرج (١٠) وطعمه هذا إنما هو من باب الفكاهة والاعتراف بالنعم وشكرها ، وعبارته
تحتوى غمزات للمسائل ، وكأن لسان حاله يقول : إنه ليس في الدولة أعلى منزلة منى غير الخليفة
فكيف يخفى عليك حالى ومكانى ١٤ .

وكما كان المجتمع يهابه ويحلم ، لعلمه وأدبه ، وفنائه ويسره ، ومكانته الرفيعة في دولته ،
فقد كان يهابه خوفاً من سوط سخره ، وفرقا من ميسم هزله ، فهو دائما مرهوب الجانب لا يجترئ
عليه وقبح ، حذرا من سخره ، ولا عالم أديب هربا من حجاجه ولغته ، أو طمعا في نيل ما
عنده ، والنيل من نبع أدبه ، سئل أبو هفان : (لم لم تدع الجاحظ ، وقد نذرتك وأخذ
بمخفك ؟ فقال : أملى يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنسى لما أمست إلا
بالصين شيرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة) (١١) . (وقال قاضى
القضاة عبد الجبار في طبقات المحترزة (نقض لإسكافى كتاب الجاحظ في العثمانية في حياته
فدخل الجاحظ الوراقين ببخداد ، فقال : من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه تعرض

(٩) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٢٦٠

(١٠) تاريخ بخداد : الخطيب البغدادى : المجلد الثانى مشروفا ٢١٩ مطبعة السعادة

علم ١٩٣١

(١١) معجم الأدباء ، ياقوت : الجزء السادس من عشر صفحة ٩٩

لقد كُتِبَ ، وأبو جعفر جالس ، فاختلفني منعتي لم يره ، وكان أبو جعفر على الرأي ، محققا
منصفا قليل الحصبية ، ألف سبعين كتابا في علم الكلام (١٢) وهذه رسالة التريب والتدوير في
السخرية من أحمد بن عبد الوهاب باقية خالدة ، تشع سخرًا وتطغح هولا على مر الزمن ،
وقد طوى المنون صاحبها البجلي ، وضاع في ليجج الأيام حتى أصبحنا لا نعرف من
الأشهر من نلقطها من هنا ومن ههنا ، ونستمين على ذلك بما ورد في الرسالة ، لارضية
في سرفة هذه الشخصية ، وإنما رغبة في تحليل الأسلوب الساخر وطرقه ، والدواعي التي
أنتجته ، فجملته يقطر سما ، يقول الجاحظ مشيرا إلى هذه الرسالة في كتابه الحيوان ،

(وهبتني برسائله ، وبكل ما كُتِبَ به إلى إخواني وخلطائي من مزج وجد ، ومن إفصاح وتعرض

(١٣)

ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمة باقيا) وقصد به ذلك رسالة التريب والتدوير

التي يقول فيها متلاعبا بابن عبد الوهاب ، طابنا بطوله وعرضه (لم نر مقدورا واسع الجفرة فورك

ولا رشيقا مستفيضيا لخاصرة سواك ، فأنت العديده وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب

(١٤)

فيا شعرا جمع الأعرى ، وباشخصا جمع الاستدارة والطول)

كان الجاحظ عالما شهيرا من علماء الكلام ، يدين بالاعتزال ، ويدافع عن المتكلمين بحماسة

والاعتزاليين بخاصة ، ويرفعهم مكانا عمليا ، ويرى أنه لولا المتكلمين لهلكت العامة ، وقصد

كانت له في الاعتزال آراء ، وافق فيها شيوخه ، وعلى رأسهم النظم زعيم المعتزلة ، وآراء

واتجاهها ، خالف بها جانبا من قواعد المذهب وأساسه ، وابتعد بها قليلا عما عليه عامة

المعتزلة ، وصارت له وجهة خاصة وصفية مستقلة ، انفرد بها عما عليه أتباع المذهب ،

(١٢) أمراء البيان : محمد كرد علي الجزء الثاني ، صفحة ٣٦٠

(١٣) الحيوان : الجاحظ : تحقيق عبد السلام حارون ، الجزء الأول ، صفحة ٧

(١٤) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ٨٩

وتبعه في ذلك جماعة منهم ، دانوا بأرأته ، وترسوا تعاليه ، فكفوا طائفة سمعت باسم زعيمهم الجاحظ ونسبت إليه وعرفت باسم الجاحظية ، فعلا قدره ، وفيه أسسه ، وارتفعت مكانته بين أبناء مذهبه ، وعلماء زمانه ، وتكلميه ، يقول ما دعا المتكلمين ، (وما كان أخرجنا وأحج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، ولأنه لو كان يكون المتكلمون علماء ، فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ، ومن تلقبهم له ، لم نجد في الأصول التي يشون عليها من الخلل ما نجد) ^(١٥) ، ويقول شارحا فضيلة المحترلة وأستاذة المنظام ، (لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المحترلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المحترلة ، فإنني أقول ، إنه قد أتبع لهم سبيلا ، وقتل لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة) ^(١٦) وفي بيانه قدرا لمتكلمين بيان لقدرة ، وفي رفعه شأن المحترلة رفع لشانه ، لأنه من شيوخهم ، وزعيم إحدى طوائفهم .

ولرفعة قدرا لجاحظ في مجتمعه فوذيوع صيته في عصره ، وشهرته التي طبقت الآفاق ، تما بقى الناس لزما رته وتهافتوا على رأيه ، واهتموا بمحاكاته والأخذ عنه ، وكانوا ينكرون أن يزورا لبصرة أو بغداد ، لم أو أديب ، أو شاعر في العلم والأدب ، دون أن يزور الجاحظ ، وكان الجاحظ أحد معالم البصرة أو بغداد من لم يزوره من القادمين إليها كانت زيارته ناقصة ورحلته غير مجدية ، يروي الخطيب البغدادي ، (سمعت أبا بكر محمد بن إسماعيل يقول ، قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد ، ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ قلت ، مالي ولم ؟ قال ، إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه) ^(١٧) ويروي الحصري (حكى بعض أبناء البرامكة قال ، تقلدت أسنده ، وحصل لي ما شاء الله ، ثم صرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار ، فصفتها عشرة آلاف إهليلج ، وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت

(١٥) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيقها رون الجز الخامس صفحة ٥٩

(١٦) المصدر المذكور ، الجز الرابع صفحة ٢٠٦

(١٧) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي العجلد الثاني عشر صفحة ٢١٧

إلى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بيها ، وأنعليل بالفالج ، وأحبت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه وقرعت الباب ، فخرجت إلى خادمة صفى ، فقلت : رجل غريب فأحب أن أنظر إلى الشيخ فبلغته . فسمعتة يقول : قولى له : ما تصنع بمثل مائل ، ولحاب سائل ، ولون حائل ؟ فقلت للجارية : لا بد من النظر إليه ، فقال : هذا رجل ورد البصرة ، وسمع من ، ويريد أن يقول : رأيت الجاحظ (١٨)

ولمكانته السامية في مجتمع وفاء و ثرائه ، وخطوبه عند الخلفاء والوزراء ، وانتشار كتبه في أقطار الأرض ، كتر حسانه وشائنه ، ومن لم يستطيعوا مجاراته ، ومدادوة الركن في ميدانه ، فبهرت أنفا سيم ، وحفت كبا تهم ، حقا وحقا ، فما به وحقوه ، وألقوا به من التهم والنقائص ما هو منها بزا ، شأن كل عظيم في قومه ، نابه في أمته ، فإن النسبة السوء تتناشئ ، وموا مرات الشر تحاك له ، وتتصب له الفخاخ ، ويتهمه أصدؤه من كل رذل قمل في شرفه وسمعته ، وعقله وكرامته ، على ذلك يذهب ربحه ، ويظن : سراجة ، وما أكثر ما عانا ، الجاحظ من هؤلاء الفاشلين يقول لأحمد هم ، (وهي كتاب الصرحاء والبهجنا ، ومفاخر السودان والحرمان ، وموازنهما بين حق الخثولة والعمومة ، وهي كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعقاب . . . وهي كتاب القحطانية والمدنانية في الرد على القحطانية . . . وهي كتاب العرب والموالي . . .) (١٩) ثم لم أرك رضيت بالطعن على كل كتاب لي بحينه حتى تجاوزت ذلك إلى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال ، وكيف تصرف بيها الرجوه وقد كنت أعجب من عميك البعض بلا علم ، حتى عبت الكل بلا علم ، ثم تجاوزت ذلك إلى

(١٨) جمع الجواهر : العصري : صفحة ٢٠٣ ، زهر الآداب ص ١٩٨ ، اللآلئ ص ١٩٨ .

(١٩) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون الجعفي الأول : صفحة ٤

نصب الحرب فعبث الكتاب (٢٠) . فهم لما وقر في نفوسهم من حقد و ما تماظر في قلوبهم من
بغض و قد طابوا كتبه كلها و امتلأت دخائلهم بالحسد و الضغن . يقول في هؤلاء الحاسدين
(فن شأن الحاسد إذا كان الحسود ضياعاً و تويخهم على المال و وقوله : إنه جمعه حراماً
و ضمها أكماً و وألب عليه محاريج أقرابه و وتركهم له خصماً) (٢١) (وإن كان الحسود عالماً
قال و مهتدح و ولأياً به متبع مما طب ليل و مشيخ نيل و ما يدري ما حمل و قد ترك العمل و وأقبل
على الحيل) (٢٢)

و لم يكتفوا بالظعن في كتبه و توجيه كلامها غير وجهته و بل عبتوا بها و وشوهوها و أدخلوا
فيها الزيف و الزبح و حتى أحالوا صورتها و غيرها مما جعلت عليه و وأخرجوها مما جعلت له و
وقد هدقوا بذلك إلى النيل منه و والحط من رفيع مكانته (صنف أبو عثمان كتاباً من كتبه
ويوم عوبته في الناس و فأخذ بعض أهل عصره فحذف منه أشياء و جعله أشلاء و فأحضره
وقال له : يا هذا ، إن المصنف كالمصور و إنني قد صورت في تصنيفي صورة و كانت لها عينان
فصورتها و أعى الله عينيك و وكان لها أذنان فصلتها و صلح الله أذنيك و وكانت لها يداً
فقطعتهما و قطع الله يديك و حتى عد أعضاء الصورة (٢٣)

وقد لازمه الحمد على تفوقه و وسنى منزلته منذ بدأ تأليفه و ما يدل على تفجع عقربته
مبكراً و ورفعة مكانته في شبابه يقول (إني ربما ألفت الكتاب الحكم المتقن و أتعبه
إلى نفس و فبتوا طأ على الظمن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم و وهم
يعرفون براعته و نصابته وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه و ألفاظه و فأنترجمه
باسم غيري و أحيله على من تقدمني عصره فيأتينني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنين على

٢٠ المصدر السابق صفحة ٣٨

٢١ أمراء البيان محمد كرد علي الجزء الثاني صفحة ٢٢٥

٢٢ المرحوم المذكور نفساً لصفحة

٢٣ أمراء البيان محمد كرد علي الجزء الثاني صفحة ٤٦٥

إن أبا عثمان طلب إضماره من رئاسة ديوان الإنشاء ، ولم يقبل أن يشتر فيه أكثر من ثلاثة أيام بعد وأمره .

١- طبع الجاحظ على الفكاكة ، ومشق العرج والسخر ، وذلك يتنافى مع الوفاق الذي يجب أن يسود ديوان الإنشاء ، الرعي الحكيم ، والهدية والجديرة التي تحيط به ، لما يفرح به من مهام خطيرة في توجيه شئون الدولة ، والاحتفاظ بأسرار تتعلق بأمن الخلافة وسلامتها ، وعلاقاتها بولايتها وصلاتها وطوك رؤسائها الدول الأخرى ، فلم يحتمل الجاحظ هذا الجو الصارم الخائف الذي لم يعتده ، فخص بمنصبه لتظل له طلاقته وبشاشته .

٢- صحب أبو عثمان الخلفاء والوزراء على حذره ، وابتعد ما أمكن عن تولية المهام الرسمية لهم خوفا من التصير والزلل ، أو الريبة والتهم ، وما يتبع ذلك من عقاب ، وما يكون من انتقام وتشكيل ، وما كان أهول عقابهم ، وأبشع انتقامهم وتشكيلهم ، وقد رأى بحيني رأسه صديقه الوزير بن الزيات يسجد في أثون الحديد ، ذي الساميرا المحددة اللطوية الذي صنعته يداه ، فأكفى من صحبتهم بمقدار ما تستقيم له حياته ، ويحفظ له رزقه وكرامته ولكنه كان يرفض أن يكون مسئولا عن أمور تنس السياسة والخلافة وتربط بتوجيه الدولة ، وتحريك دفتها ، لذلك سارع بالهرب من رئاسة ديوان الرسائل بعد أن تولاه ثلاثة أيام صحب .

٣- أغم الجاحظها لعربة منذ صباه ، وتمكنت من نفسه في شبابه وكهولته ، فتهيبته حياته كلها على أساسها ، فصار حرا في كتابته ، له أسلوب معين ، وطريقة خاصة . . . حرا في تفكيره فشك حتى وصل إلى اليقين ، واختبر وجرب واستقرأ . . . حرا في مذهب الدين ، فاختر الاعتزال المعشور على الفكر الطليق ، والعقل الرحيب ، حرا في خلقه ، يذكر العورات وأعضائها وصلها دون حرج . حرا في سلوكه الاجتماعي ، فلم يتزوج هربا من قيود الزواج . حرا في سائر تصرفاته واتجاهاته ، لم يقبل أن يربطه قيد ، أو يخضعه وثاق ، ولو كان رئاسة ديوان الإنشاء ، الذي يتشبهه غيره ، ويمتشي بجذع أنفه أن يناله ، ويستقر فيه .

٤- كان يكره صناعة الكتابة لما يرى فيها من إلال وامتهان ، يقول في رسالته ذم أخلاق الكتاب : [إن قبح الكتابة بنى على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ، ولم نر عظيما قط تولاها بنفسه ، أو شارك كاتبه في عمله] (٢٧) كما يكره الكتاب لصلتهم ويدخهم يقول عن الكاتب (أحكامه أحكام الأرقاء) ويحلوه من الخدمة محل الأغبيا ، ثم هو مع ذلك في الذبوة القصوى من الصلف ، والسلم الأعلى من البذخ ، وفي البحر الطامس من التيه والسرف ، يتوهم الواحد منهم إذا عرض جبهته ، وطول ذيله وقصر على خده صدغه ، وتحذف الشاهوريتين على وجهه أنه المشبوخ ليس بالتابع ، والمليك فوق المالك (٢٧) وقد عاب عليهم تناقضهم وعداوتهم بعضهم ، وكيدهم لبعضهم ، ومنتهم يقول : (كأنكم أولاد حلات وضرائر أمهات في عداوة بعضهم بعضا ، وحقق بعضهم على بعض ، أف لكم ولا خلاقكم) (٢٨) ويقول : (هم كالذرة من الكلاب في مرايضها ، يمر بها أصناف النامس فلا تتحرك ، وإن مر بها كلب مثلها ، نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله) (٢٩) فكيف بالجاحظ وقد أوضح لنا دخلية نفسه ، ووقفنا على ما يعزق نياط قلبه ، من خسة هؤلاء الكلب ولهم طبايعهم ، يقبل أن يكون واحدا منهم ، أو رئيسا لهم ، لا عجب إذن أن يفرهاري من هذه الصناعة وأربابها الأخساء الأغبيا ، وأن يبرح نفسه من هذه الخلق الكريهة ، والطبايع اللئيمة .

٥- كان يفضل الكتابة الحرة ، كتابة الكتب وتصنيفها وتحرير الرسائل العلمية والأدبية من غير أن يكون لأحد عليه سلطان ، ودون أن يقصر نفسه على الكتابة لشخص يأخذ منه قطاه أوليئة يتناول منها مشاهير ، ومثلها في ذلك مثل من يفضل في عصرنا الأعمال الحرة على وظائف الدولة ، ولا يفعل ذلك إلا الجريء المقدم ، المتمكن من صناعته

(٢٧) ثلاث رسائل : الجاحظ ، تشر يوشع فنكل ، رسالته في ذم أخلاق الكتاب صفحة ٤٢

(٢٨) المصدر المذكور صفحة ٤٧ .

(٢٩) المصدر المذكور صفحة ٤٦ .

الرائع بنفسه ومقدرته على الكسب والريح من عمله الحر ، أضعاف ما تخلفه عليه وظيفته ،
مع احتفاظه بشخصيته ، وامتلاكه زمام نفسه ، أما من يلجأ إلى الوظيفة ، ويتقيد بها ،
ويحس نفسه في إظهارها ، فإنما يلجئه إلى ذلك ضيق عطشه ، ولوائية وكسله ، وهدم امتلاكه
أساليب الكسب الحر ، لضعف آتفه وقصور يده ، وقد ضرب الجاحظ مثلا للكاتب المتحرر
من وظائف الدولة ، ومدى نباله كرمها به وعززه ، ووازن بينه في وظيفته ، وبينه وقد تخلى عنها
إلى الكتابة الحرة بقوله : (ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في أمرته ، فرأيت السماطين

والرجال مثولا كأن علي رؤوسهم الطير ، وأيت فرشته وزنه ، ثم دخلت عليه وهو ممزول وإذا
هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر ، والمساطر والمخابرة فما رأيت
قط أكرم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، لأنه جمع مع العبادة المحبة ، ومع
الفضامة الحلاوة ، ومع السوداء الحكمة)^(٢٠) وقد كان يطمعه بكرة عمل السلطان ، وله في ذلك
رسالة الشهيرة (في مدح التجار ودم عمل السلطان)

٦- نفس عليه كتاب الديوان منصبه وتفوقه ، وكادوا له ، ووشوا به ، وهيثوا زملائهم للمصل
على إقصائه من مكانته عزيماده من رياستهم ، حتى لا يخلطهم ويخمد نارهم ولعل نفسي
قول سهل بن هارون ، (إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب)^(٢١) خير دليل

على ذلك ، فلما رأى العقد والبنضا ، والمخابرات والدسائس ، بالإضافة إلى الأسباب السابقة
طلب إقصاء من منصبه فأجيب إلى طلبه .

٧- كان الجاحظ دمع الرجة ، مستبشع الخلفة كما أسلفنا - وذلك ينافي ما يجب أن يكون
عليه الملك والديوان من وسامة وقسامة ، وبها طلعة تناسب بها الملك وأبهة الديوان ،
والجاحظ نفسه يشير إلى ما كان عليه الكتاب من جمال في الشكل ، وبها نفسي

(٢٠) الديوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الأول ، صفحة ٦١ و ٦٢

(٢١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ ، صفحة ٧٩ ، طبعة عام ١٩٢٧ .

الطرفة قد (جلس) لجاوذا يوما في بعض الدواوين فتأمل الكتاب فقال : خلق حلوة و شطائل
ممشوقة (٣٢) ونقول : (يتوهم الواحد منهم) إذا عرض جبهة و وطول ليله و وقف على خده
صدفه و وقف ذن الشاهورين على وجهه أنه المتبوع ليس التابع (٣٣)

فإذا كان الكتاب أمثالهم جميلة و ولا يسهم أنيقة و يفاظهم على أنهم ما يكون اليأس
والزينة و وقد حرم الجاوذا - وهو رئيسهم - كل ذلك فإن هذه الحالة ولا شك تدخل الكآبة
في نفس الجاوذا و لا استهتار في نفوس الكتاب و الاستمانة في قلوب زائر الدوان و من
يتراوسن الجاوذا و يأبى الجاوذا إلا أن يكون سيد الموقف و منشرح الصدر فأسرع بالهمد
عن هذا الجوال الكتيب و المثل بالقيود الذي ما ألفه و لا ارتضاه .

٣٢) ثلاث رسائل : الجاوذا ، نشر يوشع فنكل صفحة ٤٥ .

٣٣) المصدر المذكور صفحة ٤٢ .

الفصل الرابع

جرائمه في النقد

جري النقد في دم الجاحظ منذ صباه ، وامتج بثقافته وأدبه ، وحله وفنه ، فما وقعت
هفته على منظر غريب إلا نقده ، ولا سمع قولاً زائفاً إلا سخر منه ، ولا علم رأياً شاذاً ، أو مذهباً
بعيداً عن العقل ، إلا سلط عليه من ضوء فكره ما يكشف به عواره ، ويبيح حججه وأستاره ،
وقد كان في نقده - على الأعم الأغلب - صادقاً منصفاً ، لا يتحيز لرأيه ، ولا ينساق وراء
هوى ، ولا يتبع سراياً ، كما كان جريئاً في نقده ، لا يسكت عن عيوب غيره ، لا رغبة في
التشجيع عليه ، والإساقاة إليه ، وإنما حباً له ، وطعماً في استقامته ، ورجوة عن غيه ، ولتضح
صفاته لغيره ، فلا يقع فيما فيه وقع ، يقول مخاطباً من طلب منه الكتاب في الهخلاء (قلت :
ولا بد أن تعرفن البنات التي تمت على المكلفين ، ودلت على حقائق المشهورين ، وهتكت
عن أستار الأدعياء ، وفرقت بين الحقيقة والرياء ، وفصلت بين البهرج المتزخرف ، والمطبوع
المسهل ، لتقف - زمت - عندها ، ولتعرض نفسك عليها ، ولتتوهم مواقعها ، وتواقبها
فإن تبهت التصريح لها ، على عيب قد أفقته ، عرفت مكانه فاجتنبته)^(١)
وهو لا ينقد نقداً إجمالاً ، بل يحدد إلى التفصيل والوضوح ، ووضع اليد على مكنون
الذات ، وإبرازه للعيان ، في جرأة وشجاعة ، تمنع الشخصية التي ينقدها أن تقف أمامه
شامخة ، محتد على شهرتها ومكانتها ، ومكونة مدافعاً شامخاً وحاصلاً يحصنها عن النقد
وبرهه ، ويذيب ما يوجهه إليها من لوم ، لأن نقده يتخلل فيما ، وينفذ إلى باطنها ،
حيث يفضح عن دخالها ، وما حاولت تمويهه وتزييفه ، ويكشفها أمام نفسها فتصفر
وتضال .

(١) كتاب الهخلاء : الجاحظ : شرح الحوامري والجام : الجزء الأول صفحة ٢٢

ومع هذه الجراءة ، وتلك الشجاعة ، لم يكن عيابا فحاشا ، ولا متهاقنا مسفا ، فحينما نقصد الصفات المرذولة ، والخلل المشتمجة كنى من أصحابها وورى ، ولم يفصح عنهم إلا إذا رأى ذلك لا يسقط كرامتهم ، ولا يحط من رتبهم ، أو أعياه تيجصهم ووقاحتهم ، وبجاهرتهم بالعيب على أن الألفاظ التي استعمالها في نقده لم تكن فاحشة عاجنة ، وإنما كانت متخيرة منتقاة ، تدل على العيب في تल्प وترفق ، عن طريق السخر العطف وبخاصة مع كبار العلماء كالرسطو والنظلم وأبي عبيدة ، ومن تكهيم اللحة ، وسد اللفظة عندهم سدا لخطب الطوال ، وقد كان نقدا لجا حظ بنا ، يزيل باطلا ليحل محله حقا ، ويهدم إفقا وضلالا لينبئ بدلها علما ورسدا ، فأبو عثمان يتخذ منه أداة تقويم وتعلم ، وينشره في كتبه ورسائله ، ليفيد به كل قارئ وكل سامع ، وإذا تتبعنا ما كتبه فإننا لننعثر له على كتاب أو رسالة تجردت من النقد ، ولن يدري عنه خبر دون أن يداخله نقده وتعليقه وإعراجه عما يستحسنه وسما يستبجنه ، فهكذا خلق أبو عثمان ، وعلى ذلك طبع ، وكثرة النقد تولد فيه الشجاعة والدرية والجراءة والتمرس .

وقد أتته هذه الجراءة في النقد حتى صارت فيه طبعها وجيلة من عدة فتوح :

١- كان - كما علمنا - كثير القراءة والاطلاع ، والبحوث والتجارب والأسفار والجالسة العلماء والعلمين ، والآداب والفقهاء ، هذا إلى قريحة موالية ، وعقلية رصينة ، وتمرديد من أن يعرف الحياة والأحياء ، ويسبر أنوارهم ، فتكونت لديه حصيلة ضخمة من الآراء الصائبة ، والاتجاهات الرشيدة ، فثبتت الأيام صلاحيتها وفعاليتها ، وتمسك بها بحملها ميزانا حساسا لنقده ، وأداة صادقة للقياس والتقويم ، فلما لم يختل الميزان ، ولم تحرف الأداة اكتسب الجاحظا لجراءة في نقده ، والشجاعة في رأيه ، وأصبح لا يمان ولا يداهن ولا يهتم رأيه ومعتقد .

٢- قالت للجاحظ مكانته الاجتماعية الكهنة ، التي تفتن قلبه وتجرى لسانه ، لينقذ من بشارة وهو مطمئن إلى أن مكانته في مجتمعه ، ونزلة في قلوب الخلق والوزراء منحنية ، وتتمتع النبل منه ، كما يحنيه لسانه ، ويذب عنه ، ويصن خصمه ويمنه .

٣- يستطيع الجاحظ أن يمسح ما في صدره من نقده من قبل وحقد وأن يقلب العريضة التي في قلبه حياء ، أو يخفف من حدتها حتى تتلاشى ، ويمتصها على لسانه ودهانه ويحسن تأنيبه ولطفه عند اختله القلوب . يقول : (ومن المزاج - جعلت فداك - باب مكر ، ومن من شذوع) يتكلم المرء في إسامته إلى جليسه ، وإساعه لصديقه ، على أن يقول مزحة ، وعلى أن يقول فساد المعاكسة لصحت ، وعلى أن يقول : من يفض من المزاج إلا كرا الخلق ، ومن يرض عن المفاكسة إلا ضيق العطن)^(٢) فليكن ناقدا ، جريئا في نقده ، ساما في سخره ، فإن معه الدواء ، وفي رقبته الترياق .

٤- كروبي الجاحظ غالب كعبه للدفاع عن الإسلام ولفته ، ومناضلة غيره من الديانات والمقائد والمصبيات واللغات ، فنقد في جرائد وشجاعة النصارى واليهود والمجوس ، ويزهيم من أرباب المذاهب المنحرفة ، والطوائف التي تتأوى الإسلام ، كما نقد الآداب الأجنبية وقصورها ، وعدم إيفاء لغاتها بمطالبات الحياة والمواقف ، لا يذمه ما يلقى من اتهامات جزاء نقده ، وحظه أصحاب هذه النحل واللغات ، لأنه يحتمل ذلك عند الله ، ويحمده ، فلما من دينه ومذهبه ولفته .

(٢) مجموعة رسائل : الجاحظ : صفحة ١٠٧ .

(٣) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء السادس صفحة ١٧ .

هو عرف الجاحظ الحياة وخبرها ، وفهم نفسه ومكانتها ، وأدرك أنه معدود محفود عليه ، وأن من كان في مركزه بمنزلة ، فلن يسلم من ألسنة السوء ، ولن يترك يؤدي وظيفته نسي الحياة دون تنقيح وإقلاق ، وما دام ذلك موقف الناس منه ، ولن يحدوا عنه ، فلينقست ما يرى فيه امرؤا جاحظا ، وليكن جريئا في نقده ، لا يخشى تنظير المتطشيين ، ولا تنميس المتشمسين فإن ألسنتهم لن تكف عنه ، ولو كفه هو من النقد الذي يعتبره جزءا من شخصيته لا يمكنه التنازل عنه ، وحتى ولو كفت هذه الألسن لما جازلة أن يكف عن نقده وتوجيهه ، وإصلاحه العقيدة والخلق والأفكار ، وكيف يمتنع عن التوجيه والإرشاد وهو شيخ من شيخ الكلام ، وزعيم لطائفة اعترافية رسالتها التقويم والإصلاح .

انطلق الجاحظ في ميدان النقد الجريء ، لا يهجم ما يحفه من أخطار ، ولا يرهبه ما يحيط به من صواب ، ولا يخاف من بنقده ، مما سمت منزلته ، وقويت شوكته ، ورفعته الناس إلى مكانة التقديس أو الإجلال ، أو جعلوه مخوفا مرهوبا ، وأحلوه محل السجن والجلاد فنقد أرسطوطاليس ، صاحب المنطق ، ومؤلف كتاب الحيوان ، وما كان أحد يجسر على نقده ، لأنه كان عندهم في منزلة العصمة ومرتبة القداسة ، فأنزله إلى مصاف من يجوز في كلامه الخطأ والزلل ، فبين أخطاءه ، وأوضح فلتات ذهنه ، وسخر من تهاوته في بعض آرائه ، يقول ناقدا ما ذكره من دعوى غريبة ، لا دليل على صحتها ، ولا سند لها من عقل أو منطق (وقد أكثر في هذا الباب أرسطوطاليس ، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه ^(٣)) وقيل رادا على ما يقوله أرسطو ويحتمده ، دون أن يعمل فيه عقله ، أو يلجأ إلى إحدى حواسه في التثبيت مما يدور مع غرابته بل استعماله عادة وطبعا ، (وقد ذكر أرسطوطاليس في كتابه الحيوان ، أنه قد ظهر ثور وثب بعد أن خصى فتزا على بقرة فأحبلها ، ولم يحك هذا عن معاينة ، والصدور تضحى بالرد على أصحاب النظره وتضيق بتصديق هذا الشكل) ^(٤)

(٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء السادس صفحة ١٧

(٤) المصدر المذكور ، الجزء الخامس صفحة ٥٠٣ تحقيق هارون ، صفحة ١٤٧ طبعة ساس .

وسخر منه الجاحظ، ويهزأ به وهو شيخ المناطقة، وصاحب العقل الحصيف الفكرة، الذي
يمرض عليه كل ما يبره - إذ روى خبرا بعيدا عن العرف والمادة، منافيا لقواعد العلم
مجانبا لأدلة العقل، مما ندنا لما تقع عليه العين، ثم يعلمه - وهو صاحب المنطق - المنطق
السليم، ويعرفه - هو يوجب نظرية المعرفة - الخبر العلى المستقيم، والدقة في رواية الأخبار
والبرهنة عليها - وهو مبتكر الأشكال والمقدمات والبراهين - ويرى الجاحظ أنه كان على أرسطو
أن يروى خبره الخريب الذي لم يتثبت منه في إطار الشك أو الظن أو الرواية عن غيره، والسماح
منه، وجعل العهدة عليه، حتى لا يتم بالكذب، فنسقط كرامته، وتضع مروءته. قال ستاندا
الجاحظ راويا الخبر السابق في موضع آخر من كتابه الحيوان، ومحققا عليه: (وزعم صاحب المنطق
في كتابه الحيوان: أن ثورا فيما سلف من الدهر سفد وألقح من ساعته بعد أن خصي... فإذا
أفرط المديح، وهج عن المقداره، أو أفرط التمجيد وخرج عن القدار، احتاج صاحبه
إلى أن يثبت بالعيان، أو بالخبر الذي لا يكذب مثله، وإلا فقد تعرض للتكذيب، ولو جعلوا
حركتهم خيرا وحكاية، وتبروا من عيبه، ما ضوم ذلك، وكان ذلك أصون لأقدارهم، وأتم
لمروءات كبرهم) (٥) . . . ويقول أبو عثمان ينقد أرسطو ويسخر منه بعد روايته عنه خبرا غريبا
لم يذكر الدليل عليه، ولم يعرف العلماء صدقه: (وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل،
وما نظن بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها
أشباهه من العلماء، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول) (٦)
ونراه ينقد أرسطو في جرأة ويدل على فساد مقالته التي يذكر فيها أن الفيل: (أجرد
الجلد، فلذلك يشتد جزعه من البرد) فيحقب على قوله ساخرا: (فإن كان مجرد الجلد
فما قولهم في أحاديثهم: طلبوا من الملك الفيل الأبيض، والفيل الأبقع، وجاء غيلان على
الفيل الأسود) (٧)

(٥) الحيوان: الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الخامس صفحة ٢٢٠

(٦) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ١٨٥

(٧) المصدر السابق الجزء السابع صفحة ٢٢٨، وصحة ٧٠ طبعة ساسي

رجل ه لعله أن لو وجد هذا المترجم أن يقبل على المصطبة ، ويرأ إلى الناس من كذب
عليه ، ومن إفساد ما نيه بسوء ترجمته (٩)

لقد دفع الجاحظ علمه إلى النقد البريء الجري ، وضعه خلقه من المحاباة والمداهنة ،
وامتلك عقله زلم لسانه ، فلا يخرج الكلام من فمه قبل أن يعرضه على عقله ، وينظر فيه ، ويفحصه
ويحصه ، ثم يوافق عليه ، وأهاب به الحق أن ينشده أيضا كان ، لم يأخذ كلام رئيس المفكرين
والمناطقه أرسطو قضايا مسلمة ، وحقا ثق مؤكدة هود يديات ساطحة ، بل ناقشها ، وأبطل
ما لم يوافقها ، وما لم يقبله عقله ، ولم يتم دليل على صحتها ، وتوقف عند بعضها ، وشك
في بعضها ، وتقد بعضها ، وبين رأيه فيه ، وذكره ناسده .

هذا بعض ما قاله في أرسطو . . أتقول إنه تجسراً عليه في نقده لأنه مات فلا يملك الدفاع
عن نفسه ؟ لا . . فأين أتباعه وأتباعه ، وأصحاب مبادئه ، وتلاميذه والدنيا كلها تلاميذه ؟
إن ما دفع الجاحظ إلى الجرأة على أرسطو هو ما رآه من مخالفته له في بعض أبحاثه التي
تأكد من صحتها ، وما رواه أرسطو من أخبار لم يتم علينا الدليل ، والعقل يتغير أو يستبعد ما
ويستقر ما ، ولما كان عقل الجاحظ ينكرها ، فقد بين توحيدنا وسخر منها ، لأنه لا يستطيع
أن يجد خيرا لا يوافق معتقده وتجاريه دون أن يرد ، ويقف في وجهه .

وإذا كان النقد الجري . يوجهه الجاحظ لمن يأمن لسانه كأرسطو ، فلم نراه يوجهه
إلى أستاذه النظام ، شيخ المحترمة ، وصاحب المكانة بين الوزراء والعلماء ، ولم نراه
ينقد أباصبيدة والأصمعي والأخفش وغيرهم من العلماء الأجل ، والأساتذة المظام الذين مدحهم
وعرف لهم رفيع مكانتهم ، وسنى منزلتهم ، كما عرف لهم المال العربي حتى اليوم فضلتهم ،
ما يجعله يحنى هامته إجلالا لهم وإعجابا بما خلدهم للإسلام وللعرب من مجد ، أن
ذلك لا يعني إلا أن الجاحظ كان جرياً في نقده ، وأنه لا يلتفت لمنزلة من ينقد ، مادام

يراه مسفا في رأيه ، فالإنسان الكامل في نظره لا وجود له فجميع الناس يخطئ ، ومسقط ، وهو بحكم طبيعته ومكانته لا يملك السكوت عن الترخ .

ومن نقده ، لأستاذنا إبراهيم بن سيار النظام قوله عنه : (إنما كان عليه الذي لا يفارقه سوء

ظنه ، وجوده قياس على المعارض والخاطره والسابق الذي لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره . . . ولكنه كان يظن الظن ، ثم يقيس عليه وينسى أن بد أمره كان ظنا ، فان أتمن ذلك وأيقن جن عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه) (١٠)

وكان لا يوافق على بعض آراء النظام ، مع أنه أستاذ ، وموجه ، ورئيسة الديني وصاحب مذهبه الكلاسي " الاعتزال " ، ما دامت هذه الآراء لا يقرها عقل الجاحظ ولا يثبتها بالدليل ولن وافق عليها جميع شيخ المذهب ، يقول : (وقد كان إبراهيم بن سيار النظام يجيب بجواب ، وأنا نذكره ان شاء الله ، وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا آراء مقنعا ولا شاقيا) (١١)

كان الجاحظ يفرق بين النقد الجري ، البناء ، وبين الهدا وتهديب المساري ، وهتك عرض من ينقده ، فكان يرضى اللون الأول ويحجب به ، ويدهش له ، لأنه بعيد عن الفضل والمجره وتحطيم من يتناوله بقلمه ، ولسانه ، فان رأى أن نقده سلبهم ويشهر ، ويذيب الكرامة ويزيل المروءة ، كفه عنه ، وفر منه تحفقا وتكرما ، يقول : ولولا أن تكون عيايا ثم لاهلها عجايبه لصورتك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهيك مسمن (١٢) (أبي عبيدة)

وقد نقد بشجاعة وجراة ما للمفسرين والمحدثين من أخبار فرجية ، تمد من الخرافات التي لا تقرها إلا عقول قائلها ، ومن على شاكلتهم ، من ألهيت عقولهم ، وانحرفت قلوبهم .

(١٠) المصدر المذكور ، الجزء الثاني ، صفحة ٤٢٦ ، ٢٣٠

(١١) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فتل ، صفحة ٢٦

(١٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٤

فاتبعة أعدائه بالمروق عن الدين ، والطعن على الإسلام والعيب في القرآن ، وهذا وهم منهم ، وقصور في نظرهم إلى العقيدة ، وشتمهم لها ، فلم يفرقوا بين الدين والمتدين ، ولا بين العقيدة وأتباعها ، ولم يعلموا أن تعاليم الدين مقدسة لا تمس ، لأنها صادرة من الحكم الخبير . ومن يمسها بسوء يكره ، ولكن آراء رجال الدين يجوز عليها الخطأ والانحراف والخروج عن لب الدين وجوهره ، لأنها خاضعة للاجتهاد ، الذي يختلف باختلاف الفكر والثقافة والتدين ، على أن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . إن الجاحظ لم يعيب الدين ، ولم يعض من عقيدة المسلمين ، وإنما نعى على المفسرين والمحدثين آراءهم الباطلة ، التي تأبأها العقول الصاحح ، وهزى به خرافات المفسرين وتأويلهم آي الكتاب وأولاً يرفضه العقل واللغة ، كما سخر من روايات المحدثين أحاديث هي في معتقد ، موضوعة مصنوعة ، لخلل فكري أو أسلوبى رآه فيها ، فلما رأوا جراته في نقدهم وسخره من آرائهم التي ظنوها الدين ، اتهموه في عقيدته ، وجعلوه موضع شبهة وظنة ، بل نسبوه إلى الزندقة ، لرفضه بعض الأحاديث ، وصيه بعض التفسير مع أنه يردن على بطلان ما ذهبوا إليه . يقول :

(وقد تزعم ابن حائط وناس من جهال الصوفية أن في النحل أنبياء ، لقوله عز وجل وأوحى ربك إلى النحل . . . قلنا وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء ١٤ بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على الخنق العلم وأوحى ربك إلى النحل . . . وبعد فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد المسلمين ، وإلا تكونوا مسلمين فلم تجعلون الحججة على نبوة النحل كلا ما هو عندكم باطل ١٤) (ومضاً أهل التفسير يزعم أن الله عز وجل عاقب الحية حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلم آدم على لسانها بمشر خصال ، منها شق اللسان ، قالوا ، فلذلك ترى الحية أبداً إذا ضربت لتقتل كيف تخرج لسانها تلويه كما

يضع المترجم من الناس بأصبعه إذا ترجم أو دعا ، لتى الظالم عقوبة الله تعالى لها (١٤)

(وهم بمحض التفسيرين أن الضور خلق من طسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل

... وهذا الحديث نافع عند العوام وقد بمحض القصص) (١٥) (وقد قال الناس في قوله

تعالى : "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، ظلمها لأنه رؤس الشياطين" فزعم الناس

أن رؤس الشياطين شجر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كرمضه والمتكلمون لا يعرفون هذا

التفسير) (١٦) (وسئلوا عن قوله تعالى : قل أموزيب الفلق ، قالوا : الفلق واحد في جهنم

ثم قعدوا يتخفوه) (١٦هـ)

لذلك قال أبو عثمان ، (لا تسترسلوا إلى كثير من التفسيرين ، وإن نصبوا أنفسهم للمامة

وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيرا منهم يقول بخير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان التفسير

أغرب عندهم ، كان أحب إليهم) (١٧)

وقال : (وقد تعلم أن مفسري كتابنا ، وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة ، وأعلم بوجه

الكلام من اليهود وسأولى الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز على الله فسق

صفته ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ، ولا عند النحويين في عريتهم) (١٨)

وقد سخر الجاحظ من الكتاب الديوانيين وغير الديوانيين مع ما لهم من عزة وما يملكونه

من لسان وبيان ، يمكنهم من الرد على الجاحظ وهيبه ، ولكنه لم يرهم لفتة بالفج والامتطالة

ولا يمانه أنه يقول الحق الذي يصرح به باطلهم ، وسوط الحق غلاب ، وصوته جهوري يكتم

(١٤) المصدر المذكور ، الجزء السادس صفحة ٧٤ ، ٧٥ وثلة في ج ٤ ص ١٦٤

(١٥) المصدر المذكور ، الجزء الخامس ، صفحة ٣٤٧ ، ٣٤٨

(١٦) المصدر المذكور ، الجزء السادس من صفحة ١٦٤ (١٦هـ) المصدر المذكور ص ٢٤٤

(١٧) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٣٤٣

(١٨) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكل ، صفحة ٢٩

معهده يقول نقلاً عن أبي مهن (ما رأيت قوماً نفرت طبعهم عن قبول العلم ، وصغرت هيبهم من احتمال لطائف التمييز ، فصارا لعلم سبب جهلهم ، والبيان علم ضلالتهم ، والنقص والنظر حايده عنهم ، والحكمة معدن شهيم أكثر من الكتاب) (١٩)

صدي من أبي بكر الأصم قوله (ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا في غزارة علمه ، وكثرة روايته كما قال اللعزذكيه - كمثل العمار يحل أسفلاً - قد أوجع علمه ، وأذعه حله ، وأعتت حكمته ، وحيرته بصيرته) (١٩) وقد سبق ما رأينا من أبي عثمان في مسخ ابن عبد

الوهاب الكاتب في رسالة التبيين والتدوير ، فما خاف ولا رهب ، لأنه جهل على النقد الجري ، ومن أوضع الدلالات على جراه النقدية ، وشجاعته الأدبية ، نقده نفسه ، وقد تقدّمنا في كثير من كتبه من اضطراب في التسيق ، وقد ذكرت ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب - كما نقد بعض منتقداته في صفه عن الخفافيش التي لا تترك من تقع على وجهه إلا إذا سمعت نقيق حمار وحشي .

الباب السابع

سخرات الجاهل بين التأثر والتأثير

الفصل الأول

السخرية قبله ومدى إفادته منها

رأينا السخرى أدب الجاحظ قويا وملاقا ، سامقا شاهقا ، يمتلى ، مودة الأخضر بالحيرة

والماء ، والنضرة را لروا ، قد افتن فيه أبو عثمان ، وشقق منه غروبا معجبة ، وولد أروانا
مطرية ، طال فيها نفسه ، وامتد إليها باعه ، ورفرفت عليها أعلام علمه وثقافته وفنه ، فكسبا

الجدتوب المنزل ، والعلم والأدب ردا ، اللغو واللصب ، والتعذيب والإصلاح جهة المرح والإضحاك
فما يمل حديثه ، ولا ينتهى إيناسة ، ولا يزوره قارى ، أو سامع ، لأنه إن أراد الجد وجده
وإن أراد المنزل وجده ، فإن رغب فيهما معا وجدتهما متشابهين ، وحسبه فخرا أن يكون له
أسلوب فريد ، وطابع مميز ، ونكحة محببة ، ينفرد بها ، ويقصر سواه عن بلوغها ، وتبهدر أنفاسه
وتقطع نياط فنه قبل إدراكها .

ولكن ١٠٠ كانت سخرية الجاحظ طرفة في الأدب لم تسبق بتمديد ؟ ووثبة في الفن ليس
قبلها حيون فشى ثم جرى ٢٤

إن طبيعة الأشياء ، وقوانين النشوء والارتقاء تمنع ذلك ، وتكرأن يكون ، وتبهدنا فن
السخرى منذ المصرا الجاهلى يوقفنا على أن الأمة العربية صعدت بأدبها الساخر درجات
سلمه واحدة إثر أخرى ، وارتقت بعصرا بعد عصر ، حتى وصل به الجاحظ في المصصر
العباسى إلى أعلى الدرج .

ولنبدأ بالدرجات الأولى من هذا السلم ، نتأمل بناؤها ، ونعمن في خاماتها ونذوق
النظر في صيها وصفحتها ، ثم نختار الدرجات التى تليها ، حتى نصلح الجاحظ حيث
وقف .

كانت السخرية في المصرا الجاهلى قليلة نادرة ، خالية من الحق ، بعيدة عن التلويح
واللهز ، تتجه غالبا ناحية السبا لصريح ، والكشف عن المعنى المراد في وضوح ، وكانت
تصعب على سلب الصفات التى يحتج بها المصري في بيئته . من نجد ، وشجاعة وكلم ووقا .

وكانت منزلة الفرد من القبيلة منزلة الابن من أمه وأبيه ، يعرف فضلها ، ويخضع لقوانينها
ويحميها إن تعرضت لها يهينها لأنه يشرف بشرفها ، ويضع باتضاعها . . . ومن هنا نشأ التعصب
للقبيلة ، والاتدماج التام فيها ، فإن دافع العربي ، فإنما يدافع من أجل قبيلته ، وإن ناله
خير ، فإنه لا يفرح إلا بمقدار ما يصبب القبيلة منه ، يشتهون بروحه ، ويطلبون لترفع قبيلته ، وتسبر
على سائس القبائل ، ولا كيان له مستقلا ، ولا اعتبار له منفصلا ، فكل من هيجن أو سخر منه
فإن بقيته يرجع على القبيلة كلها ، ولكن سخر بالقبيلة فقد سخر بكل فرد منها ، وحطت كرامته
يقول ابن رشيقي : (كانت لقبيلة من العرب إنا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فدنأتها ، وضمت
الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالزواهر ، كما يصفون في الأعراس ، ويتباشرون الرجال والولدان
لأنه حطية لأعراضهم ، وذنب عن أحسابهم ، وتخليد لما نروهم ، وإشادة بذكرهم) (١) لذلك
نرى أهاليهم ومدائحهم تبدأ بذكر القوم أو القبيلة ومن تعادج الحيت الساخر في هذه

الحقبة قول حسان بن ثابت في بني عبد المदान :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ
وقول الأعشى في علقمة بن علاثة

تبهتون في المشتى ملاء بطونكم
وجاراتكم غرشي بيتن خمائصا (٢)

وقول العطيئة في أمه : تسحى فاجلس مني بميدا : أراج الله منك المالينا

وأفريلا إذا استودعت سرا
وقوله في امرأته : أطوف ما أطوف ثم آوى
وكانونا على المتحدثينا
إلى بيت قميدته لكاع (٣)

ومن سخريات العطيئة ما (قالوا : كان العطيئة يرض ضمالة ، وفي يده عصاه . فريسه

رجل فقال : يا راعي الفقم ما عندك ؟ قال عجرا من سلم - يحيى عصاه - قال : إنسى

(١) العدة ابن رشيقي ، الجزء الأول صفحة ٦٠ الطبعة الثالثة عام ١٩٦٣ مطبعة السمادة

(٢) تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف صفحة ٧٠

(٣) جمع الجواهر ، الحصري ، صفحة ٢٧٨

ضيف . فقال : للضيفان أعددتما (٤).

ويقول قريظ بن أنيف العبدي ساخرا من قومه حين خذلوه :

لكن قومي وإن كانوا ذوى عداوة	ليسوا من الشرفى شىء وإن هانا
يجزون عن ظلم أهل الظلم مخفرة	وعن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيتسه	مواهم من جفيع الناس إنسانا
قلبت لى بهم قوما إذا ركبوا	شئوا الإغارة فرسانا وركبانا (٥)

فالكلام ظاهر المدح بأنهم متسامحون خيرون ، يقابلون الإساءة بالإحسان ، ويجازون الشر بالخير وهم أتقيا ، يخشون الله ، حتى كأن الخشية من الله لم تخلق لإلهم ، ولا توجد فى سواهم .

لقد عدد لقومه هذه الصفات التى يمتدح بها الإنسان فى أى جيل ، ومن أى جنس ولكن قصد السخرية المريرة ، والتدكيم القاتل ، والالتئام بالضعف والخور ، وأنهم أنكاس ، لا يصدون الممتدى ، ولا يردعون الباغى ، وقد أوضح مراده فى البيت الأخير حيث معنى استبدال آخرين بقومه ليست فهم صفاتهم ، وإنما فهم القوة وهنك اللقاء ، وشدة الإغارة ، فأكد لنا البيت الأخير أن الصفات المذكورة فى الأبيات قبله لا يقصد بها المدح ، وإن كان ظاهرها ذلك وهذه سخرية طريقها التلميح بما يشبه المدح .

فإذا كان العصر الإسلامى بق الحجاز ، وقل استعماله تجاوبا مع أوامر الشرع الحنيف ، وخف ما فيه من فحش وجون ، واقترب من الرجز والإيما ، والتمويض وخطا خطوة نحو السخر والتدكيم ، يقول الله تعالى ساخرا من الكافرين : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم ، فليستجيبوا لكم ، إن كنتم صادقين ، ألم لهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا

xxxxx

(٤) البيان والتبيين : ١ لجاحظ ، الجزء الثانى : صفحة ١٤٢ ، الجزء الثالث صفحة ٨٠

(٥) ديوان الحماسة الجزء الأول صفحة ٣ ، ج (١٩) تعليق د . خفاجى ط ١٩٥٥

شركاءكم ثم كيدون فلا تتظنون (٦) ويقول على لسان إبراهيم عليه السلام : يخاطبه الكفار
 ويرد عليهم : (قالوا : أنت فعلت هذا بالحق يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا
 فاسألوهم إن كانوا ينطقون) (٧)

وشك بنو العجلان النجاشي الشاعر إلى عرب بن الخطاب قائلين : لقد هجانا يا أمير المؤمنين
 قال : وما قال فيكم ؟ فأنشده قوله :

إذا الله عادى أهل لوم ورقة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقل

فقال صر : إن الله لا يعادى مسلما . قالوا : فقد قال :

قبيلة لا يقدرون بدمه ولا يظلمون الناس حسبة خردل

قال يوددت أن آل الخطاب كانوا كذلك . قالوا : فقد قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوف بن كعب وتمثل

فقال : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه . قالوا : فقد قال :

ولا يردون الماء إلا خشية إذا صدر الوواد عن كل منهل

فقال : ذلك أصفى للماء ، وأقل للزحام . قالوا : فقد قال :

وما سعى العجلان إلا لقولهم خذ القصب واحلب أيها المبد واعجل

فقال : سيد القوم خادهم (٨)

إن النجاشي لم يرد المعنى الظاهر الجاد إلى الأقدام عند أقل وهلة ، فلم يرد أن
 يصفهم بالعدل والوفاء ، ولا بالشجاعة وقوة البأس ، ولا بأنهم مستؤمنون لا يحتاجهم الاحتياج
 فهم لذلك لا يراحمون على الماء ، ولا بأن الكلاب الضاريات تعاف لحومهم خشية ورهبة .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ٦٢ ، ٦٣ .

(٨) زهد الآداب : العصى ، الجزء الأول صفحة ٢٤ ، ٢٥ .

وتأكل من لحم فروعهم لضياحه وهو به . إن هذه الصفات النبيلة والسياسة الحميدة ليست
مراد النجاشي ، وما قصد إليها ، وإنما أراد المعنى الخفي ، وقد لحن إليه ، وأشار موسى
بعد ، في تخاليف بكره ، وسخره وتوكله . وحمل المدح ستارا يفتش من وراءه سويه ، ولم
يظهر مراده إلا في البيت الأخير كما فعل قريظ ولم يكن معروفا فلما عن السخرية الترددية
التي قصدتها الشاعر ، ولكنه أراد إخماد الفتنة ، وتهدئة الثائرة ، وأدح باب غيب النفوس
الواجدة ، ودرء الحدود بالشبهات

وما حدث بين النجاشي وبين المجلان حدث نظيره بين الخطيب والزهريان بن بدر حيث
قال له .

دع الكايم لا ترحل لوخيتها واقعد فإنك أمت الطام الكاس

ولكن الخطيب لم يقصد المعنى الظاهر الذي قال عنه عمر "كلنا الطام الكاس" وإنما
أشار إلى أن الزهريان خلوا من حميد الصفات ، وكرم السجايا ، وسجد القفال ، وأنه
لا يصلح لشيء أكثر من ابتلاع الطعام وكس الماء ، بل إنه إنما خلق لذلك الوحدة ، وليس
ما يشغله في الحياة سواه ، وهل بعد ذلك سخره واستدراجه ، وبكل نقية ، وإن كان
قد صالح بيته في ثوب نصيحة وإرشاد ، وهذا التعريض أشد وقعا في النفس من الرجاء
يدل على ذلك قول حسان حين حكم في الخصومة ، (لم يديجها وإنما سلج عليه ليومني هذا
أن السخرية تأتي من الرجاء ، وأرجح من لسب الصريح مهما فحش .
فإذا والينا صمود الدج ووصلنا إلى المصير الأموي وأبنا الفزوق وجديد والأخطل ،
وأبنا السخرية تمنج بالعضارة الجديدة والأدب الذي ساد ، وإن كان هؤلاء الثلاثة قد أتوا
من الرجاء الفحشا تخجل منه العفة ، وينكره العيا ، ومن تنكم جود الفزوق قوله ،
زعم الفزوق أن سيقتل مريضا أبشر بطول سلامة يا حزين

ومن السخرية المتبادلة أن (قال خالد بن صفوان للفزوق ، يا أبا قراس ، لو رأيتك صوحبات
يوسف لما أكبرتك ولا قطمن أهديين . فقال الفزوق ، ولنت يا خالد لو رأيتك صاحبة موسى لما

النحل . أي ليس فيها حلاوة (١٣)

ومن حيل أشعب السخرة ما رواه بقوله ، (جاءني جارية يدنيا ، وقالت هذا ودبحة عندك ، فحطته بين ثوبي الفراشه فجاءت بعد أيام وقالت ، بأي أنت ، الدينلو قلت ، أرفعى فراجه وخذى ولده ، فإنه قد ولد ، وكنت قد تركتاهن جنبه درهما ، فأخذت الدرهم وثرت الدينار ، وعادت بعد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته فوفى الثالثه كذلك وجاءت في الرابعة ، فلما رأيتها بكيت . فقالت : ما بيك ؟ قلت : مات الدينار في النفاس . فقالت : وكيف يكون للدينار نفاس ؟ قلت : يا غافقة تصدقين بالولادة فولا تصدقهن بالنفاس) (١٤) ولصمد الله بن المقفع سخريات على قدر كبير من الملاحه والظرف ، واللذع والإيلام . منها ما ذكره البيهقي بن عدى من أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كبرا ، وكان أنف سفيان كبرا ، فكان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما . يحض هسروأنفه فقد غبده ومسحه ، وجعل أنفه شخصا آخر يمتطى وجهه . . وقال له يوما : ما تقول في شخص مات وخلف زوجا وزوجة ؟ ليسخر منه على ملائناس . وقال سفيان يوما : ما ندمت على سكوت فقط . فقال له ابن المقفع الخرس زين لك ، فكيف تقدم عليه ؟ (١٥)

سخرا بن المقفع من سفيان لبشاعة خلقته وكبرأنفه ، كما سخر من تهامة عقله وجهلسه وسخر أخيرا من عيه وحصره ، في أسلوب رقيق ظاهره ، شائك باطنه فلأنه في القصة الأولى يجله ويعظمه فينتيه مقام شخصين ، وفي الثانية يسأله مسألة فقهية يحله فيها محل الأستاذ الذي يلجأ إليه في حل العضلات ، والفتيا في المسائل الخامضة ، أما الثالثة ففى من باب

(١٣) جمع الجواهر ص ٦٧ ، زهر الاداب ص ١٧٢

(١٤) نهاية الأرب ، النويرى ، السفر الرابع صفحة ٢٧ مطابق كوستاتسومان وشركاه (ترانسا)

وفي جميع الجواهر للحصرى صفحة ١٩٩ .

(١٥) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، الجزء الأول ، صفحة ١٨٨

الرجاء لصراحتها ، ووضح السبب فيها ، وسرد مرجعها ، وقربها من النفس ، الجواب طبر
المتوقع ، والتعميل بغير ما ينتظر .

وفي المصرا لأمرى شخصية لا تقل في فكاقتها ورجحها وسخرها من ابن المقفع وأصيب من
شخصية أبي ولامة " زنديب الجون " فقد كان أشعب وأبو دلالة علمين يارزين
أعلام الفكاكة والسخر وكثيرا ما صاحبها الوزرا ، وسامرا الخلفاء ، وقد كان أبو دلالة سميرا للمدى
والمنصور والسفاح ، وكانوا يعجبون بفكاكاته ، ويخرونه بمخزاته ، ويخرونه بالسخر قبل يمدونه
ويتوعدونه إن لم يسخر وهم ذوو مقدرة على تنفيذ ما توعدوا وما عهدوا ، كما أنهم أصحاب
أرحية في البذل والحط ، ومن كان منهم بخيلا مقترا كالمنصور فقد كانت رقة أبي دلالة وحسن
تأثيره تسخى يده فيجود (ذكر أن أبا دلالة دخل على المددى وهناك جماعة من أهل بيته
من بني هاشم ، فقال له : وأنا أعطى الله عهدا لكن لم تنهني لي واحدا من في البيت لأقطن
لسانك ، فنظر إليهما ولم يكلمهما ، وكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاء . قال أبو دلالة
فعلمت أنني قد وقعت ، وأتينا عزمة من عزماته ، لا بد منها ، فلم أر واحدا أحق بالرجاء
منى ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلالة	ظلمت الكرام ولا كرامة
إذا لم ينال العمامة كان فردا	وخزينا إذا نزع العمامة
جمعت دمامة وجمعت لؤمنا	كذاك اللوم تنبهه الدمامة
فإن تك قد أصبحت ضمير دنيا	فلا تفرح فقد دنت القيامة

فضحك القوم ، ولم يبق منهم أحد إلا أجازوه .

(وذكر أن المددى خرج إلى الصيد وصاح على بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس
فسمع لهما قطيع من نطباء ، فأرسلت الكلاب ، وأجريت الخيل ، فرمى المددى سهمًا

(١٦) الأغاني ، الاصفهاني ج ٣ ص ١١٨٩ ، ١١٩٠ كتاب التحرير ، مذهب الأغاني ج ١

ص ٣١ ، ونهاية الأربيع ج ٤ ص ٤٤ ، جوهر الجواهر ص ١١٠ ، ١١٢

السخر عندده ، ومعرفة الطرق التي انتهجوها ، فهي عليها ، وأضاف إليها ، ونسب سخرياته
إلى من شهروا بالسخر قبله ، وأضافوا لهم ، وولدها على المنتقم ، حتى ليحسر علينا
التميزيين ما أخذوه وما ابتدعوه ، مما جعل البذرة تنمو وتضيق ، وتزهر وتثمر لأنه أحاطوا
برمايته ، وتعهدوا بالرى والتغذية ، حتى تشبهت روحه بهذا الفن الضاحك ، وأضاف
إليه من تجاربه وطبعه وافتتانه ، وما حفل به عصره ، أنفاما مطربة ، وألوانا مبهجة ، وظلالا
سعت بفن السخر ، وجعلته على قدم المساواة مع سائر الفنون الأدبية الشهيرة إن لم نقل

إنه علاها وبذها .

الفصل التاسع

الساخرون في عصره ومكانه بيننا

يحتبر العصر العباسي ، وبخاصة في الفترة التي عاشها الجاحظ - عصر تقدم ومدنية
ونعمة ورخاء ، فقد بلغت الحضارة أوجها ، وحاز التقدم مداه ، وهم الترف والسرف أرجاء ،
الدولة ، وانصرف كثير من الناس إلى اللهو والمجون والخلاعة ويمسجون من كوسها المتزعة
ويترشفون رحيقها قطرة قطرة ، في تلذذ وتمتع ، ويحتلبون من أفانيقها الحلوة ما يبهجهم
ويضمرهم بالسماء ، وانتشر ذلك وشاع حتى أصبح الخلفاء والوزراء عملية القوم يتخذون له
المجالس ويمقدون الندوات ، يسرون فيها ويضحكون ويفحشون ، وانعكس ذلك على
العمامة التي من ديدنها تقليد الخاصة ومحاكاة الأغنياء ، وذوى السلطان والناس على دين
ملوكهم ، وفي سبت أغنياهم فساد تالد وللاهمجة من الضحك والفكاهة ، والفرح والدمابة
والتهكم والسخر ، وخلط الجد بالهزل ، والحزن بالضحك ، والصرامة والهيبة بالخلاعة والمجون
وأصبح غاية الحياة عند خاصة هذا العصر ، التمتع والبهجة واللذة ، ولو كان ذلك فسي

التحلل والابتماد عن الخلق وتعاليم الدين .

وارتقت السخرية تبعا لرقى العصر ولانت ولطفت ، وتستررت وعفت ، مستعدة ذلك من
لين الحياة ونعمتها ، وانفتاق الأذهان ، وذلائها ، فافتن فيها المفتنون وابتدعوا ، وشققوا
وولدوا ، وأعدوا آلتها ، وأرهقوا حلها ، واقتوا صناعتها ، فجاءت جيدة السبك ،
في

محبكة الأداة ، وتجارى ما يجرى في أيدي الخلفاء والأمراء من أموال يكافئون بها ، ويشجعون
على إجادة صنعتها ، وتتاسب مع حرافة عقولهم ، وحضور يد يخدم ، وتمرسهم بالأدب والقن
واللماحية ، فارتقت السخرية أملا في الخطوة ، وطمعا في النوال ، وأصبحت فنا خالصا

يطلب ويرغب فيه .

واشتهر بهما رجالاً أَدَجَّوْها في الأدب ، وحملوها فنا من فنونه ، وبأها من أبوابه قفدا
إلى التسلية مورغبة في التثقيط وطعما في الإصلاح ، منهم أستاذة الجاحظ ، وأصدقائه ،
ومن أشهرهم .

أبو عبيدة : محمر بن المثنى الذي كان كل كلامه قلوب من سخره ،

(خرج أبو عبيدة مرة إلى بلاد فارس قاصدا موسى بن عبد الرحمن الهلالي ، فلما قدم
عليه قال موسى لفلاناه احزنوا من أبي عبيدة فإن كلامه كله دق . ثم حضر الطعام فصب
بعض الخمر على ذيل ثوبه مرقا فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه
عشرة ثياب . فقال أبو عبيدة : لا عليك فإن مرقك لا يلاذي . أي ما فيه دهن . فظن لها
(١)
موسى وسكت)

وما يدور عنه من سخريات قوله ، (أجريت الخيل في الحلبة ، فجاء فرس من الخيل سابقا ،
فجعل رجل من النظارة يكتر التبع ويكبر ويصفق ، فقال له رجل إلى جانبه : يا فتى ، أنت فرس
لك ؟ قال : لا ، ولكن اللجام لي) (٢)

ومنهم إبراهيم بن سيار النظام ، فمن سخرياته :

(ذهب النظام مع أبي الهذيل العلاف لتعزية صالح بن عبد القدر على ابن له ،
فوجد حنيضا كثيرا ، فقال له أبو الهذيل : يا صالح ، إنى لا أجد لقاظك ، سبيلا ، ولا لحزتك
عدرا جميلا ، إن الناس عندك كالنبات . فأجاب صالح : يا أبا الهذيل ، إنما تحرقنى لأنه
مات ولم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب وضعت ،
من قرأه شك فيما كان كأن لم يكن ، وفيما لم يكن حتى كأنه كان . فرد عليه إبراهيم النظام

(١) الجاحظ : حياته وآثاره ، شفيق جبرى صفحة

(٢) جمع الجواهر ، الحصرى ، صفحة ٢٣٧

وقال له : إني فلان أستعلى إنه لم يمت وإن كان قد مات ، وطى أنه قبل الكتاب وإن لم يقرأه
 ونهم ثمامة بن الأشوس : أحد شيوخ الجاحظ الذي أفاد منه كثيرا بالنقل من أدبه
 و لا انتفاع بأسلوبه ومخانيبه كما كان أستاذ في العيون و الفلكامة و النادرة اللانعة (٤) فقد
 روى أن الرشيد سأل (يوما جلوسا) من أسوأ الناس حالا . فقال كل واحد شيئا حتى جاء
 دور ثمامة (فقال : أسوأ الناس حالا ، عاقل يجرى عليه حكم جاهل . قال ثمامة : فتبينت
 الغضب في وجه الرشيد - لأنه ظن أنه يعنيه وكان قد حبسه - فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما
 أحسبني وقعت بحيث أريدت مواعضا عنيت حادثه وهي : أن سلاما الأندلس - وكان سجانا -
 وأنا في السجن كما ن يقرأ في المصنف . وطل يوشذ للمكذبين - يفتح الذال - فقلت له
 المكذبون هم الرسل ! والمكذبون - بالكسر - هم الكفار ، فاقرا . وطل يوشذ للمكذبين .
 بالكسر . فقال سلام : قيل لي من قبل أنك زنيق . ولم أقبل . ثم ضيق علي أشد الضيق
 فجعل الرشيد يضحك) (٥)

ونهم أبو الهيثم العلاف ومن سخره ما يروى أن المؤمن انصرفه (فدخل عليه يوما
 وقال : يا أمير المؤمنين إنك ظلمتني وظلمت فلانا الكاتب . فقال له : ويلك وكيف ؟ قال
 رفعت فوق قدره ، ووضعتني دون قدره ، إلا أنك له في ذلك أشد ظلما ، قال : وكيف ؟
 قال : لأنك أقمته مقام هزء ، وأمتني مقام رحمة . فضحك المؤمن وقال له فانتك الله (٦)
 (وتصواوه أن يخطب بعض الأمراء فقال له : كذبت . فقال : يا أمير المؤمنين إن وجه الكتاب
 لا يقابلك - يعني الأمير بذلك - لأن وجه الإنسان لا يقابله) (٦)

(٣) ابن زيدون ورسائله : كامل كيلاني ، صفحة ٥٠

(٤) ضحى الاسلام ، أحمد أمين ، الجزء الثالث ، صفحة ١٥١

(٥) المرجع المذكور صفحة ١٥٢

(٦) سنن الصيون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ١٢٤

ومن هؤلاء الأساتيد : علي بن سليمان الأخفش . ومن سخره :

(قال رجل اسمه عمر لعلي بن سليمان الأخفش : علمني مسألة من النحو ؟ قال : وتعلم أن اسمك لا ينصرف . فأتاه يوما وهو في شغل . فقال : من بالباب ؟ قال : عمر . قال صراييم ينصرف . قال : أو ليس قد زعمت أنه لا ينصرف ؟ قال : ذلك إذا كان معرفة ، وهو الآن نكرة)
هؤلاء أساتذة الجاحظ الذين وجهوا حياته ، وساروا به نحو البراعة في السخرى لتفنن فيهم حتى يذهبوا وأرتقى بسخره هام هذا الفن الضاحك فوجد ذكرنا الآن بعض سخرياتهم كما وجدت في الفصل الثاني من الباب الثاني وأرجو أن أكون قد بدت .
ومن أعلام السخرى في عصر الجاحظ أبو العينا .

(وهو أبو عبدالله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان الهاشمي با لولاء ، مولد أبي جعفر المنصور المعروف بأبي العينا ، صاحب النوادر والشعر والأدب . أصله من اليمامة ومولده بالأهواز ومنشؤه بالهيرة وبدأ طلب الحديث وكسب الأدب وسمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والعتبي)^(٥٨) ومن سخريات أن رجلا زعمه (بالجسر على حما ربه فضرب

بيديه على أذن الحمار ، وقال : يا فتى قل للحمار الذي فوقك يقول : الطريق)^(٥٩) والسخرية

هنا ناشئة من الوضع المقلوب بجمل الحمار مؤدبا معلما للرجل ، والرجل تلميذا يلمذ الفكر .

ووقف به رجل من العامة (فأحس به فقال : من هذا ؟ قال : رجل من بني آدم . قال

مرحبا بك ، أظن الله بقاءك موقية في الدنيا ، ما ظننت هذا النسل إلا قد انقطع)^(٦٠)

(وقف أبو العينا على باب صاعد بن مخلد فقيل له : إنه يعلو ، فانصرف ، ثم عاوده)

(٧) جمع الجواهر : الحمري : صفحة ١٨١ .

(٨) دائرة معارف وحدي مجلد ٦ ص ٧٩٧ .

(٩) زهر الآداب : الحمري : الجزء الأول : صفحة ٢٩٢ ، جمع الجواهر ص ٢٨٥ .

(١٠) زهر الآداب ١ ص ٢٩٦ ، جمع الجواهر ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

تقبل له : فإنه يصلح وفتان ولكن جديد لذة (١١) (ولم يخ أبا العينا أن المتوكل قال :
 لولا أن أبا العينا ضرير لنا دنياه فقال : إن أعتاني أمير المؤمنين من رومية الأمله ،
 وقراءة نقش الفصوص فأنا أصلح للناوثة) (١٢) وهذا تولع منه بلما له وراقتدار على الكلام
 وإلا فقد تما في من ذلك المقام . ولعله إلى السخر كان إخوانه يسخرون منه ويطنزون وقد
 (ولد لأبي العينا مولود فأناه ابن مكرم مينا ، فوضع بين يدي أبي العينا حجرا وانصرف
 فجمسه أبو العينا فوجد حجرا فقال : من وضع هذا ؟ قالوا تركه ابن مكرم لما قدم ، قال
 لعنه الله ، إنما عرض بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش ، وللماهر الحجر) (١٣)
 ويقول أبو العينا : (أخجلني ابن صغير لمهد الرحمن بن خاقان ، قلت له : وددت أن
 لي ابنا مثلك . فقال : هذا بيدك ، قلت : كيف ذلك ؟ قال : يجعل أبي على امرأتك فتلد
 لك ابنا مثلي) . (١٤) وليس يعجيب أن ينشأ بمصر ابناك على سخره والولد سرأبيه كما يقال
 فقد قال أبو العينا : لا ينمو مريض ، أي شي تشتهي ؟ قال : البهم) (١٥) وقد كان أبو
 العينا يحرف للجاحظ قدره وفوقه وأستانته أو ليس هو القائل حين سئل (ليت شعري
 أي شي كان الجاحظ يحس ؟ فقال : ليت شعري وأي شي كان الجاحظ لا يحس ؟) (١٦)
 ومن هؤلاء الأعلام : الجواز (أبو عبدالله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر) . . .

(١١) جمع الجواهر ، الحصرى ، صفحة ١٥٧

(١٢) المرجع السابق صفحة ١٥٩ ، وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٦٧ .

(١٣) جمع الجواهر ، الحصرى ، صفحة ٧٦ .

(١٤) معجم الأدبا ، ج ١٨ ص ٢٨٧

(١٥) جمع الجواهر صفحة ٢٨١

(١٦) جمع الجواهر صفحة ٢٠٤

وسلم الخاسرعة ، وكان الجواز صاحباً لآبى نواس حتى مات (١٧) ومن لالغ سخره ما يدوى عنه ، قال بعض جلساء المتوكل : كنا نكثر عند المتوكل ذكر الجواز حتى اشتاقه ، فكتب في جملة إليه ، فلما دخل أنعم ، فقال له المتوكل تكلم فإني أريد أن ستهربك فقال بحفيضة أو بحريضتين ، يا أمير المؤمنين فضحك المتوكل ، وأمر له بحشرة آلاف درهم (١٨) فقد رد الجواز المسخرية بسخرية أنكى منها إذ جعل الفتح من فضيلة لقروود والكلاب الخارجين على الطلعة فهو قود شرس ، وكلب مقور . (وكان لا يدخل بيته أكثر من ثلاثة لصيقة ، فدعا ثلاثة فجاءه ستة ، وقرعوا الباب ، ووقفوا على رجل رجل ، فعد أرجلهم من خلف الباب ، فلمعنا حصوله عنده قال : اخرجوا عني ، فإنما دعوت ناساً ولم أدع كذاك) سخرها منه فسخر منهم وهكتم سخرهم وأخرجهم من جنين الأكدميين إلى سرب الكراكي . (قال الرشيد للجواز : كيف مائة محمد بن يحيى البرمكي ؟ فقال شبرني شبر وصفحته من قشر الخشخاش وبين الرفيف والرفيف ضرب كرة ، وبين اللون واللون فترة نبي . قال الرشيد : فمن يضرهما ؟ قال : الكرام الكاتبون ، فضحك المهدي وقال : لحالك الله من رجل) (٢٠)

ومنهم بشار بن برد : روى أنه (كان ينشد المهدي ويزيد بن منصور عنده ، فلما فرغ من إنشائه) قبل عليه يزيد - وكانت فيه غفلة - وقال له : يا شيخ ، ما صناعتك ؟ فقال : أنقب اللؤلؤ . فضحك المهدي ، وقال لبشاراً تتأدر على خالي ؟ قال : وما أضع به ، يدى شيخا أصي ينشد الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته (٢١) فجاءت سخرية بشار قارعة قارعة حين اختار صناعة لا يقدر عليها العميان فقال : أنقب اللؤلؤ هنوا بنحال المهدي المغفل .

(١٧) المرجح المذكور صفحة ١١٥

(١٨) زهر الآداب ج ١ ص ١٧٤ ، جمع الجواهر ، الحموى ص ٥١١

(١٩) زهر الآداب ج ١ ص ١٧٤ ، جمع الجواهر للحموى ص ١١٥

(٢٠) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٥٨٠

(٢١) نكت العميان في نكت العميان ، صلاح الدين العسدي ، تحقيق أحمد زكي با شامس

ومر على قم يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال : ما لهم مسرعين ؟ أتراهم سرقوه

فهم يخافون أن يلحقوا فيأخذ منهم (وقيل لبشار : إن فلانا يزعم أنه لا يزال يلقاها واحدا
أو ألف . فقال : صدق ، لأنه يفر من الواحد كما يفر من الألف) (٢٢)

ومن الشعراء الساخرين في عصره غير بشار بن برد أبو المتاهية ، قال يسخر من عبد الله

بن مهران زائدة ، متلفظا في السخرية ، محتالاً لها ، مدعيها ، أنه أنشئ فيه الطراوة
والليونة والمجدد عن جلائل الأمور :

فصغ ما كنت حليقت بسيفك خلخالاً

وما تصنع بالسيف إذا لم تسك قتالاً

أما أبو نواس فله في السخرية تفنن وإبداع ، وأناط وألوان ، ومزج ومزج لا يراعى ديناً ، ولا

يلحظ حشمة حتى مع أشياخه وأساتذته ، الذين تلقى عنهم العلم ، وأخذ منهم الأدب ، فقد

لحظ أبو عبيدة مصرع بن العشى وهو يقرأ درسه في المسجد كتابة على الأسطوانة ، فنظراً إليها

فإذا هي :

صلى إله على لوط وشيعته

أبا عبيدة قل بالله لعيننا

فأنت عندي بلا شك بقيته

مذ احتلمت وقد جاوزت سبحيننا

فقال أبو عبيدة : هذا عمل الخبيث يعني أبا نواس (٢٣)

وقيل ساخر من يخل أساميل بن نهجست :

خبزاً ساميل كالوشى

إذا ما شق يرقسا

وقال : وما خبزه إلا كليب بن وائل

ليالي يحيى عزه منبت البطل (٢٤)

(ومر عثمان بن حفص لثقي بأبي نواس وقد خرج من علة ، وهو مصفر الوجه ، وكان عثمان

أقبح الناس وجهها ، فقال له عثمان : مالي أراك مصفراً ؟ فقال أبو نواس : رأيتك فذكرت

(٢٢) جمع الجواهر : المصرى ، صفحة ٢٤١

(٢٣) أبو نواس حياته وشعره : عبد الحميد المسلوب رسالة أستاذية ص ٢٨

(٢٤) البخلاء : الجاحظ وضبط المواصر والجامع الجزء الأول صفحة ١٢١ ، ١٢٢

ذئبي . قال ، وما ذكر ذئوبك عند رؤيتي ؟ فقال ، خفت أن يحاقبني الله فيسخرني قردا
 مثلك (٢٥) . (أراد أن يكتب أبونوا سر إلى إخوان له دعاهم ، فلم يجد قرطا ما يكتب فيه
 فكتب في رأس غلام له أصلع ما أراد ، ثم قال فيه ، فإذا قرأتم كتابي فأحرقوا القرطاس . فضحكوا
 منه ، وتركوا للغلام جلدة رأسه) (٢٦)

وللبحتري سخر منجب ، ووصف ملجم ، وتصوير يمسح ويشوه ، يقول ساخرا من أنف الخشمي

رأيت الخشمي يقل أنفا	يضيق بعرضه لبلد الفضاء
سما صعدا فقصر كل سام	لهيبته وخص به الهوا
هو الجبل الذي لولا ذراه	إذن وقعت على الأرض السماء (٢٧)
وقال ساخرا بمن يخضمون أشعارهم للفظق فيجى فليظا جافا ،	والشعر يفنى عن صدقه كذبه
كلفتونا حدود منطقم	
لم يكن ذو القرح يلجج بالسمنط	طق ما نوره وما سبه
والشعر ليج تكفى إشارته	وليس بالهذر طولت خطبه (٢٨)

أما ابن الروبي فله في هذا الفن القدر المعلن ، والنصيب الأعز ، والفن الأرق وقد

أفانق في ذلك وأجاد ، وأتى بالمجبا لعجاب وأكثر من الصور الهزلية الرائعة (الكاريكاتون)

قال يسخر بصلمة أبي حفص الوراق :

يا صلحة لا بى حفص معرودة	كان ساحتها مرآة فسلوان
تم تحت لأف الوراقات بها	حتى ترون بها أكاف يفدان (٢٩)

(٢٥) جمع الجواهر ، لخصى ، صفحة ١٦٥

(٢٦) المرجع السابق صفحة ٢٤٩

(٢٧) ديوان البحتري صفحة ٨ الجزء المنزل

(٢٨) المرجع المذكور صفحة ٢٨ الجزء المنزل

(٢٩) ديوان ابن الروبي ، الجزء الثالث ، صفحة ٤٢٨ .

ويُسخر من كبراً نف أحد هم قائله

حملت أنفا براه الناس كلهم

لو شئت كمها به صادفت مكسبا

ويقول في بخيل اسمه عيسى

يلتزمه يس على نفسه

فلو يستطيع لتقتيره

ويُسخر من لحية أحد هم قائله

علق الله في هذا ريك مخللا

ويقول متبكما بهيئة أحد ب

قصرت أ خادعه وغاب قذاله

وكانت صغمت قفاه مسرة

ويقول في لدية لم يعجب بها لفرط طولها

لوقابل الريح بها مسرة

أو غاص في البحر بها فوصة

ويقول في بعض من يسخر منهم

بعض أجهرا به يكادهم بعضا

لا ديب إلا ديب رجاها

ما ظننت الإنسان يوجرت حتى

من رأس ميل عيانا لا يخماس

أو انتصارا مضى كالسيف والناس (٢٠)

وليس بباقة ولا خالد

تففس من منخر واحد (٢١)

ة ولكنها بنخبر شمير (٢٢)

فكأنه مريض أن يصفعا

وأحسن ثانية لها فتجمعا (٢٣)

لم تستج نفسه لهيئة صاحبها

لم ينهت من خطوه أصبا

صاد بها حياك أجمعا (٢٤)

فلى مسنونة بنخبر مشون

أوديب الرحي التي للمنون

كنت ذاك الإنسان عين ألبين (٢٥)

(٢٠) ديوان ابن الرومي الجزء الثالث، صفحة ٢٥٠

(٢١) ديوان ابن الرومي الجزء الثاني، صفحة ٢٧٥

(٢٢) المرجع المذكور، صفحة ٢٦٨

(٢٣) ديوان ابن الرومي ج ١ ص ١٤٦ تحقيق طاهر نيلاني

(٢٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، صفحة ٢١٤، ديوان ابن الرومي ص ٤٥٦

(٢٥) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، صفحة ٢١٤، ديوان ابن الرومي ص ٢٧٨

فيها كالخريزة والملكة ، وشهر بذلك بين لداته وأقرانه ، مما يجعلهم يتأولون كلامه ، وينحون
به ناحية السخر ، ويوجهونه الجدة للادعة الضاحكة ، ويحملونه ما يروى إليه من بعد بعيد
وإن لم يتعبده .

أما عناصر فكاهاتهم ، وأدوات سخرهم ، وطريقة إعدادها وظهورها وإنضاجها ، فالجاحظ
سيد الطدابة ، يختار العناصر المناسبة ، والأدوات الجيدة ، ويأخذ من كل عنصر
ما يلائم الموقف ، ثم يلحظا لتناسب بين مقاديرها وأجزائها ، والدقة في خلطها ومزجها ،
ويضع عليها التوابل والأبازير التي تكسيها اللذع والحرارة ، ثم يطهوها وينضجها ، فإذا
فيها النكهة الجاحظية المحببة ، والريح العثمانية المعجبة ، التي لا يجيدها غيره ،
ولا يتقنها سواه ، حتى لتسبها إليه وإن لم تعرف أنياله ، لأن روحه تطل عليك منها ،
ورائحته تخرج من تضاعيفها ، لا مبالغة في سخره ولا إسفاف ولا تصف ، ألقاظ منتقا ،
وهارات مختارة ، ومجان عميقة مبتكرة ، بعيدة عن السرور والتكلف ، ومنح عجيب ، وسبك جيد
فوق في أعماق النفوس ومعرفة طواياها وسخبثاتها ، وخبرة بتقدير كميات السخر ونوعيات
حسب الداء وما يتطلبه العلاج ، ودقة عجيبة في منح الألقاظ أنخاما راقصة ، ومجانسي
قارصة تحبث بالسخره وهمز وليه .

أما أنفاسهم فكانت قصيرة ، لا تتجاوز الحديث السريع ، والقصة العتضية ، التي عاها
فألبا - الرواية والحكاية والسرد ، سوعان ما تنبهر تلك الأنفاس ، وتخذ في الصدور .
لم يعرفوا الانفتاح الذي وجد في كتاب البخلاء يعقده فوصه ، وتحليله النفوس
والشخصيات والحركات والخلجات ، مع أنه مقصور على صفة واحدة من البخل . . . ولم يعرفوا
الانفساح فيمتد نفوسهم ليضمروا مثل رسالة التبريع والتدوير التي موضع السخر فيها شخص
واحد هو أحمد بن عبد الوهاب . . . إنهم لا يطبقون هذا الاسترسال ، ولا يقدرين على
تلك الإفاضة في جودة وعذوبة كإمام هذا الفن ورائده ابن بحر إذ ليس عندهم من العلم
ما عنده ، ولا من الثقافة ما يملك .

لم يقصد معاصره بسخرهم غير المرح والفكاهة من تسلية الندما^ء والجهلاء والضحك
 والإضحاك . . . وذلك هدف واحد من عدة أهداف قصدتها الجاحظ بسخره ، الذي جعله
 وصلة للتبويه والتحذير وإقامة المصح ، وتماسك الجماعة واتباع التقاليد ، والتأديب
 والإصلاح ، وشفاء ما في الصدور من حقد وموجدة . . . إلى غير هذه الأغراض التي أبتدأها
 في الباب الأول من الرسالة .

ويحق لي بعد ذلك أن أقول : إن الجاحظ فاق معاصره في السخر ، على كثرة عددهم
 وتعدد اتجاهاتهم ، فاقهم في الكم والكيف والمدف ، وطول النفس ، وحلاوة المذاق ، وتقليب
 الصورة ، والبحث بها من كل جوانبها ، حتى يأتي على ما فيها ، فمكانته منهم في المنزلة
 العليا ، والسلم الأسنى ، وإذا قارناه بسابقه أو بمعاصره أو بمن أتى بعده ، نجده
 الأستاذ والقائد ، وحسبنا في ذلك بقاء مجده ، وخلود ذكره ، وانتشار سخره ، وأنه لم يوجد
 على امتداد السنين ، وتوالي الحقب والقرون من جاءها بمثل البخل ، أو بصور رسالته التريخ
 والتدوير .

الفصل الثالث

إجمال أثره في الأدب السخري بعده

عرفنا كيف كانت السخرية قبل عصر الجاحظ، وكيف صارت في عصره، وكيف لقف هو هذا الفن، فأبدع فيه وأجاد، وساد وقاده، وأقامه على قدمين ثابت الدعائم، وطيد الأركان، فلو به بالوان بيته، وشكله بأشكال مجتمعه، وسجل فيه من أساطير مشاهير الرجال، وعظماء العلماء ما خلد لهم، وعلم عن طريق الهزء بالشانء، والسخر من القبيح، وأضحك قارئه لتشط نفسه، وينتمش ذهنه، وتفرج الجذ بالهزل، وتقل الدرس بخفة الدعابة، وتلك كانت طريقة الرجل، وهذه كانت خفة روحه، يأتي إلا أن يعجز مع قارئه ويهني، ولو كان في أشد حالات ألمه، ومرضه باللقرس والفالج، فقد ألف كتابه الهجلاء، وهو على تلك الحالة، وكتب رسالة الترييح والتدوير وهو يئن تحت وطأة المرض، وتقل السنون، وهو رسالة طويلة جامعة لفنون التكم، وضروب السخرية، وذلك دليل خفة روحه، وسر طبعه.

وأن لنا أن نعرف حالة هذا اللون الأدبي بعد الجاحظ، وكيف مضى فيه من أتباعه، أجدوا وابتكروا؟ أم احتذوا وقلدوا؟ أم وقفوا وحدهم؟ أم تكلموا وانتكسوا؟

إن رجالات الأدب قد استمروا كثير منهم هذا الفن، فعض فيه، وعض له قيمة وأثر.

فجعله من موضوعات أدبه، ولا يصحني - كما بحث في فن السخرية - من أرسل العزقة

العابذة، واللمحة السريعة الناشئة من السخرية القليلة الطائفة، وإنما يعنى هؤلاء الذين

جملوا السخر فندم ووكدهم، وكتبوا فيه فأطالوا، وضحوه رسائلهم وكتبهم، وحنيني بخاصة

من ألقوا فيه رسائل كان هو موضوعها، وألقوا بها، ومن أشد هؤلاء.

١- أبو حيان التوحيدى، في رسالته التي يعرض فيها بالصاحب بن مباد، كما أن له

كتاب "مطالب الوزيرين" يسخر فيه من صاحبها ابن الصميد.

٢- أبو بكر الخوارزمي، في رسالته إلى أبي الحسن البديهي الشاعر.

٣- ابن زيدون ، في الرسالة المنزلية التي كتبها على لسان ولادة بنت الخليفة المستنصر

وسخر فيها من الوزير أبي عامر بن عمار

٤- ابن الحميد ، في رسالته إلى أبي عبد الله الطبري ، وفي رسالته إلى أستاذه محمد بن

علي بن سعيد المعروف بسكة أو ابن سكة .

٥- محمد بن أحمد "أبو المظهر الأزدي" في كتابه "حكاية أبي القاسم البخداي"

وفي العصر الحديث بز كتاب معلق ، يرى في ذلك الفن الضاحك هو ،

٦- الشيخ عبد العزيز البشري :

وهؤلاء جميعاً قد نزلوا من معين الجاحظ ، وارتوا من فيض أدبه ، وتشرف كثير

منهم بأن ينسب إليه ويشهر به ويسمى باسمه "الجاحظ" وكل منهم قد اعترف بأخذه

منه والاعتراف من معينه وذكر أستاذه له ، وتفوقه عليه وسأنتكأ في إيجاز سخريات الثلاثة

الأول :

١- التوحیدی ٢- الخوازمی ٣- ابن زيدون :

ثم أعرض لجاحظ العصر الحديث لشيخ عبد العزيز البشري . وسأعرض لبعض نصوص من
أدبهم الساخر قاصداً إلى تبيان :

١- أنهم سآخرون يجيدون فن السخر .

٢- أنهم أخذوا عن أستاذهم الجاحظ أخذاً كثيراً بينا .

٣- أنهم لم يفوقوه ، ولم يصلوا إلى مستواه .

٤- أنهم وإن أتوا بعده ، ونهلوا من كتبه ، وتأثروا به ، ومن تأثر به ، أو سبقه أو لحقه

فقد قصروا عنه ، ولم يبلغوا بسخرياتهم لادح سخرياته ، وثقته فيها ، واستيفائه أوهامها

بل إن سخرياتهم تنبع ناحية السب والصريح والهجاء والإقذاع ، في كثير من الحالات

كما سنتبين الآن إن شاء الله .

السخر صراحة

أبوحيان التوحیدی

هو علي بن محمد بن العباس التوحیدی (١) ولد في سنة ٢٠٢ أو ٢١٠ وابتدأ علمه بحرفه الوراقه ، وقرا كتب الجاحظ ، وأكثر من قراءتها والإعجاب بها ، واتبع طريقة الجاحظ وضوح نهجه حتى سمي (الجاحظ الثاني) وقد بلغ من إعجابه به أن ألف رسالة نفسية تخرجه سلسلا (تقرير الجاحظ) يقول فيها : (والذي أقول وأعتقد وأخذه به ، وأستبهم عليه ، أنني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان علي تقريرهم ومدحهم هينترفضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزيارتها لما بلغوا آخر ما يستحق كل واحد منهم ، أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة وبسببه جشنا كل هذه الكلفة ، أعني : أبا عثمان عمرو بن بحر) (٢) .

وقد اتصل التوحیدی بالصاحب بن عباد حوالي سنة ٢٦٧ أملا أن يجد عنده من الإكرام والتبجيل ما لم يجد عند ابن العميد من قبل ، فخاب فألمه ، وطاش سمعه ولم يترك منه ، فرجع عنه ذائلاً (٣) . . . وقد أعمله ابن عباد فيرة منه أو حسداً له أو لجرأة أبي حيان ، أو لغير ذلك من الأسباب (٤) . فكتب كتابه "مطالب الزينين" بناية بهما ، وسخرها ضمناً .

وللتوحیدی سخریات نهجت من بؤسه وشقائه ، وتكر الحياة له ، وقد تأثر فيها بأستاذه الجاحظ إلى حد كبير ، وله نوادر عن البخلاء ، ولطفيليين مشبهة بالهزج والسخرية ، وقد ذكر أن الجاحظ أتى علي الكثير من قصصهم ونوادرهم فمن سخرياته :

(مثل أبوعمارة قاضي الكوفة عن بنيه : أيهم أثقل ؟ قال : ما فيهم أحد الكبير أثقل

(١) نسبة إلى نوع من الثمر يقال له التوحيد كان أبوه يبيعه بالعمارة ، أو نسبة إلى

الاعتزال وقد كانوا يسعون المعتزلة ، أهل العدل والتوحيد .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيد ، الجزء الأول صفحة ٥ .

(٣) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء الخامس عشر ، صفحة ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٤) أبوحيان التوحیدی ، د . . الحوفي ، محفة ، الفوط بحد ما

من الصغير إلا الأوسط) (٥) . ومن الردود المفحمة (زاحم شاب شيخاً في الطريق ثم سخر
 منه ما جئنا قائلاً ، بكم هذا القوس؟ يحيره بالانحناء فقال الشيخ : يا بني إن طال عمرك
 فلنك مشتركه بلائعن) (٦) . وقوله : (سأل شيخ أمراء أحد الناس ، ما اسمك ؟ قال : مانع
 وقال للآخر ، ما اسمك ؟ قال محرز . وقال لآخر : ما اسمك ؟ قال : حافظ . فقال الأعرابي
 قبحكم الله ، ما أظن الأقسامال إلا من أسماكم) (٧) . ومن سخرياته با لصاحب ابن عباد أنه
 لما وصل إليه (قال له : أبومن ؟ قال : أبوحيان . فسأله : أبوحيان ينصرف أولاً ينصرف ؟
 فأجابه إن قبله مولانا لا ينصرف) (٨) فسخر منه على طريقة أسلوب الحكيم حيث أجاب بخير
 ما ينتظره المسائل ويتوقعه ، فيتخيظ ويحرق ، ولكنه يكبت شموره ولا يستطيع إبرازه ، إذ ليس
 في ظاهر كلام أبي حيان ما يؤخذ عليه .

ومنها : (طلع ابن عباد على يوماً في داره ، وأنا قاعد في كسر إربان أكتب شيئاً قد كان
 كأدنى به ، فلما أبصرته قمت قائماً ، فصاح بحلق مشقوق ، اتعد ، فالوراقون أحسن من أن
 يقوموا لنا ، فعممت بكلام ، فقال لي الزعفراني الشاعر : اسكت ، فالرجل رقيق فغلب على
 الضحك ، واستحال الخيظ تعجباً من خفته وسخفه ، لأنه قد قال هذا ولوى شدقه ، وشنج
 أنفه ، وأمال عنقه ، وعترض في انتصابه ، وانتصب في اعتراضه ، وخرج في تفكك مجنون ، قد
 أفلتت من ، ويرحنون) (٩) .

فقد رسمه التوحيدى في صورة رقيق متفطرس ، فسمح وجهه ، وعبث بحركاته وخصائصه
 جسمه ، ثم يقول بعد ذلك إمعاناً في السخرية ، وتقبيحاً للصورة (والوصف لا يأتى على

٥٦ الإمتاع والمؤامسة ، الجزء الثاني صفحة ٥٦

(٦) البصائر والذخائر ، صفحة ٥٦

(٧) الإمتاع والمؤامسة ، التوحيدى الجزء الثاني صفحة ٥٧

(٨) معجم الأدباء ، الجزء الخامس عشر صفحة ٢٧ .

(٩) معجم الأدباء ، يا قوت ، الجزء الخامس عشر صفحة ٢٦ .

كـه هـذه الحـال ، لـأن حـقائـقـها لا تـدرـك إلا بالـلحـظ ، ولا يـتـجـسـر عليـها بالـلفـظ (٩)

وهـذه الأوصـاف قـريـبة من أوصـاف الجـاحـظ لابـن عبـد الوهـاب ، وهـذا التـعقـيب لـافـرق بـينه وبيـن تـعقـيب الجـاحـظ في كـتابه البـخلاء ، مستـدلا علـى أن التـصوـير بالـكلمـة لا يـكـون له تـأثير الحـقيـقة والمـشاهـدة والإدراك بأكثر من حـاسة ولا شك أن أبـاحيـان قد أخذ فـكرته تـلك عن أسـتاذه الجـاحـظ حين قال : (وهـذا وشبـهه إنـما يطـيب جـدا إذا رأيت الحـكاية بعـينك ، لأن الكـتاب لا يـصور لك كل شـيء ، ولا يأتـي لك علـى كـتبه ، وهـلـى حدوده وحـقائـقه) (١٠)

ويـصور أبـوحـيان الصـاحب بن عبـاد تـصوـيرا كـاريكاتـوريا ساخرـا يـمسـخه فيـه ، ويـشـوه جـسـمه وتفـكيره ، ويرسـم في صـورة هـزلية تـهـمـت علـى الضـحك ، وتدعـو إلى التـكـم في رسـالته التي صلـها علـى غـرا رسـالة أسـتاذه الجـاحـظ (التـريـيح والتـدوير) فيقول متـهـكما :

(كان الصـاحب يـنشد وهـو يلـوى رقـبته ، وتـجـد حـد حـدقته ، ويتـنـزه أطـراف منكبـيه ، ويتسـائل ويتسـائل ، كأنه الـذي يـتـخـبـطه الشـيطان من المـس) (١١)

ويتـكـم بـخفـلته وانـخداعه ، مع ادعـاءه الزكـاة والفـطنة ، واعتقاده في نـفسه الألعـمية ، سا لكا طـريقة الجـاحـظ في إضـافة صـفات النقص حـينا ، ثم وصفه ببلوغ الكمال ، وتجاوز حدود الحال حـينا آخـر ، سخره وهـزأ فيقول : (وقد قـتل خـلقا ، وأهـلك نـاسا ، ونفى أمة نخوة وتمننا ، وتكبرا وزهوا ، وهومع هذا يخدمه الصبي ، ويخلبه الصبي ، لأن المدخل عليه واسع ، والنأتى إليه سهل ، وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه ، ورسائل منشوره ومنظومه ، فما جبت الأرض من فوفانة ومصر وتقليب إلا لأستفيد كلامه وأتصح به ، وأتعلم البلاغ منه ، لأننا رسائل مولانا سور القرآن ، وفقرها آيات فرقان . .

(٩) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء الخامس عشر صفحة ٢٦

(١٠) البخلاء الجاحظ ، تحقيق طه المحاجري صفحة ٥٨

(١١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس صفحة ١٩٧

لهن عند ذلك ويذوب ويلين عن كل مهم له ، وينسوكل فريضة عليه (١٢)

ثم يفضح ادعاءه ، ويبتك شتره ، ويبين للناس مكره وخدعه فيقول : (ثم يصل في أوقات
الحيد شمرا ، ويدقعه إلى أبي عيسى بن النجم ، ويقول : قد نزلت هذه القصيدة ،
لمدحتي بدأ في جملة الشمرا ، وكن الثالث من الريح الضارين ، فيفعل أبو عيسى ،
وهو بخداهى مدحك ، قد شاخ على الخداق وتحنك ، ويتشد ، فيقول عند سبيله شمرو قس
نفسه ، ووصفه بلسانه ، ومدحه وتحديده أعده يا أبا عيسى فإنك والله مجيد ، زه يا أبا عيسى
فقد صفا والله ذهنك) (١٣)

وتبع التوحيدى طريقة الجاحظ في مقايسته السخرة بالعظما ، وجعله يفرقهم علما وشمرا
وقتها وحكما ، وفي سائر العلم والفنون . يقول : (قد استدرك مولانا على الخليل فسى
المروض ، ولى أبي عمرو بن العلاء في اللغة ، ولى أبي يوسف في القضاء ، ولى الإسكا في
في الموازنة ، ولى ابن غويخت في الآراء والديانات ولى ابن مجاهد في القراءات
فتراه بعد هذا البذر وأشباهه يتلوى ويتشم ، ويظير فرجا ويتقم ، ويقول : ولا كدى ثمرة
السبق لهم ، وقصدنا أن نلحقهم ، ونفقوا أثرهم ، وهو في ذلك يتشاحى ويتحايك ، ويلوى
شدقه ، ويتلع ريقه ، ويرد كالأخذ ، ويأخذ كالمتمتع . . . ويتفانتك ويتمايل ، ويحاكى
الموصات ، ويخرج في أصحاب الساجات ، وهو مع هذا يظن أنه خاف على نقاد الأخلاق
وجهاذة الإخوان) (١٤)

ومن هذا يتضح إلى أى مدى كان تأثير التوحيدى في هذه الرسالة بفكرة أستاذ
الجاحظ ومنهجه وطرقه في السخره ، وأساليبه التي انتشرت في رسالته بولاغراية في

(١٢) الامتاع والموانسة ، التوحيدى ، ج ١ ص ٥٤ ، معجم الأدباء ، ج ١٥ ص ١٧٦ ، ١٧٧

(١٣) معجم الأدباء ، ج ٦ ص ١٧٧

(١٤) المرجع المذكور ج ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢

ذلك فقد كان يجلب الجاحظ ، ويحكف على قراءة كتبه ، ويكرر قراءتها ويحتذى أسلوبه وطريقته فأتى أسلوبه على غرار أسلوبه ، وتشابه بينهما التشكيروا لتعميرهم حتى لقسب بالجاحظ الثاني .

وإذا كان قد ولد بعد موت الجاحظ بنصف قرن ، والدنيا كلها تشيد بالجاحظ وتتخذ به نبزاً وإماماً ، فلا بد أن يكون أدب التوحيدى قد لقي بأدب الجاحظ فأظهر وأثمر

ومن أثمار رسالتهمذى والمقارنة بين الرسالتين تعطينا خير دليل على ما نقول .

وأحيانا يلجأ إلى السخرية من البديهي بوصفه بأشياء حقيرة أو مفضرة أو مشدورة بالقافية
لمن ذلك قوله ،

(يا بختة أبو دلامة ، وحمار طياب ، وطيلسان بن حرب ، وضرطة وهب ياتدج اللولاب في
كف العرض ، وانظرة اذلي إلى عين البخيز ، يا كيف السجن في الصيف ، يا شرب الخمر
على العشق) (٥)

ولكنه في هذا اللون الأخير يتماقت ، ويتخذ النجاء ، والذم الصريح أسلوبا والتشبيهات
المتداولة بين العامة والرعا ع طريقا وهذا ما ا يتعد عنه الجاحظ ونأى .

لهو أبو الفن الساخر ، وباعته من العدم ، وهذا تلميذ ، لم يبلغ ثأره .

يقول الحصري في رسالة الخوازيزمي هذه (وهي طويلة جدا . . . وإنما احتذى في أثرها

مثال رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب المحروقة برسالة

الطول والعرض وتعريف برسالة التوسع والتدوير برسالة المفاكمات ، واتبع أيها طريق أبي

الفضل بن العميد في رسالته لابن سكة النحوي) (٦)

وهذا تبين الفوايق ، وتتضح المقامات ، ويظهر فوق الأستاذ وسقط التلميذ .

(٥) المصدر السابق ، صفحة ١٩٢ (قطة) ، من ١١٨ المطبعة المشاطية

(٦) جمع الجواهر: الحصري ، صفحة ٢٦٠

ابن زيدون

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد المخزومي الشهير بابن زيدون ولد بقرطبة

هلم ٣٩٤ هجرية وتوفي في أشبيلية عام ٤٦٣ هجرية .

أحب ولادة بنت الخليفة المستنصر ، وادلتها بحبها ، وكررت بينهما اللقائات
فبرأتها صدقته ، واتجست بما ظفتمها إلى الوزير أبي طاهر بن عبد الوهيد فاتخذته

حبيباً ، ولم تجد توسلات ابن زيدون وضرعته لمعشوقته ، فعاول أن يسمى إليها من قبل
ابن عبدوس ، فكتب إليه منكرًا مهدداً ، ولكن إنذاره وتهديد قاذب ذهب أدرج الرياح .

وهرف ابن زيدون أن ابن عبدوس يستخدم في مراسلات عشقه بيده تزيينه في عيني ولادة
وأنتها يتراسلان كثيرعن طريقها ، فكتب الرسالة الهزلية مخرفيها من ابن عبدوس
على لسان ولادة سخرا مريرا وأرسلها لها وتوصل إليها أن توصلها إليه .

هذه (الرسالة الهزلية) تشبه إلى حد كبير رسالة الجاحظ (الترجيع والتدوير) فقد خصصت
للسخرية والاستهزاء ، وبدأ فيها التأثير الواضح بالجاحظ في فكره وأسلوبه ، وفي تلون
السخرية فيها بالألوان أثبتتها الجاحظ في رسالته كصوير خصه تارة العقل فاسد الفكره
أو قياسه بالخطأ وخمله أستاذاً لهم ، أو باسناد كل عرفان إليه وأن في اقتداره الاثنيان
بما لم يستطعه الأوائل ، وقد سخر كل منهما بأخلاق خصه وكرهه ونقله وعلمه وتصرفه
وهيمته ، كما يبدو في الرسالة الهزلية التشابه بينهما وبين رسالة الخوارزمي وأبي حيان
التوحیدی وهما بدورهما متأثران بالجاحظ كما بينت وأبين .

يقول ابن زيدون (خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك ففضضت منه ، وأن امرأة

(١) قيل إنه طلب من مغنيتهما عتبة أن تعيد صوتاً غنيت فظنت ولادة أنه يخازلها . وقيل

إنه نقد بيتاً لولادة قالت فيه .

المنزراتك فسلطته ، وأن قارون أصاب بعضها كثره ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقهر ربي
ماشيتك ، وإلا منكدر قتل دارا في طاعتك . . . وأظهرت جاهد بن حيان على سر الكيمياء
وأعطيت النظم أصلا أدرك به الحقائق (٢)

ويقول الجاحظ ، (أشهد أنك ستخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتماقله ، ثم تظارفه
وتطاوله ، وتغنى مع مخارق ، وتكرفضل زليل ، وتستجدل النظام ، وتستبرد الأصمعي ،
وتستغنى قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتماز على بن أبي طالب) (٣)

ويقول التوحيدى (قد استدرك مولانا على الخليل في العروض ، وعلى أبي عمرو بن
العلاء في اللغة ، وعلى أبي يوسف في القضاء ، وعلى الإسكافي في الموازنة ، وعلى
ابن نويخت في الآراء ، والديانات ، وعلى ابن سبويه في القراءة) (٤)

ويقول الخوارزمي : (كأن كسرى أنوشروان حامل غاشيتك ، وكأن قارون وكيل نفقتك ،
وكان بلقيس ذات العرشا لمظيم وأيتك ، وكان مريم الهتول أمك ، وحتى كأن ربح عاد هبت
من فضبتك) (٥)

فالفكرة بينهم جميعا واحدة والموضوع واحد ، والتشابه بين لائح ، حتى في الألفاظ ،
والأسماء التي تتحد في كثير من الجمل .
وللتظنر لمثل آخر يسخرون فيهمنا لجبل والأدباء ،

يقول ابن زيدون ، (أيها المصاب بحقله ، المورط بهجوله ، اليبين سقطه ، الفاحش فلفظه ،
العاثر في ذبل اغتراره ، الأعصى عن شسنها ره ، المماقط سقوطه ، القباب على الشراب ،

(٢) سبع الميون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ٤٨ وما بعدها .

(٣) ثلاث رسائل صفحة ٩٩

(٤) معجم الأدباء الجزء السادس صفحة ١٨١

(٥) رسائل الخوارزمي ص ١١٢ المطبعة الثمانية

الاعتقادات تهاقت القرا شفي الشيا ب (٦) حتى كأن باقلا مرصوف با لبلافة إذا قن بك ،
وهيئة مستوجب لاس العقل إذا أضيف إليك (٧)

ويقول الجاحظ ، (وكان انما وه لأصنافاً لعلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة
عنها على قدر غباوته فيها ، وكان كثيراً الاعتراض لهجا بالعرا ، شديد الخلاف ، وكلفها
بالبجاجة ، متتايماً في العنود ، مؤثراً للمخالفة ، مع إخلال العجة ، والجهل بموضع
الشيء) (٨)

ويقول التوحيدى : (والله لو أن عجزاً بلها ، أرامة درها ، أتيت مقامه لكنت الأمر
على هذا السبيل . . . ربما شرع في أمر تحكم فيه با لخطأ فيقلبه صواباً ، حتى كأنه من ربي ،
وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع ما لا يحيط به) (٩)

ويقول الخوارزمي : (جعل الناس عرض وجهك جسم ، لا ينزل إلا بالفعل ، ولا يقع

دواؤه إلا من الكف والتحمل . . .) (١٠)

إن التأتؤ واضح بينهم جميعاً فكل منهم يحتذى من سبقه ، ويسلك طريقته في التفكير
والتصوير ، وسابقهم جميعاً ، وإمامهم في هذا الفن دون منازع هو الجاحظ ، ومع أنه السابق
والقدم ، والمبتدع ذوالصيت والنأن ، والآثار التي تنقل إلى بلاد المغرب في الأندلس
فيحتذيها ابن زيدون ، وأتباعهم جميعاً ، مقلدون متحذون ، فقد تقدم فضيلهم ، بنهر
السبق ، وذلك أن سخرته أقل انما شا ، وأشد إيجاعاً ، وأملأها الفكاكة وأصق نسي
الإلهام والإيجاع ، وأكثر تلويها ، وأعظم ابتكاراً ، وأن من أتى بعده قلده ، أو قلده من قلده ،
مع ذلك قصر عنه ووقف دونه ولم يصل قومه .

(٦) شرح العميون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ٢٥ وما بعدها .

(٧) المصدر المذكور صفحة ٢٢٧ وما بعدها .

(٨) ثلاث رسائل : الجاحظ ، صفحة ٨٧ .

(٩) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء الخامس عشر صفحة ١٢٦

(١٠) رسائل الخوارزمي صفحة ١٨٤ (قطة) ، ١١٢ الطبعة الثانية

الشيخ عبد العزيز البشري

ولد عام ١٨٨٦ في بيت علم وأب فابوه الشيخ سليم البشري الذي تولى منصب شيخ الأزهر مرتين والذي كان يحب بشعر شوقي وأدبه ما جعله يشرح قصيدته بشعر لبردة في كتاب سماه (وضع النعج)

التحق عبد العزيز بالكتاب ثم التحق بالأزهر حتى تخرج منه فحين سكرتيراً لوزارة الأوقاف فوزارة المعارف ثم نقل إلى القضاء الشرعي ثم عين وكيلاً للطبوعات ثم مراقباً عاماً لجميع اللغة العربية إلى أن مات سنة ١٩٤٢ ميلادية .
والذي يعجبني من حياة البشري أدبه الذي تأثر فيه بالجاحظ حتى لنمتين امتداداً لفكاهاته وسخره ، وهو نفسه يقر بأننا ذرية الجاحظ له وبكثرة اطلاعه على كتبه وتأثره بهما وفي هذا يقول : « أقدر الجاحظ وأستطيع أن أؤكد لك بأن تأثره وأرضى صحبته ، وأفاخرهما وأحضر عليهما . . . إن أسلوب الجاحظ قد أرى على النهاية . . . وابن الجانب الفداهي فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفاتحة على التلميح كلما أراد أن يسخر ، وكلما شاء أن تحزن نقداته في القلوب . . . ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة الفاتحة على التلميح كلما أراد أن يسخر ، وكلما شاء أن تحزن نقداته نفس الوقاب ، ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة في كشف السموات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يحلم الناس مقدارها فيها من بشاعة وتشويه (١) كانت في البشري مشابه من الجاحظ منها قبح الخلق ، وحب الفكاهة ، وعشق مجالس الأندلس والسخر ، فقد كان (أبوي) إلا والابتسام يرتسم على ثغوره والنمكة الحلوة لا تفارق شفاهه . . . وكان مجلسه مجالاً للدعابة الحلوة ، والسخرية البادفة ، والنكتة لطيفة والملاحظة الجذابة (٢)

(١) مجلة المعرفة العدد الثامن عشر (أكتوبر عام ١٩٣٢ ص ٦٥٤)

(٢) عبد العزيز البشري : مجال الدين الرمادي ص ٦٠ (أحلام الحرب ٢٤)

وقد سلك في حديثه من البخل والتطفل مسلك الجاحظ ، فجمعلهما من موضوعات فكاهاته
وسخره ، ومن ذلك سخريته من بخيل غني معيل يقول عنه : (أما الطعام وما أدراك ما
الطعام ، فالخبز أولاً يصنعه في البيت كل أسبوع ، على ألا ينقى من الطحين إلا النخالة
وسائره للفقير ، وأما الإدام فهيها ت للحم أن يزود أتوا العامة ، فلقد أخذتني في
هذا الموضوع بالروع ، وحلا عليهم الحكمة في الحديث الشريف "نعم الإدام الخل"
فللفداء الكواخ "السلطات" أشكالاً وألواناً و"لأم الفلافل" وأخواننا من الخوان المقام
الكريم . . . أما العشاء فله فيه صنع بديع ويدخل وقت العشاء فإذا صاحبتنا قد سلف
وأعد بعداد الأولاد ملالهم ، فإذا اجتمعوا إليه مستشرقين لمشائهم قال لهم "اللي يأخذ
ملهم يا بتعناش والله يتعش ما ياخذ شمس" ويدفع أحدهم فيقول "أنا" وعلى حكم فريزة
التقليد في الغلمان يسرعون فيتصايحون "أنا أنا أنا" فيدفع إلى كل واحد منهم مليمة
وقها والله مؤنة العشاء ، أعنى عشاء الأطفال . . . أما في الفطور فإنه يزعم للزيات القائم
على رأس الشارع أن كديه حملا يربيه ، ويجب أن يسهته ويجزل لحمه وشحمه ، وليس يحقد
له ذلك ويسرع فيه أفضل من خلاصه "تصانق" قدر الفول يطعمها في الصباح ، فيحفظ
له الرجل بخلاصة قدر العصر ويبحث إليه بها في الصباح الباكره والأولاد بعد أيام
فيفرقها في صدقة كبيرة ، ويعالجها بقدر من الخل ، ويحفظ حولها كسر الخبز التي
أقلها الأولاد في غذاء أسهم ، حتى إذا ما هبوا من النوم وأحشالهم تغزى من شدة
الجوع ، فتواثبوا على الطعام صهاح فيهم "اللي عاوز يفطر يجيب الطعم" فلا يسمع كل منهم
إلا أن يطرحه إليه ، موأاة لالحاج البطن ، وإيثارا للمعانية فسرمان ما تعود تلك
الملالم إلى عشا ، وتحتصر بركها (٢)

هذا أشبه بقصة الجاحظ عن البخيل الذي اتخذ النخالة دوا له ثم جمعلها

طعاما له ولأولاده وزوجته ، فكانت طعاما ودوا .

أما التصوير الهزلي الكاريكاتير فقد برع فيه وتناول كتابه "في المرأة" كثيرا من
مناهير عصره فسخم وشوههم هزوا وسخرا يقول في زيور : (أما شكله الخارجي ، وأوضاعه
الهندسية ، ورسم قطاعاته ومساقطه الألفية فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته إلى
فن دقيق ، وهندسة بارعة ، وصاحبنا إذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة
مخلوقات ، لا تدري كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض وإنك لترى بينها التباين
وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره ، ومنها المتيسر
المتعجر ، ومنها المسترخى المترهل) (٤)

ما أشد شبه هذا بما قاله الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير سخرا بأحمد بن محمد
الوهاب يقول : لو من غريب ما أعطيت ، وهديع ما أوتيت أنا لم نر مقودا واسع الجفوة غيرك ،
ولا رشيقا مستفيض الخصرة سواك فأننت العديدي وأننت البسيط وأننت الطويل وأننت المتقارب
فيا شعرا جمع الأعراف ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول) (٥)

إلا أننا نرى الجاحظ رحب الذراع طويل النفس ، متسع العنق التي يجرى فيها نفس
سخرة ، فلم يأت للبشرى أن يصنع كتاب البخل ولا أن يتعد رسائل في مدح الكرم ودم
البخل ، ثم في مدح البخل ودم الكرم . وليس في إمكانه أن يأتي بمثل رسالة التربيع
والتدوير في طولها ودقة مسلكها وتنوع ألوان السخر فيها . . .

الجاحظ قمة عصره وما بعد عصره ، الجالس على عرش السخرية عرق السخر حتى يومنا
هذا وجميع الساخرين إما : ضيوف على مائدة أو متطفلون على طعامه ، أو سائلون فضله
أو سارقون من كوزه ، إلا أن كل ماله يدل عليه مهما أخفيت معالمه ، وفيرت هيئته ،
وأضيفت إليه الألوان وألبسته القناع . . .

رحم الله أبا عثمان الجاحظ وجزاه عن الإسلام والحريية والصح والفاكامة والتقوم
والتهذيب ، أكرم جزاء .

(٤) في المرأة ، عبد العزيز البشرى ، صفحة ٧

(٥) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ٨٩

الفصل الرابع

سخرية الجاحظ في ميزان النقد

في هذا الفصل الأخير من رسالتي وبعد أن أوضحت سخرية الجاحظ وسخرية من سبقوه ومن عاصروهم أتوا بعده وأحب أن أضع سخريته في ميزان النقد لتبين مكانة الرجل بين الرجال وقيمة سخريته بين السخریات، ومنزلتها في هذا الفن، وخصائصها وميزاتها، ليكون حكمنا على أبي عثمان خاليا من التحيز، بعيدا عن الزنج والزيف، وصلينا الآن أن نعرض جهات الدر التي كونت فقد سخره، وأضفت إليه التائق بوضوحه البريق والضحك، وأن ننظر كيف انتظمت وتراصت، في شكل فريد، ووضع عجيب، وتعاون وتعاهد، حتى وصلت إلى القمة التي سجلت لأدبه الساخر العجد والخلود.

وأول ما نلمحه أننا لم نجد كاتباً يبلغ من كثرة الإنتاج الأدبي الساخر مبلغ أبي عثمان، ذلك أن مؤلفاته المديدة التي جاوزت الخمسين بعد المائة أو السبعين بعد المائة في أغلب الأقوال، والتي قاربت الأربعمئة في بعض الأقوال، لا يخلو مصنف منها من سخره الحس النابض، والذي يبهج النفس، ويضطرب الروح، بل إنه صنّف فيها وصل إلينا من تراجمها خاصة بالسخر هو "كتاب البخل" رسالة عجيبة فسي التهمك والذع، هي "رسالة الترسيع والتدويد" كما كان يوشح كته بالسخر، يدمجه في الأحاديث الجادة، أو يفردها بينها، أو يوابها خاصة به، حتى لتراه في أدق المشاكل العقلية، وأعمق المسائل العلمية، وأزمن الأمور الدينية، يلهمو ويسخره، ويهزأ بهزأ بخريب الأفكار، وشأنه المعتقدات ولم تكن سخرياته على كثرتها غفلة، وتفاهة، وإنما كانت حصيفة حصينة، هادفة هادئة، تحقق بمنزلةا وهزولها، مالا تحققه الاحتاديث الجادة، ولخطب المطولة.

وقد نرى الجاحظ في سخرياته هو ابتكرا ناطقا، وولد ضربا، واشتق ألوانا، بلغت من الكثرة حدا يحتاج معها لباحث الدارس إلى تسميتها وتبويبها، وتنظيمها وترتيبها.

ولم يكن يلقبها جوازاً ، بل كان ينتق ويختار ، ويتأن ويتأنق ، فيجمل لكل موقف ما يناسبه من السخر ، ويخرج من جعبته ، وما يقدره ذهنه ، ما يتطلبه المقام ، مراعيًا مقدار اللذع الملائم ، وكيفية ، ونوعية ، وطريقة صياغته ، وقواعد صناعته ، والاستعداد النفسى والذهنى والتفانى للمجتمع الذى يسخر فيه ، وأرضه ، فجعل السخرى الدقيقة العميقة للعلماء ، والمثقفين ، والقرية النال ، السهلة التناول للعامة وأشباه العامة .
يقول جورج جرداق (ونرى أن سخرية الجاحظ ذات لوشين اثنين من حيث التصريح والتلميح ، فهو إما سخر بالمحدثين والمفسرين والعوليين والعلماء ، وأهل السلطان ، ونس هذه السخرية دسا بارما ، لا تكاد تراها إلا إذا كتبت مطبوعاً على فعلها ، جديراً بإدراك خفاياها ، فإن أنت أدركتها على هذه الصورة ألقيتها قارصة لاذعة ، فياضه بمعانى التبرك الخفى ، وهو إما سخر بالفقلاء والسخفاء ، والحقى ، ولا يكفى بالتمسح به بل يميل إلى إظهار الاستهزاء والتبرك ، على أنه يحرص نفسه بنطاق من الدقيق السليم فى إخراج تبركته الموحج ، ويزداد سخيراً لجاحظ إيلاًما إذا كان نشفياً من سخر ، أو انتقاماً لقيمة مودورة ، ويغف فى غير هذا المقام) (١)

هدف الجاحظ بسخرته إلى إصلاح العوج ، والضحك والمرح ، وتخفيف ما فى نفسه من آلام ، وحذب الناس عن إطار الجماعة حتى يرجع إلى مكانه وسجتمه ، والتأريه من شذ عن العرف والتقاليد ، إلى غير ذلك من أهداف شريفه ، وقايات نبيلة ، جعلت سخرته بعيدة عن اللهو واللعب ، والمهاترة والبهذا .

وهو فى سبيل تحقيق هذه الأهداف يتخذ الرخا المستتر ، والنمز الخفى ، والإيما البصيد طريقاً له - غالباً - ويهجد عن التصح المكشوف ، والتوجيه الصريح ، والتمليق على قصده ، بما يبرز مرامها ، وإنما يترك لسامعه وقارته استشفاف ما وراء سخره ، واكتشاف

(١) مجلة لصري ، السنة الأولى ، الممدد الثانى عشر ، ص ١١٤ ، ١١٥ مقال لجورج

المنهج القويم ، والسلوك المستقيم ، والمغزى الذي يرمى إليه ، ويستهدفه من سخره ، حتى يكون التقويم نابعاً منه - في نظره - صادراً من نفسه وقلبه ، وذلك أجود أنماط التعلم والتدريب ، وأدومها أثراً .

وقد تناول بسخره من شد في مجتمعه ، ومن الذين تناولهم بسخره ، وخصص لهم كتاباً قائماً بذاته "البخلاء" فقد اتقن فن السخر منهم ، وأبدع ما شاء له إبداعه ، وما امتد نفسه ، وطال بضاعه ، ولم يكن حديثه عنهم سردياً روائياً ، وإنما خاص في قرارات نفوسهم ، وفقد إلى بواطن مكوناتهم ، فسيّر فورهم ، وكشف لخائلهم ، وتناولهم على مائدة التحليل النفسي ، فجمعنا نرى يا طمنهم كما نرى ظاهرهم ، ثم نظرب وضرب ، حين نقارن بين الظاهر والباطن .

ارتقى ابن بحر بالسخرية ، ورفقها من وهدة السب والإفحاش ، والفلظة والخشونة - وتلك صفات السخرية الصادرة من مجتمعات غير متحضرة - إلى مرتبة اللبونة والنعومة ، والبروز والإيما ، والتلويح والتعريض - وهذه صفات السخرية الصادرة من متقف متحضر مع الاحتفاظ بشخصيته ، والتمسك بكرامته ، ومقابل أن تكون شخصيته كشخصية أي المبر الذي ضاعت كرامته ، وسقطت هيئته ، وسلب احترامه ، حتى ليقتذف بالعنجنيق في الماء ويترك حتى يقارب الشرق أو يدفع على زلافتحق يسقط في الماء ثم ينتقل بالشبساك وغبة في إضحاك الخليفةيا ن مثل هذا الرجل يمكن أن تطلق عليه المهين . ولكن شخصية الجاحظ لم تكن لتقبل مثل هذا من الاحترام والتقدير ما لا يقل عن ابن الزيات الوزير ، وابن أبي دؤاد القاضي .

كانت الأفكار الساخرة تلح على الجاحظ ، وتدفعه إلى الكتابة ، وتدفعه إليها دعاء ، فينثر محموله اللغوي والأدبي والبلاغي - وما كان أكثره - على مائدة فنه ، ثم ينتقى منه الملائم لموضوعه وفرضه ، فالشريف للشريف ، والسخيف للسخيف ، والمغنى للمغنى

يليق بالعلماء ، والمعنى السطحي للتحدث به مع العاجز ، وهو في هذا وذاك يختار
الأولى والأليق ، ويقترن التعميرات التي تولد في الذهن صورا فنية ، وتثير خيالات بديمة
وتكون لها شأنها وتأثيرها ، ويحقق عن طريقها غاية من الإيلاء والإيجاع أو السرح
والإضحاح ، وتلك ميزة بينه في أستاذنا الجاحظ ، الخبير بجوهر الكلام ، العليم بأشعاره
ومعطياته ، فقد كان جهيدا نقادا ، يبين الألفاظ بميزانه الحساس ، فلا يخطئ ولا يندرج
ونظرة واحدة إلى أي من سخرياته ، تعرفنا قيمة الكلمة في نفسها ، وفي مكانها بين لداتها
وفي موقفها من القصة أو الباب .

اختار لسخريته الألفاظ الحية ، والأساليب المعبرة ، والتراكيب الموصلة إلى المعنى
المجرد ، والطريقة التي تحقق لسخرية الإقناع والإمتاع ، لم يتقيد بطرق من سبقوه ، ولا
بقواعد اللغة ، بل حكى كلام الأعراب كما هو يخلطه وحفاته ، مادامت الخلطة والجفاف
منهل سخره ، وترك الإعراب في بعض المواضع التي رأى فيها ترك الإعراب يحقق التأثير
والإمتاع ، وروى سخرياته ملحونة إن كان على لسان سندی أو زنجي ، لأن اللحن فيها
يشبه السخر وحركته ، وسداه ولحمته .

لم يلجأ إلى المحسنات الابدائية يعتمد عليها لتحلية أسلوبه ، ولم يجهد نفسه
للحصول على التشبيه البكر ، والاستعارة الفذة ، إنما كان جل همه الإفهام ، وظلية وكده
إيهام المعنى المستكن في نفسه إلى نفوس قارئيه كما هو دون زيادة أو نقصان ، وتلك
غاية الأديب ، ومنتهى ما يصل إليه الكاتب المقتن ، فإذا وصل الجاحظ إلى هذه
الغاية دون هذه الأعياب لسخرية ، ودون استهوا القراء ، وخذاهم ، فقد فاق الكتاب وبهم
وقد وصل الجاحظ فعلا إلى هذه الغاية التي فاق بها بني عصره ، وجعل للحقيقة
معطيات ونبضات وإيحاءات تحقق ما حشه غيره في أسلوبه من بيان وبديع ، وقصدا إلى
الإفهام ، ووضحة في الإمتاع .

الحواجز والقيود ، والرّصول إلى الهداء واحتقار الناس ، وإهدار كرامتهم وموضعتهم على
الملك ، فما صرح الجاحظ بأسماء من يسخر منهم إلا لأنهم كانوا يسلكون طريق التسخر ،
فيسخرون من غيرهم ، ويسخر غيرهم منهم عرّسوا بذلك وحتى صارت السخرية منهم لونا
من ألوان الصّحة ، وإدانة المشرة ، وضربا من أطراج الحشمة ، ونهذ الكلفة ، بل
ربما فضبوا من الصديق إن لم ينجّر السخر والعزاج على لسانه ومن هذا اللون سخر
الجاحظ من البخلاء الذين وُصِفوا بالفسح ، وشتموا بتلك الصّلة ، وهرقوا بها بهن
الأقارب والأباعد ، حتى صارت السخرية من بخلهم لونا محبوبا لديهم ، ومشوقا عندهم
لما فيه من إبعاد الطمع فيهم ، وأيقاظ الناس ما في أيديهم ، وليس ذلك بمصيب في
الجاحظ ، ولا موقفا إياه تحت اللوم والمعتب ، بل إنه مرفوب فيه ، وبهذا يجس الجاحظ
البلخنيين الكريهين الجراء ، وحسن الصّحة .

ومض قصص الجاحظ الساخرة تظهر فيها العناية الشديدة بالحوار ، حتى لتكاد
تكون حوارا خالصا . . . وأسقى هنا رأى الدكتور عبد الكريم الأشرقي معاضة له . قال
عن الجاحظ وهو يتخذ من الحوار أداة الأولى في الكشف عن نفوس أبطاله ، وتعليل
دوافعهم العميقة ، وتصوير أخلاقهم وروافدهم بظواهر تفكيرهم وكثيرا ما تكون حرارة
النادرة في البخلاء كما نمت كلها في الحوار . . . واعتقد أن التجارب الفكرية التي ما نأما
الجاحظ في محيط المعتزلة المذهبي الصديق والذي يعنى بالجدل ودراسة العقائسنة
والمناظرة كان له أثره الكبير في صقل مواهب الجاحظ الفنية في الحوار ، ومعرفة
الطرق الخفية المسحورة في سوقه وتوجيهه ورده (٢)

(٢) محاضرات الموسم الثقافي عام ٦٣ / ٦٤ الجزء الرابع مطبعة الوزارة - دمشق
عام ١٩٦٤ من القصة في كتاب البخلاء للجاحظ معاضرة الدكتور عبد الكريم

الأشرقي ١ / ٤ / ١٩٦٣ صفحة ٢٥٢

والجاحظ - بحق - سيد القصة الساخرة ويستوى على مرشها ، ويكتنف ظريفا ،
ويجعل كل ما يتناوله فيها حيا متحركا ، يسائر جسم السخره ويشارك فيه ، لم يفصل
قصصه عن الحياة ، ولم يبعدها عن الواقع المشاهد ، بل اختار أبطالها من معاصريه
ومن مشهورى زمنه ، وما قبل زمنه ، وجعل الحوادث مقبولة مستسافة ، يقع مثلها فى
الحياة لمن لم يكن قد وقع فعلا ، ثم يختار الألفاظ والجمل ، ويرتبها ترتيبا خاصا ، يراعى
فيه عناصر القصة ويقومها بها ثم يحكم نسجها ، ويتم حيكها ، ولا ينسى الألفاظ اللامعة
ذات الرزق واللماء ، التى تضى عن القصة جوا خاصا وتدل دلالة دقيقة على ما يعرط
بالسخره من أشياء تتعاون وتتساند لعل الجوب يروج السخره حتى تأتى نهاية القصة
وقد بلغ السخرمداء ، وجاوز غنها .

جعل سخره حيا ناطقا بحديثه من الأحياء وخاصة أسانده ومعاصره ، فقد ذكر
أساطير صريحة ، وكفى عن بعضهم حتى لا يفضحهم ، وهو يحدد فى سخره الزمان
والمكان العام والخاص ، ويصنف بعض ما فى المكان ، وما يدور فى أذهان الحضور ، ويغنى
سخره بالتفاصيل حتى رأى ذلك مبدأ فى السخرية ، وسحقا لها ، ومواتنا على شد أزرها
ويحكم قتلها .

أما تصويره الهزلى " الكاريكاتور " فقد تحدث فيه قبل أن يعرف الناس هذا اللون
اللفظي . حتى ليمد رائده ومثكره ، ومع ذلك فهو متقن ويهدونا ضياؤه ، وتجذبنا
صنمته ، وحسبه فضلا فى ذلك لأنه السابق إلى هذا الميدان ، وأن أحدا لم يلبس
شأوه من أتوا بعده ، ولا قا رب خطوه ، وأنه ليس فى قدرة الرسام " الكاريكاتورى " أن
يؤدى بالريشة والألوان ما أداه الجاحظ بالكلمة والمباراة ، وإن بذل جهده ، وحشد
فنه ولا عجب ، فنور الجاحظية متحركة ناطقة ، معتده إلى غير غاية ، وهو الرسام
حامد ساكته ، محصورة معدودة ، ولننظر إلى إبداع الجاحظ صورة الأسوارى

والله بالي ، أو صورة أبن الأعز المرثدى والكلب ، أو صورة ابن ممد الوهاب الهسوخية
المتوجهة ، فإننا سنرى العجب ، وستمتراً وطائفاً من العج والظرب .

تبرز عقلية الجاحظ الناضجة ، وعلوه الفزير ، وأدبه المظا ، وبراعته في المنطق والنقاش
والجدل أحياناً ، حين يحتج للنسب ، وضده ، فهو يذم الهخل فيؤكد لك أنه صفة مردولة ،
وخلق ردي ، ثم يمدحه ويذم الكم ، فيسخر أبو عثمان ويجذبك إلى الاقتناع برأيه
والأخذ بجدله ، وقد كان يهدف بمدح الشيء ، وذمه إلى اظهار القدرة اليمانية ، والبراعة
المنطقية ، وهو في الوقت نفسه سخر بالمقول ، وتلاعب بها ، فقد مدح المسلمين وذمهم ،
ومدح الكتاب وذمهم .

إن سخيرة الجاحظ امرأة صفيحة أطلمتنا على عصره وعصره ، وعصرات علما زنه ، وأدبائه
وهامة الشعب في أيامه ، على اختلاف أصنافهم ، وتباين اتجاهاتهم ، وتنوع ثقافتهم ،
فهو بحق أديب المجتمع ، وابن البيئة التي عاش فيها ، والمرأة التي تنظر من خلالها
مجتمع الجاحظ في شتى شؤونه ، ونرى الصورة الواضحة ، واللوحة المجسمة ، بخيرها وشربها ،
ولفتها وسلوكها ، حتى نستطيع من خلال سخره فهم مجتمعه ، وكشف طوابعه ، والوقوف على
دوافع سلوكه ، وقد قدمته بابين في هذا أحدهما في معرفة المجتمع من خلال سخره ،
والثاني في كشف الجاحظ خلقاً وخلقاً ، وهما أدبا ، وثقافة وتدنيا ، من خلال ما كتبه
في السخيرة والإضحاك .

أنتجت سخيرة مدرسة تبحر فيها كثير من تلاميذه الذين تخرجوا على كتبه ، وتخذوا
من ساخره أدبه ، فنهجوا نهجه وتبعوا طريقته ، وافقتوا في السخيرة ، إلا أنهم لم يبالغوا

(٢) الباب الخامس من الرسالة

(٤) الباب السادس من الرسالة

مكافئته ، ولم يقتربوا من عظمته ، وعرفوا ذلك لفته ، وفهموا الفرق الشاسع بين منزلتهم
ومنزلة ، فجعلوه إما ما لهم ، وقدوة لقلوب السائرين

اعترف الناس في عصر الجاحظ وما بعد عصر الجاحظ حتى يؤمننا هذا ببراعته في السخرية
ونهرت قدمه فيها ، وعلو كبيره ، وأكدوا أستاذيته لجيله ، وما تلاه من أجيال ، وقد قدمنا
في أبواب سابقة آراء زعماء السخرية فيه التي تشيد بحذقه وإفقتانه ، وسبقه ، وتفهيمهم
أن ينسبوا إلى مدرسته ، وينسبوا باسمه ، ويناديهم الناس بلقبه — ومن أقدر على
فهم قدر السخرية والسائرين من السائرين أنفسهم — فإذا وضعنا سخر الجاحظ في
كفة ميزان النقد رأيناها تهبط ، وتهبط لنقل ما فيها ، ورأينا الكفة الثانية ترتفع وترتفع ،
لفته ما فيها ، وبذلك نرى أن الرفة وعلو المنزلة في هبوط كفة ميزان السخر عند الجاحظ
وأن التفاهة والضلالة في ارتفاع كفة ميزان السخر عند غيره ، وكان ليس فيها شيء

رحمك الله أبا عثمان ، فقد كتبت ربحانة الأدب ، التي لا يزال أريجها ينهت ،

فيصل إلى أنوفنا زكيا عطرا ، قبرانتي عشرقنا من الزمان ، فهنحشتنا ، ونشيط نفوسنا

وهقولنا وقلوبنا ، ومدنا بضيء من الفكر والحلم والأدب والصريح .

خاتمة

يتناول البحث موضوع "فن السخرية في أدب الجاحظ"

وهو موضوع أدبي ، يرى المرء من خلاله العصر العباسي في اتجاهاته وأفكاره وطوره

وأدابه ، ومقائده ودانياته .

وجانب من جوانب النقد ، نقد طابع المجتمع وأخلاقه ، ونقد آدابه وطوره ، ونقد توجيه الترجمة

التي ترفعه ، وتعلل شأنه .

ولون من ألوان البحث النفسي في السخرية ، ببيان دوافعها وأهدافها ، ومقوماتها

ومفاهيمها .

وقطاع عرض لبحث الأدب الساخر في عصره الأول ، وحتى نهاية عصر الجاحظ ثم نظيره

في أصحال مدرسته الساخرة .

هونوع من التقريب في زوايا الأدب الضاحك ، والغموض في أغواره ، واستخراج الأفكار

الجادة ، والمعاني القوية الرصينة ، وإبراز ما في الأعماق يختلف عما تلا السطح ، فما

في الأعماق يمتاز بجديته ودسامته ، وما طوى السطح يمتاز بهزله ولطائمه ، وقد جمعت السخرية

الأدبية الفضيلتين ، وحازت ميزة الأديبين ، الجاد والمهزل معا .

ثم إنه نطقت البحث يكشف ناحية من أدب الجاحظ الذي يدع فيه ، وفردية مؤلفاته ،

وهدف منه إلى تخفيف وطأة الدرس ، ونقل البحث ، وبظلمنا على تلك المحقرة الفذة ونحن

نبتسم ونضحك .

وقد توصل البحث في هذا الموضوع إلى ما يأتي :

(١)

السخرية في المجال الأدبي واسعة المقوم ، رحبة المضمون تشمل المعاني اللغوية

المدالقة على المزج والزراية والمبث والاستخفاف والتهكم والاستنزا ، والطنز والغمز . . .

والمعاني والمصطلحات البلاغية التي تحمل المعنى اللغوي للسخرية وتؤدي إليه كالتمكسر

والهزل المراد به الجدة ، والهجو في معرض المدح ، والتوجيه ، وتجاهل المعارف ، والتعريض

وقد حدد البحث مفهوم السخرية الذي أدار كلامه عليها كما حدد موادها من فنونها وأبرز
قصد من أدب الجاحظ الذي هو مجال البحث وبيدانه . . . وحصر الموضوعات التي يسخر
منها الأديب في قاعدة عامة هي وكل ما شذ عن الإلف ، وخالف العرف ، وإن دعا إلى
صلاح ، ودرج نساد . . . ثم أقام صرح السخرية من أديب ساخر ، ووضع جاوز المعتاد ، وحاضر
بحرك الأديب نحو السخر ، وأسلوب لاذع ، وهدف يهينه ويهين إليه قد يكون تخفيف
الأمم لنفس الحبيسة ، أو النكابة بالخصم ، أو التفرغ والتعذيب ، أو الفكاهة والمسرح
أو المحافظة على كيان الجماعة ، أو كسب المال والجاه . . . وقد عرض البحث آراء الفلاسفة
وهلماء النفس في أهداف الضحك والسخر ، وأدلى برأيه وأوضح برهانه . . . ورأى البحث
أن من الواجب عليه أن يفرق بين الناحية الفنية الأدبية للسخرية يستخرج منها العناصر
التي تحقق لها النجاح والفوق ، وكانت حصيلة صيده ، أن يكون الساخر متطلق النفس ،
مولما بال نقد ، شديد التفاعل مع مجتمعه ، والحساسية لما يدور حوله ، قوي الشعور بالواجب
بارها في التصوير ، يجيد عقد الصلات بين الأشياء ، وإن بدت متنافرة ، فطنا المعيا ، عالما
بأحوال الناس ونفوسهم وخباياهم فطنا في أسلوبه وطريقة تعبيره ، يعلو صوت عقله على
صوت عاطفته ، يتخير لها أسلوبا ووقتها ومجتمعها ، يفطن فيها ويتكدر حتى يشهس
بذلك بين الناس .

وقد رفع البحث قيمة السخرية كفن أدبي نقدي راق ، حيث دلت على أنها جادة إن
أريد بها الجد ، وهازلة إن قصد بها البزل ، وجادة هازلة معا في كثير من الأحيان ،
وأنها ليست بتافهة ولا مضمية عند النقاد والمفسرين والمفكرين إن نهل هدفها وسعت
فايتها ، وأنها بحاجة إلى معاناة وهدق وانفتان ، لأن الأدب الفك يحتاج إلى بذل
جهد حتى يحافظ على الاستواء الواجب ، ويموض نفسه موضوح ، ويسد نقصه ، بخلاف
الأدب الجاد لك سامة موضوح وعق فكرته .

(٢)

وبعد الكلام عن السخرية : معناها ، وموضوعاتها ، ومتوماتها ، وأهدافها ودوافعها ،
وخصائص نجاحها ، ومنزلتها بين فنون الأدب ، وأرسل البحث شامطاً يكشف لنا الجاحظ
الآهيب الساخر ويعرفنا بشخصيته قبل أن يظلمنا على سخره ، ويرسم لنا صورة مصغرة
من أدبه قبل أن يدخل حياته ويسير في دروبه ، فذكر لنا أنه مصريين بحرين محبوب الكافي
الليث المكنى بأبي عثمان والملقب بالجاحظ والحدق ، ولد بالبصرة من أبوين فقيرين ، وبنات
أبوه في صغره ، فباع الخبز والسمك ليكسب قوته وقوت أمه ، وتعلم بالكتاب ، وشغف نفسه
بالقراءة ، حتى أنه كان يكتب دكاكين اللواتي يبيت فيها ليلاً للقراءة ، ثم اتصل بعمر
بن عمران ثم بالنظام شيخ الاعتزال واعتنق مذهبه ، وجلس إلى أفضل رجال زمانه فسمع
شئى نواحي العلم والأدب ، فأخذ عنهم ، وتخرج على أيديهم ثم اتصل بالوزراء ، كما بنى الزيات
والتقاه كاهن أبي دؤاد ، وما خلفاه كالألمون والمتوكل ، وكتب لهم فأجزلوا له العطاء
وتولى ديوان الإنشاء ثلاثة أيام ثم اعتزله ، وترك لنا عدداً وفيراً من مؤلفاته في شتى نواحي
العلم والأدب والمعرفة . وبعد مضي نحو قرن من الزمان وقعت عليه أجيال الكتب فمات .
وسين لنا البحث العوامل الجديدة التي تعاوتت في عقله عقليته الساخرة وأسلوبه
المتناهي ، فقد كانت لأمه سخرياته ، وكان جده فزارة جلالاً يظلب على أبنائه ، ومنته السخر
والإضحاك ، وفورث السخر عن جده وارثه من أمه ، كما كان لدمايته يتمرض لمرضه ، لنا من
فيكبل لهم الصاع صاعين ، ويستعجزون شوهته . بخفة روحه وأسقاطه مبروه على الناس ، وضرب
البحث الأمثلة الجديدة لرجال نبضوا في السخر وقد نكبوا بفتح الطلعة ، ونقص التركيب
الجبني ، وكان لذلك النقص أثر في إتقانهم السخرية والضحك ، وقد كانت طبيعة الجاحظ
مولحة بالسخرية والمرح ، ورواد سخره عمقا وافقنا فزاره عليه ، ووفرة أدبه ، وما شاع
في عصره من لهو وعبث ، وإقبال على متع الحياة ، وتحلل من القوانين ، وتخفف من زواجر

الدين ، ثم ما شاع في مجتمعه الملقى الأديب الخاص حيث كان أساتذته وأصدقائه مغربين
بالسخر بارعين فيه ، وكانت علاقاته الاجتماعية وحياته في وسط ينجح بالفلاحة ، ويؤخر
بالسخر من أسباب ارتفاع كعبه في هذا الفن ، كما أن وضعه الثقافي والأديب ، وكثرة
مولفاته ، ووفيقته في إرضاء قرائه ، وحسد الناس له ، وعييد كعبه ، وشيوع الخرافات في عصره
وفوقاً يقرأ من آراء علمية ونظرات أدبية جعل سخريته تكثر وتعمق .

(٣)

وعرفنا البحث بالموضوعات التي تتناولها الجاحظ بسخره ، وجعلها محور هزئه منسباً
الصيوب الجسمية كقصر القامة وكبر البطن وقد تناول الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب فمسح
شكله ، وشوه خلقه ، على أن السخرية من التشويه الجسدي والنقص الخلق شأن المجتمعات
غير المتحضرة ، والآداب غير الناضجة لذلك لم يتجه الجاحظ هذه الوجهة إلا نادراً ، ولم
يقصد لها لذاتها ، وإنما جعلها صلة لإبراز عيب نفس أو خلق كالادعاء بالباطل وغير ذلك
ما شاع في عصره ، ومن الصيوب النفسية والعقلية التي شاعت في زمنه وطلأت مجتمعه فصلاً
بها كعبه ، البلادة والإهمال وجمود الإحساس ، والكذب والمبالغة ، والخوف والجبن ، والتصرفات
التي تدل على الجهل والخفلة ، والإيمان بالخرافات والأباطيل ، والأوضاع الشاذة نفس
مجتمعه الملقى والثقافي والأديب وقد كان للسخرية من البخل نصيب كبير في أدبه
إذ تنفى في مجتمعه وذاع بين أهله جيله فكان نصيبه من أئيب الجاحظ الساخر أو قرحه
إذ أترد له كتابها خاصة سماه "البخلاء" .

(٤)

ولم يلجأ البحث إلى تقسيم سخر الجاحظ من ناحية عيوب الدين بسخر منهم كالمعتمدين
والعمور والمرجان مثلاً ، أو من ناحية مهنتهم كالأطباء والمعلمين والفقهاء ، أو يوضح
عنواناً لسخرياته ينبعث من داخلها وفيه خلاصتها ، كما يفعل كثير من محدثي عصرنا

الفلكية ، ولكنه اتخذ طريقا يتعلق بالناحية الفنية للسحر ، والذي من أجله كانت السخرية
سخرية ، تضعك وتبكي ، وتوت وتحيى ، وتكشف الجوانب الفنية في سخريات الجاحظ ، وفلس
في أعماقها ، وأطلعنا على النواحي الكامنة في السخرية التي تحقق اللذع ، وتثير الضحك
والمرح ، فهبدأ بالتصوير المنزلي " الكاريكاتير " فأوضح أنه قد يكون بالكلمة ، وقد يكون بالصورة
والنص ، أو خفة الحركة وطيشاتها وقد تكون المرآة النفسية القمرية أو المعبدة التي يعكس
عليها الجاحظ نفسية السخرة هي الأداة التي تشو العالم وتبسم القاصر ، وقد يتخذ
الصورة القصيرة أداة يحقق بها الكاريكاتير الساخر ، أو يلجأ إلى الصورة القسيحة يبرز بها
جوانب السخرة ، ونواحي نقصه . . . ثم أثبت البحث أن السخرى الجهنوت في كتابات الجاحظ

قد أخذ بعضها من غيره ، ونقله كما هو ، دون تغيير كرسالة سهل بن هارون ، وبعض
الأشعار والأخبار المعروفة من أزيابها الذين حدد أسماءهم وقد اعترف في كتابه
البيخلاء بنقله بعض أحاديث ساخرة عن الأصمعي والمدائني . . . وقد أخذ بعض أحاديث
غيره الساخرة ونقلها ، كما أخذ سخريات غيره وصافها صوغا جديدا فاقن فيه وأحاله ضمن
وجهه فمادت شيئا جديدا أخلق به أن ينسب إليه ، ولكن أكثر سخريات كان من ابتداءه
ونسجه وإن نسبها إلى غيره ، ومن أجل سخريات التي ابتكرتها يراعه " رسالة الترهيع
والتدوير " وقد تناولها البحث باستقصاء واستدلال ، باعتبارها علاقتها متكاملة ، لم يسبق
بعثه ، ولم يلحق بها يوازيه ، فمعرفة من كتب له الرسالة ، وأثبت بالأدلة أنه أحمد بن محمد
الوهاب ، وأنه من بجيلة ، وأنه كاتب ، ومن أصحاب الزيات ، وأن له من يناصروه من
ذوي الشأن في الدولة ، كصالح بن علي ، وهادي بن سليمان ، وحمزة الخياط . . . ثم
أوضح البحث أن الدافع إلى كتابه الرسالة قد يكون ارتفاع ابن محمد الوهاب فوق قدره
وقد يكون لأنه كاتب والجاحظ معروفة كراهيته للكتاب ، وربما لأن فيه ما يدعو إلى السخر

كالتشوية الجسدى من قصر وغلظ وجمد أصابعه ، والتشويه العقلى والأخلاقى من جهل وأدماة
وثبته وصلف ، وقد يكون جميل الوجه مع تفاعلة العقل فينقى الجاحظ عليه ذلك فيضخم عليه
ويجسد رذل أخلاقه ، وقد كان بينها اختلاف فى المذهب الدينى ، إلى غير ذلك من أسباب
جملت الجاحظ ينشأ لم نفسه سخرا وهنؤا فى رسالة طويلة .

تناول البحث رسالة ابن عبد الوهاب تناولها بأربا ، فقسما بحسب ما فيها من كاريكاتور
يعبث بتفاصيل جسمه ، يجعل الصورة تخالف ظلما ، ويانقلاب الصورة ظلا والظل صورة ،
تقصر وتطول ، وتتكور وتتبع حسب شعاع فكر الجاحظ لساقط عليها ، وأحيانا يحتج
الجاحظ لفضيلة الطول ، وأحيانا لفضيلة المرض ، وتارات يحتج لها مما ويجمعها فى ابن
عبد الوهاب فيرسمه طويلا قصيرا ، وفيما مكورا فى وقت واحد .

ثم يتجاوز لتصوير الكاريكاتورى جسمه ليبرز خبايا نفسه وطوايا خلقه فيتجاوز به حدود
الكمال برفعه فوق قدره ، بل يجعله فوق المخلوقات ، يحرز علم الأطلين والآخرين ، ويجمع محاسن
الشمس والقمر وينأى عن نقا نهما ، ويخرجه عن الهامير والحد ودعوا وأدبا وجمالا نسج
يقارنه بمشاهير عصره وما قبل عصره فيجعله أستاذهم ومعلمهم ، وقد يفصح عن عيوبه مسن
فبح خلقته وأدعائه ومبالغته والتواء طبعه ، وهدم قابليته التعلم ، وهو فى هذا وذاك يتلاعب
بعقله هازلا ويفحمه بالأسئلة الجادة الهازلة .

ثم يعرض للبحث لسخرى الجاحظ فى مواقف اقتضتها واستدعتها ، وكانت الجانب الفنى
فيها ، ويلونها بألوان الأجوبة المسككة التى تلجم الخصم وتقهره ، فى منطقية وإفهام ، أو
يجعل محور السخرى وعادة كشف السخرة ، وإبراز ما فى عقله الباطن مما يستر ويكتمه أو يهرجها
بحسن التحليل ولطف المدخل ، أو يوضح أن التلصها للبح كان مثيرا للضحك ، وحقق السخرى

والتضاد من الألوان التى تحقق السخرية فى الكلام ، بل إنه يسهم فى كل سخرية
بمقدار يختلف قلة وكثرة ، وسطحية وعمقا ، وبذلك يستتر لأن فيره طغى عليه ، أو يبرز ويشخ
لأنه طغى على غيره ، وغاية البحث بسخرية التضاد تختص بالتى يعنى فيها هذا المعنى

وتستحق من أجل هذا الصق أن تستقل بالاسم وقد قسمها البحث بحسب فنيتها إلى السى
التناقض في المقالة ، بحيث يناقض آخرها للكلم أوله ، والفارقا التي تجمع الأضداد التي
لا يتوقع الجمع بينها ، كالجواب غير المتوقع ، وكالدليل المضاد لما يراة ، وكالنتيجة المعكوسة
وكا اجتماعا لصددين معا .

ومن المجرانبيها لفنية في البحث سخرية الحركة والتصلب ، وقد تكون حركة جسمية
متقلبة متموجة ، أو حركة نفسية هادرة ثائرة ، كالصراع الذي يجول في نفس البخيل أو
الطفيلي ، وقد يكون التصلب جسديا بيدويه الشخص كالتمثال ، وقد يكون تحجرا عقليا ، وجمونا
فكريا ، وتصرفا رتبيا ملاما كتصرف الآلة المحدود المكرره ، وكلها ألوان فنية من السخر
والاستهزاء .

وللكلمة أهميتها في السخرية ، وإشعاعاتها في المنزلة عن طريق التلاعب بينيتها
وشكلها الذي يترتب عليه التلاعب بمعانيها ، وقد يكون بتوجيهها غير وجهتها ، أو بسيرها
في غير طريقها ، أو في خلط الألفاظ ببعضها ، حتى يضح معناها ، ويهرب المطلوب منها
وقد يكون السخراتيا من اشتقاق الكلمة اشتقاقا يمددها من معناها ، أو يستخرج منها معنى
مازلا حين يقارن بالمعنى الحقيقي لها . . . وللتقعر والتفصيح وملء الفم بالألفاظ واستعمال
الخشن الومر منها ، المرتفع النبرة ، الصير النطق الغريب غير المألوف فيما يؤدي بالسهل
الميسر وبخاصة إذا خوطب به من لا يفهمه فإنه يحقق السخرية والطرب أي تحقيق . . .

ولأسلوب الحكم الذي يلوي الكلام عن وجهته ، وإجابة بنير ما ينتظره السائل ، وما يقتضيه
سؤاله ، لندع ممين ، وسخرقا تل ، كشفه البحث وأوضح وجهته .

ولما كان الجاحظرب الفكر الناضج ، والذهن الوقاد ، والعم الغزير ، فإن الخطأ
الذهني عنده أولى الأخطاء بالنقد ، وأجدرها بالسخر والمنزلة ، ومن أجل ذلك احتلت
السخرات الذهنية من أدبه مساحات شاسعة ، وقد قسمها البحث إلى العفلة التي تظهر

في أقل الناس وتصرفاتهم ، والتخافل الذي يعد للتخافل الجبل ، ويرى له الغنان ،
ليستمر في سقطة ، ويحقق السخران ظهر في آخر العظا فثقل الوضع وأن التخافل كان .
متخافلا ، والمتخافل كان مغفلا ، ومن السخرات النعنية ، ادعاء الحدق والإتقان مسح
ظهر الجبل ، وبروزا لثقه والخطأ في البديع ، واقتراح حل غير صالح للتفيد والتطبيق
والإتقان بها لبراهين وتكلفا لعلل والحجج ، وإجهاد النفس في ذلك ، والأمر بديهي مسلم
به ، وأحتجاج المرء لذهب فاسد بين البطلان بما يشبه الحجج من المغالطات والسفطات
وكل هذه ألوان فنية من التلاعب بمقل السامح تحقق السخرية ، وتولد الاستمراء .

(٥)

وقد تمكن البحث من أن يكشف عصر الجاحظ ، ويقف على دخائل البيئة التي عاش فيها
متخذًا سخراته الدليل ، ولذاع قرصاته السواج النيرة ، فاطلع بواسطة ما تنطوي عليه هذه
السخرات على ما كانت عليه الحياة الاجتماعية حيث تضخمت الثروات ، واجتمعت في أيدي
طوائف معينة من الأمة ملكوا ما لا يحصى من الأموال والضياع والجياد والقيان ، ويقف فيهم
فقورا معدما يحترفوا لكدية والتسول والاحتيايل طريقا لكسب قوته ، كما كان بعضهم كريبا
مقلقا وبعضهم بخيلا لحزا يقدس المال ويجعله عدل نفسه وأهله ، ويحبسه في خزائنه
لا يرضى منه بدرهم على طعامه أو شرابه أو دوائه ، وانتشر شرب الخمر وتعاطى المسكرات ،
وصار لها مجالس تنتشر فيها المنادمة والرقص والغناء ، والمجون ، وشاعت تجارة الرقيق وأستلاك
الإماء والخصيان والغلمان .

وقد بين لنا البحث استهفا ظا مما انطوى عليه سخر الجاحظ . عادات الصبا سمين نسي
مشاربهم ومطاعهم ومجالسهم ، وحدد آداب الموائد ، وما يرفقه الناس من ألوان الأطعمة
وأجزاء الحيوان المرغوب في أكلها ، كما أوقفنا على زيهم وملابسهم ، وأظهرنا على أحوالهم
السياسية ، وما كان من تشكيل بالمارقين ، وحدد طوائف الجند التي تحمي الدولة ، والوظائف
المديدة التي شاعت في هذا العصر كالوزارة والعجاية وقيادة الجند . . .

أما العلوم والثقافات فقد حفل بها العصر، فالكتاب وسيلة التعليم الأولى ينتشر في القرى والمدن، يشرف عليه معلم متقف، ثم المسجد المدرسة الثانية للتعليم والتثقيف ينشأه الجميع يستمعون إلى شيخ الكلام ورواة الأخبار وإنشاء الأشعار ثم العريضة حصن اللغة وثقاف اللسان، ثم جماعات الأدباء والعلماء في مجالسهم التي يعقدونها للمناقشة والإنشاد، ثم ما يكون عند الخلفاء والوزراء من الضحك واللهاو وما يروى فيما من سرور قصص وأخبار... وصل البحث من خلال السخر إلى كل هذا، ووصل إلى أنه رغم هذه الثقافات المتعددة، والنهضة الفكرية والأدبية التي تعتبر وثبة هائلة في خطوات الأمة العربية نحو التقدم والحضارة والرفق العلمي والأدبي، فقد وجدت مجموعات من المخرفين يدعون أنهم يرقون لضرس فيشفى ويكلمون لصماره ويتخذون لجن خدما وأعداء، ويتلفسون شعورهم وإلهامهم من شياطينهم، وظهرت طبقة من المتطهين الذين يصفون الأدوة الرسمية والمتحالمين الذين يفسرون آي القرآن تفسيراً يأباه الذوق والواقع واللغة.

أما أخلاقهم ومعتقداتهم فيظهر فيها التحلل من القيود، والاستهانة بالقيم، والحكم بالهوى، وتنتشر الحرية في كل نواحي الحياة، حرية وثيقة الصلة بالفوضى والإباحية فانتشر الكذب والسرفه، والفش والاحتيال والآراء الفاسدة التي تحسن الكذب على الصدق، وترفع قيمة النسيان على الذكر، وتحسن عيش الهائم عن عيش الإنسان، وانتشر الزنا ^{الزنى} وتمشق الغلمان، وظهر القوادون. والعلماء أنفسهم كان بعضهم ماجناً مستهتراً، أما العقائد الدينية فقد انقسم المسلمون شيماً، فمنهم المعتزلة والرافضة والشيعية والخوارج وظهرت ديانات وذهاب كثيرة غير إسلامية غصرت المجتمع الإسلامي ودخل في معتقد المسلمين منها الكثير فظهرت الزندقة وكثر الإلحاد ولكن بعضاً من الناس تمسكوا بدينهم، ودافعوا عنه وأبعدوا الشواغب منه فخدموا الإسلام، ورفضوا منارته، وبذلك أعطانا البحث صورة واضحة لعصر الجاحظ استبطنها من سخرياته، واستبطنها من ثبايا كلماته.

وكما كشف البحث عصر الجاحظ من جميع نواحيه ، فقد كشف الجاحظ نفسه من خلال
سخره واستدل به عليه ، فعرفنا قبح خلقته ، واستبشاع منظره ، وثقوب عيوبه ، وقصر قامته
ورقفت البحث متأملا الأسباب التي تدفع الإنسان إلى السخر من نفسه فأراها: خفة الروح ،
والغزء بالأحداث ، وصرف الناس عن عيوبه إلى التفكه بقصصه وكلامه ، وقطع الطريق على
خصمه حتى لا يجد مجالاً للسخر منه وقد يتخذ ذلك للمروب من ضائقة .

أما أخلاق الجاحظ فكانت السماحة والرحمة درجاة الصدر وقوة الملاحظة والتفرقة و
شدّة الفراسة ، وحب الحياة وحب أصدقائه وأساتذته ، والحمد عن الرشوة وشهادة الزور
وكان مولعاً بالنقد البناء ، محباً للعرب والإسلام ألفاً لكيب المدينة خدمة للدين ودفاعاً
عنه وسخراً من المشركين ورأى اللغة العربية أرقى اللغات وأقدرها على القيام بمتطلبات
الحياة المتحضرة ، وقد كان الجاحظ بعيداً عن التقليد والاحتذاء ، وكان يفكر ويحس حتى
يصل إلى اليقين وهو في ذلك يسبق ديكرت في نظرية الشك الموصول إلى اليقين ، كما كان
عالمًا محققاً مجرباً مستدلاً وضع منهج البحث والاستقراء والاستدلال قبل فرائيس بيكون .
ويعرض البحث لصفة البخل في الجاحظ فينا قشياً مع أديبنا عاصمنا فلا يرتضى رأي
الأستاذين المجام والمواصي في وصف الجاحظ بالبخل ولا يرتضى رأي الدكتور طه حسين
الحاجري لأنه نقض بطله ولم يثبت بدله صفة أخرى ودلل البحث على أن الجاحظ كان
معتدلاً في إنفاقه فلا هو بالبخل اللعز ، ولا بالكريم المظلاف .

أما علمه وأدبه فقد سار البحث معه مرحلة حياته العلمية من الكتاب إلى المسجد إلى
المريد إلى دكاكين اللواتين إلى مجالس الخلفاء والوزراء إلى الكتابة والتأليف ورأى الجاحظ
قد تفنن نفسه في كل نواحي المعرفة وحدق الفارسية وعرف آدابها وذكر البحث الأدلة على
ذلك حيث وجدت جعل فارسية في كلامه ، وبحوث في اشتقاقات الكلمات الفارسية ، وأحاديث
عن فصاحة من تكلموا بالفارسية والعربية كعيسى بن سيار الأسواري ورواية الجاحظ الشعر

الفارسي والشعر العربي المخطوط باللغة الفارسية .

كان يميل في كتابته إلى الوضوح وينحى على علماء زمانه التعمية والإلغاز وكان يصحح بذكر
المسرات والغزوات وأعضائها وأفعالها وأفعالها ، ويمتاز أدبه بالواقعية ويخلط الجسد
بالدخيل ، ويمتدح الموضوعات ببعضها ، ويمتدح العلم بالأدب .

ومن خلال سخر الجاحظ عرفنا مكانته الاجتماعية الواقعة فهو جالس الوزراء والخلفاء والقضاة
وهو الساخر الذي يتحاشى الناس لسانه ونقده ، وهو الغني الذي يمتلك الأموال والضياع
التي لا تحتاج إلى تجديد أو تسعيد ، وهو المحسود على كتبه ومنزلتها بين الناس ، وهو
رئيس الطائفة الجاحظية الاعتزالية ، وقد تصدر ديوان الرسائل ثلاثة أيام ثم اعتزله لعدم
موافقة طبعها المرجح ، ومن كان كذلك فهو في أرفع المنازل وأستاذها .

أثبت البحث جرأة الجاحظ في النقد من خلال سخرياته ، وذكر الأسباب التي ولدت
فيه الجرأة ومكتبها منه فقد كان عالماً ثقة ، ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، وقدرة لغوية أدبية
تسمح ما في صدره من ينقدهم من غل وموجدة ، محباً للإسلام والعرب بهداهتهم وينقد
خصوصهم لا يبالى بالأذى في سبيل ذلك لأنه يحاسب جزاءه عند الله ، وقد خبر الدنيا ،
وركبا ، فما يبالى ما يكون منها . لذلك لم يرهب في نقده قاضياً وزيراً وخليفة أو أستاذاً
أو عالماً حتى أستاذه النظام والأصمعي بل لقد بلغت جرأته الحد الذي هدم به كثيراً من
آراء أرسطو وأبطلها بالدليل ونقد كثيراً من آراء المفسرين ما جعلهم يكفون له ويستغلون
سداجة الناس فيتهمونه بالزندقة .

(٧)

وأراد البحث بعد أن أوضح سخريات الجاحظ وفنيتهما أن ينقب عن جذورها ويبحث
عن آثارها في الجاحظ ، ومن تأثروا به ، وكيف كانت سخريته بين سخريات عصره ، ثم وزن
وقارن بين كل هذه السخريات فكان الجاحظ القمة والسنام .

كانت السخرية قبله سطحية خشنة ، تقرب من الهجاء لم تطلقها العسكرة ، ولم
تهنئها المدنية تكفى بنفى الصفات المدحومة من من يسخر منه وتعلق به صفات المارة .

فلما كان العصر الإسلامي قلت السخرية ولانت ، وفي العصر الأموي اشتهر بها رجال أهجوها
في الأدب ، وكانت فيهم طبعا وسليقة ، كآشعب بن جبير أمير الطفيليين ، وفي المصنفين
اللباسي ارتقى السخرى وبلغ أوجه حتى اتسم العصر كله بالفكاهة والهجاء ، والضحك والسخرية
وكان أساتذة الجاحظ ساخرين منهم أبو عبيدة ، والنظام ، وشامة بن الأشج ، وأبو
الهدبل العلاف ، ومن الساخرين الذين شاع السخرى لسنتهم ، وذاع في أحوالهم أبو الصيثاء
والجائز ، وخار بن برد ، وأبو نواس ، وابن الروبي ، وعلى رأسهم أساتذهم الفدأ أبو عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ ، الذي أنتج مدرسة ، وخرج تلاميذ ، كانوا يهجمون الحياة من همدة ،
وظلوا الظليل ، منهم : أبو حيان التوحيدى ، وأبو بكر الخوارزمي ، وابن زيدون ، وقد
أبشأ كل منهم رسالة على غرار رسالة الترنج والتدوير ، وإن لم يبلغوا شاه ، ولا قاربوا خطوه ،
فقد بذمهم بفضيلتي الابتكار والإجادة .

وأخيرا يضع الباحث سخرية الجاحظ في ميزان النقد فترجع كفته ، وتشمل كفة سابقينه
ولا حقيه ، ويظهر فوق أي عثمان وتبريزه ، وامتداد أثره في الأجيال التي تلت ، وفي الأعمار
الغائبة عنه ، ويصل إلى الأندلس فيظهر على لسان ابن زيدون ، ويمتد عبر الأجيال فهاجته
الشيخ عبد العزيز البشري .

المصادر والمراجع

الرقم	اسم المؤلف	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
١	أبحاث الشعر العربي في القرن الثاني الهجري	محمد مصطفى هدارة	طبعة دار المعارف
٢	إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي	المطبعة الميمنية
٣	أخبار الحمقى والمفلولين	عبد الرحمن بن الجوزي	المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت مطبعة التوفيق دمشق سنة ١٩٣٠ م
٤	أخبار اللطراف والتجانين	عبد الرحمن بن الجوزي	المطبعة الرحمانية ١٣٥٠ هـ
٥	أدب الجاحظ	حسن السندھس	دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠
٦	أدب العرب	مارون هود	مكتبة صاد ببيروت ١٩٣٤
٧	أدباء العرب	بطرس البستاني	تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي طبعة دمشق مكتبة الغزالي
٨	الأذكياء	عبد الرحمن بن الجوزي	تحقيق عبد الرحيم محمود سنة ١٩٥٣ م مطبعة أولاد أورثاند
٩	أساس البلاغة	جار الله الزمخشري	كتاب الهلال إبريل ١٩٥٢
١٠	أشعب أمور الطفيليين	توفيق الحكيم	الطبعة الثانية الجزء الخامس
١١	الأعلام	خوسر الدين الزركلي	كتاب التحرير
١٢	الأغانى	أبو الفرج الأصفهاني	تحقيق أحمد أمين لجنة التأليف ١٩٤٢٠٠
١٣	الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدي	لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ الجزء الثاني
١٤	أمراء الهجان	محمد كرد علي	مطبعة الصحاح ١ ص ٧
١٥	البداية والنهاية	عبد الدين بن أبي الفداء	تحقيق أحمد أمين
١٦	البحائر والذخائر	أبو حيان التوحيدي	

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٣٠	الجاحظ	جعفر فنيب	الموسم في الأدب الموسم ١١١ دار الثقافة بيروت ١٩٧١
٣١	الجاحظ	د. أحمد الحوفي	دارسات في الإسلام ٣٨
٣٢	الجاحظ	د. أحمد كمال زكي	أعلام العرب ٢ لسنة ١٩٦٧
٣٣	الجاحظ	محمد علي إبراهيم	طبعة نبعة مصر
٣٤	الجاحظ حياته وآثاره	د. طه الطنجري	طبعة دار المعارف ١٩٦٢
٣٥	الجاحظ في البصرة وشداد وسامراء	شارل بلات	تعمير إبراهيم كوالانس طبعة دار النهضة
٣٦	الجاحظ معلم المقل والأدب	طفيق جبري	طبعة دار المعارف ١٩٤٨
٣٧	الجاحظ وجمعه عصره	جمال جبر	الطبعة الكاثوليكية بيروت
٣٨	الجاحظ لأحكام القرآن	القرطبي	دار القلم الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨
٣٩	جبا الفاحك المضحك	مهاس محمود العقاد	طبعة دار الهلال
٤٠	جمع الجواهر في الملح والنوادر	المصري	تحقيق علي الهجاري دار إحياء الكتب المموية ١٣٧٢ هـ
٤١	حديث الأريما	د. طه حمون	الطبعة التاسعة
٤٢	حصان المهيم	إبراهيم عبد القادر التازي	طبعة دار الشعب سنة ١٩٦٩
٤٣	حكاية أبي القاسم الهشدي	أبو الطاهر الأزدي	مكتبة الضيق بهشدا
٤٤	أبو حيان التوحيدي	إبراهيم كوالانس	نوايح الفكر الموسمي ٢١
٤٥	أبو حيان التوحيدي	د. أحمد محمد الحوفي	طبعة نبعة مصر
٤٦	أبو حيان التوحيدي	د. زكريا إبراهيم	أعلام العرب ٣٥

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٤٧	الحيوان	الجاحظ	تحقيق محمد السالم هارون ط ١٩٤٤ • مطبعة محمد عطفن الهاشمي الحلبي •
٤٨	خزانة الأدب وقائمة الأرب	ابن حجة الحموي	بدون تاريخ أو اسم الناشر أو اسم المطبعة
٤٩	ديوان البحري	البحري	طبعة كنيشة ١٩٨٨ لجزيرة بندول
٥٠	ديوان ابن الرومي	ابن الرومي	تحقيق كامل كيردي - لبيروت ١٩٤٤
٥١	ديوان أبي المتاهية	أبو المتاهية	
٥٢	رسائل الجاحظ	عرو بن بحر الجاحظ	تحقيق محمد السالم هارون سنة ١٩٦٥م مكتبة الخانجي جمع حسن السندوس سنة ١٣٥٢ هـ الطبعة الرجائية
٥٣	رسائل الجاحظ	عرو بن بحر الجاحظ	دار النهضة الحديثة - بيروت
٥٤	رسائل الجاحظ	عرو بن بحر الجاحظ	تصحيح محمد قطب المدوي مطبعة رشدي
٥٥	رسائل الخوارزمي	أبو بكر الخوارزمي	المطبعة المثنائية - ١٩١٢م
٥٦	رسائل الخوارزمي	أبو بكر الخوارزمي	الطبعة النهرية ج ١ ص ١٢
٥٧	روح المعاني	الألوس	هلال يناير ١٩٦٩م
٥٨	ابن الرومي حياته من شعره	مهاس محمود المقداد	شرح زكي مبارك تحقيق محمد محي الدين عبد الحמיד مطبعة الممارة
٥٩	زهر الآداب وثمر الألباب	الحصيري	ط ١٩٥٣م
٦٠	ابن زيدون	د • حسن جاد حسن	المطبعة النهرية ١٩٥٥
٦١	ابن زيدون	ولم الخازن	مكتبة الحواشي بيروت
٦٢	ساعات بين الكتب	مهاس محمود المقداد	مكتبة النهضة ط ١٩٦٨
٦٣	شرح العمون في شرح رسالة ابن زيدون	جمال الدين بن نهاسه المصري	تحقيق محمد أبو الفضل إيادهم طبعة دار الفكر

معلومات من الكتاب	اسم المؤلف/مؤلف	اسم الكتاب	الرقم
دار النهضة العربية المطبعة المأهولة ط ٢ سنة ١٩٦٥	د. أحمد طيبة الله	ميكولوجية الضحك	٦٤
دار مصر للطباعة تعليق الأمتاز عهد العمال الصعيدى طبعة المكتبة السعيدية التجارية ١٩٥٦	د. زكريا إبراهيم محمد الدين الشافعي	ميكولوجية الفكاهة والضحك شرح المختصر	٦٥ ٦٦
طبع بولاق مطبعة القدم	الشرشى د. مصطفى فيض	شرح مقامات الحريري الصحة النفسية	٦٧ ٦٨
ترجمة سامى الديوبى وجهد الله عهد الدائم مطبعة دمشق ١٩٦٤	هنرى بوجمون	الضحك	٦٩
مطبعة دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ مطبعة الأهداف	الحسينى على فرعون أحمد أمون	الضحك وفن الإضحاك	٧٠
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ دار الطباعة المحمدية	الشيخ عبد العزيز العيسى د. محمد عبد الصم خواجه	ضحى الإسلام الطوائف الأدبية	٧١ ٧٢
مطبعة دار الكتب ١٩٢٧ ج ٤ مطبعة مصطفى محمد ١٩٥٤ ج ٦ مطبعة لجنة التأليف ١٩٤٩	د. أحمد فريد رفاي أحمد بن عبد ربه	أبو عثمان الجاحظ صرا المأمون	٧٤ ٧٥
مطبعة المحامد ط ٣ سنة ١٩٦٣ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر	ابن رشيد ابن تومس	المصدرة عمون الأخبار	٧٧ ٧٨

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٧٩	غور الخصائص الواضحة وغير النقائص الفاضحة	جمال الدين الوطواط	الطبعة المصونة بولاقي ١٢٨٤ هـ
٨٠	الفاخرة في الأدب	د. أحمد الحوفسي	طبعة دار نهضة مصر ١٩٦٦
٨١	الفاخرة في مصر	د. شوقي ضيف	كتاب الهلال فبراير ١٩٥٨ طبعة دار الهلال
٨٢	فن الشعر	أوسطو طاليس	ترجمة عبد الرحمن بدوي
٨٣	فن القصص في كتاب الهخلا	محمد المبارك	طبعة دار الفكر بمسقط ط ٢ سنة ١٩٦٥ م
٨٤	الفن ومذاهبه في الشعر العربي	د. شوقي ضيف	الطبعة ٣ دار المعارف
٨٥	الفن ومذاهبه في النثر العربي	د. شوقي ضيف	الطبعة ٦ طبعة دار المعارف
٨٦	فوضر الخطاط	أحمد أمين	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ ج ٢٠٢
٨٧	في علم النفس	محمد عطية إبراهيم وأخرون	الطبعة المصرية ١٩٣٤
٨٨	القاموس المحيط	الفيروز آبادي	الطبعة الرابعة ١٩٣٨ م
٨٩	قصة الفلسفة اليونانية	أحمد أمين وزملاء	طبعة لجنة التأليف ١٩٤٩
٩٠	قطوف	الشيخ عبد العزيز البشرى	طبعة دار الكتب ١٩٢٢
٩١	الكاميل	ابن الأثير	إدارة المطبعة النورية سنة ١٣٥٧ هـ ج ٥
٩٢	كتاب الهخلا	الجاحظ	تحقيق طه الطاجري
٩٣	كتاب الهخلا	الجاحظ	ضبط المومني والجامع ج ١ ١٩٣٨ ج ٢ ط ١٩٤٠ م

المصادر والمراجع

الرقم	الاسم	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٩٤	الألكل في شرح مالي	ابن عبد البكري	تشرحه والعزير الصفي ١٩٣٦
٩٥	القائس		
٩٦	لسان العرب	ابن منظور	الجزء السادس عشر
٩٧	مجلة المرسى	مقال (الجوي جرداق)	المسألة العدد ١٢
٩٨	مجلة المصرفة		العدد ١٨ أكتوبر ١٩٣٢
٩٩	مجموعه رسائل الجاحظ	الجاحظ	معد الملايخ مطبعة التقدم
١٠٠	مجموعه رسائل الجاحظ	الجاحظ	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٠١	مجموعه رسائل الجاحظ	الجاحظ	طبعة بوسروت دار النهضة ١٩٧٢
١٠٢	محاضرات الموسم الثقافي	د. عبد الكريم الأستر	ج ٧ طبعة الوزارة دمشق ١٩٦٤
	٦٤/٦٣		محاضرة في ١٩٦٣/١/٢٤
١٠٣	المختار	الشيخ عبد العزيز الهجري	طبعة دار المعارف ج ٢
١٠٤	مختار الصحاح	المسرازي	ط ٧ المطبعة الأوسية
١٠٥	موج الذهب ورمادان الجوهر	المحمدي	تحقيق محمد محسن الدين
			مد الجهود • كتاب التحرير
			مؤسسة الطباعة لدار التحرير
١٠٦	الزهر في علوم اللغة	جلال الدين السهول	طبعة محمد طلي صبح ج ٢
١٠٧	المتحرف في كل فن	الأبشيبيسي	الطبعة الأخيرة ١٩٥٢ مطبعة
	متن		مطبع الهادي الحلبي
١٠٨	مطالعات في الكتب والحياة	هاشم محمود المقاد	طبعة الاستقامة ط ٢
١٠٩	معجم الأدباء ج ١٦	ياقوت	تحقيقه أحمد رضا بيك مطبعة دار الطمون

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
١١٠	معجم مصطلحات علم النفس	محمود وهيبه الخازن	دار النشر للجامعيين مطابع سمية بمصر
١١١	المنتخب من أدب العرب	جمع طه حسين وآخرين	طبعة دار الكتب ١٩٣١ ج ٢
١١٢	النجم	طه حسين	ط ١٨ المطبعة الكاثوليكية طبعة عام ١٩٦٥
١١٣	من حديث الشعر والنثر	تصنيف محمد الخضري	طبعة مطبعة صراج ١
١١٤	مهذب الاغانى	عبد الحكيم بلبح	طبعة مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٤ مطبعة الرسالة
١١٥	النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه	القاضي التنوخي	مطبعة النفيد بدمشق ١٩٣٠
١١٦	نحوار المحاضرة	صلاح الدين الصلوبي	تحقيق أحمد زكي باغا
١١٧	نكت الهميان فى نكت العميان	شهاب الدين النويرى	مطابع كوستانتوناس وشركاه السفر الرابع (تواتنا)
١١٨	نماية الأريب فى فنون الأدب	عبد الرحمن صيدقنى	هلال أغسطس سنة ١٩٥٣
١١٩	أبو نواس	ابن خلكان	تحقيق محمد محسن الدين عبد الحمود نشر مكتبة النهضة ١٩٤٨
١٢٠	وفيات الاعيان وأبياء أبناء الزمان		

الصفحة	الموضوع
١٠-١	مقدمة
٦٢-١١	الباب الأول : السخرية في المجال الأدبي
١٩-١١	الفصل الأول : مفهوم السخرية وموضوعاتها
١٧-١١	مفهوم السخرية :
١١	أ- عند اللغويين
١٢	ب- عند البلاغيين
١٥	ج- عند الأدباء
١٩-١٧	موضوعات السخرية :
٢٩-٢٠	الفصل الثاني : مقومات السخرية وأهدافها
٢٤-٢٠	مقومات السخرية
٢٩-٢٤	أهداف السخرية :
٢٦	١- تخفيف آلام النفس
٢٨	٢- النكاية بالخصم
٢٩	٣- الترويح والتنهيب
٢٢	٤- الفكاهة والمرح
٢٤	٥- المحافظة على كيان الجماعة
٢٥	٦- كسب المال والجاه
٥٤-٢٩	الفصل الثالث : دوافعها وخصائصها
٤٢-٢٩	دوافعها
٥٤-٤٢	خصائصها
٦٢-٥٤	الفصل الرابع : مكانة السخرية بين الألوان الأدبية
١٠٥-٦٢	الباب الثاني : الجاحظ الأديب الساخر
٧٠-٦٢	الفصل الأول : حياته وأدبه
٩١-٧٠	الفصل الثاني : عوامل نبوغه في السخرية
٧٢	١- أصله وروايته
٧٤	٢- دمامة خلقته وفتح عينه

الصفحة	الموضوع
٧٩	٣- طبيعته وفطرته
٨٤	٤- مجتمعه وبيئته
٨٢	أ- بيئته العامة
٨٦	ب- بيئته الفكرية
٩٦-٩١	الفصل الثالث : علاقته الاجتماعية وأثرها في شخصيته
١٠٥-٩٦	الفصل الرابع : وضعه الثقافي والأدبي وصلة ذلك بشخصيته
١٤٢-١٠٥	<u>الباب الثالث</u> : موضوعات السخرية في أدبه
١١١-١٠٧	الفصل الأول : الميوب الجسمية
١٢٥-١١١	الفصل الثاني : غرابة الطباع والأخلاق
١١١	١- البخل
١١٦	٢- التطفل
١١٩	٣- الهلافة والإهمال
١٤١	٤- الكذب والمبالغة
١٢٢	٥- الجبن والخوف
١٢٤-١٢٥	الفصل الثالث : ضعف العقل
١٢٦	١- الجهد والنقطة
١٢٠	٢- الخرافات
١٤٢-١٢٤	الفصل الرابع : الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية
٢١٠-١٤٢	<u>الباب الرابع</u> : الجوانب الفنية في سخریات الجاحظ : تمهيد
٢٢١-١٤٨	الفصل الأول : التصوير اللفظي "الكاريكاتير"
١٥٢	١- الكلمة
١٥٢	٢- السكون والحركة
١٥٥	٣- المرأة النفسية
١٥٩	٤- الصورة القصيرة
١٦٢	٥- الصورة الفسحة
١٧٧	٦- الصورة الكلية الشاملة
٢٢١-١٧٨	رسالة الترسيع والتدوير

الصفحة	الموضوع
٢٢٨ - ٢٢١	الفصل الثاني : سخرية المواقف
٢٢٢	١- الأجوبة المسكوة
٢٢٨	٢- التخلص من لجاج
٢٢١	٣- حسن التحليل
٢٢٥	٤- ظهور ما في العقل الباطن
٢٥٢ - ٢٢٨	الفصل الثالث : سخرية التضاد :
٢٤٢ - ٢٢٩	١- التناقض في المقالة
٢٤٩ - ٢٤٢	٢- المفارقات :
٢٤٢	أ - الجواب غير المتوقع
٢٤٤	ب - الدليل المضاد
٢٤٦	ج - النتيجة المعكوسة
٢٤٧	د - اجتماع الضدين
٢٥٢ - ٢٤٩	٣- ألقيا من لفساد
٢٦٨ - ٢٥٤	الفصل الرابع : سخرية الحركة
٢٨٨ - ٢٦٨	الفصل الخامس : سخرية الكلمة :
٢٦٩	١- لتلاعب بالألفاظ والمعاني
٢٧٥	٢- الخلط في الألفاظ
٢٧٨	٣- الخطأ في الحروف والحركات :
٢٨٢	٤- الاشتقاق
٢٨٤	٥- التعمير
٢٨٥	٦- أسلوب الحكيم
٢٨٨ - ٢٨٠	الفصل السادس : السخرية الذهنية :
٢٩٠	١- ادعاء الحدق
٢٩٦	٢- لفظة والتفاضل
٢٠١	٣- الخطأ في البديهي

الصفحة	الموضوع
٢٠٤	٤- الحل الذي لا يصلح *
٢٠٥	٥- الاحتجاج للبهديين *
٢٠٦	٦- الاحتجاج لذهب قاسم
٢٧٨-٢١٠	لباب الخامس: دلالة سخرة الجاحظ على عصره وتوحيد
٢٢٦-٢١٢	الفصل الأول: الحياة الاجتماعية والأوضاع السياسية
٢١٢	١- الحياة الاجتماعية
٢٢٥	٢- الأوضاع السياسية
٢٥٩-٢٢٦	الفصل الثاني: العلم والثقافات
٢٧٨-٢٥٩	الفصل الثالث: الأخلاق والمعتقدات
٢٤٧-٢٧٨	الباب السادس: ملامح شخصية الجاحظ من خلال سخراته
٢٩٨-٢٧٨	الفصل الأول: خلقته وأخلاقه
٤٢٢-٢٩٨	الفصل الثاني: علمه وأدبه *
٤٢٦-٤٢٢	الفصل الثالث: مكانته الاجتماعية *
٤٤٧-٤٢٦	الفصل الرابع: جراته في النقد
٤٩٤-٤٤٧	الباب السابع: سخرات الجاحظ بين الأثر والتأثير
٤٥٧-٤٤٧	الفصل الأول: السخرية قبله ومدى إغاثته فيها *
٤٦٩-٤٥٧	الفصل الثاني: الساخرون في عصره ومكانته بينهم *
٤٨٥-٤٦٩	الفصل الثالث: إجمال أثره في الأدب الساخر بعد *
٤٨٢-٤٧١	أبو حيان التوحيدي - أبو بكر الخوافي - ابن زيدون
٤٨٥-٤٨٢	مدد العزيز البهسي *
٤٩٤-٤٨٥	الفصل الرابع: سخرة الجاحظ في ميزان النقد *
٥٠٦-٤٩٤	خاتمة البحث:
٥٠٦	المصادر والمراجع:
٥١٤	فهرس